الألف كتاب
الثانى
١٤١

ستيفن أوزمنت
فرانك تيرنر

التاريخ من شتى جوانبه

الجزء الثالث

ترجمة: د. أحمد حمدى محمود



الهيئة المصرية العامة للكتاب

التاريخ من شتى جوانبه

مطالعات فى تاريخ العرب

الألف كتاب الثانى

الإشراف العام

د. سمير سرحان
رئيس مجلس الإدارة

رئيس التحرير

لمعى المطيعى

مدير التحرير

أحمد صليحة

الإشراف الفنى

محمد قطب

الإخراج الفنى

علياء أبو شادى

التاريخ من شتى جوانبه

مطالعات فى تاريخ الغرب

إعداد

ستيفن أوزمنت

فرانك تيرنر

ترجمة

د. أحمد حمدى محمود

الجزء الثالث



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٩٤

هذه هى الترجمة العربية الكاملة لكتاب :

THE MANY SIDES

OF HISTORY

By : Steven Ozment/Frank M. Turner

الفهـــــــرس

التحمس للتحضر ـ الدراسة والتعليم

يوجـين ويبر

تميزت عملية بناء الأمم فى أوربا فى القرن التاسع عشر بتعقدها • واضطلع الساسة والدبلوماسيون والعسكريون بأدوار بالغة الأهمية • أما الدور الذى لا يقل عن ذلك أهمية فكان الدور المتعلق بتوطيد الاحساس بالانتماء الى أمة بالذات عوضـا عن الانتماء الى احدى المقاطعات أو أحد الأقاليم ، واحلال قيم « المواطنة » والحضارة المدنية محل القيم الدينية والقيم المحلية ، وكانت المؤسسة التى أدت هذا الدور الأخير هى « المدرسة » التى بثت القيم الجديدة ، وزودت التلاميذ بالمهارات التى تساعدهم على المشاركة فى الحياة الاقتصادية والسياسية الأرحب مجالا •

وتميزت مهمة اعادة خلق المواطنين عن طريق التعلم ـ كما يلاحظ فى حالة فرنسا ـ بشدة تعقدها وصعوبتها ، خصوصا بين أهل الريف المقيمين فى الأقاليم • فلقد اشتملت على عمليات انشاء مدارس جديدة ، وزيادة عدد المدرسين المدربين على نحو أفضل ، وتوطيد الاحساس بالفائدة الحقة للتعلم ، وقبل ثمانينات القرن التاسع عشر ، كان نظام التعليم الفرنسى أقرب الى العفوية والعشوائية ، فكان أبناء الفلاحين يدرسون الى أن يصبحوا قادرين على المشاركة فى متطلبات الخدمات الدينية ، مما أدى الى اكتفاء المدارس بتدريب مدرسيها تدريبا هزيلا ، يساعدهم على أداء هذه المهام الى جانب اشتغالهم فى مهام أخرى ، وكانوا يتزودون بالقليل من المهارات الوثيقة الاتصال بحياة المزارع الذى يفلح الأرض ، وفضلا عن ذلك ، فلم يقتصر الأمر على اتصاف معظم الفلاحين بالأمية ، ولكنهم فى الكثير من الأحيان كانوا لا يتكلمون الفرنسية ، ولكنهم يتكلمون لغة أقرب الى « البطوة » (*) أو اللهجة المحلية •

نقلا عن كتاب Peasant and Frenchmen : The Modernization of Rural France 1970-1914. تأليف Eugen Weber

(*) Patois.

وفى بواكير ثمانينات القرن التاسع عشر ، وتحت زعامة جول فيرى ، اتبعت الحكومة الفرنسية بعض السياسات التعليمية التى ترمى الى تحويل المعلم الفرنسى المحلى الى شخص أشبه بالداعية الى التعليم الفرنسى العلمانى ، وكانت اللغة الفرنسية تعلم الى جانب تاريخ فرنسا وجغرافية فرنسا ، وبعبارة أخرى ، حلت الدراسة العلمانية محل الدراسة الدينية • وكان المعلم يدرس أيضا السلوكيات والصحة • وساعد اسلوب التعليم الذى اتبعته المدارس الجديدة على توسيع أفق الطفل القروى ، الذى بدأ يدرك شيئا فشيئا أن بمقدور المهارات المكتسبة والشهادات الدراسية أن تفتح الطريق أمام أنواع جديدة من العمل أقل عسرا من فلاحة الأرض ، وبدأ أولياء أمر الأطفال يدركون أيضا أن لمهارات القراءة والحساب التى تعلم بالمدارس فائدتها فى عالم الزراعة ، بعد أن ازداد اعتماد السوق الوطنية اعتمادا مباشرا على حياتهم ، ودفعت المدارس الجديدة التلاميذ - سياسيا وثقافيا - الى ادراك وجود عالم يتجاوز حدود قريتهم ، والى اعتبار أنفسهم مواطنين فرنسيين ينتمون الى وطن أكبر •

لقد نسب الى المدرسة ، والى مدرسة القرية بصفة خاصة ، الالزامية والحرة ، فضل العملية التثقيفية التى حولت الفرنسيين الى شعب يشعر بهويته الفرنسية ، وعرفتهم معنى الحضارة ، كما يميل كثير من المربين الى القول ، ويظهر معلمو المدارس فى زيهم الرث كأنهم ميلشيا العصر الحديث ورسل التنوير وحملة الدعوة الى النظام الجمهورى الذى يمثل المواءمة بين كتل البشر الرازحة تحت نير الظلم والظلمات ، والعالم الجديد وما يؤمل فيه من فضل ورفاهية وديموقراطية • وأشار المراقبون الى أن المدارس كانت موجودة بالفعل قبل ثمانينات القرن التاسع عشر ، ورفضوا المزاعم المضمرة والبيانات الصريحة التى تزعم عدم وجود تعليم شعبى فى ظل « النظام القديم » • بيد أننا سنرى ما يقرب من صحة الصورة التى غدت من الحقائق المسلم بها الآن عن حدوث تغير عميق فى الخطوة والاتجاه والأثر فى عهد الجمهورية الثالثة ، على شريطة وضعها فى سياقها الصحيح •

والسياق له أهميته • فليس هناك من ينكر وجود المدارس قبل ظهور جيل « فيرى » ، وبأعداد كبيرة ، ويصح هذا الحكم أيضا عن التعليم الحر الى حد كبير • غير أن ما جعل قوانين الجمهورية تبدو أكثر فاعلية ، لم يكن مطالبتها جميع الأطفال بالالتحاق بالمدرسة ، ومنحها هذا الحق لهم ، وحق التحرر عند الأخذ به فحسب ، فعلينا أن لا ننسى دور وفرة دور العلم والمدرسين ، وما شق من طرق ساعدت الأطفال على انتهاجها فى طريقهم للمدرسة • ولا ننسى أيضا أن ما جعل المدرسة تبدو شيئا نافعا عظيم

الأثر هو الاحساس بأن ما تقدمه المدرسة أشياء حافلة بالدلالة ، بعد ما جرى من تبدل فى القيم والمدركات ٠

وما أهدف اليه فى هذا الفصل هو رسم صورة للنظام المدرسى فى هذا السياق بالذات ، وأبين كيف تواءم هو والتغيرات المذكورة آنفا وسأوضح أن نجاحه كان ركنا من أركان عملية شاملة متكاملة ٠ فلم تكتسب مواد التعليم أهميتها عند القائمين بتعليمها الا بعد أن قامت المدرسة بتعليم موضوعات لها معنى ، ولم ينظر الناس الى المدرسة بمنظار الجد الا بعد أن اتصلت مناهجها بالاحتياجات والمطالب التى ظهرت حديثا ، وبعد أن تنبهت الى ما ينقصها من أشياء ٠ فلم يكن الدافع وراء التحاق الناس بالمدارس هو مجرد كونها أشياء متاحة لهم أو مفروضة عليهم ، ولكنه النفع الذى تمكنت من تحقيقه لهم ٠ وكان لابد من حدوث تغير فى العالم حتى يتحقق ذلك ٠

ولقد نزعت المدارس التى أنشأها القسس وعامة الناس للطبقات الأفقر من الشعب قبل الربع الأخير من القرن التاسع عشر ـ تمشيا مع طبيعة الأشياء ـ الى اعطاء الصدارة لما يستحق هذه الصدارة ، ورئى أن الأشياء الأولى بالصدارة هى الأشياء التى يعتقد أساتذة العلوم فى أهميتها ؛ يعنى قدرتها على الهرف بالعظات وترتيل فقرات من القداس اللاتينى ٠ وكان تعليم أوليات القراءة والكتابة والحساب ؛ أمرا نادرا قبل الثورة ، كما ذكر لنا عمدة « يون » (١٨١٠) ٠ وكان المدرسون قليلى الاهتمام بالتعليم العام الرحيب الآفاق ، وأعنى بذلك النوع الذي يهم السواد الأعظم ، وعلى أية حال ، فان عددا كبيرا من المدرسين كانوا يعلمون ما باستطاعتهم تعليمه من مادة متواضعة على قدر الحال ، وحتى ١٨١٦ ؛ لم يطلب من المدرس أى دليل يثبت حصوله على شهادة أو يوضح ما لديه من قدرات ، وعلى الرغم من أنه كان بالامكان علاج هذه الناحية فى المدن الصغيرة والكبيرة على السواء ، الا أن تعليم جماهير الشعب كان يعانى الأمرين ، وظل يعانى على هذا النحو لبعض الوقت تحت تهديد عصا أشخاص (يذكروننا بعريف الكتاب فى مصر) مثل احدى الشخصيات التى كانت تتحكم فى المدرسة الثانوية فى يون (*) ، الذى كان فصله الدراسى لا يكنس بطريقة لائقة ومليئا بالعناكب « حتى تعذر التعرف على المواطن كوليبو وسط أنسجة العناكب الملتفة حوله ، خصوصا عندما يلقى دروسه وهو يرتدى ـ كعادته ـ جلباب نومه وقبقابه » ٠

(*) مدرسة Noyers فى Yonne

وكان الفصل الدراسى ومبنى المدرسة مفككى الأوصال ؛ ففى مدينة (مول) ، تداعى جدار بأكمله أثنـــاء عراك أخوى نشب بين المدرس وتلاميذه ! .وفى ١٨٥٠ ، كانت هناك مدرسة(*) تشغل بناء مخبز مهجور سقفه منفصل عن جدرانه ، مما أدى الى تساقط الجليد داخل الفصل فوق رؤوس المدرس وتلاميذه ، وابان سبعينيات القرن التاسع عشر ، سمعنا عن تفتت أحد الأسقف وانهيار أرضيات الفصول ، وعن وجود نوافذ بلا ألواح زجاجية ، وأحيانا لا توجد حتى النوافذ ذاتها ، وعن الاقتصار فى تهوية الفصول على ما يتسرب من هواء من خـلال المداخن ، وكان من الصعب التفرقة بين الأحياء السكنية وأحياء المدارس • فكان المدرسون فى بعض المدارس(**) أو زوجاتهم ينهضون أو تنهضن بأعمال البيت وتجهيز وجبات الطعام وخبز العيش أثناء الدرس ، بل وكان بعضهم ينام داخل الفصل الدراسى فوق سرير ينطوى ، ولعل هذا كان خيرا • فلولا ذلك لما كان من المستبعد أن يصبح الفصل المدرسى هزيل التزود بالأثاث ، وتفتقر بعض الفصول الى المناضد ، ولم يتوافر فى بعضها فى ثمانينيات القرن التاسع عشر الا المقاعد•فلا وجود لأية وسائل للتدفئة اكتفاء بما يشع من الأجسام من حرارة ، فلا عجب اذا سمعنا أحد العمد ١٨٣٥ يصرح بأن أنفـاس (العيال) تساعد على توفير درجة حرارة معتدلة ، نعم لقد كانت معظم المدارس تتصف بظلمتها ورطوبة جوها وازدحامها ، وقلة تهويتها ، وعدم وجود أثاث بها أو إضاءة أو وسائل تدفئة ؛ وكانت تعانى من الروائح الكريهة ، وكثافة الدخان عند ايقاد نار أو وابور غاز • ويجلس المدرسون والتلاميذ وسط تيارات الهواء الضارة بالصحة • ناهيك باتصاف المدرسة بالقبح ومناظرها المقززة • ولم يتوافر فى أغلبها أى حوش أو مراحيض • وفى ١٨٦٤ ، كتب أحد المفتشين يصف مدرسة فقال انها خالية من أية بالوعة أو مبولة ، أو غير ذلك من الأدوات الصحية • وقد أقامت بعض المدارس ساترا فى الخلاء فى ركن الفناء الخلفى لكى يستتر خلفه من يريدون قضاء الضرورة • وتنزح الأوساخ المتراكمة من قضاء الضرورة من حين لآخر لاستعمالها كسباخ • « وهذه هى بداية التقدم الذى لم يكن معروفا منذ عشر سنوات مضت » •

وفى خمسينيات القرن التاســع عشر ، لم يكن هناك فى بعض المدارس (***) أية خرائط أو سبورات أو مناضد أو تخت للتلاميذ• ويحمل كل تلميذ لوحا من الخشب يضعه على حجره للكتابة • ويتولى المدرس

(*) فى Moulle (Pas-de-calais)

(**) فى Eure et Loire

(***) مثل Nouvions-en-Thiérache (Aisne)

عملية سن ريش الكتابة ، وعندما يستدعى للإنشاد فى الكنيسة تنوب عنه أخته فى مراقبة الفصل ، ولا تنسى فى هذه الأثناء شغل نفسها بتحضير السلاطة وتنظيفها • ولم تكن هذه المظاهر من الحالات غير المألوفة • ولابد أن تكون مثل هذه الأحداث المخالفة للأعراف الرسمية قد عطلت الكثير من المدارس ، رغم تعدد جوانبها المقرفة • وعندما يلتئم شمل الفصل الدراسى فى قاعة القرية ، لم يكن من المستغرب أن تضم هذه القاعة فى أحد أركانها دولابا لحفظ سجلات المواطنين ، ولا بأس من اقدام أحد المسئولين على فحص بعض أوراق هذه السجلات أثناء القاء الدروس ، أو تكليف المدرس نفسه ببعض مهام بعيدة عن وظيفته • ولا مانع أيضا من اقامة الاحتفالات المدرسية فى نفس هذه القاعة حتى لو حدث ذلك أثناء القاء الدروس •

أما المدرس نفسه ، فيمثل مشكلات أخرى ، ففى النصف الأول من القرن التاسع عشر ، لم يكن هناك ما يحول دون اختياره من بين الجنود الرديف أو كونستابلات القرى ، أو حلاقيها أو من خدم الخانات أو البقالين ، ولا بأس أيضا من الاستعانة بأحد القرويين من أنصاف المتعلمين عند الحاجة الى مدرس ، وكان هناك سبعة من بين خمسة عشر مدرسا من المشتغلين بالتدريس (١٨١٥) من المجرمين السابقين ، ولعل شخصية معلم القرية « نوشون » التى خلدها بلزاك ، والتى انتهى بها المطاف الى الاشتغال بسرقة البط ، وبترقيع الأحذية فى بعض الأحيان ، وبالتسول عندما تدعوه الحاجة الى ذلك ، والذى لا يفيق أبدا ، كان بلا مراء من النماذج الانسانية المألوفة أثناء حكم نظام يوليو الملكى (عهد الامبراطور نابليون الثالث) • وبوجه عام ، كان معظم المدرسين يشتغلون أعمالا أخرى ، ابتداء من فلاحة أرضهم (أو أرض شخص آخر) فرأينا فى احدى المدن (*) أحد المدرسين يحتفظ بمغزله فى الفصل الدراسى ، وترقيع الأحذية وحفر القبور الى الاشتراك فى كورس كنيسة القرية أو فى تولى الأعمال الكتابية لسجلات القرية ، وحتى فى ١٨٧٢ ، عندما شم المدرسون أنفاسهم وارتفع شأنهم نوعا عن حالتهم السابقة فى ثلاثينيات القرن ، رأينا ما حل بمعظمهم ، أو ربما بما تعرضوا له جميعا ، اذ كان ٣٩٥ من مدرسى المدارس العامة (**) يشتغلون بأعمال أخرى غير عملهم الأصلى ، فكان هناك ٣٠٩ يشتغلون بالسجلات و ٢٧٣ فى الكورس ، وفى عزف الأرغن بالكنيسة ، و١٤ كموظفين بالكنيسة أو قواصين بها ، أو مسئولين عن دق أجراسها ، وكان من بين المدرسين من قنع بالعمل كبواب أو كناس

(*) فى Eure et Loire.

(**) فى نفس المدينة السابقة •

أو حفار للقبور • بينما كان هناك عشرة من العاملين فى صناعة التبغ ، واثنان من عمال التلغراف و ٣٦ اختصوا ببيع صكوك التأمين •

لقد استشهدت فى الفقرات السابقة بما جاء فى تقارير مفتشى المدارس ، وقد أوردها فرانسوا جيزو فى المذكرة التفسيرية للقانون الذى أصدره بوصفه وزيرا للمعارف العمومية (*) • وطالب جيزو كل «كوميون» أو جماعة من كوميونات الأحياء بانشاء مدرسة اعدادية ، أو تولى أعمال صيانتها على أقل تقدير ، وأعاد التقرير تأكيد معايير الأهلية للتدريس ، التى سبق تحديدها فى المرسوم الملكى ١٨١٦ ، وأعاد أيضا التنبيه بتحريم فتح أية مدرسة ، الا اذا حصلت على شهادة رسمية بمراعاتها مثل هذه الشروط ، ونص القانون أيضا على قيام كل قسم بمفرده ، أو بالاشتراك مع الأقسام المجاورة له ، بانشاء دار للمعلمين لتدريب مدرسى المرحلة الابتدائية ، وحققت هذه الخطوة نتائج سريعة • ففى ١٨٣٣ ، كانت فرنسا تضم ٣١٤٢٠ مدرسة يؤمها مليون ومائتا ألف من الأطفال • وفى ١٨٤٧ ، تضاعف عدد المدارس ، وزاد عدد تلاميذها عما يقرب من ثلاثة أضعاف العدد السابق ، وفى نفس الحقبة ، زاد عدد دور المعلمين من ٣٨ دارا الى ٤٧ دارا ، ولهذه الواقعة أهميتها • فعلينا أن لا ننسى أن المدرسين جميعا فى المدارس الاعدادية العامة فى منتصف ثمانينيات القرن التاسع عشر قد تخرجوا فى أغلب الظن من هذه الدور أثناء حكم ملكية يوليو ، وأنه بصرف النظر عن تحقيق ذلك فى خطى وئيدة ، الا أن تدريبهم قد ساعد على ارتقاء مستواهم فيما تلا ذلك من سنوات •

وحدث التغير الكبير التالى فى ثمانينيات القرن التاسع عشر • وما كان من المستبعد أن يحدث ذلك فى وقت أبكر ، لو أتيحت الفرصة لوزير المعارف فيكتور دوروى لتنفيذ المخطط الذى وضعه ١٨٦٧ ، ولكن الظروف لم تساعده على تحقيق ذلك ، وظلت معظم مبادراته مجرد مشروعات محفوظة فى خزانة الملفات ، وفى ١٨٨١ ، ألغيت جميع المصاريف المدرسية والرسوم فى المدارس الاعدادية العامة ، وفى ١٨٨٢ أصبح الالتحاق بالمدارس العامة أو الخاصة اجباريا • وفى ١٨٨٣ ، كلفت كل قرية أو كفر يزيد عدد تلاميذها فى سن التعلم عن ٢٠ بانشاء مدرسة اعدادية عامة • وفى ١٨٨٥ منحت اعانات لبناء المدارس وصيانتها ولدفع مرتبات المدرسين • وفى ١٨٨٦ ، وضع منهج دراسى للمدارس الاعدادية ، الى جانب اجراءات مشددة للتفتيش والرقابة •

(*) François Guizot (١٧٨٧ – ١٨٧٣) المؤرخ ووزير المعارف كان استاذا للتاريخ فى السوربون (١٨١٢ – ١٨٣٠) وله جملة مؤلفات تاريخية مشهورة •

ويرجع أحد أسباب التقدم البطيء فى محو الأمية - والذى لم يرد أى ذكر له حتى فى أفضل البيانات الخاصة بالتعليم فى فرنسا ، مما يثير الدهشة ، الى أن الكثير من البالغين - ومن الأطفال تبعاً لذلك - كانوا ممن لم يتعلموا اللغة الفرنسية • ففى ١٨٦٣ ، ورد فى أحد التقارير الرسمية أن ما يقرب من سبعة ملايين ونصف المليون ، يعنى خمس سكان فرنسا ، لا يعرفون اللغة ، وان كان حتى هذا الرقم مثار شك • ومن غير المستبعد أن يكون العدد الصحيح أكبر من ذلك بكثير ، لاسيما اذا أضفنا الى هذا العدد من كانت درايتهم باللغة مهوشة الى أبعد حد •

وكانت أكبر مشكلة واجهت المدارس العامة فى الكوميونات التى لا تتحدث الفرنسية ، وفى عدد قليل لا بأس به من ٩١٢٩ مدرسة أخرى كان من المفروض أنها تدرس اللغة الفرنسية هى كيفية تدريس اللغة لأطفال لم يتحدثوا بها قط ، أو يلقون صعوبة فى نطقها ، فالزعم الدائم التردد بأنهم يتعلمون لغة وطنهم ما أظنه كان سيبدو حقيقيا عند هؤلاء الأشخاص الذين كانت أمهاتهم لا تفهم أية كلمة منها • وقد علق أحد الكتاب(*) على ذلك فقال « ان أطفال لورجيه كانوا مرغمين على ما هو أكثر من اتقان القراءة والكتابة بالفرنسية ، اذ كان عليهم تعلم كيف يفعلون ذلك باللغة الفرنسية ، أى بلغة أخرى غير اللغة التى شبوا على النطق بها » ، وترتب على ذلك ، أنه فى حالة كثيرين منهم ، كانت الدروس التى تلقى عليهم فى المدرسة « لا تترك أى أثر فى أمخاخهم أكثر من الأثر الذى تتركه اللاتينية فى أمخاخ معظم من يتخرجون من المدرسة الثانوية » • فالطفل يعود الى تكلم لغة «البطوة» عندما يرجع الى بيته ، وتبدو الفرنسية فى نظره « لغة مقصورة على العلم ينساها بسرعة لأنه لا يتكلمها قط » • ومن الناحية الرسمية ، ووجهت المشكلة بتجاهلها ، وارغام حتى من لا يقدرون على الاحاطة بكلمات قليلة منها الا فيما ندر ، أن يعلنوا - كما يحدث فى العظات - أن ما ينبغى أن يكون صحيحا يعد صحيحا ، وأن ما يعرفون أنه صحيح ليس كذلك : « فأولا - أن لغة الوطن هى اللغة التى يتحدثها أبونا وأمنا ، خصوصا أمنا ، والتى يتحدثها أيضا أقراننا المواطنون ، ومن يقطنون نفس بلدتنا مثلنا • ثانيا - ان لغة الأم عندنا هى الفرنسية » هذا هو ما جاء فى كتيب لامتحانات الجيش ١٨٧٢ • ومن الناحية غير الرسمية ، واصلت المدارس كفاحها لجعل الشعار حقيقة ، فأعلن فرديناند بويسون المنار الهادى للتعلم فى الجمهورية فى ثمانينات القرن التاسع عشر ، « ان تعليم لغتنا الأم ، لغتنا السامية الجميلة هو

(*) F. F. Pariset (١٨٦٧) •

المهمة الأساسية للمدارس الاعدادية ، أنه عمل له طابع وطنى » . ولكن هذا العمل أثبت أنه طويل وشاق ...

وما كان هذا ليحدث لو ظلت المدرسة بمنأى عن السواد الأعظم من الناس. وهذا ما تحقق فى الربع الأخير من القرن ، فلقد طالب معظم الفلاحين باشتغال أولادهم بالعمل والاسهام فى تعزيز ميزانية الأسرة . وعندما كانوا يرتضون ارسالهم للمدرسة ، كان هذا عادة من أجل غرض أوحد ، وهو تهيئتم لعملية التعميد (التنصير) ، وهى من الطقوس الحاسمة للنجاح ، وبمجرد تحقيق ذلك ، ينسحب الطفل من المدرسة . ويوفد الآباء أولادهم للمدرسة لبضعة شهور قليلة فى الشتاء قبل التعميد : هكذا همهم أحد مدرسى برينون ١٨٦١ . ولعل هذه الفترة القصيرة لم تكف ما هو أكثر من تعليم العظات . وكم بدت هذه المهمة مضنية لأطفال لا يعرفون كيف يقرءون ، ولذا كانت عمليات التنصير تجرى فى أبكر وقت مستطاع ، أي بين سن العاشرة وسن الثانية عشرة ، وترتب على ذلك أن تضاءل عدد الأطفال الذين تدرج أسماؤهم ممن تجاوزوا هذه السن الى درجة كبيرة ، وسرعان ما ينسى الأطفال القليل مما تعلموه ، غالبا عن طريق التلقين ، ثم يرتدون ثانية الى « حالة من الجهالة التامة » .

وعلى أية حال ، لقد كانت مدارس الريف ضعيفة الاغراء والاجتذاب لتلاميذهـا ، وتشجيعهم على التعلم ، ولو حتى خشية التعرض لتخدى الأطفال الأكثر تحمسا للتعلم ، أما الآباء ميسوزو الحال ، ممن لديهم الحافز والقدرة على الحاق أطفالهم بالمدرسة لبعض الوقت ، فانهم كانوا يؤثرون ارسالهم الى المدن التجارية أو الى احدى المدارس الداخلية ، والأهم من ذلك هو ما حدث عندما أدرك المنحدرون من أسر أوفر ميسرة أو يسرا ، أن الدراسة قد تلعب دورا فى نشاطهم الذى سيجىء فيما بعد ، فانهم استوعبوا أو حفظوا ما هو أكثر مما تعلموا ، وكان الآباء يولون عملهم القدر الأكبر من اهتمامهم ، وبذلك أتيحت الفرصة لأبناء الفقراء للالتحاق بمدارس الفقراء ، لأنه لم يكن لدى الآباء الوقت الكافى للالتفات اليهم ، وكان لديهم مبرر أقل لاستغلال هـذه الفرصة لأقصى حد بقدر يفوق أقرانهم الأفضل حالا ...

أما متى وأين سجلت أسماء الأبناء في المدارس فمسالة تاتى فى المقام الثانى من الأهمية ، لأن ما يهم ليس تسجيل الأسماء على هذا النحو ، وانما هو مواظبتهم على الحضور ، واختلفت هذه الحالة من اقليم لآخر ، تبعا لاسلوب العيش فيه ، ولكنها نزعت بوجه عام الى جعل السنة الدراسية مقصورة على شهور الشتاء . وكان الأطفال بوصفهم عمالا « بالفعل » أو « بالقوة » يتفرغون للدراسة عندما لا يكون لديهم أى عمل آخر على

الاطلاق . وفى ليموزان ، لم يكن هناك من يقول : « لقد أمضى الطفل ثلاث سنوات » ولكنهم كانوا يقولون : لقد أمضى ثلاث شتويات » فى المدرسة ، التى دخلها بعد جنى ثمار أبو فروة ؛ وبعد عودة النازحين الذين قام بمساعدتهم للعودة من حيث جاءوا ، وأنه ترك المدرسة فى أواخر مارس أو بداية ابريل عندما عاد النازحون مرة أخرى ، وبالمثل فى ساحل العاج والجورا التى توافر فيها قدر أكبر من المدارس الاعدادية فى قراها النائية والاكواخ أكثر من أى أقسام أخرى ، اعتاد الأطفال العمل معظم السنة ، مع عدم الانتظام فى الدراسة لأكثر من شهور قليلة فى الشتاء ، وبذلك ينسون فى هذه الفترة الفاصلة كل ما تعلموه ، وكان المنتفعون الوحيدون من الدراسات هم البنين والبنات ممن توافرت لهم أو لهن السبل الكافية للاعتماد على أنفسهم بلا عون من أحد ، ومن جهة أخرى ، ففى أقليم دوبس ، حيث الشتاء القارس الطويل ، فان هذه الحالة قد ساعدت على مكوث الأولاد بالمدرسة فترة أطول ، وعلى التقاطهم أكبر قدر من العلم ، غير انه حتى فى حالة عدم معاونة الأولاد لذويهم ، فانهم كانوا يتركون المدرسة فى شهر مارس أو ابريل ، وفى لوزير ، كان الأولاد يحضرون للدراسة أربعة شهور فى الشتاء على الأكثر ، وبعد الفصح ، يقتصر الأمر على مغادرة الأولاد للمدرسة التى اما أن تغلق أو تتحول الى عيادات صباحية . وفى اقليم مانش ، كان الآباء يشعرون بالسعادة عند تركهم أولادهم بالمدرسة خلال السنوات التى لا يستطيعون فيها القيام بما هو أكثر من الخبز حول البيت ، ولكنهم كانوا يرغبون فى اخراجهم بمجرد اكتمال بنيتهم ، أو على وجه الدقة ، عندما يكونون فى أفضل أوقات صلاحيتهم للتعلم (١٨٩٢) ويستخلص الان كوربان بان اشتغال الأطفال بالعمالة لم يختف الا حتميا ، أى بين سبعينات وثمانينات القرن . وعلى أية حال ؛ ففى نهاية القرن ، كان بوسع المفتشين أن يلاحظوا حدوث انتظام أكبر فى المواظبة على حضور المدرسة فى الشتاء ، ولم تعد الشكايات المتواصلة من عدم المواظبة تنصب الا على باقى شهور السنة . وكان التأفف أمر ، ولكن المستويات ارتفعت .

ولقد وصلنـــا الآن الى السبب الرئيسى « لعدم الاكتراث » بتعلم الكتب ، والذى رآه أحد الكتاب(*) أمرا متوطنا بالأقاليم ، فلقد توافرت لفقراء أبناء الحضر فرصة استخدام مهاراتهم التى التقطوها فى مدارس الابرشية ، وملاحظة فرص الارتقاء بمراكزهم الاجتماعية عن طريق هـذا التعلم . أما فى الأقاليم ، فان مثل هذه المهارات لم تحقق الا القليل من النفع ، ولم يترتب على عدم وجودها الا القليل من الضرر والخسارة ، ولم يكن هناك الا القليل من التصدع فى الطبقات الكثيفة من الشقاء ،

(*) Philippe Apries وسبقه فى هذا الرأى ، Destutt de Tracy

التي يرزحون فيها ، يستطيع الفضول أو الاجتهاد أن يجد منفذا للانطلاق منها • ولقد أسفت احصائيات فنريه (*) لأن شاغلي المقاطعة « لم يظهروا الا القليل من الميل لدراسة العلوم والآداب البعيدة عن الابتذال أو للتثقيف في الفنون الرفيعة » ، ويبدو هذا الكلام مثيرا للسخرية حتى يبين لماذا لا تعد هذه الحالة مثيرة للدهشة : « بعيدا عن مصادر الالهام والذوق ، فانهم نادرا ما مروا بحالة تساعدهم على ادراك قيمتهم أو (اكتشاف) موضوع للتنافس (والتبارى) عليه » • لقد كانت موضوعات التنافس نادرة في الأقاليم ، أما مصادر الالهام فكانت أندر •

ورئى أن المدرسة عديمة النفع وما يعلم بها لا يمت بأكثر من صلة واهنة بالحياة المحلية ، وحاجة بيئاتهم ، اذ كان المعلم يدرس النظام المترى في القياسات بينما كان الشائع هناك مقاييس بالية (**) • ويقــدرون الأسعار بالفرنك ، بينما لا يعترف الناس بغير اللويس والايكوس • فما قيمة اللغة الفرنسية ، اذ كان الجميع يتحدثون البطوة ، وتعلن التعليمات الرسمية اعتمادا على أخد المنادين باللهجة المحلية • وبوجه عام بوسعنا القول بأن المدارس لم تكن تعلم الفرنسية ، ولكنهــا كانت تعلم قواعد نحوية عقيمة ، ولم يكن للمدرسة أية صلة بالتطبيقات العملية ، فكانت بمثابة ترف أو شيء كمالي في أفضل الأحوال ، أو مظهرا من المظاهر الفارغة لا أكثر ولا أقل ، وأشار كوربان الى البور المهم الذى قامت به هذه العوامل في تأثيرها على الافتقار للاهتمام الذى ظهر عند الآباء والأبناء ، فعندما أراد والد مارتين نادو ارســال ابنه للمدرسة اعترض الجيران والأقارب وقالوا ان تعليم أبناء الأقاليم عديم الجدوى ، ولن يتيح لهم ما هو أكثر من كتابة بعض الرسائل ، وحمل أحمال من الكتب • وأخفق المدرسون والمدرســة في اقناع القرويين بالفائدة التي تحققها القراءة والكتابة • واكتشف الآباء أن عزوفهم له ما يبرره ، لأن هناك اختلافا هينا بين حال من يلتحقون بالمدرسة ، والآخرين الذين لم تطأ أقدامهم مثل هذا المكان ! وعندما ربط فردينان بويسون بين ضعف الاقبال على المدارس والافتقار الى الاهتمام بالمزايا المعنوية التي يتوقع أن تتاح للأطفال ، كان يتبع التقليد السائد•غير أنه اذا تبين للكافة النفع العملي الذى بمقدورهم فهمه ، فان المشكلة ستنكمش وتتخذ أبعادا يمكن السيطرة عليها ، وقال أحد عمد القرى : ان أهل الريف « لا يعون الا في صورة غامضة أية ثقافة فكرية أو معنوية ، لا تمت بصلة مباشرة أو ملموسة بالنفع المادى » • وهذا كلام معقول • فقبل أن يرغب أى شخص ارسال ابنه للمدرسة فان عليه أن

(*) Stastique de Venreé.

(**) مثل الـ toise و الـ Cordes و الـ pouces

يتخلى ، « عن المصالح المادية العاتية » ، باعتبارها الشيء الوحيد الذي يستطيع أن يفهمه . وليس ذلك كذلك . فعندما أقدمت المدرسة على حصر هذه المصالح ، بدأ الناس يبالون ...

وما أسعى لتوضيحه هو الحاجة الى الخبرة الشخصية لاقناع الآخرين بجدوى التعليم . لقد تعرف بعض الوافدين من الريف الى المدن على هذه الحقيقة ، ولعلنا رأينا كيف استطاع هؤلاء الناس وأبناؤهم ادراك ذلك منذ وقت باكر : « قيمة التعليم والفائدة التى بمقدور الشخص أن يجنيها منه فى المراكز الكبرى » ، فخلال النصف الثانى من القرن ، كانت المواظبة على الذهاب للمدرسة فى بعض البلدان أعلى بكثير من نسبتها فى بلدان أخرى (*) . وجاء حافز آخر للدراسة بعد صدور القانون العسكرى ١٨٧٢، ولا يرجع ذلك الى الاستعاضة عن التعليم ببدائل أخرى وانما يعزى ذلك الى ما حققه من مميزات للقادرين على القراءة والكتابة ، وتهديده المجندين الاميين باستبقائهم فى الخدمة سنة اضافية أخرى . وبادرت السلطات المدرسية بالاشارة الى هذه الأوجه من القانون لاقناع الآباء بالحاق أبنائهم بالمدارس . وفى مدينة ايزير علق اعـلان فى كل فصـل ، وطلب من المدرسين قراءته ومناقشته مرة كل أسبوعين على الأقل ، ظنا منهم بأن أداء واجب وطنى واحد سيساعد على تخفيف عبء الواجبات الأخرى .

غير أن هناك جيشا آخر كان يتأهب للظهور ، ولعله لا يقل أهمية عن الجيش المحارب . انه جحافل الموظفين العامين والخاصين . ولم يكن السبيل للانضمام الى هذا الجيش العرمرم ميسورا الا لحملة الشهادات الدراسية ، أو حملة الشهادة الاعدادية بمعنى أصح ، وكانت المدرسـة الصغيرة فى روجيه تابو مازيير تلحق خريجيها فى الوظائف العديدة المتاحة فى اقليمها أو فى أى اقليم آخر ، بعد ما حدث من تقدم اقتصـادى واجتماعى وسياسى ، فلقد زاد عدد الموظفين بالمدينة من ١٥ (١٨٧٦) الى ٢٥ (١٨٨٦) ، بالاضافة الى سبعة موظفين آخرين كانوا يعملون فى السكك الحديدية ، وساعدت الدعاية على تشجيع الطموح : « اذ كانت (ابنة الحلال) الشهادة الابتدائية تتيح لأى شخص فرصة الحصول على وظيفة فى الكثير من دواوين الحكومة » . هكذا قيل لتلاميذ المدارس فى أحد الكتب المدرسية التى نشرت ١٨٨٠ : « فالموظف الحكومى يشغل وظيفة مستقرة ، وهذا هو سر زيادة الاقبال على الوظائف الحكومية » . (وان فاتك الميرى اتمرغ فى ترابه كما نقول فى مصر) . ولما أتيحت الفرصة لكثير من القرويين آثروا التخلى عن عمليات الفلاحة وانتقلوا الى

(*) كانت النسبة اعلى فى Creuse منها فى بلدان مجاورة مثل Haute-Vienne ، Corrèze ، وبلغت هذه الزيادة ٧٪ و ١٢٪ على التوالى ١٨٧٦ .

أعمـــال أخـرى ، ففي ١٨٩٩ ، تحول أربعون من أهـل قرية صغيرة (عدد سكانها ٤٤٤) للعمل كموظفين في مكان آخر ، فاشتغل أربعة منهم خدما في المدينة ، وتلقت دار العمودية (السين) خمسين ألف طلبا لشغل وظائف ادارية جديدة بها ٠

وسـاعد التحفيز لشـغل الوظائف الميسورة بعد تضخم الجهــاز البيروقراطي على التوسع في التعليم ٠ بيد أن هذه النهضة التعليمية قد اقتصرت ــ نسبيا ــ على المنتمين للفئات الاجتماعية العليـــا ٠ ففي عهد الجمهورية الثالثة ، لم يكن السبيل متاحا أمام الأشخاص رقيقي الحال للحصول على نصيبهم من (كعكة) التعليم ، ولم يتيسر ذلك الا بعد ظهور الوظائف التي ساعدت على تعزيز مطلبهم ، وتبريره ٠ وفي حوالي ثمانينات القرن التاسع عشر ، رأينا حتى أبناء القرويين يقبلون على التعليم ، ويولونه قدرا أكبر من الاهتمام ٠ وبعد أن تزايدت الوظائف ، ولم يعد الحصول على واحدة منها حلما من الأحلام ، ازدادت أهمية التعليم الذي يؤمن الاهتداء الى مثل هذه الوظائف المظهرية ، بل وغدت الشهادة المحققة لهذه الغـاية أكثر أهمية ٠ وفي أواخر سبعينيات القرن التاسع عشر ، ذاعت المدائح هنا وهناك التي تتغنى بمآثر الشـهادة الدراسية ، ففي ١٨٨٠ ، لم يتردد بيكو عن القول بأن الشهادة الدراسية « قد أصبحت مقبولة شيئا فشيئا ، وأدركت العائلات ما باستطاعة هذه الورقة المطلوبة (الشهادة) أن تحققه من نفع باتاحتها فرصة التقدم لشغل العديد من الوظائف ، ومن ثم فانها لم تمانع في الكثير من الأحيان في ترك أبنائها بالمدارس أطول مدة ممكنة » ٠ واستمرت المدارس تشغل أسوأ المواقع ، وكان مستواها أقل من مستوى البيت ٠ غير أن الأولاد دفعوا للذهاب اليها حتى عندما كانت تبتعد عن بيوتهم بمقدار ستة كيلو مترات ، بعد أن استقرت في أمخاخهم حكاية نفع الدراسة الاعدادية وضرورتها ٠

وباقتراب تسعينيـات القرن التاسـع عشر ، تجسـمت الامكانات الجديدة واضـــحة ، وازداد ادراك دور المدرســـة في تحقيق طموحات المواطنين ٠ وفي ١٨٩٤ ، درج كل طفل في احدى قرى بروفانس ممن كانوا أقرب الى الأمية الكاملة قبل ذلك بجيل من الزمان على الذهاب الى المدرسة ، وكان بينهم حتى من يضطرون للسـير نصف ساعة بين مأواهم ومدرستهم ٠ وأصبح مشهد الأولاد الذين يستذكرون في المساء على ضوء شمعة خافتة من المشاهد المألوفة ٠ واقترعت المجالس البلدية على منح علاوات للمدرسين الذين يحصل تلاميذهم على الشهادة المنشودة ٠ وأصيبت العائلات بالهوس بهذه الشهادات ، كما يبين من شدة احتفائها بأي ولد يحصل على واحدة منها ، وعندما يزداد عدد المحاولات الفاشلة للحصول

على الشهادة ، فان هذه الظاهرة قد تتحول الى مشكلة تثار في اجتماعات المجلس المحلى · وعندما يكون التطور طبيعيا ، فان الشهادة الدراسية ـ التى تكتسب ميزتها المادية مما يحتمل أن تحققه ـ قد تصبح غاية فى ذاتها » · ولقد رأينا فتاة صغيرة تكتب بلغة ركيكة عبارة تقول فيها : « يجب أن أعترف ـ بشرف الحصول على احدى الشهادات المدرسية (*) » ، ولعلها عبرت بهذه الكلمات عن رأى الشعب فى الشهادة (السرتيفيكا) واصبح اجتياز الامتحان مناسبة مهمة تنافس فى أهميتها طقوس التنصير · ويذكر من مروا بهذه التجربة فى ثمانينيات القرن التاسع عشر الأسئلة التى أجابوا عليها ، لأن كل صغيرة وكبيرة تتعلق بيوم الامتحان ما زالت عالقة بذاكرتهم · ولنضرب مثلا واحدا من بين عدة أمثلة ، يخص شارل مورو عضـــو أكاديمية الطب والأستاذ بكوليج دى فرانس ، فى معرض روايته لذكرياته عن الاحتفال بالتخرج فى قريته ١٩١١ : « بمقدورى لو أردت أن (أسمع) عن ظهر قلب التفاصيل الدقيقة لسؤال الحساب ، الذى دار حول احـدى عمليـات البيع والشراء التى اشترك فيها بيتر ونيقولاس » ·

بطبيعة الحال ، لقد تحققت مكاسب أكثر فورية · فلم تعد هناك حاجة للانتقال الى أقرب مدينة لاستشارة أحد المحامين أو أحد الخبراء المحاسبين ، عندما يراد تحرير كمبيالة أو شيك أو كتابة ايصال ، أو اقفال حساب مسبق ، أو حتى كتابة رسالة عادية · هكذا قال أحد الأولاد الذين بلغوا الثالثة عشرة من عمرهم فى قرية أوب · « ولم يعد الملم بالقراءة والكتابة مضطرا الى افشاء أسراره أو الكشف عن صداقاته وخصوصياته لطرف ثالث · واصبح بمقدوره الارتقاء فى العمل السياسى المحلى أو التعليم أو الجيش ، حيث يمكن الحصـول على معاش طيب بعد التقاعد وعلى نياشين ترصع صدره بعد شغله احدى الوظائف التى ترفعه الى مرتبة تعلو مراتب العوام الوضعاء » ·

وكان العوام الوضـعاء يضـمون نوعا من الفلاحين الذين تشـغل نماذجهم النمطية صفحات كتب الأدب السائر ، ونراهم « يتحدثون لغة خالية من النحو ويستعملون عبارات مميزة ، ويسيئون التعبير بالنزر اليسير من المفردات المتاحة لهم ، ولا يبدون أفضل ذكاء من الفلاحين الآخرين المحيطين بهم » · ويفترض أن المخرج الوحيد من هذه الحالة هو التعليم الذى يعلم النظام والنظافة والكفاءة وسبل النجاح والتحضر · وربطت تقارير المسئولين بين هزال التعليم والأساليب الوحشية الفظة ، « فعندما

(*) "être ademise s'est un honeur davoir on certificat d'étude".

لا يترك التعليم أثره ، تظهر نزعات جافية ومسالك فظة ويزداد الهياج والاضطراب والتهور وتشيع المتاعب والصخب » • فالمفروض هو قيام المدرسة بتهذيب الشمائل وغرس الخصال الحميدة وترقيق القلوب الوحشية ، اذ تساعد الصيغ المهذبة التى تلقنها المدرسة على « تهذيب الوحشية والفظاظة المشهورتين عن الفلاحين » وبالمقدور نسبة السلوك المهذب والأخلاقيات المهذبة الى آثار التعليم • وشرعت المدارس « فى تغذيل عادات الصحة البدنية والنظافة والآداب الاجتماعية والأسرية » ، وطريقة النظر للأشياء والحكم عليها • وتعلم الأطفال الهمجيون آدابا جديدة مثل كيفية تحية الغرباء ، وكيفية طرق الأبواب وكيفية معاملة الأصحاب الوقورين • وهناك قول يظهر أنه خلط بين اختلافات أبناء الحضر وأبناء الريف ، والاختلافات العنصرية : « البورجوازى يفسى عندما يفرغ كرشه ، والفلاح البريتونى يتكرع بصوت أجش عندما يمتلىء كرشه » • ويتعلم الأطفال أن اللياقة ترفض الحالين على السواء ، وأن النظافة ركن أساسى من أركان الحكمة •

ونهضت المدرسة بدور رئيسى فى ارغام الأطفال على مراعاة النظافة ، وان كان المدرسون قد بذلوا جهدا كبيرا لتحقيق هذا الهدف • فكان التفتيش يجرى بانتظام على الشعر والأظافر والأذنين ، وتم تركيب المضخات لتوفير المياه اللازمة للنظافة ، وخضعت ملابس الأولاد ومسلكهم خارج المدرسة للفحص المدقق ، وتعرض المقصرون للتوبيخ المستمر • وقد جاء فى نص أحد التمارين المدرسية : « الدراسة تشحن المخ ، وتصحح الآراء الزائفة ، وتساعد على ترتيب الكلام والكتابة ، وتعلم حب العمل ، وتدعم القدرة على حل المسائل ، وأداء الواجبات العملية ، فما الذى نتعرف عليه من الدراسة ؟ من بين أشياء أخرى : الحمامات الباردة خطرة ، والمواظبة على حضور الأعياد والمهرجانات واجب دينى ، وأن ما يلحق الجسم من ضرر من جراء العمل أقل مما يصيبه من الانغماس فى المتعة ، والعدالة تحمى الخير ، وتعاقب الشرير ، والطباق سم واسراف ضار ، وله أثر مهلك على ذاكرة المرء ، ومن يتعاطونه باسراف يعيشون حياة أقرب الى الحلم ، بعيون أشبه بعيون الموتى ، عاجزة عن الانتباه لأى شىء ، ودون اكتراث بأى شىء ، ويسرفون فى عشق ذواتهم » • ولا ننسى أيضا درس « جول وجوليا » اللذين كانا من الأغنياء ، ومن ثم فانهما لم يحرصا على الاجتهاد فى المدرسة ، ونظرا لأنهما لم يتعلما أى شىء فانهما شعرا بالانزعاج بعد ذلك من جهلهما ، فكانا يحمران خجلا عندما يهزأ الناس منهما ، ومن الأخطاء التى كانا يقعان فيها عندما يتحدثان • نعم ليس

بمقدور أى جهة أخرى غير المدرسة تبديل السلوك البدائى (*) » • فالأحوال البدائية نفسها تتغير ، وتساعد المدارس خريجيها على التكيف مع هذه التغيرات •

بطبيعة الحال ، لقد حققت المدرسة ما هو أكثر ، أو بمعنى أصح لقد اضطلعت بهذه المهام على نحو أرحب • ولو حاولنا اجراء تصنيف لحصر مهامها وحدودها ، كان علينا القول ، بأن المجتمع يثقف ، والمدرسة تعلم • فالمدرسة تنقل أنواعا بالذات من المعرفة القابلة للتعلم • أما المجتمع فيغرس خلاصة ما يستوعب من تجارب عبر الزمان • بيد أن هذه النظرة التى تنطبق على مهارات وموضوعات معينة يجب أن تعدل عندما تنصب التعاليم المقدمة من قبل المدرسة على نطاقات تختلف من مجتمع لآخر (كاللغات والمقاييس على سبيل المثال) أو يتجاهلهـــا التعليم الاجتماعى (الوطنية مثلا) • وبعبارة أخرى ، فان المدارس تزود بتعاليم مكملة (وربما بتعاليم مضادة) لأن التعليم فى المجتمع المحلى لا يتوافق هو والتعليم المطلوب على المستوى القومى • هذه هى الحالة عندما تقوم المواد الدراسية بدور أساسى فى غرس الثقافة : يعنى تشـــكيل الأفراد لكى يتواءموا هم والمجتمعات والثقافات الأرحب من ثقافتهم ، واقناعهم بأن هذه النطاقات الأرحب هى عالمهم بنفس القدر الذى ينسب لبلدهم الذى يعرفونه ، أكثر من ذلك •

لقد وصلنا الآن الى أهم دور للمدرسة الحديثة ، أى التى لا تعنى بتعليم الكثير من المهارات النافعة ، بقدر تركيزها على نوع من الوطنية الجديدة ، التى تتجاوز الحدود التى يعترف بها عادة ضمن مفهوم المصطلح• لقد استبدل الثوريون مصطلحات قديمة مثل الناظر والقائمقام والعميد بمصطلح مدرس التعليم الابتدائى (**) باعتبار المدرس يعمل على انشاء الأمة • غير أن الأثر المرغوب يعنى تحقيق الوحدة لمعنى مراوغ كالروح الوطنية ، قـد اعترف بالافتقار اليه فى ستينيات القرن التاسع عشر وسبعينياته ، مثلما حدث أيضا قبل ذلك بثمانين سنة •

وكتب أحد المدرسين القرويين ١٨٦١ : أن المدرسة عامل من العوامل التى لها دور كبـير فى خلق الروح الاجتمـاعية • فعلى المدرسة أن تعلم

(*) هكذا صرح Ardouin-Dumazet.

(**) استبدل الثوريون مصطلحات مثل schoolmaster ، regent ، rector بمصطلح instituteur •• ولعل هذه الكلمة الأخيرة تحتاج الى مرادف عربى مازال غير موجود وهى واضع حجر الأساس للأمة • institute .

المشاعر القومية والوطنية ، وتفسر ما الذى أنجزته الدولة لهم ، ولماذا تجبى الضرائب ، وتفرض الخدمة العسكرية ، وتبين لهم ما يحققه الوطن لصالحهم • والظاهر أن هناك مهاما كثيرة تتطلب الانجاز • وظلت هـذه الفكرة تشغل بال المربين المخلصين على الدوام • وبعد ذلك بعشرين سنة ، كان لابد أن يقال لطلبة دور المعلمين : « ان واجبهم الأول هو دفع المسئولين عن التعليم الى حب بلدهم وفهم أحوالها • وبعد ذلك بعشر سنوات ، تكرر الهدف الأكبر مرة أخرى ، عندما ظهر النزوع الى المطالبة بجعل التربية القومية روح تعليم الشعب » ، فالمدرسة بمثابة « وسيلة لتحقيق الوحدة ورد على الميول الخطيرة التى تجنح الى الطرد المركزى • ولا خلاف على الاعتراف بكونها الركن الأساسى للدفاع القومى » •

ففيما يتعلق بالتربية القوميـة عليـك أن تذكر « أن الوطن ليس مرادفا لقريتك ، لأن ولايتك هى فرنسا بأسرها • فالوطن أشبه بأسرة كبيرة » ، ان مثل هذا الكلام ما كان ليعرف بغير اعتماد على شيء ما من الرؤية البعيدة ، ومن ثم رأينا تلميذا في الثالثة عشرة من عمره يقول على سبيل أداء الواجب ١٨٧٨ : « ان الوطن هو أنت • انه أسرتك • انه شعبك (*) • وبعبارة أخرى ، انه بلدك فرنسا » وكتب آخر : « الوطن هو البلد الذى ولدت فيه ، وحيث ولد أبواك ، ومستودع أعز أفكارنا • انه ليس مجرد البلد الذى نعيش فيه ، ولكنه أيضا البقعة التى نقطنها • فالوطن هو فرنسا » • وكان التمرين المدرسى أشبه بعظة مصممة لتعليم الطفل ان واجبه يدعوه للدفاع عن وطنه ، واراقة دمه فى سبيل الدفاع عنه (« عندما تتعرض فرنسا للتهديد ، عليك أن تبادر بحمل السلاح وتهرع لنجدتها ») • وعليك أن تطيع الحكومة وتؤدى الخدمة العسكرية وتدفع الضرائب •• وهكذا •

وفى بداية الدراسة ذاتها ، يعلم الأطفال ان واجبهم يدعوهم الى الدفاع عن بلادهم بالانخراط فى سلك الجندية • فالجيش يتألف من اخواننا وآبائنا أو أقاربنا • ولعل هذه النغمة تبدو غريبة بعد العداء الذى كان سائدا فى الماضى ضـد الجنود والجندية ، وتردد الأحاديث عند استهلالها التذكير بهذا الواجب المقدس فى عبارات كهنوتية : ان أولادنا سيدافعون عن تربة الوطن • ويتركز البرنامج المدرسى بأسره على التوسع فى ابراز هذه الفكرة على أنحاء شتى • ففى دروس الألعاب الرياضية يقال « انها ترمى الى انماء فكرة الانضباط عند الطفل ، واعداده كى يصبح جنديا مخلصا ، وفرنسيا مخلصا ، وكان الأطفال يترنمون بأناشيد مثيرة مثل نشيد « راية فرنسا » ونشيد « الديدبان المفقود » و « المارسلييز » •

(*) Les tiens.

وصدرت الأوامر بتأليف موضوعات انشائية حول الفكرة بعد تحديد عنوانها وفحواها : « رسالة من جندى شاب الى والديه » : ويعرف الجندى أهله فى الرسالة أنه يحارب ضد أعداء الوطن ، وأنه قد أصيب بجراح ، وهو فخور بذلك (وعليهم أن يتماثلوا معه فى هذا الشعور) لأنه نزف دمه فى سبيل الوطن . ويقرر المدرسون بعد شعور ببعض الارتياح ، زهوهم بنجاحهم « فى غرس حب الوطن اعتمادا على التذكرة بأحداث من التاريخ تربط أفئدتنا بوطننا » ، ثم بانمائهم هذا الشعور « باظهار كم تبدو فرنسا قوية وجسورة عندما تتحد » .

ولم تكن هناك سبل لتلقين الوطنية والتكيف الوطنى أفضل من الاستعانة بالتاريخ والجغرافيا ، ولاسيما التاريخ ، لأنه اذا أحسن تعليمه سيكون « الوسيلة الوحيدة لترسيخ معنى الوطنية فى الأجيال التى نساعد على تنشئتها » . فهل يستطاع القول بوجود قوى اجتماعية أخرى تساوى هذه الدروس فى طبع حب الوطن فى الأفئدة واشعال جذوة هذا الحب ؟ ومن أسف أن معظم المدرسين لا يعرفون التاريخ ، كما يجب ، وما يعرفونه من الجغرافيا أسوأ حالا من ذلك . فعندما أقدموا فى حوالى سبعينيات القرن التاسع عشر على تعليم تاريخ فرنسا — أو شرعوا فى ذلك — جنحوا الى رص أسماء البقاع والتواريخ ، وقلما ذهبوا الى ما هو أبعد من القرون الوسطى ، وتجاهلوا التاريخ ، وغابت الحضارة عن برامج التعليم ، هذه هى العبارات التى أوردها فليكس بيكو ١٨٧١ فى معرض شكايته ، وأردف قائلا : « ان بالمقدور الاعتماد على التاريخ الفرنسى لتكوين المواطن الفرنسى والتعريف بالوطن الحر ، وغرس محبته ، الا أنه لم تتم حتى الآن أية محاولة أولية فى هذا السبيل » . وليس فى هذا ما يثير الدهشة : « ان من حصلوا على شهادات من المدرسين بين ١٨٥٠ و ١٨٦٨ ، لا يزيد عددهم عن نصف عدد المشتغلين بالتدريس ١٨٧٩ » ، ولم يدرسوا التاريخ الفرنسى قط ، ولم يعرفوا عنه أى شىء . هذه هى الكلمات التى جهر بها أحد مفتشى المدارس فى فنديه ، وقد قالها وهو يشعر ببعض الأسى وقرر آخر (*) : « لقد بدأ المدرسون اتجاها — ما زال غير مألوف ونادرا — بعرض الأحداث الرئيسية فى تاريخ فرنسا » ولعل أنسب مرجع تناولها على هذا الوجه هو كتاب لافيس : « السنوات الأولى للتاريخ الفرنسى » . وقد خصص هذا الكتاب بأكمله لبيان كيفية بزوغ الوطنية الفرنسية والوحدة الفرنسية والمبررات التى ساعدت على ذلك ، بعد الانتقال من التركيز على الوطن الأصغر الى الكلام عن الوطن الأكبر (**) . وقيل للأطفال : انكم

(*) فى Haute Saone

(**) petit patrie الى grande patrie

عندما تقرءونه « ستعلمون كم أنتم مدينون لآبائكم ، ولماذا يعتبر واجبكم الأول هو حب وطنكم فوق أى حب آخر ، لأنه موطن آبائكم » ٠

وكما لا تعد اللغة الأم هى لغة الأمهات ، كذلك نظر الى الوطن (الموطن والأب كشىء أكبر أو كشىء مختلف) عن المكان الذى عاش فيه الآباء ٠ وطولب ببرنامج واسع من الدروس التى تعتمد على التلقين لاقناع الشعب « بامتداد الوطن الى ما وراء حدوده الواضحة ، الى ما هو أبعد ، والى أطراف بعيدة ، من المتعذر لمسها ، تدعى فرنسا » ، وكان البالغون يرزحون فى حالة تخلف شديد التوغل فى نفوسهم ٠ وكان من العسير اقناع حتى الأطفال رغم قابليتهم للتشكل ، بغير استعانة بالدرع الواقية للمواد التى لم يتيسر توافرها الا فى سبعينيات القرن التاسع عشر ٠ ففى ظل الامبراطورية الثانية (نابليون الثالث) « لم يكن الأطفال يعرفون أية مواد جغرافية ، ولم يروا أية خريطة ، ولم يعرفوا أى شىء عن اقليمهم أو وطنهم (*) ٠ « نعم لم يعرف الأطفال شيئا البتة عن مكانة بلادهم ، أو حتى عن وجودها » (**) ٠ « وبذلك أصبحت معرفة الجغرافيـــا حاجة ملحة » (***) ٠

وبدأت الخرائط تتدفق بمجرد بدء الحرب الفرنسية البروسية ، وتوزع بمعرفة الدولة ، وبدأ توزيع الخرائط بمدارس المدن ، ثم وزعت بعد ذلك على مدارس الأقاليم ٠ وفى ١٨٨٠ ، لم يعد هناك الا فصول قليلة تخلو ولو من خريطة واحدة مهما كان صغر حجمها ٠ وليس مستغربا أن لا تزيد الخريطة فى بعض الفصول عن كونها مجرد حلية ، ولكنها غرست فى وجدان الكافة صورة الشعار القومى المسدس الأضلاع ٠ وذكرتهم بأن الحد الشرقى يجب أن يقع على نهر الراين وليس على نهر فوسج ٠ وكانت هذه الخرائط أيضا رموزا قوية للمجردات التى يتوجب على العقول الفتية استيعابها ، أى لم تكن مهمتها توكيد معنى الوطن فحسب ، وكم بدا عسيرا تحقيق هذا المطلب الأول ٠ وبالاستطاعة تبين ذلك من المنشور الذى صدر ١٨٩٩ عند توزيع بعض اللوحات المجسمة : « لمناظر من مختلف البقاع الفرنسية ، للتعريف بطريقة حيوية مفهوم كلمة وطن » ٠

ان المدرسين يعلمون ، « ويتوقع أن يكون دافعهم لذلك ليس حب الفن أو العلم فحسب ٠٠٠ وانما يجب أن يكون هذا الدافع هو حبهم لفرنسا » ٠ انها فرنسا ، التى يجب غرس الايمان بها فى وجدان جميع من لا يؤمنون بذلك ٠ لقد استعيض عن الاله الكاثوليكى الاصطفائى(****) ٠

(*) Lost-et-Garoone

(**) Dordogne.

(***) Doubs

(****) Particulari`t

الذى لم يؤمن بوجود هوية بينه وبين الوطن سوى أنصار جبهة التصحيح بعد منعطف القرن ، قد استعيض عنه باله علمانى يتمثل فى الوطن ، ورموزه الحية ، والجيش ، والعلم · وحلت دروس علوم الدنيـا محل العظات الدينية ، وحل التاريخ المقدس لفرنسا محل التاريخ التوراتى ، الذى أهدر فى المدارس العلمانية ، فلقد تحولت فرنسا الى ما هو أكثر من مجرد ملكيـة للمتعلمين ، نعم لقد أصـبحت ارثا باستطاعة الجميع الاشتراك فيه وتمخضت عن ذلك نتائج مهمة لصالح التماسك القومى ، وستثبت حرب ١٩١٤ صحة هذا الحكم ·

بيد أن تأثير المدرسة ذهب الى ما هو أبعد من ذلك · فأولا ، لقد بدت اللغة الأدبية أو اللغة المكتوبة التى يتعلمهـا الأطفال فى المدارس مساوية فى غرابتها للغة المنطوقة · وبدت نفس الشىء اللغـة الفرنسية المنطوقة ذاتها فى نظر الناطقين باللهجة المحلية · وفى عبارة أخرى ، لقد بدأت المدارس عملها بنشر لغة مصطنعة · وهـذا يصـح حتى بالنسبة للمتحدثين بالفرنسية ، الذين كشفوا عن هذه الظاهرة الى حد كبير فى دروس الاملاء « أى أداة اللغة الكلية للمتعلمين » ، التى تتجاوز المعرفة المحلية · وترتب على ذلك نجاح كثير من الطلبة فى تعلم كيف يعبرون عن أنفسهم وفقـا لمشيئتهم عنـدما يدور الكلام شفهيا ، ولكنهم كانوا يصادفون صعوبة عند الكتابة أو التعبير عن الفكر فى عبارات قريبة من الكلمات المكتوبة ، وبمقدورنا التحقق من ذلك اذا رجعنا الى ملفات تقارير الجندرمة ، التى كثيرا ما كتبت بأسلوب ادارى منتفخ فضفاض ، تروى فيه أبسط الأحداث بطريقة ملتوية خرقاء ·

ومن النتائج المثيرة لهذه الحالة (التى بدت فى مظهر أسـوأ فى المناطق التى جنحت لهجتها الى الاغراب) ان الأطفال « استمروا شهورا بل سنوات لا يكشفون عن أية دلائل على الفهم ، ويكتفون بمجرد تقليد ما يرونه يجرى أمامهم » · ولم يكن مستبعدا أن تساعد التشريعات على التشجيع على ارتكاب الجرائم ، عندما لا تكون الأحكام مناسبة · ولا ننسى دور التعليم فى نشر الغباء عندما وضع معايير للغة الحديثة رأى كثيرون تعذر الاحاطة بها ، وكتب مدرس من كنتال : « ليس بمقدور أطفالنا الاهتداء الى ما يكفى من كلمات فرنسية للتعبير عن أفكارهم ، وليس أمامهم — فى الحق — أية وسيلة للاهتداء اليها » · وترتب على ذلك حدوث انفصال بين التعلم المدرسى — الذى كثيرا ما يعتمد على التلقين — والاستيعاب ، مما ساعد على اهمال تقدم المدارس · ووفر التذكر عبء ترجمة المتحدث أفكاره الى اللغة الفرنسية السليمة · وترتب على ذلك أيضا حدوث انفصال بين الكلمة والواقع · فكان بمقدور كثير من الأطفال « تهجى الكلمات دون

أن تعني المقاطع الهجائية أي شيء عندهم » ، يعني كان باستطاعتهم القراءة ، ولكنهم يخفقون في فهم معنى ما يقرءون ، أو التعرف على المقصود من بعض الكلمات المكتوبة دون معرفة بطريقة كتابتها ، أو ادراك الهوية بين كلمات تعلموها بالفرنسية وبين الأشياء المحيطة بهم ٠ ووعد أحد مانحي الجوائز في دوردون ١٨٩٧ المتقدمين بتوقع تعلمهم اللغة التي تتكلمها علية القوم ، واتقانهم الكلام بها يوما من الأيام ، وتوحي صيغة المستقبل المستعملة في مثل هذه الأحوال المستبعدة بمبرر محتمل للتساؤل حول لماذا ارتفع ١٩١٧ عـدد المجندين الأميين ارتفاعا طفيفا أكثر من الماضي المباشر ، ولعل الاجابة على ذلك هي أن التحريم المطلق لاستعمال اللغة الوطنية التي ساعدت على تعلم الفرنسية كلغة ثانية قد حال دون تعلم اللغة الفرنسية الاصطلاحية ، وعاق استيعابها استيعابا كاملا ٠٠

ان هذا لا يعني أن الفرنسية لم تخط خطوات واسعة نحو الأمام ٠ فلقد خطت هذه الخطوات ٠ ولكن الالمام بالكتابة ظل امتيازا اجتماعيا كشكل للتعبير ٠ كما أن الفرنسية التي كانت تعلم بالمدارس وفي حصص الاملاء بدت للملمين بها كمصدر قوة للاغتراب عن الكافة ٠ وأدت دورا مهما في تحقيق وحدة الفرنسيين ، ولعل هذا هو ما عناه مفتش احدى المدارس راجعا بفكره الى سنة ١٨٩٧ عندما قال : « لقد اعتاد الجهل أن يسبق المدرسة ، أما اليوم فقد انعكست الآية ، وأصبح الجهل يجيء في أعقاب الدراسة » ٠

بطبيعة الحال ، كانت هناك نتائج موجبة (من وجهة نظر المدرسة) ، وذهبت هذه النتائج الى ما هو أبعد من الآثار التي تتضح وضوحا مباشرا ، فلقد خلقت رموز الصور التي تعلم في المدارس لغة جديدة كلية ، وزودت بأنماط مشتركة يسترشد بها ، مما أزال الفروق التي فرضتها الحدود الاقليمية ، وهي نفس الغاية التي سعت الوطنية القومية لتحقيقها ٠ فحيثما شاعت اللهجات والتعابير المحلية التي خلقت لهجات منعزلة بعضها عن بعض ، كانت دروس المدرسة بعد تقنينها في شتى أنحاء فرنسا ، تعتمد في تعلمها على مصطلحات موحدة ، ففي جميع المدن أصبح الأطفال يألفون الرموز والصيغ ، التي اعتمدت عليها فيما بعد السلطات والصحافة والساسة للم شملهم في كيان واحد واجتذابهم ٠ فباستطاعة الدروس التي رسخت بعض الصلات والارتباطات ربط الأجيال بعضها ببعض ٠ فهناك اكليشيهات معينة شاعت في شتى الأنحاء كوصف ملوك فرنسا بأنهم أكبر أبناء الكنيسة ــ والزمان هو النهر الذي يحمل الجميع فوق أمواجه ــ والشاعر هو الشخص الأثير عند الهة الموزا ــ وكانت تورين جنة فرنسا ــ وكانت جان دارك راعية اللورين ٠ نعم لقد حلت محل الأقوال المأثورة والأمثال أقوال تمثل النزعة القومية تمثيلا صحيحا ، وحل محل الأساليب

الاقليمية المحلية أساليب منقولة عن الكتب • وارتفعت قلاع أسبانيا فوق الأطلال المحلية ، وارتفع صوت ثغاء العجول الذهبية فوق صوت العجول القابعة فى الحظائر ، وظهرت أساطير الطموح مصورة الآن فى مشاهد من ايحاء التعليم ، أكثر اثارة من الأساطير المتواضعة السائدة ، والتى لم تكن مألوفة بقدر أقل على ذلك العهد ، هذه مجرد مظاهر من العملية الواسعة المدى للتقنين التى ساعدت على خلق الوحدة الفرنسية وتعزيزها ، وشاركت فى الوقت ذاته فى أفول الولاءات المنافسة •

وتعرضت للضعف الدعامات الثقافية للمجتمع الريفى ، التى كانت قد تعرضت بالفعل للمخاض من تأثير التغيرات المادية الناجمة عما حدث من تغير فى القيم • فأولا ـ لقد انحط تقدير العمل اليدوى ، أو بمعنى أصح لقد تعزز النفور المألوف من الكدح الذى عرف عن هذا النوع من العمل • فلقد تجاهلت أرباب القدرة على الانتاج والابداع المدارس الاعدادية المعدة لتشكيل المواطنين ، ومجدت المدرسة العمل كقيمة أخلاقية ، ولكنها أغفلت العمل كشكل يومى من متطلبات الحضارة • وترجم الى مصطلحات مدرسية (اسكولائية) التباين بين الروح المتوقدة الحماسية للشجعان (*) والروح المتبلدة المتخاذلة (**) ، باعتبار العامل المجد يعمل بيديه فقط ، أو يعتمد عليهما اعتمادا كبيرا ، أما الطرف الآخر فيتجنب العمل اليدوى ، وسرعان ما أصبح الولد الكسول هو الشخص الذى يحتمل دفعه للأعمال الفزيائية أو البدنية الشاقة • أما الولد المقدام الجرىء فهو الولد الأكثر كشفا عن نبوغه وبراعته فى عالم الكتب • وهذه نتيجة متوقعة ، بعد أن أصبحت المثوبة الآن من نصيب من لا يشاركون فيما كان يوصف بالعمل فى سالف العصر والأوان • غير أن ما حدث قد أحدث تصدعا ـ مرة أخرى ـ فى المظاهر العريقة للتضامن •

وفى العديد من البيوت ، اعتمد البالغون الأميون على فتيان صغار للنهوض بما أصبح يسمى المهام الأساسية كالحسابات والمراسلات وتلقى التعليمات والقراءة بصوت مرتفع للوثائق والمستندات أو بعض فقرات من الجريدة اليومية • وعمل المحدثون الملمون بالقراءة والكتابة فى جميع المستويات على تيسير التعرف على الأفكار الجديدة ، وبخاصة للنشء ، الذين نسبت اليهم الآن بعض التغيرات العميقة فى المناخ السياسى لمقاطعات الأقاليم ، ، وعلى أية حال يمكن القول بأن العلاقة بين مطالب المدرسة والمطالب الاجتماعية لم تغفل فى زمانهم ، وترنم أحد المطربين(***) ، ولعله

(*) Courageux

(**) fainéant

(***) Montéhus.

قد عبر عن روح الثورة فى كلماته التى جاء فيها « أنه بعد أن تعلم الناس كيف يحسبون ، بعد أن نالهم الكثير من عنت الفلس والاملاق ، رأيناهم يتجهون الآن الى الاشتغال بالحسابات عوضا عن استجداء الصدقة ! » والأهم هو أنه ، وكما حدث فى مقاطعة بريتانى ، ظهرت حملة حماسية لتعليم الجيل الجديد الفرنسية : « ان الآباء والأبناء يمثلون عالمين منعزلين ومنفصلين الى حد كبير فى الروح · ويتكلم كل طرف منهما لغة غريبة عن لغة الطرف الآخر ، مما أدى الى عدم اشتراكهم فى الأفكار والمشاعر ، فلا عجب اذا لم تتوثق بينهما أية علاقة حميمة ، بل وربما كان الأغلب هو تعذر قيام أية علاقة بينهما · وأغلب الظن أن هذا الكلام مبالغ فيه ، ويوحى بوجود ثغرة بين الأجيال يمكن أن تلمح بسهولة أكبر فى المجتمعات الحديثة أكثر من امكان لمحها فى المجتمعات التقليدية · ولكن حتى اذا سلمنا بالمبالغة ، الا أن الآثار الآكالة لأحد أنواع التعليم على المجتمع ، والمعتمد على نوع آخر من التعليم ، قد بات أمرا لا يمكن انكاره ·

وتماثلت المدارس مع الهجرة والسياسة والازدهار الاقتصادى فيما أتت به من ايحاءات بوجود قيم بديلة وهيرارشية بديلة ، وبوجود التزامات نحو كيانات أخرى غير الجماعة المحلية ، فلقد يسرت فكاك الأفراد من قبضة هذه الجماعات المحلية ، وأضعفت قبضة العقائد الحضارية والسياسية التى لم تلق أى تحد ، فى سبيل تدريب مريديها على الايمان بشىء آخر ·

المـراجـع

J. Albisetti, Secondary School Reform in Imperial Germany.

K. Auspitz, The Radical Bourgeoisie : The Ligue de l'Enseignement and the Origins of the Third Republic 1866-1885, (1982).

D. R. Brower, Training the Nihilists : Education and Radicalism in Tsarist Russia (1975).

J. Chandos, Boys Together : English Public Schools (1899-1864) 1984.

R. Gelder, Education in Provincial France 1800-1914 : A Study of Three Departments, 1983.

J. S. Hurt, Elementary Schooling and the Working Classes 1860-1918 (1979).

J. C. McClelland, Autocrats and Academies : Education, Culture and Society in Tsarist Russia (1979).

J. A. Mangan, Athleticism in the Victorian and Edwardian Public School : The Emergence and Consolidation of an Educational Ideology (1981).

D. G. Paz, The Politics of Working-Class Education in Britain 1830-1850.

L. S. Strumingher, What were Little Girls and Boys Made of ? Primary Education in Rural France 1830-1880 (1963).

G. Weisz, The Emergence of Modern Universities in France 1863-1914 (1983).

دستور الامبراطورية الألمانيــة

جــوردون كــريج

يعد اوتو فون بســمارك من أكثر من جانب مؤسس الامبراطـورية الألمانية • وتسببت مخاطراته الدبلوماسية فى توريطه بروسيا فى ثلاث حروب فى الحقبة الواقعة بين ١٨٦٣ و ١٨٧٠ ، وطدت وحدة المانيا تحت زعامة بروسيا ، وقد عمل بسمارك زهاء عشرين سنة أو يزيد مستشارا لهذه الدولة ، غــير أن بسمارك قد وضع ايضــا دستور الامبراطورية الألمانية • واذا توخينا الدقة فان علينا القول بانه قد وضع دستورين : احدهما للنظام الكونفدرالى فى شمال المانيا ١٨٦٧ ، والثانى للامبراطورية الألمانية التى اعلن انشاءها رسميا فى قاعة المرايا بفرساى ١٨٧١ • وترتب على هذا الدستور نتائج خاصة بالمانيا ، واخرى خصت أوربا فى نهاية المطاف ، ولم تكن بالأقل اهمية فيما يتعلق بدبلوماسية بسمارك •

وكانت الدســـاتير المكتوبة من بين الأهــداف التقليدية لليبراليين السياسيين فى القرن التاسع عشر باوربا • ولكن وكما استطاع بسمارك تحقيــق الهدف الليبرالى لتوحيــد المانيا بالاعتماد على المؤسسات المحافظة للجيش البروسى والنظام الملكى ، فانه استطاع ايضا صياغة دستور مكتوب ساعد على حماية المصالح المحافظة ، واتاح للمؤسسات المحافظة التقليدية السيطرة ــ بالقوة ــ على المؤسسات الليبرالية،وتحقق ذلك عن طريق وضع سلطات هائلة تحت امرة الامبراطور ومستشــاره ، وكان الرايشستاج (البرلمان) يتمتع بحق المناقشة والموافقة ، ولكن لم يكن من حقه سن اية قوانين ، وهناك سلطات محلية مهمة منحت لمختلف الولايات أو الحكومات الاقليمية ، مما أدى أيضا الى حرمان الرايشستاج من ممارسة مبادراته المحتملة • ولعل الأهم من ذلك هو استمرار اســتقلال الجيش • فرغم احتياج التصديق على ميزانيته الى موافقة الرايشستاج ، الا أن الأمر انتهى بجعل مثل هذه الموافقة تشمل التصديق على ميزانية سبع سنوات •

نقلا عن كتاب Germany 1866-1945 تأليف Gordon A. Craig (١٩٧٨) •

وحار المؤرخون والملاحظون الآخرون دوما حول لماذا لم يسع الرايشستاج لزيادة سلطاته ، وكان من بين التفسيرات الارث الخاص بفلسفة هيجل السياسية ، وما يذكر عن اخفاق البرلمان البروسى فى كبح جماح النظام الملكى والجيش قبل ذلك فى ستينيات القرن التاسع عشر ، والخوف الحقيقى مما قد يحدث لو ازدادت فاعلية الرايشستاج من اقدام بسمارك والامبراطور بكل بساطة ، وعلى مسئوليتهما الخاصة ، وبالاستناد الى الجيش ، على نشر دستور جديد ربما جاء أكثر نزوعا الى الاتجاه المحافظ . عموما لقد أمسك الامبراطور بزمام السلطة وصنع القرار ، وشاركه فى هذا المضمار من اختارهم من أعوانه الذين عينهم تعيينا مباشرا ، وبذلك خلق موقفا كانت له عواقب خطيرة الشأن اثناء الأزمة الدبلوماسية فى صيف ١٩١٤ .

كان من بين الرسائل العديدة التى تلقتها برلين من الحكومات الصديقة بعد الإعلان الرسمى عن انشاء الامبراطورية الجديدة ، رسالة من حكومة الولايات المتحدة الأمريكية . وفيها يهنىء الرئيس أوليس .س. جرانت الحكومة الألمانية باسم الشعب الأمريكى على وحدة أراضيها ، كما كانت تتطلع منذ أمد بعيد ، ويهنئها للقرار الذى اتخذته بالاقدام على القيام بدور جديد عن طريق اتحاد فيدرالى على غرار الولايات المتحدة بالذات . اذ يثبت هذا القرار الرغبة فى تحقيق تقدم سريع نحو الديموقراطية وبركاتها ، كما بين الرئيس بأسلوب لا تعوزه الرقة .

ولابد أن تكون هذه التلميحة الودودة قد أثلجت صدر الأمير بسمارك ، بعد تلقيه الرسالة ، كما يبين من تأكيده الرصين للزوار الأمريكان عن تأثره الشديد بدستور الولايات المتحدة ، عندما وضع مخططا للدستور الألمانى . ولا يستبعد أن يكون قد ذهب الى ما هو أبعد من ذلك ، عندما قرأ الدستور الأمريكى . غير أنه من الصعب اثبات استعارته أى شيء من هذا الدستور . اذ كان التشابه الذى اكتشفه الرئيس جرانت بين الدستورين سطحيا ، مثلما كانت نبوءته عن مستقبل الاتجاه السياسى لألمانيا خاطئة .

بطبيعة الحال علينا أن لا نشتد فى القسوة على الرئيس الأمريكى ، فلم يكن هو الوحيد الذى أخفق فى فهم دستور الامبراطورية الألمانية . والحق أن هذا الدستور عندما بحث فى صورته الأصلية باعتباره دستور شمال ألمانيا الكونفدرالية ، فشل بالمثل عدد لا بأس به من الساسة الألمان من الذين اتهموا بحماية مصالح دويلاتهم فى فهمه . ولم يفهموه الا بعد أن قبلوه ، وأدركوا بعد فوات الأوان أنهم أساءوا تفسير بعض عبارات سنرى كيف تركت أثرها عليهم فى القريب العاجل .

كانت الامبراطورية اتحادا مؤلفا من ثماني عشرة دويلة ألمانية مختلفة في حجمها وأنظمة حكمها ، وتضم هذه الامبراطورية أيضا اقليما يدعى بأرض الرايخ الذى يشتمل على المقاطعات التى استولى عليها من الالزاس واللورين ، ويدير هــذا الاقليم حاكم عام يمثل الامبراطور • وتتألف الحكومة الفيدرالية (الاتحادية) من سلطة تنفيذية تتمثل فى الامبراطور ومستشـــاره ومعاونيهما ومن المجلس الاتحادى (*) المؤلف من مبعوثى الدويلات التابعة للاتحاد ، وبرلمان (**) وطنى ينتخبه من لهم حق التصويت من الرجال ، عن طريق الاقتراع السرى •

وتتمتع السلطة التنفيذية الاتحادية بسلطات مهمة ، وبخاصـة فى الجوانب التى قد تؤثر على حياة المواطنين ومصائرهم • ويسيطر الامبراطور على مختلف جوانب السياسة الخارجية ، وله حق ابرام المعاهدات واقامة التحالفات ، وأيضا حق اعلان الحرب وعقد اتفاقيـات السلام ، ويتولى الامبراطور بحكم منصبه كقائد أعلى للقوات المسلحة (***) ــ وهذه فقرة حار المشرعون فى تفسيرها وتعريفها ــ قيادة قوات جميع الدويلات الألمانية فى وقت الحرب ، ومعظم قوات هذه الدويلات فى وقت السلام (وان كان يمارس هــذا الحق بصفته ملكـا لبروسـيا ، وليس بحكم منصـبه الامبراطورى) ــ وسنعود الى هذه النقطة فيما بعد • ويتمتع الامبراطور بسلطة التعيين فى المناصب وبسلطات ادارية على قدر كبير من الاتساع والأهمية ، كحق اعلان الأحكام العرفية عندما تحدث اضطرابات أهلية • ويحق له فى حالات الطوارىء عندما تنشق احدى دويلات الاتحاد أن ينفذ ما يتواءم وصالح هذا الاتحاد ، فمن حقه أن يجرد هذه الدويلة من ممارسة سلطانها على أرضها ، ومن حقها فى السيادة ، وبالاضافة الى ذلك ، فان له الحق فى تعيين مستشار الدولة وجميع العاملين الآخرين ، فى الحكومة الاتحادية ، وعزلهم ، وتأجيل انعقاد البرلمان ، وفض دوراته ، واصدار جميع المراسيم الاتحادية ، وتنفيذها ، وأخيرا فانه يتمتع بحق تفسـير الدستور • وهذا امتياز ليس بالمقدور المغالاة فى تقدير أخطاره ، وزعم بسمارك أحيانا فى سنواته الأخيرة ، عندما نفد صبره من القيود المفروضة على سلطاته ، أنه بحكم وضعه للدستور يعد المفسر الوحيد له ! ، غير أن المستشار لم يزد ــ فى الحق ، عن كونه معاونا للامبراطور ، كما ثبت

(*) Bundesrat.
(**) Reichstag.
(***) Kommandogewalt.

مما حدث لبسمارك ، وزعم لاباند (*) ـ أحد الثقات في تفسير هذه الوثيقة الغامضة ، أن الحاكم (الامبراطور) هو الوصى على الدستور ٠

وللحكومة الاتحادية التى تعمل من خلال البرلمان والمجلس الاتحادى ، سلطات تشريعية فى مجال السياسة التجارية وسياسة التعريفة الجمركية ومسائل النقل والاتصالات والاشراف على النظام المصرفى وضبك النقود وسوق التعامل الدولى والمقاييس والموازين ومنح الامتيازات وبراءات الاختراع ، وحق الاستشارة ، وباقى الأمور المهمة المرتبطة بتحقيق الصالح الاقتصادى الالمانيا ٠

ومن حقها جباية ضرائب الطرق والأسرة وضريبة المبيعات على بعض السلع كالسكر والملح والطباق والجعة والمشروبات الروحية ، والحصول على الايرادات المتحصلة من البريد والتلغراف ٠

ويتضح من هذا البيان أن الدويلات المنضوية تحت الاتحاد قد استبقت سلطات كبيرة ٠ اذ كان من حقها التشريع فى جميع المسائل المؤثرة على الحياة اليومية للمواطن ، وسلامته ، ورفاهية أسرته ، ومن ثم كانت هناك مجالات مهمة فى الحياة العامة كالتعليم والخدمات الصحية والشرطة خاضعة لاختصاص دويلات الاتحاد أكثر من خضوعها للحكومة الاتحادية ٠ ويصح هذا الحكم أيضا عن الحقوق المدنية ٠ ويجب أن يلاحظ ـ بالمناسبة ـ أنه من الجوانب المثيرة للدهشة في النظام الامبراطورى اختلافه عن دساتير باقى الأمم ، وعن دستور ١٨٤٩ أيضا ، لأن بسمارك لم يضمنه أى نص عن حقوق المواطنين واعلان الحريات الأساسية ، وبالاضافة الى ذلك ، فقد ترك أمر تنفيذ معظم القوانين التى تقرها الحكومة الاتحادية الى حكومات دويلات الاتحاد ، وللاجراءات الادارية التى تتخذ لهذا الهدف ٠ وتتولى السلطات المحلية جباية ضرائب الايراد العام والطرق ورسوم البريد المستحقة للحكومة الاتحادية ، وتسلمها لهذه الحكومة ، وهذا يفسر سر عزوف دويلات الاتحاد عن تحمل تدخل الحكومة الاتحادية فى المسائل المحلية ٠ ومن ناحية أخرى ، فان دويلات الاتحاد تتمتع بامتيازات لا تحظى بها الحكومة المركزية ، لأنها هى وحدها التى تجبى الضرائب المباشرة ٠ وقد حاولت الحكومة الاتحادية ـ عبثا ـ اجراء أى تعديل لهذا الامتياز ، عندما تفاقمت الصعوبات المالية ابان عهد حكم الامبراطور فيلهلم ٠

ولم تكن دويلات الاتحاد متساوية فى حقوقها ، فلقد انتزعت الدويلات الأكبر مميزات معينة من بسمارك نظير اشتراكها فى الاتحاد ،

(*) Laband

فأعفيت جميع دويلات شمال ألمانيا ، والتي لم تكن مشتركة في كونفدارلية سمال ألمانيا من الضرائب المفروضة على الجعة والمشروبات الروحية مما ساعدها على الحصول على نصيب الأسد من الضرائب القومية ، وسمح لمملكتي بافاريا وفورتمبرج بالاحتفاظ بأنظمتها الخاصة بالسكك الحديدية والبريد والتلغراف ، ومنحت امتيازات عسكرية لم تمتد لكي تشمل الدويلات الأخرى ، وكانت فورتمبرج تدير شئون جيشها وتعين معظم ضباطه ، بالرغم من خضوع كل ما يظهر من وحدات جديدة للجيش البروسي ، واحتفظت بافاريا باشرافها الكامل على القوات المسلحة في فترات السلام . واستمر وجود وزارة للحرب بها ورئاسة الهيئة الأركان رغم خضوع أنشطتها خضوعا دقيقا للقوات المسلحة البروسية . وأصرت الحكومة البافارية أيضا على الاحتفاظ ببعض الحقوق في التمثيل الدبلوماسي . وأنشات لجنة للشئون الخارجية لمساعدتها على تحقيق رغبتها في التأثير على وضع السياسة المرسومة . ويشترك في هذه اللجنة عضوان معينان وعضوان مختاران . على أن الاستجابة لهذا المطلب لم تكن ذات أثر يذكر ، لأن بسمارك لم يكن من المؤمنين باضطلاع اللجان بمهام السياسة الخارجية ، ولم يستشر اللجنة الا مرة واحدة خلال عشرين سنة من عمله مستشارا امبراطوريا .

ولقد أوفدت دويلات الاتحاد مبعوثين للاشتراك في المجلس الاتحادي . وكان من الميسور لهم ـ نظريا ـ الاستعانة بهذه الهيئة كوسيلة لتعديل الدستور لصالحهم ، عندما كان يعنيهم القيام بذلك . غير أن أهم ملمح لافت للانتباه في المجلس الاتحادي هو المركز القوي الذي تمتت به بروسيا ، فبفضل مساحتها وتأثيرها على ألمانيا في شمولها ، فانها كانت تملك ١٧ صوتا من بين الأصوات الثمانية والخمسين في الهيئة . وكان هذا الامتياز يكفي ويزيد لسد الطريق أمام أية تعديلات دستورية تجري ، وتكون في غير صالحها ، وكان بسمارك في البداية دائم الوثوق من وقوف بروسيا في صف الحكومة الاتحادية في المسائل الأساسية ، وفي احتمال اعتراضها على أي تعديل دستوري مقترح يدمر الرايخ الذي ساهمت في انشائه .

وعلى الرغم من كل هذا ، فقد احتفظت دويلات الاتحاد بسلطات واسعة جدا . وأقلقت هذه الظاهرة المدافعين عن وجوب تمتع الحكومة الاتحادية بقدر كبير من التحكم المركزي. فقد شعر بالفزع المؤرخ هينريش فون ترايتشكه ـ وهو من المكافحين المتحمسين عن فكرة الدولة الموحدة الخاضعة لسيطرة بروسيا ـ من عبارات التحفظ التي وردت في اتفاقيات كونفدارلية شمال ألمانيا وحكومات جنوب ألمانيا ، وأحس بأن هذه الأوضاع

قد تؤدى الى عرقلة القوى الداعية للتجزئة والتفرقة التى وقفت طويلا فى طريق تحقيق الوحدة الفعالة لمهمة الدولة الموحدة ، ومما يعرف عن بسمارك بوصفه سياسيا عمليا ، أنه أقدم على هذه التنازلات باعتبارها أكثر السبل فاعلية لتحطيم مقاومة حكومات الجنوب (وكما قال أحدهم : « الفتاة قبيحة ، ولكن لابد من زواجها ») ولعل هذا التفسير يرد على من تصوروا موافقة بسمارك على الوحدة مأخذا يؤخذ عليه • وشعر بسمارك بالارتياح لأن الامتيازات لن تكون كبيرة ، بغض النظر عن الاعفاءات المالية• وأقره على ذلك أحد ساسة بافاريا المرموقين (*) عندما قال انه كان من الأحكم للحكومة أن تعنى — لأسباب عاطفية — بدرجة أقل بالمؤسسات البافارية الخاصة ، وأن تهتم أكثر من ذلك بزيادة التأثير السياسى فى جميع أمور الاتحاد التى قد تؤثر على مملكة بافاريا •

وبعيدا عن اهتمام بسمارك بالمشكلات العملية ، التى يتعين حسمها على الفور فى الشهور الأخيرة من سنة ١٨٧٠ ، فقد كانت لديه أسباب أخرى للتوجس من حقوق دويلات الاتحاد • فلم تنفرد دويلات جنوب ألمانيا بالنظر الى اقامة المؤسسات الفيدرالية بعين الشك والغيرة على امتيازاتها وأساليبها التقليدية • فبمعنى ما ، تماثل البروسيون والبافاريون فى مناصرتهم للتجزئة والتفرق • ولم يتحمسوا للذوبان فى الرايخ على نحو يزيد عما كشفوا عنه ١٨٤٩ ، ولقد تجاوب بسمارك هو وهذا الاتجاه ، وان رجع ذلك لأسباب انفرد بها • اذ رأى أن الوجود المستمر داخل الرايخ لدولة بروسية ممتدة الأطراف — تحتكر السلطة العسكرية احتكارا فعليا ، وتتمتع بمكانة متميزة فى المجلس الاتحادى تفوق مكانة باقى دويلات الاتحاد ، ولها نظام برلمانى خاص بها يستند الى نظام انتخابى بعيد عن الديمقراطية ولكنه يشايع طبقة الأعيان وأصحاب الجاه — هو أفضل ضمان ضد احتمال خضوع الحكومة الاتحادية للقوى الليبرالية والديمقراطية • ومنحت الحكومة الاتحادية فى النظام الدستورى بسمارك قدرا كافيا من النفوذ (وعلى الأخص بمساندة بروسيا) للحفاظ على انفرادية(**) الجنوب، داخل دولة آمنة ، بينما سمح لبروسيا بالاحتفاظ بقدر كاف من القوة لحماية النظام الملكى الارستقراطى عن طريق تشجيع التجارب الخطيرة التى تجريها الحكومة الفيدرالية • وكان وضع دستور يستبعد منه مشايعة حقوق دويلات الاتحاد من الهام تصور بسمارك لنظرية تجمع بين القمع والتوازن ، وان كان ما ظهر فى هذه النظرية من أحكام ربما أزعج مونتسكيو صاحبها الأصلى • فكما كتب أحد المفكرين (***) : فى

(*) Prince Hohenlohe — Schillingfuerst

(**) Particularism.

(***) Otto Pflanze.

مذهب بسمارك ، يتحقق التوازن وكبح جماح أى ضغوط عن طريق الضغوط المضادة ، كاحداث تعادل لمبدأ المركزية اعتمادا على الحقوق الممنوحة لدويلات الاتحاد ، واحداث تعادل دويلات الاتحاد عن طريق الحكومة الاتحادية ، وكبح جماح الحكومة الاتحادية بوساطة بروسيا ، وللأمة عن طريق الأنساب ، وللبرلمان بالاستعانة بمختلف المؤثرات القانونية والسيكلوجية المشتركة فى صنع النظام الامبراطورى .

(٢)

بمقدورنا الحصول على حجة دامغة ومستصوبة لا تواجه بأى اعتراض لا يمكن تذليله ، لتأييد القول بأن الامبراطورية الألمانية ١٨٧١ كانت من صنع الشعب الألمانى ، أو لاقرار الظن بأن الرايخ الألمانى ما كان ليظهر للوجود لولا الاصرار الشعبى المتنامى على اقامة الاتحاد . وليس من شك أن ادعاء الشعب بأحقيته فى نسبة الفضل اليه فى اقامة هذا الاتحاد كان أقوى من زعم الأمراء الألمان الذين عرفوا بالأنانية وضيق الأفق منذ قرون طويلة ، والذين ثبت افتقارهم الى الاحساس القومى ، من مشاجراتهم المهلكة الدائمة ، وعدم توقفهم عن التحالف مع القوى الأجنبية . غير أن بسمارك كان قليل الاهتمام بدورهم التاريخى الفعلى فى صنع الاتحاد عندما أعلن مولد الرايخ فى فرساى بطريقة تياترية . ولم يكتف بسمارك بمنح الأمراء شرف تقديم التاج الامبراطورى لفيلهلم الأول ملك بروسيا (الذى لم يظهر سوى أوهى قدر من الامتنان لهذا الشرف العظيم ، ولكنه قد اختلف على أية حال عن أخيه ١٨٤٩ ، فلم يرفض الهدية) . غير أنه استند الى هذه الإيماءة والحيلة لاثبات نظرية دستورية تزعم أن الرايخ من صنع البيت المالك لألمانيا .

وباختصار ، لم يكن صوت الشعب فى الامبراطورية الجديدة ضربا من الهراء ، وان كان لم يسمح للشعب الألمانى بالمطالبة بالسلطات الخطيرة التى سبق أن طالب بها الشعب الأمريكى مثلا عندما أثبت دوره فى تحقيق الإستقلال فى ديباجة دستورهم . وحدث عكس ذلك . فقد رئى من البداية وجوب ايضاح أن الرايخ منحة قدمت للشعب الألمانى ، واذا لم تقدر هذه المنحة تقديرا صحيحا ، فانها ستسحب . وكانت النتيجة غير المعلنة للنظرية الدستورية لبسمارك ــ والتى ظلت مستحوذة عليه طوال سنين حكمه ــ أنه اذا اقتضى الأمر ، واذا لم يثبت الشعب الألمانى بالفعل الولاء والامتنان اللذين من حق الزعماء الألمان توقعهما ، سيكون بمقدور الأمراء آنئذ فض ما جاءوا به أو اعادة تشكيل الاتحاد على النحو الذى يروقهم .

وفي سنوات وضع الدستور ، كان بسمارك ما زال يثق بقدر معقول في ولاء الجماهير العريضة من الشعب الألماني ٠ ورغم أنه كان يغض البصر عما يقال عن سيادة الشعب ، الا أنه لم يتردد في اعطاء هذا الشعب الذي كان على الدوام الأداة الرئيسية في تنفيذ جميع القرارات المصيرية مثل هذه السيادة ، يعني حق الانتخاب ٠ وعندما أعلن لأول مرة تأييده لمنح حق الانتخاب للشعب ، كان ذلك خلال المراحل الأخيرة من الصراع السياسى مع النمسا ٠ وكان معنيا آنئذ أساسا باتخاذ موقف فى المسائل القومية قد يزعج خصومه ، ويساعد على ضم الرأى العام لمؤازرة القضية البروسية ٠ ولكن بعد أن استنفدت المناورة ضد النمسويين أغراضها ، فانه لم يعدل عن رأيه ، لأنه ، كما يفترض ، كان يعتقد فى امكان الاعتماد على الجماهير ، وتجاربها الغريزية بعد التوسل الى ولائها ٠ وكتب ١٨٦٦ :

« في اللحظات الحاسمة ، ستقف الجماهير فى صف النظام الملكي بغض النظر عن اتباعها للاتجاهات الليبرالية أو الاتجاهات المحافظة ٠ فهل يحق لى اعتمادا على خبرتى الطويلة أن أعبر عن ذلك بالقول بأن النظام المصطنع القائم على الانتخاب غير المباشر والطبقى أخطر من حق الانتخاب المباشر والعام ، لأنه يحول دون حدوث احتكاك بين السلطة الأعلى والعناصر السليمة التي تمثل صميم كتل الشعب ٠ وفي أي بلد لديه تقاليد نابعة من ايمانه بالنظام الملكي ومشاعر ولائية ، سيكون الاقتراع العام المعتمد على استبعاد تأثير الطبقات البورجوازية الليبرالية عاملا مساعدا أيضا يؤدى الى انتخابات مؤيدة للنظام الملكي » ٠

وأدى شعوره الذى اتخذ هذه الصورة ، وتصوره تبعا لذلك أن دستور شمال ألمانيا الكونفدارلى ودستور الرايخ الذى سيحل محله سيسفران عن انتخابات برلمانية لابد أن تجىء كنتيجة لاقتراع جميع المواطنين من الذكور الذين بلغوا سن الخامسة والعشرين ، أدى الى اجرائه عملية التصويت سرية ٠

لقد كان هذا الاجراء أقل ثورية مما اعتقد فيلهلم الأول عندما اقترح بسمارك هذا الاقتراح وعرضه على الامبراطور لأول مرة ، فلم يخطر ببال بسمارك قط السماح بشغل البرلمان القومى بأعضاء حقيقيين من الطبقة الدنيا ، ممن يحتمل أن يكونوا شديدى الوعى بأحوال أقرانهم ، ومن العاقدين العزم على تصحيح أوضاعهم ، وحال بسمارك دون تحقق هذا الاحتمال باللجوء الى حيلة بسيطة ، هي اشتراط عدم حصول أعضاء البرلمان على مرتبات ، كما أنه حد من سلطات البرلمان الى درجة خطيرة ٠ وادا سلمنا بضرورة الحصول على تصديق البرلمان على جميع التشريعات ، الا أنه

لن يتمتع الا بأوهى قدرة على المبادرة . ولن يسمح له في معظم الأحيان بالنظر الا في المسائل التى يعرضها عليه المستشار والمجلس الاتحادى ، وبوسعه أن يعدل مسودات التشريعات التى لا يرضى عنها ، أو يعطلها ، أو ربما يوقفها ، وان كانت الحكومة في الاحتمال الأخير اذا اقتنعت بأهمية المسألة موضع البحث ، فانها تبادر بتنفيذ رأيها ، ولا بأس آنئذ من حل البرلمان ، واجراء انتخابات جديدة ، لا يستطيبها البرلمانيون عادة . وليس للبرلمان أية سيطرة قانونية على المستشار ، بالرغم من أن الدستور قد وصف شاغل هذه الوظيفة « بالوزير » المسئول أمام البرلمان ، وأن رفض سياسته لابد أن يؤدى بالضرورة الى تخليه عن منصبه ، كما يحدث فى الممارسة الدستورية الانجليزية . كما أن البرلمان الألمانى لا يتمتع بأية صورة من صور حق الاستجواب الذى قد يرغم المستشار على تفسير سياسته والدفاع عنها باعتبار هذه المسألة تهم الأعضاء . والحق لقد كانت هناك جوانب مهمة من السياسة مغلقة في وجههم بالفعل ، وعندما شغل بسمارك وظيفة المستشار ، شجع البرلمان على الاهتمام بجميع جوانب السياسة الاقتصادية ، ولكنه تصدى بقوة لأية مجادلات تدور حول مدى امتداد سلطات البرلمان أو شطحاته الى مجالات من السياسة الخارجية والعسكرية رأى أنها تقع فى دائرة اختصاص مكتب المستشار والتاج . وفيما يتعلق بالجوانب العسكرية ، كانت سلطة البرلمان في الاشراف على النواحى المالية تافهة فى معظم سنوات عهد بسمارك .

ورغم القيود التى فرضها بسمارك على البرلمان ، الا أنه اعتبره ركنا مهما من أركان نظامه الدستوري ، ففي الوقت الذى لم تكن فيه القوى التجزيئية أو الانفرادية قد أخضعت اخضاعا تاما ، نظر الى البرلمان كرمز حي لوحدة الأمة التي اكتسبت بعهد لأي ، وبذلك يكون قد نسبت اليه دور القوة التنظيمية للأشتات المتناثرة . وأدى البرلمان في توجيه العلاقات الخارجية الألمانية دور المرآة العاكسة التي يمكن الاستعانة بما ينعكس عليها من صور لمعرفة صدى التوجهات والأهداف الألمانية . وكان بسمارك قد أثبت بالفعل أثناء قمة المشاحنة حول الدوقية الكبرى للوكسمبرج ١٨٦٧ كيفية الاعتماد على المساجلات البرلمانية فى التأثير على الرأى العام الخارجى . وفى مناسبات عديدة ، أثناء اضطلاعه بأعمال المستشارية ، لجأ الى نفس الوسيلة . وأخيرا ولما كان يتمتع بقدرة أفضل من أى شخص آخر على التعامل مع البرلمان وضمان مساندته لسياسة الحكومة ، فان البرلمان سيزود بسمارك بوسيلة يثبت بها للامبراطور — الذى يكفل رضاؤه استمرار بقائه فى منصبه — تعذر الاستغناء عنه ، وشبه بسمارك البرلمان الحسن السير والسلوك والمتعاون بصك التأمين ، ولم تضعف صحة هذا التشبيه فى عهد من خلفوه فى المنصب .

ولما كان الحال هكذا ، فلابد من أن يثار التساؤل حول لماذا لم يدرك البرلمانيون أن المستشار أكثر اعتمادا عليهم مما قد يبدو من نص الدستور ؟ ولماذا لم يتبعوا تكتيكات المقاومة العنيدة ، التى لا يلزم أن تبلغ حد الصخب ، لزيادة نفوذ البرلمان فى الدولة ؟ فيجب أن لا ننسى ن حرية الحوار والموافقة لم تكن من السلطات المغفلة ، وكانت هناك شروط قانونية لحمايتها ، كعدم جواز تأجيل انعقاد الدورات بصفة مطلقة ، ووجوب اجراء انتخابات جديدة فور حل البرلمان ٠

وأما القول بعدم حدوث التجاء مرة أخرى الى التعتيم ، وأنه أثبت عدم فاعليته عند اختباره ، فان بالاستطاعة اثبات صحة هذا الزعم بقدر كبير اذا رجعنا لطبيعة عضوية البرلمان ، ونظرة الأعضاء الى دوره فى الدولة ، فلم يحصل البرلمانيون الألمان بصفتهم الجماعية ــ اطلاقا ــ على الثقة بالنفس والشعور بتضامن الفريق ، أى المميزات التى كان يحظى بها أعضاء برلمان انجلترا ، أو أعضاء الكونجرس فى الولايات المتحدة ، أو ما كان ينعم به فى ألمانيا الجهاز البيروقراطى وضباط الجيش ٠ وعلى الرغم من شغل كثيرين من أصحاب المواهب لمقاعد البرلمان ، الا أن هذه النوعية كانت استثناء ، بين أغلبية الأعضاء من أرباب العقول الدارجة ٠ فلم يجتذب البرلمان صفوة أبناء البلاد ، ومن انضموا اليه لم يرتفع شأنهم ، على ما يبدو ٠ وفى بواكير أيامه ، كانت نسبة المرموقين والهواة الأثرياء بين صفوفه عالية ٠ وفيما بعد حل مكان هذا الصنف من الشخصيات عدد متزايد من الساسة المحترفين المتفرغين ، الذين كانوا فى الأغلب يخدمون مصالح اقتصادية معينة ٠ وباستثناء ما تعرضت له نظرة البرلمانيين من ضيق ، فان التغير لم يترك أثرا ملحوظا مهما ، فلقد اشتركت برلمانات السنوات التى أمضاها بسمارك هى وبرلمانات الحقبة السابقة للحرب العالمية الأولى فى الافتقار الملحوظ للحماسة لما يؤمل من تحد للأنظمة السياسية ـ يعنى التاج وعملائه ــ فى المسائل ذات الأهمية السياسية ٠ ولعل هذا الاحجام عن السعى والكفاح من أجل توسيع نطاق النفوذ من الأمور التى تقبل الفهم ، فيما سمى ببرلمان سبعينيات القرن التاسع عشر ٠ اذ كانت ذكريات الصراع البروسى الدستورى فى ستينيات القرن ما زالت عالقة بالأذهان ، وراودت الكثيرين من الأعضاء الذين كانوا أعضاء فى هذا البرلمان فكرة اعادة الكرة ، ان هذا يفسر الموقف السلبى لليبراليين القوميين ١٨٧٤ ، عندما نوقشت مسألة الميزانية العسكرية (التى كانت فى ذاتها من الأحداث التى تذكر عن ستينيات القرن) غير أنه من المدهش أنه فى الحقبة التالية لم يحدث أى تراجع عن احجام البرلمان عن المطالبة بدور فى تقرير احتياجات الصالح القومى ٠

ولا يخفى أن كثيرين من البرلمانيين لم يكونوا موقنين من شرعية مثل هذا المطلب ، ولهذا السبب ، ظل البرلمان يمثل كيانا له دور قائم على ردود الفعل أكثر من استناده على الأدوار الفاعلة ، وظل مجرد هيئة تشريعية عاجزة عن التوجيه ، وهى السمة التى اتسمت بها سياسة ألمانيا بعد افلات الزمام من قبضة بسمارك القوية • وترجع هذه الحالة الى عدم ايمان أعضاء البرلمان بقدرتهم على تحمل المسئولية •

وربما شعرنا باغراء يدفعنا الى نسبة المغالاة فى التصور المتواضع لأعضاء البرلمان لدورهم الى نجاح (الفيلسوف هيجل) فى اقناع الألمان بأن مؤسسات الحياة المدنية ، وأشكالها لا قيمة ضرورية لها ، الا فيما يتعلق بعلاقتها بالدولة ، ولقد عرض هيجل هذا الرأى مدعما بحجة شديدة التعقيد وردت فى كتابه فلسفة القانون (*) (١٨٢١) عندما أدرك قصور الأسرة من ناحية ، وقصـــور المجتمع ، من ناحية أخرى ، وحرص على مجاوزتهما والعلو عليهما • وتمشيا مع العبارات التى صاغها هيجل ، فان الدولة تظهر أحيانا فى هيئة مجردة تكاد تثير الضحك ، وتنطبق عليها الكلمات التى أضحكت لاسال فى شبابه : « أى كحقيقة الارادة الجوهرية ، التى تتوافر لها فى درايتهـــا بذاتهـــا عند تعميمها كمعقولية فى ذاتها ولذاتها » • بيد أن هذا الوصف (المضطرب) قد جاءت فى أعقابه فقرة تميزت من الناحية السياسية بقوة ايحائها ، وبما تنذر به من ويلات ، عندما فرق هيجل بين الدولة والمجتمع المدنى بقوله :

« لو حدث خلط بين الدولة والمجتمع المدنى ، وتحدد معناها اعتمادا على دورها فى توفير الأمن وحماية الممتلكات والحرية الشخصية ومصالح الأفراد ، فانها بناء على ذلك تكون الغاية القصوى التى يتحد الأفراد من أجلها • وسيتبع ذلك أن يبدو اتصاف أى شخص بأنه عضو فى الدولة أمرا تعسفيا ، غير أن الدولة لها علاقة مختلفة بالفرد ، لأن الدولة تمثل الروح الموضوعية ذاتها • ويكتسب الفرد صفته الموضـــوعية وحقيقته وأخلاقيته بقدر انتسابه اليها ، فالوحدة على هذا النحو هى الجوهر الحق والغاية الحقة • وما يجمع الأفراد بصفتهم الفردية هو حقيقة عيشهم حياة عامة ، وما يترتب على ذلك من رضاء خاص ونشاط خاص ، ونوع من السلوك يتخذ هذا الجوهر وهذه المشروعية العامة كنقطة بدء ونتيجة » •

ولقد أشار دارندورف الى أن ما يفهم من هذه السطور ضمنا وعلى نحو حاسم هو أن المجتمع المدنى ـ بحكم تكوينه من جملة أفراد ذوى مصالح وأهواء متباينة ، ومن العديد من الأحزاب والتجمعات المتنافسة

(*١) كتاب Grundlinien der Philosophie des Rechts (١٨٢١) •

على المنفعة ـ عاجز عن اخراج دستور مرض للمجتمع الانسانى · ويلزم لتحقيق ذلك شيء آخر · انه شيء يعلو فوق تكوينات المجتمع المدنى علوا كاملا · وهذا الشيء الآخر هو الدولة ·

وليس من شك أن ما حدث من تأخر طويل فى تحقيق الألمان لوحدتهم ، كان من المحتم أن يعطى وزنا جديدا لهذه النظرية · وكان بمقدور جوستاف روملان (١٨٧٠) أن يزعم : « أن نظرية هيجل فى التاريخ قد أثبتت صحتها الآن » ، وفى مثل هذه الأحوال ، كان من اليسير القول بوجود هوية بين الدولة والتاج البروسي ، والآليات التابعة له كالجهاز البيروقراطي والجيش ـ بصفة خاصة ـ وأيضا النظر الى جميع الفاعليات الساعية للطعن فى سلطانها كمجرد مظاهر لهذا التشتت ، الذى اتصف به المجتمع المدنى عند هيجل ، وألمانيا فى مرحلتها السابقة لمرحلتها القومية ، ولعله لم يكن هناك من هو أكثر تأثيرا فى اشاعة ما عاد سياسيا من وراء التماثل من هينريش فون ترايتشكه ، والذى كان كتابه عن التاريخ الألمانى اسهاما بليغا فى تأييد التاج البروسى ـ أفضل عمل مثل الروح القومية الجديدة ـ كما أحدثت محاضراته الجماهيرية عن السياسة فى جامعة برلين تأثيرا عميقا متواصلا على الجيل الذى نهض بالمسئولية السياسية بعد ١٨٩٠ · وعلى الرغم من أن ترايتشكه قد تباعد عن المقدمات الفلسفية لحجة هيجل ، الا أنه كرر جوهرها ، عندما رفض مجتمع التعددية ، ومن ثم فانه لم يتردد فى محاضراته عن القول :

« لن يستطيع القانون والسلام والنظام التحقق لتعددية المصالح المتضاربة الأبدية من داخل هذه الأشياء ، ولكنه يتحقق فقط عن طريق السلطة التى تعلو فوق المجتمع والمسلحة بقوة قادرة على ترويض الأهواء الوحشية للمجتمع · هنا تتمثل لنا واضحة صورة القدسية الأخلاقية المعنوية للدولة · فالدولة هى التى تحقق العدالة والتسامح المتبادل فى عالم الصراع الاجتماعى » ·

هنا تحولت مجردات هيجل الى الحقيقة القصوى · وكما قال دارندورف بحق : لقد كانت النتائج الدستورية المنطقية أمورا لا مفر من وقوعها · وبدا للهيجليين الجدد ولمستمعى ترايتشكه البرلمان رامزا لصراع المصالح وللعداء المتبادل للفرقاء الذى دمر الوحدة الحقة ، ومن ثم لم تكن هناك سلطة قادرة على حسمه غير السلطة الوحيدة التى كانت غير منحازة بحكم طابعها ، يعنى التاج · وأيا كانت المزاعم التى رددها المتفيقهون فى القانون من أمثال باول لابانه عن أهلية البرلمان وجدارته الا أن سلطاته قد تعرضت للهوان والدمار من البداية فى نظر من قبلوا لأسباب عاطفية وعقلانية الاتجاه المحافظ القومى الجديد الذى دعا اليه ترايتشكه · ولسوء

الحظ ، فحتى بعد منعطف القرن ، عندما تضاءلت سلطة التاج من أثر مسلك فيلهلم الثانى ، كان السواد الأعظم من البرلمانيين فى ألمانيا يقبلون فلسفته ، مع ترك الاشتراكيين جانبا .

(٣)

فى المباحثات التي دارت فى قاعة المرايا بفرساى فى ١٨ ابريل ١٨٧١ لم يبرز دور مبعوثى برلمان كونفدرالية شمالى ألمانية ، كما تبين بالفعل ، على أنهم كانوا رغم شعورهم بالمرارة نوعا ، قد استطاعوا التعبير عن ارتياحهم لما لاحظوا ورأوا ، ولعل هذه المشاعر كانت متأثرة بالجو الاحتفالى الذي تشابه إلى حد ما مع روح الإستعراضات العسكرية ، فبدا أشبه بتراجع عظيم(*) مصحوب بانشاد الجنود لبعض أبيات من المزامير ، بناء على الأوامر الصادرة اليهم . وأجريت طقوس الإحتفال طبقا لما جاء فى كتاب الكنيسة العسكرية (**) ، وبعد أن أعلن الامبراطور وحدة ألمانيا صدحت الفرقة الموسيقية العسكرية ببعض المارشات(***) والمصحوبة بغناء هادر . وارتدى الجميع باستثناء أعضاء البرلمان زيا عسكريا تتدلى منه السيوف وتحلى صدره الأوسمة والنياشين ، ولم يكن بسمارك استثناء من ذلك ، وعلى الرغم من اشتباكه آنئذ فى صراع حاد هو وهلموت فون مولتكه رئيس هيئة الأركان ، بعد أن تعرض مبدأ السيادة المدنية للخطر ، الا أنه لم يسمح لهذه الواقعة بالتأثير فى ولعه بالمظاهر العسكرية ، فارتدى سترة زرقاء محلاة بشعار رتبة الفريق والوشاح البرتقالى اللون لوسام النسر الأسود ، وارتدى حذاء برقبة عالية ، وحمل خوذة مدببة فى يده .

وعلى العموم لقد كان استعراضا جريئا . ولكن يكفينا فقط التحديق فى اللوحة التى رسمها أنطون فون فرنر ، كى ندرك مغزى الملاحظة الذكية التى فاه بها السياسى الكاثوليكى لودفيج فندهورست عندما قال « لعلها مصادفة أن تكون فرساى محل ميلاد الحكم العسكرى المطلق ، مثلما كانت موطن الحكم الذي ازدهر فى عهد لويس الرابع عشر ، وهل كان بالامكان كبح جماح السادة المحاربين المتعجرفين الذين رسمهم فرنر ملتفين حول إله الحرب ؟ » .

(*) Grosser Zapfenstreich

(**) Militaer-Kirchenbuch

(***) Heil Dir im Singerkranz ومارش فريدريك الأكبر . Hohenfriedburg.

ان كل من درس الدستور ودار فى ذهنه هذا السؤال لن يتلقى كاجابة عليه سوى اعادة توكيد بسيطة • فبغض النظر عن مواد الدستور التى وضعت زمام القوات الاتحادية بين يدى الامبراطور ، فان أهم التدابير الاحتياطية يمكن الاهتداء اليها فى البنود الواقعة بين البند ٦٠ والبند ٦٣ • اذ نص البند الثانى : « على قيام الامبراطور بتحديد قوة الجيش فى فترة السلام ، وتكوين الجيش وتوزيعه » (*) ولا يخفى أن واضع الدستور قد قصد بذلك تجنب نوع المشاحنات البرلمانية الخاصة بتنظيم الجيش ، والتى أحدثت أزمة دستورية فى ستينيات القرن التاسع عشر • وكما يتضح من روح هذا البند ، فلعله قد منح الامبراطور شيئا أشبه بالتوقيع على بياض على كل شىء يرغب الاقدام عليه عن طريق جيشه ، ومن جهة أخرى ، فقد كان الامبراطور مقيدا بما ورد فى البند ٦٠ من الدستور ، الذى نص على أن حجم الجيش فى وقت السلام يتحدد بمعرفة القانون • ولا شك أن هذا المعنى قد أتاح الفرصة للبرلمان لممارسة سيطرة كبيرة على القوات المسلحة ، وبخاصة اذا لاحظنا اصرار أعضاء البرلمان على اعادة النظر ــ دوريا ــ فى القانون الذى يحدد قوة القوات المسلحة وميزانيتها الملحقة بها

ولقد قررت الحكومة منع مثل هذا التمادى فى استغلال ما جاء فى البند ٦٠ ، وفى المناقشات التى دارت فى اجتماع الناخبين فى كونفدرالية شمال ألمانيا فى ربيع ١٨٦٧ ، بذل بسمارك جهدا شاقا لتوطيد مبدأ وجوب حساب عدد الجيش والاعتمادات ــ آليا ــ بالنسبة لعدد السكان • ولو قبل هذا الاقتراح فانه كان سيؤدى الى استبعاد مناقشة المسائل العسكرية بطريقة فعالة من اختصاصات البرلمان • وكافح المبعوثون الليبراليون كفاحا مريرا مما دفع بسمارك تحدوه الرغبة فى عدم تعريض الدستور فى جملته للخطر الى الموافقة على قبول حل وسط ، هو ما أصبح يدعى « بالميزانية الحديدية » ، التى اشترطت أن يكون حجم الجيش حتى ٣١ ديسمبر ١٨٧١ (١٪) من عدد السكان ، وأن تمنح الحكومة اعتمادات (بواقع ٢٢٠ تالر عن كل جندى) تحت السلاح • وفى ١٨٧١ ، امتد العمل بهذا القانون ثلاث سنوات أخرى ، وان كان رؤساء الجيش لم يقنعوا بذلك ، اذ كانوا قد وطدوا العزم على تعزيز اعتماداتهم العسكرية والتحرر التام من تدخل البرلمان • وفى ١٨٧٤ ، واعتمادا على الدعم الكامل من الامبراطور ، سعوا لحل المشكلة حلا حاسما • وبناء على الحاحهم ، أحالت الحكومة الى البرلمان مسودة قانون يحدد عدد أفراد الجيش (٤٠١ر٦٥٩) على أن يلتزم بمراعاة هذا العدد فى أوقات السلم ، الى

(*) Eintelung

أن يحين الوقت لتعديله بمعرفة الحكومة . وقدم مولتكه هذا القانون – آملا بلا مراء – أن يتأثر به المبعوثون ، لصدوره من شخصية عرفت ببطولتها وتحقيقها للنصر (*) وهذا مبرر كاف يحول دون تعرض هذه الرغبة لأى اعتراض .

غير أن هذه الحيلة لم تفلح . فلقد ظهرت مقاومة قوية لصدور مثل هذا القانون الدائم فى جميع المعسكرات ماعدا المعسكر المحافظ . ولاحت بوادر موقف أشبه فى بعض جزئيــاته بالصراع الذى نشب بين التاج والبرلمان وبلغ ذروته ١٨٦٢ ، بيد أنه بدا الحل الأسهل منالا . فلقد ذكر بسمارك أثناء معاناته من بعض الضيق اثر وعكة صحية ، انتابته من جراء مشغوليته بالمسائل الخارجية ، أنه لا ناقة له ولا جمل فى وضع هذا القــانون ، وأنه من وضــع وزير الحربية رون (**) ، ومن تدبير الامبراطور بالذات الى حد كبير . وعلى أية حال كان هذا هو ما قيل للسفير البريطانى ، ان جاز لنا تصديق رواية بسمارك ، الذى كان خلال الأزمات الدســتورية من أجـرأ المدافعين عن الجيش ضــد الادعاءات البرلمانية ، ولكنه لم يكن متحمسا لمطـــامع تضخيم دور الجيش فى الدولة ، وفى ١٨٦٦ و ١٨٧٠ ، وقعت خلافات خطيرة بينه وبين مولتكه ، الذى اتهمه بالصيد فى المـاء العكر ، واشتبه أيضـــا فى وزير الحربية الســابق (ادفين فون مانتويفل) والذى كان بعد ذلك من أقوى المؤيدين لمشروع القانون ، واتهمه بالتآمر ضــده مدفوعا بالأمل فى خلافته فى منصب المستشار . واذا تركنا جانبا هذه العوامل الشخصية ، سنرى أن بسمارك لم يكن راضيا عن اصدار قانون لا يقتصر أثره على اعفاء الجيش من أية قيود برلمانية ، ولكنه سيجعله أيضا مستقلا عن السلطة المدنية المتمثلة فى شخصه (شخص بسمارك) ، ومن ثم فان هزيمة العسكريين أشعرته بالارتياح ، عندما انحرفت مخططاتهم ، وصمم على استثمار هذه الصعوبات لكى يثبت لهم الى أى حد هم فى حاجة اليه .

وحقق هذه الفكرة ، بأن تلاعب بمخاوف أعضاء البرلمان التى عقبنا عليها آنفا ، والتى تمثلت فى كراهيتهم التورط فى موقف معارض لسلطة الدولة . وقال بسمارك فى سلسلة من الأحاديث دارت بينه وبين زعماء البرلمانيين انه قد أصبح واضحا فى أوقات الشدة وعدم استقرار الأوضاع تصميم البرلمان على تجريد الدولة من قوتها . والغريب أن يحدث ذلك من اناس انتخبوا ارتكانا الى تأييدهم لسياسته الخاصة ، واذا توهموا أن

(*) فى معركتى Koeniggraetz. و Seddan

(**) Roon.

بامكانهم التخلي عن واجبهم المتعلق بالدفاع عن المصلحة العليا للرايخ ، دون أن ينالهم قصاص فانهم سيكونون قد وقعوا فى خطأ جسيم • وكان هذا التلميح كافيا لاثارة الاضطرابات بين خصوم مسودة القانون ، وسرعان ما تبادلوا الاتهامات ، وبأنهم تسببوا باتباعهم للسياسات الحزبية فى ايقاع « نزاع صبياتى بين البرلمان والامبراطور » ، على حد قول القانونى الضليع فى هايدلبرج (بلونتشلى) (*) • ولم يمض وقت طويل حتى لاحت بوادر الرغبة فى الاهتداء الى حل وسط ، تقدم به بسمارك • وتوطدت قوة الجيش بعد الموافقة على الاعتماد الذى طلب فى المسودة الأصلية للقانون ، وان كانت مدة صلاحية هذا القانون قد حددت بسبع سنوات يعاد تجديدها بعد ذلك •

ولم يرض زعماء الجيش عن القانون « السباعى » • والظاهر أن الامبراطور ذاته قد شعر بالاستياء من ميل بسمارك الى مهادنة أناس وصفهم العاهل فى خطاب ألقاه بعد تعرض المشروع للمتاعب بأنهم أعداء من داخل البلاد ، يحاولون عرقلة « قيادة الامبراطور القائد الأعلى للقوات المسلحة » • على أن فيلهلم بعد أن راجع نفسه انتهى الى نظرة أكثر اتساما بالروح الفلسفية ، وكتب الى وزير حربيته : « لا تنس أن سبع سنوات فى زماننا قد أصبحت تبدو مساوية لنصف قرن ، عندما نتأمل ما حدث بين ١٨٦٣ و ١٨٧٠ ! ومن ثم فاننا سنضمن سلامة الجيش لمدة سبع سنوات ، وبعد انقضاء هذه السنوات ربما ألفينا أنفسنا قد دخلنا حربا جديدة بعد الحرب السابقة ، أو شرعنا فى تجهيز أنفسنا لحرب مقبلة • واذا لم يحدث ذلك ، فسيكون عدد السكان قد تضاعف ، وسنسعى لزيادة عدد المجندين ••• » •

والواقع أن رؤساء الجيش كانوا محقين فى شعورهم بالارتياح ، فلقد أمنوا أنفسهم ضد أى تحكم بسيط فى الميزانية ، وتوافرت لهم الحماية ضد أى شكل آخر من أشكال التدخل البرلمانى (وفقا للمادة ٦٣ من الدستور) واطمأنوا الى امكان مواجهة أى أثر من آثار الأحداث المرتقبة فى علاقة الجيش والامبراطورية • وكانت أبرز هذه الحقائق ـ بالمفهوم القانونى الدقيق ـ هى عدم وجود جيش امبراطورى • فلا ننسى أن الجيش القومى فى الأحوال العادية يتألف من مجندين من دويلات الاتحاد تحت قيادة بروسية • ولما كان ذلك كذلك ، فانه لا يصح القول بوجود وزير حرب امبراطورى ، اللهم الا اذا قصد بهذا اللقب بسمارك بالذات • والحق أن المستشار (بسمارك) كان هو المسئول فى نهاية المطاف عن المسائل العسكرية أمام البرلمان ، وان كان هذا لا يعنى الشىء الكثير ، لأنه لم يكن

(*) Bluntschli

قادرا على السيطرة على المسائل الداخلية للجيش ، لأنها تقع على عاتق وزير الحربية البروسى ، الذى امتد سلطانه الى جميع القوات المسلحة فى الامبراطورية ، فكان يشرف على هيئة الأركان وأكاديمية الحرب ، وغيرها من المدارس العسكرية ، والامداد والتموين وشئون الأفراد . وفى البرلمان ، كان شاغلو هذه الوظيفة هم الذين يردون ـ عادة ـ على ما يثار من أسئلة المبعوثين عن التطورات العسكرية . ولم يكن بسمارك يتولى مثل هذه الأمور . وكانت محاولة انتزاع أية معلومات منه تتعرض دوما للاحباط ، لأنه كان مفوضا بالاجابة عن النقاط التى تثار حول القوات الامبريالية ، اذا أراد ، وليس عن الجيش البروسى . وتباح له مناقشة المسائل الادارية ، ولكن ليس من حقه التحدث عن أى شىء يتصل بقيادة الجيش (اذ كان الامبراطور يرى أن هذه المسألة لا تخص أحدا غيره) .

بيد أن رؤساء الجيش لم يقنعوا بالمزايا التى حققها لهم هذا الوضع . فقد اعتقدوا أن الجيش أشبه بمعبد دينى يتطلب متعبدين ، وينتظر منهم العطايا ، ولكنه لا ينوى منحهم أية مميزات فى « مجمع الأبرشية » . وبدا الدور البرلمانى لوزير الحربية فى نظر « كرادلة » مجلس القيادة وهيئة الأركان تهديدا « بالقوة » أو محتملا لوظيفتهم التى تتمتع بالحصانة ، ومن ثم سعوا لابطال مفعولها أو للخلاص من أذاها ، أو استبعاد ما ان لزم الأمر . وفى ١٨٨٣ ، نجحوا فى تحقيق ذلك بمقاومة بسمارك . ويصح اعتبار هذا النجاح تاريخيا لتزايد تباعدهم عن المنشآت العسكرية . وظهرت ثمرته المأسوية ١٩١٤ .

(٤)

لابد أن يكون قد اتضح مما ذكرناه آنفا مدى حمق البناء الدستورى للامبراطورية الألمانية الجديدة ، ومدى امتلائه بالتناقضات والغوامض مما صعب من كفاءة اضطلاعه بمهمة تسيير الأمور فى الرايخ . لقد كان اسلوب بسمارك القائم على « الصد » و « التوازن » شديد التعقيد ، ولعل مصمم هذا الأسلوب (بسمارك بالذات) لم يكن متيقنا فى البداية من كيفية وضعه موضع التنفيذ . وتمشيا مع حرصه على سلطانه ، فانه هدف بقدر الاستطاعة الى الحفاظ بقبضته على السلطة والنفوذ ، وبقى سؤالان : كيف يتيسر تحقيق ذلك ؟ وما هو اسم الوظيفة التى ستنهض بهذا الدور ؟ ففى الأيام التى خطط فيها دستور كونفدرالية شمال ألمانيا ، كان الظاهر أنه كان ينوى جعل وزارة الحربية متواضعة نسبيا ، وكان ينوى منح المستشار دورا أكبر من مجرد الرئيس المسئول عن المجلس الاتحادى ، وأن يتماثل هذا المستشار هو وباقى المبعوثين البروسيين الى المجلس فى

تلقى التعليمات من وزير الخارجية البروسية ، يعنى من بسمارك نفسه !!
وعندما أنشىء الرايخ ١٨٧١ ، كان بسمارك قد تخلى منذ آن بعيد عن هذه النظرة ، أو بمعنى أصح تخلى عن التركيز المغالى فيه على السيادة البروسية الكامنة فى هذه النظرة • وليس من شك أنه أراد ـ كما يبدو ـ تحويل التوازن الى الناحية الأخرى ، لأنه تقلد منصب المستشار الاتحادى دون أن ينشىء ديوانا (*) قويا للمستشارين تحت رئاسة رودلف دلبروك (**) ، بينما ترك وظيفة وزير رئاسة بروسيا (وان لم يتخل عن وظيفة وزير الخارجية) • غير أن هذه الوسيلة لم تفلح ، وحدثت احتكاكات كثيرة بين الحكومة البروسية والحكومة الاتحادية ، مما دفع بسمارك بعد خمسة شهور الى العودة مرة أخرى الى منصب الوزير الأول البروسى ، وقال انه سيعجز عن ادارة شئون الامبراطورية ، اذا لم تكن لديه جذور ممتدة فى التربة البروسية • ثم قال فيما بعد : « اذا جعلتمونى مجرد وزير للرايخ ، فانى على يقين بأننى سأكون عديم الفاعلية مثل أى وزير آخر » •

غير أنه حتى بعد أن سيطر بقبضته القوية على ثلاثة مناصب رئيسية ، فانه رأى تعذر تسيير أمور الامبراطورية دون اضطرار مستمر للتدخل فى خلافات الصراع على من له الأهلية أو الأحقية بين العناصر التى تتألف منها الامبراطورية ، والتصدى للمشكلات التى نجمت عن حلول الوسط التى تضمنها الميثاق • ولم يسلم أبدا من الاستشارات التى ترتبت عن عدم اكتراث المسئولين المحليين عن تنفيذ القوانين الاتحادية ، أو من المخاوف من الامتيازات الممنوحة للتاج والجيش ، واحتمال اساءة استعمالها من قبل الخبراء غير المسئولين ، أو أصحاب الطموح من العسكريين ذوى الخوذات النحاسية • وفى ذات الوقت ، فقد أتاح النظام الدستورى عدة فرص للتعتيمية ، بل وربما لتحدى السلطة الاتحادية مما جعل أكثر السبل فاعلية لحل الأزمات تتخذ غالبا شكل التهديد بالالتجاء الى مراجعة الدستور ، أو بعبارة أبسط ، تسعى لتصحيح الموقف عن طريق القوة بدلا من الاستناد الى القانون القائم ، وبين ١٨٦٧ و ١٨٧١ ، أرغمت مختلف حكومات دويلات الاتحاد بطريقة استبدادية على التعاون باتباع هذه الوسائل ، وفى مناسبات تالية عديدة ، كانت خشية حدوث انقلاب (***) هى التى أقنعت الجماعات الأخرى بضرورة التعاون • وفى بواكير عهد اشتغاله بالمناصب الرسمية فسر بسمارك هذا الاسلوب لصديقه « رون » فقال : « بمجرد تردد ثرثرة وصلصلة حول التصريحات وعملية الانقلاب،

(*) Reichskanzlei

(**) Rudolf Delbrueck.

(***) Coup d'état

كانت شهرتى القديمة ، وما يقال عن لجوئى للقوة بطريقة طائشة غاشمة تدعم مركزى ، وتجعلنى أقف على قدمين ثابتتين ، لأن الناس يقولون : ها هو يعاود الكرة (*) » وفى أعقاب ذلك يتسارع الجميع من معتدلين غير متحمسين وأنصار لسياسة البين بين لاجراء استعدادهم للتباحث » ، ولم يتخل قط عن اعتقاده فى فاعلية هذه الوسيلة ، ولم ينفرد فى الاعتقاد بشرعيتها • وبعبارة أخرى وعلى حد قول ميكائيل شتورمر (**) • لقد كان التهديد بتحطيم الدستور عاملا دستوريا عظيم الأهمية فى الامبراطورية الألمانية •

(*) Nanu, geht's los !"

(**) Michael Stuermer.

المــراجــع

H. Boehme, The Foundation of German Empire : Select Documents (1971).

L. L. Farrar, Jr. Arrogance and Anxiety : The Ambivalence of German Power 1848-1914, (1981).

T. S. Hamerow, The Social Foundations of German Unification 1858-1971 (1972).

I. V. Hull, The Entourage of Kaiser Wilhem II (1888-1918) 1982.

Ū. H. Jarausch, Students, Society and Politics in Imperial Germany : The Rise of Academic Illiberalism 1982.

A. J. Mayer, The Persistence of the Old Regime ; Europe to the Great War (1918).

O. Pflanze, Bismark and the Development of German, The Period of Unification 1815-1871 (1963).

J. J. Sheehan, German Liberalism in the Nineteenth Century, 1978.

J. J. Sheehan ed, Imperial German (1976).

F. Stern, Gold and Iron : Bismarck, Bleichtroder and the Building of the German Empire 1977.

F. Stern, The Failure of Liberalism : Essays on the Political Culture of Modern Germany (1972).

H. Wehler, The German Empire, 1871-1918, (1985).

سابعاً

الامبريالية والحرب والثورة

كانت الحرب العالمية الأولى هى الحادث المحورى فى تاريخ أوربا فى القرن العشرين ، فبعد نشوب الحرب ، لم تعد الحياة فى مجالات السياسة والاجتماع والاقتصاد الى سابق عهدها ، والأمر بالمثل فيما يتعلق بالمسائل الفكرية ٠ وأعيد تخطيط خريطة أوربا من ايرلاندة الى روسيا ٠ وأحدثت الجهود التى استنزفتها الحرب والأعداد الوفيرة ممن راحوا ضحية للقتال ضغوطا جديدة على البنيان الاجتماعى ، وبذر الاستياء من معاهدة السلام وما حدث بعد الحرب من تغير فى الأوضاع الاقتصادية بذور العديد من الحركات السياسية السلطوية فى سنوات ما بين الحربين ٠

ولاحت أول بوادر لهذا الصراع فى أواخر القرن التاسع عشر عندما حدث تنافس بين القوى الكبرى على انشاء امبراطوريات فى مختلف القارات ٠ ولعل اقتصاديات الصناعة قد ازدادت قوة فى العقود الختامية من القرن بفضل اختراعات الثورة الصناعية الثانية ، مما أكد تمتع البلدان الأوربية بأعظم قوة على الأرض ٠ ويوضح دانييل هدريك مدى اعتماد السيطرة على العالم على الجرأة التكنولوجية حينذاك ، والمزايا العسكرية للتكنولوجيا التى حققتها لباقى الأمم ٠ وما أسهل وأسرع تحول هذه القوة العسكرية للاستعمال فى الصراعات التى نشبت بين مختلف الدول الأوربية ٠

ولم يتوقع أحد فى سنة ١٩١٤ استمرار الحرب أمدا طويلا ٠ ويتحدث ميكائيل هوارد عن توقعات الضباط والقادة قبل الحرب العالمية الأولى عن طابع حرب المستقبل ٠ ويشير الى أسباب الولع بمبدأ الهجوم الذى زج بعشرات الآلاف من الرجال للقاء حتفهم ، وكيف استمر الايمان بهذا المبدأ طويلا ٠ وبعد أن استمرت الحرب مصحوبة بخسائر لم يتخيلها بشر من قبل ، بدأ الشعور بالضيق من الأحوال السياسية يطفو على

السطح ٠ ولم يتماثل هذا الضيق فى شدة أهميته مع ما حدث فى روسيا٠ ويشرح تسياشى هاسيجاوا كيف بدل المجهود الحربى البناء الاقتصادى لبتروجراد (حاليا سان بطرسبرج) ، وكيف أدت ضغوط الانتاج خلال فترة الحرب الى اثارة القلاقل بين العمال ، واستطاعت مختلف الأطراف السياسية والراديكالية توجيهها لغاياتها الثورية ٠

واثر ما حدث من ازدياد فى خسائر الحرب حتى بلغت مئات الآلاف، والقضـــاء على الكثير من القيم ، واشتراك الكافة فى التكهن بما سيحل بالمجتمع ، حاول مختلف الكتاب الايحاء بما كان سيحل بأوربا لو لم تحدث الحرب ، ولم يمت من جرائها كثيرون من الموهوبين ٠ ويتحدث روبرت وول عن السبب الذى دفع العديدين الى التعلق بأسطورة فقدان جيل من الانجليز الموهوبين ، مما أدى الى تعثر الانجليز ابان العشرينات والثلاثينيات ٠ ويثبت فى هذه الناحية كيف تمهد الأساطير التى تروى عن الماضى الطريق أمام أساطير الحاضر ٠

عتـاد الامبريالية

التكنولوجيا وتوسع الامبراطوريات الاستعمارية الأوربية فى القرن التاسـع عشر

دانييل هـدريك

عندما كان القرن التاسع عشر يشرف على نهايتـه ، سيطرت القوى الأوربية ـ وعلى الأخص بريطانيا العظمى وفرنسا وألمانيا ـ بطريقة مباشرة وغير مباشرة ـ على مسـاحات واسـعة من العالم غير الأوربى ، وعملت على استغلالها ، وتقاسم الأوربيون ما يـكاد يقرب من كل أفريقيـا • وكانت بريطانيا تحكم حكما مباشرا شبه القارة الهندية ، وتتمتع بنفوذ غير رسمى فى معظم أنحاء أمريكا اللاتينية ، وعلى مناطق المستعمرات الانجليزية فى كندا واستراليا ونيوزيلاندا • وكانت فرنسا تحكم الهند الصينية ، وتمتعت جميع القوى بعلاقات تجارية خاصة مع الصين • ولقد فرضت هذه العلاقات عن طريق القوة • وبعد الحرب الاسبانية الأمريكية ١٨٩٨ ، ظهرت الولايات المتحدة على مسرح الأحداث كقوة امبريالية •

وأثارت « الامبريالية » الجديدة ـ وهو الاسم الذى أطلق على هذه الحركة للتفرقة بينها وبين ظاهرة الفتوحات الاستعمارية التى حدثت فى القرن السادس عشر ـ أثارت نقاشا واسعا ، مازال لم يحسم حتى الآن بين المؤرخين حول دوافع القوى الامبريالية•واحتلت الصدارة العوامل المرتبطة ببواعث الكسب الاقتصادى والاعتبارات الخاصـة بالاستراتيجية البحرية والمزايا السياسية التى تعود على رجال السياسة فى البلدان الامبريالية ، فى مجال السـياسة الداخليـة ، والخارجيـة للأوربيين لفرض النظام على الأوضاع الخارجية التى أصابها الاضطراب •

نقلا عن مقال Technology and the Expansion of European Colonial Empires in the Nineteenth Century. تأليف Daniel. R. Headrick فى مجلة Journal of Modern History الجزء ٥١ (١٩٧٩) ص ٢٣٤ـ٢٦٢ •

وبالاستطاعة اثارة تساؤلات أخرى عن الامبريالية الجديدة لا تتعلق بدوافعها • وليست هذه التساؤلات بالأقل أهمية ، ومن السهل الرد على بعضها • ومن بين هذه الأسئلة : كيف استطاع الأوربيون بطريقة فاضحة وفعالة فرض ارادتهم على الشعوب الأخرى ؟ ولعل العامل الأساسى الذى ساعد على فرض هذه الهيمنة هو تكنولوجية النقل والتسلح ، التى استعان بها الأوربيون فى محاولتهم • وضمت هذه التكنولوجيا السفينة التجارية ، التى ساعدت على اختراق الأنهار الداخلية والمياه الساحلية الضحلة العظيمة الأهمية ، والتقدم فى تكنولوجية الطب ، ولاسيما اكتشاف الكينين الذى ساعد الأوربيين على استمرار العيش بعد اصابتهم بأمراض البقاع التى اخترقتها سفنهم • وأخيرا القدرة الشاملة والكاسحة لنيران الأسلحة التى توافرت بعد اختراع البنادق التى تعمر بالترابيس،والبارود الذى لايتصاعد منه الدخان بعد انفجار العبوة ، والرشاشات التى زودت الجيوش الأوربية الصغيرة العدد ، أو حتى بعض الجماعات الأوربية الصغيرة ، بتفوق تكنولوجى فتاك ، ساعد على اكتساح الشعوب التى يسعون لقهرها • وتجلت أهمية هذه التكنولوجيا بوجه خاص فى مناسبات فلة ، مثلما حدث فى أثيوبيا ١٨٩٦ عندما لاقى الأوربيون شر هزيمة على يد شعوب غير أوربية مسلحة بأسلحة متقدمة •

لكى تتصاعد موجة من الامبريالية،فانها تحتاج الى أحد السيناريوهات الثلاثة الآتية : ١ ـ توافر الوسائل الكافية • ٢ ـ تزايد البواعث الداعية الى تفجر الحدث • ٣ ـ وجود دوافع التغير • وعندما ظهرت الوسائل التى تيسر الحادثة ، وحدث تغير فى الدوافع والوسائل ، فانهما اشتركا سويا • وساعد ذلك على وقوع الحادثة • ولقد لخص كاميرون (روندو) السيناريو الأول فى الكلمات الآتية : لقد كان التفوق الأوربى من الحقائق المستقرة منذ أمد بعيد • وهى التى استند عليها الحوار حتى الآن • وترمى الغاية من بحثنا الحالى الى تحدى مثل هذه النظرة والقول بأن التغيرات التكنولوجية كانت لا غنى عنها وكانت الركيزة التى اعتمدت عليها أوربا فى حركتها التوسعية فى القرن التاسع عشر • وقد أثرت هذه التغيرات على كل من توقيت الحركة وموضعها وبذلك يكون السيناريو الثالث هو الأهم والأدق ، تاريخيـــا •

وعندما يقال عليا (بشدة وكسرة تحت اللام) ان الوسيلة التقنية تتماثل فى الحاجة اليها وعدم الاستغناء عنها تماما مثل الدوافع ، فان هذا لا يعنى وجود صلة بين الحدين • والأمر عكس ذلك • فبمقدور ظهور أية تكنولوجية جديدة أن تعزز أو تولد تفجر دافع من الدوافع مما ييسر تحقيق الغاية المنشودة ، ويجعلها مقبولة لرخصها • وعلى عكس ذلك ،

فقد يحفز أى دافع البحث عن الوسائل المناسبة ، ومن هنا يتوجب علينا أن نتحرك بين موقفين حتميين خطرين : الموقف التكنولوجى (ما يجب أن يجرى سيجرى) والموقف السيكلوجى : « اذا وجدت الارادة وجدت الوسيلة » • وما يقدمه هذا البحث اذن ليس محاربة الموقفين اللذين اشتركا بالفعل فى الحوار الذى دار حول أسباب الامبريالية الجديدة ، وانما اضافة بعد جديد اليه •

ومن بين الوسائل والسبل التى استعان بها الأوربيون للتغلغل فى امبراطوريتهم بآسيا وأفريقيا فى القرن التاسع عشر ، وأنجزوا بها فتوحاتهم : المركب البخارية• فمنذ عهد فاسكو داجاما حتى الحرب الروسية اليابانية ، كان الأوربيون يسيطرون على البحار ، وان كانت سلطتهم لم تتجاوز ما هو أبعد من السواحل • ولربما أقدم المحاربون عند ابحارهم بعيدا عن شواطى الصين أو اليابان أو أفريقيا على اهانة الأهالى أو مضايقتهم، ولكنهم لم يتمكنوا من غزو بلادهم • اذ كان من الصعب على السفن الحربية الأوربية الرابضة فى الموانىء والأنهار المؤدية الى المدن الداخلية أن تناور ، وكانت تتعرض للاصطدام بالأرض ولنيران مدفعية السواحل • وكانت القيود المفروضة على قوة الأساطيل تتحكم فى علاقة بريطانيا بالصين قبل حرب الأفيون • فبينما كان فى استطاعة السفن الانجليزية اطلاق نيرانها على القلاع الصينية عند مصب نهر « بيرل » ـ وفعلت ذلك منذ عهد باكر يرجع الى ١٦٣٧ ، الا أنها لم تكن قادرة على تهديد مدينة مثل كانتون أو أية مدينة مهمة أخرى ، فلا عجب اذا تصور الصينيون الانجليز « كبرابرة قادمين من البحر » ، واذا رفضوا النظر بمنظار الجد الى توسلات سفراء مرموقين من أمثال اللورد ماكرتنى ١٧٩٣ أو اللورد أمهرست ١٨١٦ •

كان البخار اذن هو الذى فتح الأنهار والمياه الضحلة فى العالم أمام الأوربيين • فلقد فشلت الممارسات الباكرة لتسخير القوة البخارية فى تحريك السفن ، كما أثبت المركيز دى جوفروا دابان فى نهر الرون ١٧٨٣ وجون فيتش فى نهر ديلاوير ١٧٨٦ ووليم سمنجتون وباتريك ميلر فى نهر كليد ١٧٨٨ • ويعزى هذا الفشل الى عدم وجود محرك يجمع بين صغر الحجم وكفاية القوة • وفى العقد الأول من القرن التاسع عشر ، ذللت التحسينات التى جرت على المحرك البخارى هذه الصعوبة • ففى ١٨٠٧ ، أثبتت الباخرة « كلبرمون » لروبرت فالتون أن بمقدور السفينة البخارية النجاح فى المهام التجارية • وساعد هذا البيان على تسريع خطى التقدم • وفى العقد الثانى من القرن ، تم انشاء بواخر من مختلف الأنواع فى أمريكا وانجلترا وفرنسا، وبلغت هذه الانشاءات الذروة عند تسيير خط ملاحة منتظم بين انجلترا

وايرلاندة ١٨١٦ ، وفي أول عبور للأطلسي نهضت به المركب « سافانا » اعتمادا على البخار والقلاع ١٨١٩ ٠

وما لبثت البواخر أن شقت عباب مياه آسيا بعد ذلك ٠ وأنجزت أول محاولة الباخرة ديانا التى بنيت فى كيدربور بالقرب من كالكتا ١٨٢٣ ٠ وكانت هناك باخرة أخرى (بلوتو) دشنت قبل ذلك بعام ، ولكن لم يتحقق الوصل بين محركها وعجلة التجديف الا ١٨٢٤ ٠ وفى السنة التالية ، وصلت « انتربرايز » وهي أول باخرة تصل آسيا من أوربا ، بعد رحلة استغرقت ١٠٣ أيام ، استعمل فيها البخار لتحريكها خلال ٦٣ يوما ٠

وسرعان ما غدت هذه المستحدثات أول بوادر الحركة الامبريالية ٠ ففى ١٨٢٤ شنت شركة الهند الشرقية المبجلة أول حرب نهرية على نطاق واسع فى التاريخ الحديث ضد مملكة بورما ، وسخرت البواخر الثلاث رسميا للمشاركة في أعمال حربية ٠ وعملت انتربرايز فى أعمال نقل القوات وعبورها ، ونقلت الامدادات من كالكتا الى بورما ٠ واستخدمت « بلوتو » بعد تجهيزها بمدفعين وبأربعة مدافع كارونيد صغيرة الحجم كبطارية مدفعية عائمة أثناء الهجوم على شاطىء أراكان ٠ ولمعت الباخرة ديانا « كنجمة الحرب » ٠٠ اذ ساعدت فى استكشاف ايراوادى ، وطاردت سفن الحرب التابعة لبورما ، وعبرت البحر ناقلة للجنود ، واستخدمت فى جر المراكب الشراعية وقذف مواقع العدو بقذائف كونجريف ، وأطلق عليها أهل بورما اسم « الشيطان النارى » وما كان بمقدور شركة الهند الشرقية كسب الحرب بدونها،ولعلها ساعدت على تعجيل احراز هذا النصر ، وبفضلها استولت بريطانيا على أراكان وبيجو وتناسريم٠وبذلك بدا عهد الامبريالية المعتمدة على القوة البحرية المجهزة بالمدفع ٠

ورغم هذه النجاحات ، فقد أحاطت البواخر الأولى عدة اشكالات٠فلقد كانت هياكلها معرضة لجميع أوجه النقص المعهودة فى جميع السفن الخشبية ، كالتآكل والتقشر والتسوس وتسرب المياه ٠ وعانت هذه البواخر أيضا من المشكلات التى استطاعت المراكب الشراعية تفاديها ٠ اذ كانت المعدات الآلية شديدة الثقل والضغط على الهيكل الخشبى ٠ واحتلت محركات وخزانات الوقود والمخازن والمستودعات حيزا ثمينا على حساب طاقم المركب ، وكانت السفينة الخشبية تتعرض لخطر اندلاع النيران من جراء هدير المدافع والنيران المندلعة أثناء تفجير العبوة على سطحها والشرار المتطاير من المدخنة ٠ وأخيرا اتضح ضعف متانة الأخشاب ، وعدم اتساع المراكب الخشبية بالقدر الذى يساعدها على حمل الآلات والمدافع ٠ ولم يكن بالمقدور بناؤها بارتفاع بسيط يناسب الرحلات النهرية ، واكسابها فى

ذات الوقت المتانة التى تساعدها على تحمل الرحلات الطويلة عبر المحيطات وأمواجها .

وجاء الحل باستعمال الحديد فى صنع السفن . ومنذ وقت باكر يرجع الى ١٧٨٧ قام جون ويلكنسون الخبير الكبير فى سبك الحديد وصناعة المدافع باجراء تجارب على مركب مصنوع من الحديد على نهر سيفرن . ولكن عمليات التجريب تعطلت ثلاث سنوات من جراء تدخل بعض العقليات المحافظة لصناع السفن البريطانيين ، الذين قالوا : اذا سلمنا بأن الحديد لا يطفو على الماء ، فمن يضمن عدم غرق أية سفينة مصنوعة من الحديد ؟ الا ينتظر أن تصاب بالصدأ أو يجتذبها البرق ، أو تتحطم بعد تفتتها الى شظايا فى البحار العميقة ، أو تزداد سخونتها الى حد الاحتراق عند تعرضها للشمس ؟ . وازاء هذه التخمينات ، لم تصنع أية سفينة حديدية قادرة على شق عباب البحر الا ١٨١٥ . ولم تظهر أية باخرة مصنوعة من الحديد الا ١٨٢٠ . وأثبتت احدى البواخر(*) قدرتها على الابحار عبر المانش وحتى نهر السين . واتضح أن المركب الحديدية ليست قادرة على الطفو فحسب ، ولكنها أيضا أخف وزنا وأعظم اتساعا من أية مركبة خشبية تشغل حيزا مماثلا ، لأن أية عارضة حديدية سمكها سبعة سنتيمترات باستطاعتها أن تحل محل كمرة من الخشب الزان سمكها ٦٠ سنتيمترا . وأثبت الحديد أيضا أنه أكثر لينا من الخشب ، وأقل عرضة للتلف عند لمس الأرض ، ومن السهل اصلاحه . وبالمقدور صنع سفينة من الحديد تتخللها جدران لا تنفذ من خلالها المياه ، وبذلك تتضاءل أخطار عطبها . وأهم من كل ذلك ، امكان تشكيل السفن المصنوعة من الحديد فى أشكال شتى ، وبأبعاد من الصعب تحقيقها فى حالة الخشب ، كالمراكب النهرية التى تدفعها تيارات ضحضاحة (قايلة العمق) أو عابرات المحيطات الضخمة . ويرجع الفضل فى الحق للحديد فيما تحقق للسفن التى ظهرت فيما بعد من تنوع وتخصص يفوق التصور .

ولم تكن فكرة الباخرة الحديدية مقنعة فى ذاتها ، ولكنها احتاجت الى مفكرين أصحاب مخيلات فذة . وأدى تحقيق هذه الفكرة فى أحد الاتجاهات الى ابتكار عابرة المحيطات التى بلغت ذروتها فى الباخرة العملاقة جريت أيسترن(**)، وانتهى الاتجاه الآخر الى ابتكار ربما بدا أقل شموخا وفخامة، وان كان قد أدى الى ابتكار البواخر النهرية . ويرجع فضل الريادة فى هذا المجال الى أسرة لايرد من بركنهد . ففى ١٨٢٩ ، أنشأ وليم لايرد

(*) الباخرة Aaron Manby

(**) Great Eastern

وابنه جون مصنع وليم لايرد وابنه لبناء أول مركب حديدية زنتها ستون طنا ، لاستعمالها فى بحيرات ايرلاندة • وبعد ذلك بعامين ، وصلت الأنباء عن ابحار ريتشارد لاندر فى مجرى نهر النايجر بقارب من « بوسا رابيدز » الى الدلتا ، وبذلك أكمل الرحلة التى بدأها مونجو بارك(*) .قبل ذلك بثلاثين سنة • ثم صمم ماكجريجور لايرد أصغر أبناء وليم ، وأكثر أبناء الأسرة ولعا بالمخاطرة على الوصول الى نهر النايجر عن طريق البحر ، وفتح طريق التجارة البريطانية والنفوذ البريطانى فى أفريقيا • واختلطت فى دوافعه التى جاهر بها عوامل الخدمة الاجتماعية وايمان المسيحى وشهوة الكسب ، التى كثيرا ما نلحظها فى روايات المكتشفين حينذاك : « ولخلق أسواق جديدة واسعة لسلعنا ومصنوعاتنا ولاكتشاف موارد جديدة ، ورفع مستوى أقراننا من الأوربيين بعد أن تردى وضعهم وأصبحوا يفتقرون الى الشعور القومى والأخلاقى لمساعدتهم على بلوغ مستوى أقرب الى صورة الخالق الذى خلقوا على شاكلته » •

بيد أن هذا الرجل المنحدر من صلب «مراكبية» كان متحمسا للتقدم التكنولوجى نفس حماسته للنشاط العملى التى لم تنسيه غيرته على الدين:

« نحن نملك بين أيدينا قوى أخلاقية ومادية وميكانيكية • وتستند القوة الأولى على الكتـــاب المقـدس ، وتستند الثانية على قدرة الجنس الانجلوسكسونى الرائعة على التكيف وجميع الأجواء والمواقف والظروف• ولقد ورثنا القوة الثالثة عن عالمنا الخالد جيمس وات • فبفضل اختراعه انفتحت جميع البحار لنا ، ونجحنا فى اختصار الوقت وتقصير المسافات ، ولو قدر لروحه الاطلاع على مدى نجاح اختراعه على الأرض ، فلا أخال وجود شىء آخر سيرضى عنه مثل مشاهدته للسفن البخارية وهى تمخر عباب أنهار جبارة كالمسيسبى والأمازون والنايجر والنيل والاندوز والجانج ، وهى تحمل بشائر السلام المبهجة والخير لجميع البشر ، الى مجاهل الأرض المفعمة حاليا بمظاهر القسوة » •

وأنشأ لايرد بالاشتراك مع رجال أعمال آخرين من ليفربول الشركة التجارية للتنمية للكشوف الحديثة للاخوان لايرد على نهر النايجر • وكانت لديهم سفينتان من صنعهما : الأولى واسمها كورا وهى باخرة مصنوعة من الخشب حمولتها ١٤٥ طنا ، وطولها ٣٧ مترا تقريبا ، وعمقها متران ونصف، ولها محرك قوته ٤٠ حصانا•وحمولة الثانية ٥٥ طنا ، واسمها البوركا(**)

(*) Mungo Park
(**) Alburkah

وطولها ٢١ مترا ، وعمقها متران تقريبا ، وقوتها ١٦ حصانا ، ومصنوعة من الحديد • وسلحت السفينتان تسليحا ثقيلا • فالى جانب المدافع اليدوية ، كانت « كورا » تحمل مدفعا متحركا وزن دانته أربعة أرطال • ومدافع كارونية (نسبة الى كارون) زنة دانتها ١٨ رطلا ، و٨ عربات مدفع (عيار ٤ أرطال) • وتحمل البوركا مدفعا عيار أربعة أرطال و ٦ مدافع متحركة عيار (رطل واحد) •

وفى ١٨٣٢ ، تحرك ماكجريجور لايرد وريتشارد لاندر وباخرتاهما مصحوبتان بمركب شراعى صوب دلتا نهر النايجر • ولعلها المرة الأولى التى تخاطر فيهـا باخرة صغيرة مثـل البوركا فى الدخول الى عرض المحيط ، ووصل الأسطول (!) بسلام الى خليج بنين ، ومن هناك نجحت الباخرتان فى الابحار داخل الدلتا ، والى نهر النايجر عند نقطة التقائه بنهر بنى (*) • وحققت الحملة نجاحا باهرا ، وأثبتت قدرة قوة البخار على اختراق افريقيا • أما من حيث كونها مخاطرة ، فقد فشلت فشلا ذريعـا • فعنـدما تحاول الوسائل المتقدمة تكنولوجيا التغلب على احـدى العقبات الطبيعية ، فانها كثيرا ما تسلط الضوء على عقبة أخرى • فمن بين طاقم السفينتين وعددهم ٤٩ من البيض الذين اشتركوا فى هذه الحملة ، مات أربعون ، وعاد لايرد بالذات ١٨٣٤ منهك القوى بعد أن فقد ثروته وصحته فى افريقيا • نعم لقد توافرت جميع الدوافع ، ولكن الوسائل لم تكن كافية ، مما حث الأوربيين على التمهل فى تغلغلهم داخل أفريقيا ، والانتظار عشرين سنة أخرى •

وعلى الرغم من أن أفريقيا الاستوائيـة قد ظلت مغلقة أمام تغلغـل الأوربيين ، الا أن آل لايرد قد نجحوا فى اثبات قيمة البواخر الحديدية • وبدأ مصنعهم ينتج عددا كبيرا منها لديه القدرة على اجتياز مسافات طويلة، وكانت باخرة آل لايرد : جون راندولف التى أرسلت الى السافانا هى أول باخرة تعمل فى المياه الأمريكية • وفى ١٨٣٦ ، اكتشف فرنسيس رودون شيرنى نهر الفرات (بالعراق) على باخرة سماها باسم النهر ، وبناها لايرد • وفى ١٨٣٧ ، اشترى محمد على الكبير الباخرة اجبشيان للابحار فى نهر النيل • غير أن نجاح آل لايرد الأعظم قد تحقق فى الشرق الأقصى حيث ساهمت سفنهم بقدر كبير فى تضخيم قوة بريطانيا •

وكانت أول باخرة تصل الى الصين هى الباخرة فوربس التى وصلت الى هنـاك من كلكتـا ١٨٢٦ أو ١٨٣٠ • وسرعـان ما اعترفت المستعمرة التجارية الانجليزية فى الصين بالقيمة المحتملة للبخار فى عمليات النقل

(*) Benue

النهري . وفي ١٨٣٥ ، التمسوا من أقرانهم الصينيين ارسال الباخرة الصغيرة جاردين عبر نهر بيرل من ماكاو الى كانتون .

وكانت العلاقات الانجليزية الصينية متوترة ، وفشلت عدة بعثات دبلوماسية انجليزية في اقناع الحكومة الصينية بالسماح لها بالتجارة . وفي ذات الوقت ، اشتهى الانجليز الشاي الصيني ، وتفاقم اشتهاء الصينيين للأفيون . وعندما فقدت شركة الهند الشرقية ١٨٣٤ احتكارها للتجارة الصينية ،هرع التجار المغامرون الى التزاحم لتحقيق أرباح طائلة من تجارة الشاي والأفيون . وما سماه التجار الانجليز أعمالا حرة وصفه الرسميون الصينيون بالتهريب والقرصنة . وما بدا لهؤلاء الصينيين فرصا مشروعة للقانون ، ارتآه التجار تدخلا غير مشروع ونزوائي .

ومن هنا لم يشعر الصينيون بالارتياح لفكرة قيام باخرة نارية (*) ، كما سموها، بالابحار الى كانتون.وأمرها الحاكم المسئول بالابتعاد : « واذا تغابى القبطان وأصر على عدم اطاعة الأمر ، فانني بصفتي الحاكم المسئول قد أصدرت أوامري الى جميع الحصون باطلاق النيران الهادرة بمجرد وصول البواخر ، ومهاجمتها . وعلى العموم ، ولما كان قد اقترب من حدود الأسرة السماوية(**) ، فمن الصواب أن يطيع قوانين الأسرة السماوية . ولقد أمرت الأجنبي بالتمعن فيما ذكرت مليا ، وأن يمتثل من الآن فصاعدا ، وأن ينصاع للقوانين » . ولكن الأجانب لم يمتثلوا أو ينصاعوا لتهديدات النيران الهادرة من التحصينات الممتدة بمحاذاة النهر . فكما قال وليم جاردين ـ وهو أحد التجار الأثرياء (١٨٣٤) : « لا ينبغي أن يسمح لتجارتنا النفيسة ودخلنا الكبير من كل من الهند وبريطانيا العظمى بأن يظل خاضعا لنزوة من النزوات التي بمقدور حفنة من مراكبنا المجهزة بالمدافع والملتفة حول هذه المدينة التغلب عليها باطلاق القليل من مدافع الهاون » .

وأدت هذه التوترات في نهاية المطاف الى نشوب حرب الأفيون . اذ كان يكمن وراء استعداد الانجليز للهجوم على واحدة من أفضل شركاتهم « معرفتهم أنهم أصبحوا يملكون الآن القليل من السفن المجهزة بالمدافع » ، التي تمكنهم من الاستهزاء بالنيران المتصاعدة من الحصون الصينية . وفي ١٨٣٦ ، عرض جون لايرد على البحرية الملكية فكرة بناء طراد مزود بالمدافع، ولكن القيادة البحرية رفضت الفكرة . ولم تكن شركة الهند الشرقية بعد أن تدعمت بالخبرة في بورما ، متقاربة مع هذه الشركة في شدة نزعتها المحافظة . ففي ١٨٣٩ ، كلفت اللجنة السرية لمجلس المديرين جون لايرد

(*) Fire ship
(**) Celestial

بصنع مركب من طراز غير مألوف على الاطلاق أسمتها « نمسيس » • وكانت أضخم السفن المصنوعة من الحديد التي ظهرت حتى ذلك العهد • فطولها ١٦ مترا ، وحمولتها ٦٣٠ طنا ، وتعمل بمحركين بخاريين قوة كل منهما ٦٠ حصانا • وسلحت هذه السفينة بمدفعين محملين على ركيزتين وعيارهما ٣٢ رطلا وسلحت أيضا بخمسة مدافع عيار ستة أرطال ، وعشرة مدافع صغيرة - متحركة وقاذف للصواريخ وبمقدورها حمل ٩٠ رجلا • ورغم حجمها فانها لم تكن قادرة على سحب أكثر من ١٨٠ سم من الماء عندما تكون كاملة الحمولة ، وتقل كمية السحب في حالة تأهبها للمعركة • لم تكن هذه السفينة البخارية مجرد سفينة بخارية وحسب،ولكنها كانت سلاحا للحرب الامبريالية « ومعدة خصيصا لهذا الدور بالذات » ، كما قال قبطانها وليم هول •

وفي ٢٨ مارس ١٨٤٠ ، أبحرت الباخرة نمسيس من انجلترا في طريقها الى ميناء أوديسا بروسيا ، « مما أثار دهشة الجميع ، وان كان من سمحت لهم الظروف في التمعن في هذا الخبر ، لم يصدقوا احتمال أن تكون أوديسا هي وجهتها الحقيقية » • وبمجرد نزول الباخرة الى البحر ، أعلن القبطان للطاقم أنهم سيبحرون تجاه سيلان بدلا من أوديسا • وبذلك أصبحت نمسيس أول باخرة حديدية تمر من رأس الرجاء الصالح • وفي سيلان ، تلقى هول الأوامر بالاتجاه صوب ملقا (في اسبانيا) ، وهناك أخطر في النهاية بأن وجهته الحقيقية هي الصين ، فوصل داكار في ٢٥ نوفمبر ١٨٤٠ •

لم تكن « نمسيس » الباخرة الوحيدة التي تشترك في عمليات حرب الأفيون • فلقد توجهت الى الصين مجموعة من البواخر الخشبية قادمة من خليج البنغال (البواخر أتلانتا ومدغشقر وكوين ، بل والسفينة القديمة انترابرايز) ووصلت الى هناك أيضا فلجتون (*) وهي من صنع لايرد ، وقد أعدت للعمل كباخرة حديدية نهرية • وعلى نهاية الحرب ، كان عدد البواخر المشتركة في عمليات الصين ثماني عشرة باخرة ، تنتمي خمس عشرة منها الى شركة الهند الشرقية • وبعد وصول البواخر ، ووصول نمسيس بالذات ، اكتسبت العلاقات الصينية الأوربية طابعا جديدا كلية • فلم تتخذ هذه المواجهة مظهر المواجهة الكلاسيكية عديمة الجدوى بين الحوت والفيل ، بعد أن نقلت البواخر الحرب الحديثة الى قلب الصين •

وكانت الصين مجهزة على خير وجه لحرب القرن السابع عشر ! ، وارتكن دفاعها ضد الهجوم الغربي أساسا على خط من التحصينات المحاذية

(*) Phlegethon

لنهر البوج (*) عند مدينة تاكو القريبة من جنوب كانتون فى مواجهة بكين ، وفى عدة نقاط أخرى محاذية للساحل • وقد سلحت هذه التحصينات تسليحا كثيفا ، وان كانت مدافعها - وبعضها يرجع عهده الى قرنين من الزمان - مجهزة بقذائف مشحونة بالبارود الضعيف التأثير الذى لا يعتمد عليه • والمدافع مثبتة فى الأبنية مما يصعب تحريكها وتصويبها الى الأهداف • وفى ١٨٤٠ ، تيسر اسكات تحصينات نهر البوج بنيران المدافع المثبتة فى جوانب السفن من الخط الذى استولى عليه جنود البحرية • وكانت السفن الصينية متخلفة بالمثل ، ومسلحة بأسلحة تتراوح بين مدفعين أو ستة مدافع مثبتة فى ألواح الخشب ، ومن المتعذر الاعتماد على تصويباتها• وكانت طواقمها مسلحة بالسيوف والرماح والجنجال (**) • وأثبتت محاولات اصلاح هذا الحال عدم جدواها • فقبل أن تبدأ الحرب ، اشترى القوميسور لين السفينة الحربية كيمبردج التى كانت غير مجهزة بالمدافع اللازمة • وكانت السفن الصينية مفتقرة أيضا الى الملاحين ذوى الكفاءة لتسيير السفن الأوروبية • وبدت السواحل الصينية وهى تواجه عتاد السفن الانجليزية أشبه بشواطىء خالية من الدفاعات ، بعد أن امتلك الانجليز « البواخر » التى تساعدهم على حل المشكلات التى كانت تواجه الأساطيل دائما عند تصديها للدفاعات الساحلية •

وفى بعض الحالات ، كما حدث عند الهجوم على تحصينات نهر البوج، أو على مدينة تنجاى(***) ، استعملت البواخر كقاطرات لجر السفن الضخمة من « الخط » الى مواقع تساعدها على اطلاق نيران مدافعها المثبتة فى جوانب السفن على العدو • وفى بعض حالات أخرى ، استخدمت لجر سفن تحمل البحارة الى مواقع الهجوم البرمائى • وكانت البواخر المجهزة للتحرك فى المياه الضحلة مثل « نمسيس » قادرة على خوض مثل هذه العمليات • واعتمادا على قدرتها على المناورة السريعة ، والقاء مقذوفاتها الكونجريف ، كان بمقدور البواخر النهرية اغراق السفن الحربية الصينية دون مشقة • وأدت دورا فعالا أيضا ضد تكتيك صينى مفضل آخر : القوارب المجهزة بالنيران ،لتى تحتوى على أقطان منقوعة فى الزيت ، تشعل ثم تقذف لكى تتناثر كشظايا لمواجهة المحاربين الانجليز ، واكتفت البواخر بالتقاطها بخطاطيفها وازاحتها من طريق السفن الحربية •

(*) نهر Bogue

(**) gingals أو Jingals مدافع صغيرة تطلق من حالة الثبات ولا تزيد دانتها عن الرطلين •

(***) (Tinghai

ولعل أروع المشاهد التى عرفتها الباخرة نمسيس هى الهجوم على كانتون من الخلف فى فبراير ١٨٤٢ • فبينما كان الأسطول مبحرا فى تمهل فى طريقه الى نهر بيرل ، شقت «نمسيس» طريقها عبر قنوات داخلية ضيقة ، لم تتجرأ أية سفينة حربية على دخولها قبل ذلك ، وحطمت المراكب الصينية ، وأمطرت التحصينات بوابل من قنابلها ، مما أثار الذعر بين الأهالى •

واذا كانت الحرب لم تنته على الفور ، فان هذا دليل يثبت كم أمضت الحكومة الصينية من وقت لكى تدرك ماهية الخطر الذى يواجهها • ومع الاعتراف بالهزيمة التى حلت فى معركة كانتون ، الا أنها لم تكن قد تحولت بعد الى كارثة • وشن البريطانيون بعد ذلك بسنة هجوما كبيرا على نهر اليانجتسى شاركت فيه ثمانى سفن من «الخط» وعشر بواخر ، وعدد من السفن الأصغر حجما • وواجه الصينيون الهجوم اعتمادا على قوارب مسلحة بالمدافع تدار بعجلات التجديف • غير أن افتقارها الى سرعة البواخر فى حركتها قد جعل منها فريسة سهلة للبواخر البريطانية • وفى شنجكيانج، استولى الأسطول البريطانى على مفترق التقاء نهر اليانجتسى بالقنال الكبير، وأدركت الحكومة الصينية عند هذه النقطة قدرة البريطانيين على قطع امدادات الأرز عن بكين • ومن ثم قررت الاستسلام • وبذلك اهتدت بريطانيا الى وسيلة لفرض ارادتها على الصين •

وليس من شك أن حرب الأفيون كانت أعظم الأمثلة المثيرة التى أثبتت أهمية البواخر فى المغامرات الامبريالية ، ولكنها كانت بعيدة تماما عن أن تكون المحاولة الأخيرة • فعندما أقدم البريطانيون ١٨٥٢ مرة أخرى على مهاجمة بورما ، كانت البواخر قد غدت مألوفة فى المياه الهندية كسفن نهرية وعابرات للمحيط أيضا ، اذ كانت لشركة الهند الشرقية خدمات للبواخر على الأنهار الرئيسية فى الهند ، وكانت شركة بواخر الملاحة الشرقية تعمل فى الشرق الأقصى فى رحلات منتظمة • وكان من اليسير اصدار أمر بمصادرة نوعى البواخر ، بالاضافة الى بعض السفن المتخصصة المجهزة بالمدافع (*) ، لضمان نجاح هذا الهجوم •

وحكاية زيارة الكومندور بيرى الى اليابان (١٨٥٣ ـ ١٨٥٤) معروفة الى حد كبير ، مما يجعلها لا تستأهل اعادة الذكر • بيد أنه من الجدير بالاشارة أن هذه القصة لا تنتمى فقط الى تاريخ اليابان وتاريخ أمريكا ، ولكنها مرتبطة أيضا بتاريخ التكنولوجيا • ففى ذات الوقت الذى كان فيه

(*) مثل Phlegethon, Sesostris, Rattler

يرى مبحرا فى خليج طوكيو ، ظهر الأسطول الروسى تحت قيادة الأميرال بوتياكين ، وكان من ضمن سفن الأسطول ، بعض البواخر التى تقف بعيدا عن شاطىء اليابان ، وكان البخار هو الذى حطم أسرة توكوجاوا التى كانت تحكم اليابان وليس فردا بالذات أو بلدا بالذات .

واتبعت بعض الحروب الامبريالية فى آسيا فى ذات الوقت نفس الاسلوب . وكانت حرب الأفيون الثانية (١٨٥٦ - ١٨٦٠) تكرارا للحرب الأولى ، من ناحية الأسلحة والأساليب المتبعة . فلقد استعانت البحرية الملكية بخمس وعشرين سفينة مجهزة بالمدافع أو يزيد ، وعدد من البواخر الصغيرة فى الهجوم على كانتون وعلى الأسطول الصينى وعلى تحصينات تاكو بالقرب من بكين . وبرز دور السفن المجهزة بالمدافع فى غزو الفرنسيين لتكونكين (١٨٧٣ - ١٨٧٤) وفى آنام ١٨٨٣ . وفى الحرب الثالثة بين الانجليز وبورما ١٨٨٥ ، وعلى نهاية القرن ، لم تعد البواخر والسفن النهرية المجهزة بالمدافع مجرد عتاد حربى وحسب ، ولكنها أصبحت أيضا رموزا للتسلط الأوربى على شعوب الشرق الأقصى التى تملك شواطىء ساحلية وأنهارا صالحة للملاحة . ولقد أجمل الموقف الكولونيل لورى (*) وهو أحد أنصار الفتوحات الاستعمارية حينذاك عندما قال : « كانت البواخر من المحرضات السياسية بفضل ما تحتويه من عتاد قادر على نطق لغة مفزعة فى عصر التقدم » .

وفى افريقيا ، وكما لاحظ ماكجريجور لايرد ١٨٣٢ ، لم تساعد « الباخرة » على توطيد أقدام الأوربيين داخل البلاد . اذ كانت العقبة الكؤود فى حالتها هى الملاريا . ولم تثبت الأساليب التكنولوجية المتقدمة فاعليتها الا بعد التغلب على هذا المرض الوبيل . ولقد ظهرت أبحاث علمية لفيليب كورتين (**) ، وميكائيل جلفاند وآخرين عن تأثير الملاريا على العلاقات الأوربية الأفريقية . وتكفى هنا الاشارة الى خلاصة مجملة لكشوفهم .

على الرغم من أن تفشى الملاريا فى أجزاء كثيرة من العالم ، الا أن هناك نوعا (***) منها - لا يوجد فى غير افريقيا كان أكثرها فتكا بضحاياه ، وتعكس معدلات الوفيات للوافدين الجدد الى وسط افريقيا هذه الظاهرة . ففى تسعينات القرن الثامن عشر ، بلغت معدلات الوفيات ما بين ٤٦٪ و ٧٢٪ بين أفراد القوات المسلحة الأوربية المرابطة فى أفريقيا الغربية ممن استطاعوا البقاء على قيد الحياة بعد سنة من قدومهم للبلاد . وهبطت نسبة الوفيات

(*) Colonel W.F.B. Laurie.

(**) Gelfand, Curtin

(***) النوع الذى تحدثه جرثومة Pla moéium Falciparum.

فى السنوات التالية بمقدار ١٠٪ تقريبا • وظهر من دراسه اجريت عن الحقبة الواقعية بين ١٨١٧ و ١٨٣٦ ان معدل الوفيات سنويا للجنود البريطانيين فى بريطانيا كان ١٫٥٣٪ ، بينما بلغ هذا المعدل فى سيراليونى ٤٨٫٣٪ وفى ساحل الذهب ٦٦٫٨٣٪ • وشاركت الحمى الصفراء والتعنية (الدوسنطاريا) وغيرهما من الأمراض بدور فى هذه الوفيات ، الا أن الملاريا بلغت القمة فى هذا المضمار • واضطرت الحكومة البريطانية الى سحب معظم الأفراد العسكريين البيض من افريقيا الغربية ، وأحلت محلهم افريقيين أو جنودا من غرب الهند ، تميزت معدلات وفياتهم بصغر نسبتها •

وتسببت الملاريا أيضا فى الكوارث التى حلت بما لا حصر له من الحملات داخل افريقيا • فلقد تعرضت بعثات البرتغال الى الكونجو (١٨٤٥) والى داخل موزمبيق لخسائر فادحة • ولم يكن المكتشفون البريطانيون فى أواخر القرن الثامن عشر وبواكير القرن التاسع عشر أوفر حظا • اذ فقدت بعثة وليم بولت الى خليج ديلاجوا (١٧٧٧)١٣٢ شخصا منهم ١٥ من أعضاء البعثة من الأوربيين ، وفقدت بعثة مونجو بالك الى أعالى النايجر (١٨٠٥) جميع الأوربيين ، وفقدت بعثة جيمس تاكى (*) الى الكونجو (١٨١٦) ١٩ من بين ٤٥ شخصا ، وكان « لاندر » بين الضحايا • وبين ١٨٤١ و ١٨٤٢ ، أوفدت الحكومة البريطانية حملة كبرى تحت قيادة الكابتن تروتر الى النايجر على ظهر ثلاث بواخر مغلفة بالحديد (**) • وتكررت المأساة مرة أخرى • فقد سقط ١٥٢ من الأوربيين صرعى ، مما زاد من انزعاج الحكومة •

ورغم هذه الاخفاقات ، الا أن سحر افريقيا قد ظل محتفظا بقوته • ويرجع جانبمن استمرار اندفاعالأوربيين نحو افريقيا الىأسباب اقتصادية وأسباب انسانية ، وان كان الجانب الأكبر من الأسباب يرد الى شدة حماسة ماكجريجور • ففى ١٨٥٢ ، أنشأ هو وبعض أقرانه من رجال الأعمال شركة البواخر الافريقية — وهى أول خط ملاحى يقوم بخدمات شهرية منتظمة بين انجلترا وافريقيا ، واشترك هذا الخط الملاحى فى أعمال التجارة العادية مع وسطاء وسماسرة الساحل • على أن لايرد أدرك أنه بالاستطاعة تحقيق أرباح أوفر لو أمكن التغلب على عائق المرض داخل افريقيا ، مما ساعد على تفادى اشتراك الوسطاء ، ومن ثم أصر على تشجيع زيادة الحملات الموفدة •

ويعد الحل الذى اهتدى اليه للتغلب على الملاريا انتصارا للتكنولوجيا التجريبية ، أكثر من كونه انتصارا للعلم • فلم يتحدد بلازموديوم الملاريا

(*) James Tuckey

(**) هذه البواخر هى Albert و Wilborfirce و Soudan

حتى ثمانينات القرن التاسع عشر ، ولم يكشف دور بعوضة الأنوفليس فى الاصابة بها الا ١٨٩٨ ، ثم ظهر آنئذ دواء وقائى عملى هو الكينين الذى ظل يستعمل سنوات عديدة • وكان الاوربيون قد عرفوا مزايا لحاء شجرة الكينا فى مقاومة الملاريا منذ القرن السابع عشر • غير أن مفعوله قد تعرض للتعويق من تأثير جملة صعوبات • اذ كان من الضرورى استيراده من جنوب أمريكا ، حيث يتعرض للتلف والتلوث ، وأيضـــا للاحتيال فى تقدير سعره • وكان السعر يغلو ويهبط تبعا « للموضة » فى عالم الطب • واستعمل كعلاج أكثر من استعماله للأغراض الوقائية • والأدهى من ذلك هو عدم استساغة مذاقه • وبعد أن شاع فترة من الزمان فى القرن الثامن عشر ، فقد الأطباء البريطانيون الثقة فى شجرة الكينا ، لأنها لم تفلح فى علاج أحد أنواع الملاريا (*) ، كما أنها لم تثبت فاعليتها ضد الحمى الصفراء وغيرها من الحميات التى كانوا يخلطون بينها ، وكانوا يصفون للعلاج بدلا منها لاسالة اللعاب الزئبق والنقاط واستنزاف الدم والكالوميل للتطهير • ولم تفلح هذه الوسائل ، الا فى قتل عدد أكبر كان سيكتب لهم البقاء أحياء لو أنهم لم يعالجوا على هذا النحو •

وبعد ذلك وفى ســــنة ١٨٢٠ ، نجح عالمان من علمــاء الكيميـــاء الفرنسيين (**) فى فصل الكينين القلوانى من شجرة الكينا • وابتداء من حوالى ١٨٢٦ ، أجريت عدة تجارب ، وبخاصة من قبل أطباء البحرية الانجليز الراسين فى ساحل افريقيـــا الغربية من بين المهتمين اهتمــاما خاصا بالأمراض الاستوائية • وبدأت نتائج بحوثهم تثبت احتمال قدرة الكينين على العمل كمحصن ضد الملاريا • وفى ثلاثينيات القرن التاسع عشر ، أمكن انتاج الكينين بسعر مهاود ييسر شيوع استعماله • وضعف الاقبال على عملية الاستنزاف • وفى أربعينيات القرن التاسع عشر ، اتجه استخدام الزئبق والكالونيل الى التضاؤل • وما أن جاءت ١٨٤٨ حتى كان الأوربيون المقيمون فى الســـاحل الذهبى يحتفظون بأقراص الكينين قريبة من فراشهم لابتلاعها بمجرد ظهور أوهى علامة على بدء الاصابة بالحمى • وظهرت مؤلفات للثقات فى الموضوع(***) عن قيمة الكينين فى علاج الحمى المتفترة •

(★) الملاريا Falciparum .

(★★) Pierre Joseph Pelletier. و Joseph Bienaimé Caventou

(★★★) كتاب الدكتور T.R.H Thomson عن On the Value of Ouinine in African Remiltent fever. وكتاب Dr Alexander Bryson Report on the Climate and Principal Diseases of the African Station وكتاب On the Prophylactic Influence of Chinine.

وظهر البرهان الساطع ١٨٥٤ عندما تلقى ماكجريجور لايرد عقدا من رئاسة البحرية بتكليفه بانشاء باخرة أخرى فى حوض السفن الذى يملكه شقيقه جـون • وسميت الباخرة « بالبليـاد » ، وكانت مدرعة بالحديد ، ولها شراعان وحمولتها ٢٦٠ طنا ، ومجهزة بمحرك بخارى قوة ٦٠ حصانا يدير رفاصا • وكان قبطانها طبيبا يدعى وليم بالفور بايكى الذى كان يحرص كواجب دينى على اعطاء نزلاء السفينة من الأوربيين أقراص الكينين يوميـا • وأبحرت السفينة الى نهر النايجر ، ثم عادت أدراجها بعد اتمام رحلتها ، ولم يمت أحد •

وفتح التحصين بالكينين أبواب الغزو الأوربى لأفريقيا • فسرعان ما ظهرت فى أعقاب الباخرة « البلياد » بواخر أخرى بدأت بالقيام برحلات منتظمة ذهابا وايابا فى نهر النايجر ، متخطية وسطاء الدلتا ، وناقلة التجارة الانجليزية • وانتهى الأمر بسيطرة الانجليز على الجزء الخلفى نيجريا ، وحمل المكتشفون من أمثال ريتشـــارد بيرتون وجون سبيك وجوستاف رولنس وفرتيه كاميرون وهنرى ســتانلى معهم شـحنات من الكينين • وأصيبوا جميعا بالملاريا ، ولكنهم برأوا منها ، وواصلوا رحلاتهم • وكان دافيد ليفنجستون يحمل معه أقراصا سماها باسم « أقراص ليفنجستون » مؤلفة من الكينين والراوند والكالونيل (*) • وكان يعطيها للبيض المرافقين له • وقد تعرض كثيرون منهم للاصابة بالملاريا ، ولكن قلائل منهم ماتوا • وعندما سرقت منه بعض الأقراص أثناء حملته الأخيرة ، كتب فى مذكراته : « شعرت كأننى تلقيت حكما بالاعدام » • ومات بعد ذلك بفترة قصيرة •

واستعمل مستكشفون من أمثال ليفنجستون وستانلى وغزاة مثـل دى برازا فى الكونجو ودودز فى داهومى وجنتيل فى تشاد البواخر عندما سمحت لهم الظروف بذلك • فاذا راعينا وعورة تضـــاريس البلاد ، وأشجارها وغاباتها الكثيفة فى الكثير من ربوع أفريقيا ، سيتضح لنا أنه كان من الصعب على الأوربيين التغلغل فى القارة بسرعة أو السيطرة عليها سيطرة كاملة ، لو أنهم أقدموا على ذلك سيرا على الأقدام • ومن المؤكد أنهم ما كان بامكانهم أن يفلحوا فى ذلك البتة بغير تناول العقاقير المضادة للملاريا • وهكذا بلغ الاقبال على الكينين شأوا كبيرا بحيث عجزت أشجار بيرو التى يستخرج منها على الاستجابة لكل الاحتياجات التى تطلب منها • وفى ١٨٥٤ ، أى فى نفس السنة التى شهدت تحرك عملية « البلياد » شرع الهولانديون فى زراعة شجرة لحاء الكينا (**) فى جاوة باستخدام بذور مهربة من بوليفيا ، وبعد ذلك بست سنوات زرع الانجليز هذه الشجرة

(★) ومادة أخرى تدعى resin of julep

(★★) Cinchon

فى الهند ، وفى مشارف القرن العشرين ، كانت جميع احتياجات العالم من الكينين تقريبا تستورد من هاتين المنطقتين • وهكذا مهدت الحركة الاستعمارية الأوربيـة فى آسيـا شرطا لا غنى عنه لحركة الزحف على افريقيـا (*) •

وتمثل البواخر ومحصنات الكينين نوعى التكنولوجيا اللذين نجحا فى التصدى لمعوقات الطبيعة • غير أن الأوربيين عندما أقدموا على المخاطرة فى مواقع أخرى ، فانهم تعرضوا لمقاومة الأهالى الوطنيين • وتطلبت هذه المقاومة الالتجاء لقوة الأسلحة والتكتيكات ، وبذلك يكون تاريخ الاستعمار قد سار فى خط مواز لتطور فن الحرب •

ولقد اعتمد تفوق الأوربيين فى الحروب البرية على أسس ترجع الى عهد بعيد ، غير أنه فى الأماكن القصية من العالم ، حيث يتمتع الوطنيون بمميزات التفوق فى العدد ومعرفة الأرض ، لم تقتصر حاجة «الامبريالية» على ميزة التكافؤ فى جميع المقومات ، ولكنها كانت تحتاج الى التفوق الساحق والتفاوت الكبير فى القوة ، الذى يساعد القوات مهما تضاءل عددها ـ حتى فى مناسبات الاستكشاف الفردى وجماعات الاتجار ـ على امكان التغلب على مقاومة الوطنيين • ولم تتكشف هذه الدرجة من التفوق الى أن جاء منتصف القرن التاسع عشر ، كنتيجة لما حدث من ثورة فى الأسلحة النارية •

فلم يسبق لأى عصر فى التاريخ أن أحدث تطورا مذهلا فى أسلحة المشاة يتشابه مع ما حدث فى القرن التاسع عشر • فمن ناحية قوة النيران المؤثرة ، يعد الفارق بين بندقية الحرب العالمية الأولى وغدارة مسكيت فى عهد نابليون أعظم من الفارق بين « مسكيت » نابليون والقوس والسهم • وخلافا لما حدث فى حالة التحصين باستعمال الكينين واستخدام البواخر النهرية ، تطورت البندقية الحديثة اعتمـادا على اسـتخدام الأوربيين والأمريكان لها ، وكانت الاستعانة بها فى الحرب الاستعمارية مجرد شىء هامشى عابر ، ولكن من سخريات القدر ، أن تغير هذه التكنولوجيا الحديثة توازن القوى فى العالم غير الغربى أكثر مما حدث فى الغرب ذاته •

ويعزى تطور المدفع الحديث الى سلسلة معقدة من الخطوات التقدمية الصغيرة ، اشتركت فى خطوها مصادر عديدة شتى ، يرجع بعضها لقرون خلت ، وبمقدورنا أن نفرق بين مرحلتين • ففى المرحـلة الأولى ساعدت مبتكرات مثل غطيان الطابة والششخنة والطلقات الاسطوانية والخراطيش

(*) Sine qua non

المصنوعة من الورق على بلوغ عملية تعمير المدفع قمة الكمال · وبدأت المرحلة الثانية بعد ظهور عملية التعمير من ناحية الترباس بفضل البروسيين ، وبلغت ذروتها فى المدفع ماكسيم · ولم يكن الانتقال من عملية التعمير من فوهة الماسورة الى عملية التعمير من النهاية الخلفية للماسورة فى ستينيات القرن التاسع عشر ، خطوة تقدمية بسيطة فى عالم التكنولوجيا فحسب ، فقد زادت الفجوة اتساعا فى القوة الى حد مذهل بين الأوربيين وباقى الشعوب ، وأدت الى تفجر النزعة الامبريالية فى نهاية القرن · ولو أردنا فهم أهمية هذا التحول الخطير ، علينا أن نتمعن فى بحث حال الأسلحة والتكتيكات الأوربية وغير الغربية ، وما ترتب على ذلك من تفاوت فى القوة قبل ستينيات القرن التاسع عشر وبعدها ·

ففى بداية القرن التاسع عشر ، كان السلاح العيارى لجندى المشاة هو المسكيت التى تعمر من فم الماسورة ذات السطح المصقول ، والتى يستطاع تثبيت السونكى عليها · وكانت البندقية (بس) بكسر الباء ، البنية اللون التى استغملها الجنود البريطانيون حتى ١٨٥٢ ، هى نفس السلاح الذى استخدمه جنودهم فى بلنهايم ١٧٠٤ · وكان المدى الرسمى لهذه البندقية ٢٠٠ ياردة يعنى ١٦٠ مترا ، وان كانت لا تتصف بالدقة حتى اذا صوبت على نصف هذه المسافة ، مما دعا الى اصدار الأوامر للجنود بالكف عن اطلاق النيران ، ما لم يروا بياض عيون أعدائهم ! · وبالرغم من كل هذا فانهم كما يقول صانع هذه البندقية (*) ، كانوا يطلقون كميات هائلة من الرصاص ، تتماثل فى وزنها هى ووزن الجندى ، على كل عدو تصوب عليه لقتله ، ولما كان تعمير الماسورة يستغرق ـ عادة ـ دقيقة أو أكثر ، لذا أثبتت هذه البندقية فائدتها كبلطة أكثر من نفعها كبندقية ·

وكان أبكر تعديل أدخل على أسلحة المشاة هو شخشنة ماسورة البندقية ، مما ساعد على دوران الطلقة حول محورها ، وانطلاقها فى خط مستقيم · وكانت الفكرة قد اختبرت طويلا فى البنادق الرياضية والبنادق التجريبية · فقد استعمل الجنود الأمريكان فى حرب الاستقلال بنادق للصيد كان بالامكان تصويبها تصويبا مؤثرا لمسافة مائتى ياردة (١٦٠ مترا) أى ضعف مدى البندقية براون بس تقريبا · وتسلح بالمثل بعض الجنود الفرنسيين فى الثورة ببنادق مشخشنة ، وجرى شىء مماثل فى بعض وحدات قليلة من الجيش البريطانى ، غير أن بنادق بواكير القرن التاسع عشر ، كانت حافلة بأوجه النقص ، مما جعلها غير صالحة للحرب الجماعية ، اذ كان من الصعب تعمير الطلقات الكبيرة نوعا حتى تستطيع

(*) W. W. Greener.

الدوران دورانا صحيحا ، الى جانب سرعة اصابة الماسورة بالتلف مما يصعب تعميرها ، واذا كان بمقدور ممارسى الرياضة توجيه عناية خاصة الى بنادقهم والانتباه الى كل ما تستلزمها ، فان الجنود العاديين لا تتاح لهم فرصة مماثلة ، وبخاصة عندما يلتهب جحيم المعركة . وهذا يفسر لماذا استبعدت جحافل الكتل البشرية المتراصة فى حروب نابليون البندقية . وبالرغم من كل هذا استمرت تجارب البنادق المششخنة ، وتسلحت بها الوحدات الخاصة مثل لواء البنادق البريطانى (*) .

وحدث التقدم المهم الآخر فى غطاء الطابة . فقبل أوائل القرن التاسع عشر ، كان البارود يشعل عن طريق ديك الصوانة ، وهى وسيلة لا تناسب أى جو غير الجو الجاف ، واستحدث الكسندر فورسايت استخدام الفرقعة فى عملية اشعال البارود . وفى ١٨١٦ ، سجل توماس شو اختراع غطاء الطابة ، وفى الاختبارات التى أجراها مكتب وولويش للجيش البريطانى ، لم يكذب اشتعال غطاء الطابة للبندقية برونزويك الا بنسبة ٤½ فى كل ألف طلقة بالمقارنة ب ٤١١ فى الألف فى حالة ديك الصوانة ، وتمخضت هذه الاختبارات عن تسليح وحدات بريطانية منتقاه ١٨٣٦ ببنادق برونزويك . وبالاستطاعة الحكم على تأثير هذه البنادق من التقرير الآتى عن احدى المعارك التى دارت بالقرب من كانتون ١٨٤١ : « هناك سرية من جنود الجيش البريطانى الهندى مسلحة بمسكيت تشتعل عن طريق ديك الصوانة التى لا تبلى بلاء حسنا فى الجو المطير ، وقد حاصرت بضعة آلاف من الصينيين هذه السرية . وكانت مهددة بالخطر عندما أمرت سريتان من جنود البحرية مسلحة بمسكيت بغطاء الطابة بالتدخل ، فتشتت العدو على الفور بعد أن تكبد خسائر فادحة » .

وثالث تقدم مهم هو الطلقة الاسطوانية المخروطية التى صممت للتغلب على عدم دقة التعمير من فم الماسورة ، ومن المنظور المثالى ، يتعين أن تتصف الطلقة بصغر الحجم حتى تنزلق بسهولة فى الماسورة ، وان وجب أن يتوفر لها الحجم المناسب للتملص من الششخنة عند انطلاقها من الماسورة ، ولقد تركزت المحاولات الأولى على دفع الطلقة للتمدد لحظة اطلاق النار . ومن بين المحاولات الموفقة البندقية «مينى» (**) ، التى تميزت طلقتها بطولها وطرفها المدبب ، وبشمعة مؤخرتها التى تساعدها على التمدد . ولم تقتصر مميزات طلقة مينى على تعشيقها فى الششخنة ،

(*) وتسلحت ايضا فى الجزائر ١٨٣٠ وحدة (مطاردى اورليانز) . Chasseurs d'Orléans

(**) Minie

وقدرتها الحسنة على الدوران ، ولكن شكلها الانسيابى ساعدها على الانطلاق فى خط مستقيم · وجاءت النتائج مذهلة · اذ استطاعت البندقيـة مينى أن تصيب الهدف على بعد ١٠٠ ياردة فى ٩٤٫٥٪ من الوقت بالمقارنة بـ ٧٤٫٥٪ فى حالة البندقية برونزويك ، وفى حالة ربعمائة ياردة جاءت الأرقام ٥٢٫٥٪ و٥٤٫٥ على التوالى ، وفى عام ١٨٤٩ وزعت بنادق مينى على وحدات الجيش الفرنسى ، ثم وزعت بعـد ذلك بعامين على القوات البريطانية ، ولما كانت أوربا حينذاك تنعم بالسلام لذا دعت الضرورة الى اختبار الأسلحة الجديدة فى موضع آخر · وأرسل الفرنسيون احدى وحداتهم (*) لمحاربة الجزائريين باسـتعمال بنادق ذات طلقات طويلة مستحدثة ، واختبر البريطانيون البنادق مينى ضد الافريقيين فى معركة الكفرة ١٨٥٢ ، وبلغت هذه المرحـلة من تطور البندقيـة ذروتها بين ١٨٥٢ و ١٨٥٣ عندما استعاض الجيش البريطانى ببندقية براون بس ببندقية لى أنفيلد ، التى كانت تطلق أحدث أنواع الطلقات ، وكانت هذه أول مرة تصنع فيها البندقية الحربية الأوربية على غرار الأسلوب الأمريكى الذى يسمح بتبديل الأجزاء بقطع غيار ، وكانت ميزتها الكبرى مشابهة لميزة البندقية مينى الفرنسية ، أى مماثلة لها فى الدقة ، اذ كان مداها الرسمى ١٢٠٠ ياردة ، أما مرماها المؤثر فبلغ ٥٠٠ ياردة ، وتمثل هذه الأعداد خمسة أو ستة أضعاف مرمى البندقية براون بس ··

ورغم المرمى المذهل لهذه البنادق الحديثة ، الا أنها اتصفت ببطئها وثقل وزنها ، وكان الجنود يحتاجون الى دقيقة كاملة لاعادة التعمير والوقوف، ويؤدى ذلك الى تعرضهم لنيران العدو ، وهناك عيب آخـر : السحب الدخانية التى تتصاعد من البنادق فتكشف الجنود ، بالاضافة الى الأخطاء الشنيعة فى دقة اصابة الهدف ، والخرطوشة الورقية الرقيقة الشديدة التأثر بالجو الرطب ، وكان من الصعب اطلاقها أو اعادة تعميرها أثنـاء الجرى أو عند امتطاء الجياد ، وبعد أن استخدمت فى الحروب والمخاطرات الامبريالية الأوربية ، سرعان ما احتجبت بعد ظهور البنادق التى تعمر من الترباس ·

وفى أفريقيا ، اضطلعت البندقية بدور مكمـل للدور الذى بدأه التحصين بالكينين ، وقد سجل تأثيرها فى بعض المجلات والكتب · على أن البندقية لم تكن بالشىء المستجد على معظم افريقيا ، فقبل ١٨٣٠ ، كان أهل الجزائر يصنعون بنادقهم بأنفسـهم ، ويستعينون أحيـانا

(*) وتسمى Chasseurs d'Afrique (قناصة افريقيا) ، وكانت تسمى قبل ذلك Chasseurs d'Orleans.

بمواسير وخزائن وسقاطات أوربية ، أما الأسلحة الأرخص والأكثر شيوعا فكانت تصنع بالكامل فى افريقيا • وأدخل البرتغاليون والعرب الأسلحة النارية فى الصحراء الجنوبية • وفى هذه البقاع ، نادرا ما صنع الافريقيون بنادقهم ، فقد أدى افتقارهم الى السواقى اللازمة لادارة الكير فى أعمال الحدادة الى عجزهم عن الحصول على درجة حرارة عالية تساعد على صنع المواسير الحديدية ، أما القاطنون قرب السواحل ، فانهم لم يصادفوا أية مشقة ، للحصول على البنادق والذخائر من التجار الأوربيين • وكانت أكثر البنادق شيوعا « البنادق الدانمركية » (*) التى كانت رخيصة ورديئة المصنعية وقابلة للتفجر ، الا أنها كانت مناسبة لحالة التكنولوجية السائدة ، اذ كان بمقدور حدادى القرية اصلاحها عندما تصاب بعطب ، ولما كان البارود الافريقى غير مقدد ، لذا اتسم بقدر من الضعف مما جعله لا يتناسب وهذه الأسلحة ، ولكن رغم رداءة هذه الأسلحة ، الا أنها كانت أفضل حالا من الأسلحة الصينية التى استعملت فى حرب الأفيون الى جانب « خزانة الايراء » (**) والرماح والسهام والأقواس والجينجال •

ولما كانت جميع الأسلحة النارية التى استعملها الأفريقيون مستوردة لذا ازدادت البنادق ندرة كلما توغلنا بعيدا عن الساحل • ومن المنظور العسكرى ، كان داخل أفريقيا ينقسم الى قسمين : ففى دول السافانا ، تقل اصابة الخيول بمرض النوم الفتاك • وفى هذه البقاع ، كان الفرسان هم عماد الجيش ، ويرتدون لباسا كالدثار أو مصنوعا من الجلد، ويتسلحون بالدروع والسيوف والرماح • وتحمل قوات المشاة الأقواس والسهام والبلطات القتالية والهراوات والمزاريق • وتقام الأسوار والخنادق لحماية المدن ، وكانت الأسلحة النارية قليلة ومكلفة ، والذخيرة والبارود باهظى الثمن ، مما صعب استعمالها للتدرب على اصابة الهدف • وحرص بعض الحكام على عدم تسليم جنودهم البنادق الا فى حالات اندلاع القتال فقط ، خشية تصرفهم فيها بالبيع ، وعلى الرغم من تعرف السودانيين على الأسلحة النارية منذ قرون طويلة ، الا أن دول السودان كانت قد دخلت بالكاد فى عصر البندقية ، عندما اعترض الأوربيون سبيلها •

وفى مناطق الغابات وشرقى افريقيا وجنوبها ، ندر وجود الفرسان، وكانت أنظمة بلدان المناطق الشاسعة مفككة ، واقتصر حمل السلاح النارى فيها على البدو الرحل والمسافرين والتجار الأوربيين ، وكانت

(*) Dane Guns
(**) Match Locks.

الأسلحة المفضلة هي الرمح والقوس والسهم المسمم والرمح المقذوف (*) ۰

وقبل ستينات القرن التاسع عشر ، كان المرض وابتعاد الأوربيين عن مواطنهم الأصلية هما اللذين يحميان مناطق افريقيا المسلحة بأسلحة متخلفة ۰ ولم يتجرأ الأوربيون على الابتعـاد عن الساحل الا فى بقاع قليلة ، ففى حرب أشانتى ١٨٢٦ ، وأيضا فى الحرب الانجليزية البورمية الأولى وحرب الأفيون ، تحقق النصر للانجليز بفضـل المدفعية وقذائف كونجريف ، واعتمدوا اعتمادا كبيرا على المياه المنقولة ۰ أما تاريخ جنوب أفريقيا فى مشارف القرن التاسع عشر فكان عبارة عن بعض المضايقات والمشاكسات التى استمرت طويلا بين عدد قليـل من البيض المسلحين بالمسكيت وعدد كبير من أهل افريقيا المسلحين بالرماح المقذوفة والبلط والقليل من البنادق ، ولم تتوقف هذه المشاكسات الا بعد أن حصـل البيض بعد منتصف القرن على بنادق تعمر من ناحيـة الترباس ، وعلى مدافع ميدان ۰

وعندما هاجم الفرنسيون الجزائر ١٨٣٠ ، اكتشفوا تسلح القوات الجزائرية والتركية بالمسكيت وبنادق مماثلة لبنادقهم ، وغالبا ما تميزت بدقتها فى التصويب على مسافات بعيدة ، وما لبث سكان المناطق البعيدة عن الساحل أن هبوا تحت قيادة الأمير عبد القادر الذى اشـتهر بالفطنة والحذق فى تزعم حرب العصابات ، واضطرت فرنســا عند غزوها الجزائر الى ارسال موجات متلاحقة من القوات ، وما أن اقتربت ١٨٤٦ ، حتى بلغت قواتها ١٠٨٠٠٠ رجل ، أى ثلث الجيش الفرنسى ، وكانوا يحاربون جيشا مؤلفا من نصف عددهم من الجزائريين ۰ وتماثل الطرفان (الجيش الفرنسى وجيش عبد القادر) فى التسلح بأحدث البنادق ، وفى أحد المواقف ، كان لدى جيش عبد القادر ثمانية آلاف بندقية ، من بينها الفان من البنادق الانجليزية المهـربة عن طريق مراكش ، واســتمرت فرنسا تقاتل حروبا ضروسة مريرة زهاء عشرين سنة ، لفرض سيطرتها على هذه المستعمرة الجامحة ، وربما اتخذ فتح الجزائر مثلا للامبريالية التى حققت مهمتهـا دون انتفــاع بالتفوق التكنولوجى ۰ اذ كانت الدوافـع موجودة ، كما توفر الاستعداد للتضحية بكل مرتخص وغال وبالأفراد ، أما ما افتقر اليه الفرنســيون فكان المميزات التى وفرتهـا المستحدثات التكنولوجية للأوربيين فى فتوحاتهم وغزواتهم الامبريالية الأخيرة ۰

(*) assegel .

أما أهم هـذه المستحدثات فهو عملية تعمير البنـدقية من ناحية الترباس • وفكرتها بسيطة • فاذا أمكن فتح البندقية من ناحية الخزنة ، سيكون بالمقدور آنئذ اعادة التعمير بسرعة وأثناء الانبطاح على الأرض ، والأهم هو امكان استعمال طلقات أصلب وأكثر تماسكا ، وبذلك تزداد فاعلية ششخنة الماسورة ، ويزداد مرمى النيران وتزداد دقته • ويعد هذا الابتكار من المبتكرات التى استغرق تطويرها قرونا طويلة الى أن أثبت فاعليته فى نهـاية المطـاف ، وسـاعد على فتح الطريق أمـام خطوات أبعد ارتقاء •

وظهرت أكبر عمليات التعمير من ناحية الترباس للأغراض العسكرية فى القرابينة (*) ، التى استعملت فى الحرب المكسيكية الأمريكية ١٨٤٨ وفى احـدى البنادق (**) ذات الترباس والابرة التى استعملها الجيش البروسى فى أربعينيات القرن التاسع عشر وخمسيناته ، واستمرت بعض البلدان تنظر الى هذه الأسلحة بقدر كبير من الاعجاب والانبهار ، كما يشهد بذلك اختيار الانجليز للبندقية لى أنفليد التى تعمر من فوهة الماسـورة ١٨٥٣ ، غير أنه فى حرب البروسيين مع الدانمراك ١٨٦٤ وفى حربهم مع النمسا ١٨٦٦ ، اكتسبوا من استعمال البندقيـة ذات الترباس الذى تبرز منه ابرة ضرب النار ميزتين كبيرتين : فلم يقتصر الأمر على امكان اطلاق الجنـود البروسـيين النيران بسرعة تزيد ثلاث مرات على سرعة أعـدائهم ، ولكنهم تمكنوا من تحقيق ذلك أثنـاء الوضع راقدا والوضع مرتكزا ، وما كاد التعمير عن طريق خزنة البندقيـة يثبت وجـوده فى المعركة ، حتى رأينا الفرنسيين يتجهون الى اعادة التسلح باحدى بنادقهم العتيدة (**) ، التى أثبتت أفضليتها وتفوقها حتى على البندقية الألمانية ذات الابرة • أما البريطانيون الأكثر جنوحا الى النزعة المحافظـة فقد حولوا بنادقهم (لى أنفليد) الى بنادق تعمر من الطرف الخلفى للماسورة عند الخزنة وزودوها بآليات سنايدر المماثلة ، وبعـد أن أثبت التعمير عن طريق الطرف الخلفى للماسورة فاعليته فى الحرب الفرنسية البروسية اتجهت جميع الجيوش الأوربية الى اتباع هذه الطريقة •

وكانت البنادق الحربية التى تعمر من الطرف الخلفى للماسـورة سريعة التعطل ، والتعرض لتسرب الغازات الساخنة من خلال الماسورة • وكلما ازداد تعطلها ، ازداد تسريبها للغازات ، حتى اضطر الجنود لحملها

(*) Carbine

(**) بندقية Dreyse

بطول ذراعهم عند اطلاق النيران . وأثرت هذه الطريقة كثيرا على كفاءتهم وأدركت المعامل الملكية الانجليزية في ووليتش ، التي أجرت اختبارات عديدة على التعمير من الطرف الخلفي للماسورة أن الضعف يرجع الى استعمال خراطيش من الورق . واكتشفت قيمة استعمال خراطيش من المعدن تساعد على حل هذه المشكلات . وفى ١٨٦٦ ، ابتكر الكولونيل بوكسر من العاملين بالمعمل خرطوشة من النحاس تحفظ الطلقة والبارود وغطاء الطبة معا ، وتميزت بصلابتها وعدم نفاذ الماء بداخلها ، وأهم من ذلك أنها تحكم اغلاق الماسورة أثناء الانفجار ، وتسمح بالتصويب الدقيق ، وكانت البندقية سنايدر - انفيلد (١٨٦٧) هي أول بندقية حربية فى هذا الابتكار الجديد . وجاء مرماها مذهلا . فبينما سجلت البندقية ذات الترباس وابرة ضرب النار (الألمانية الأصل) مدى يصل الى ٣٥٠ ياردة يعنى ٣٠٠ متر وسجلت الشاسبو (٦٥٠) ياردة يعنى ستمائة متر تقريبا ، سجلت سنايدر - أنفيلد رقما قياسيا بلغ ألف ياردة . وتنافست جميع الجيوش الأوربية على انتاج أسلحة مبتكرة بمقدورها استعمال الخرطوش المعدنى الجديد . وفى سبعينات القرن التاسع عشر ، تسلح الجنود البريطانيون ببندقية مارتيني - هنرى ، وتسلح الفرنسيون ببندقية جراس ، أما الألمان فتسلحوا ببنادق ماوزر .

وفى الثمانينات ، ظهر ابتكاران بلغا بصناعة البنادق الكمال . وكان أحد هذين الاختراعين هو المتفجرات بلا دخان ١٨٨٥ ، وفيه استخدم نوع من البارود قوامه القطن المفرقع (النتروسليلوز) والنتروجلسرين ويتميز بعدم تكذيب طلقاته ، وعدم نفاذ الرطوبة فيها ، وتفوقه على البارود فى القوة ، وبمقدوره دفع الطلقات الأصغر بسرعة أكبر وخط مرور مسطح ، وبذلك أصبح باستطاعة الجنود اطلاق النيران دون الكشف عن موقعهم ، ودون تعرض للاعاقة من السحب والدخان . وبين ١٨٨٦ و ١٨٩١ ، تخلت جميع الجيوش الأوربية عن البارود القديم ، بل وابتكر البريطانيون نوعا أكثر ثباتا من المفرقعات (الكورديت) يصلح للاستعمال فى أجواء المستعمرات الشديدة الحرارة .

وثانى اختراع هو الخزنة وتكرار آلية التعمير . وكانت البنادق التى تعيد التعمير موجودة أثناء الحرب الأهلية الأمريكية ، ولكنها كانت أميل الى التفجر عند حدوث تلامس طلقة بطلقة أخرى . وفى ١٨٧٧ سجل الساعاتى الاسكتلندى جيمس لى امتياز اختراع خزنة آمنة ، سرعان ما انتقل استعمالها الى كل الجيوش الكبيرة الأخرى ، ففى ١٨٨٠ تخلى الفرنسيون عن طراز « الجراس » ، واتبعوا آليات اعادة التعمير التى ينسب ابتكارها الى كروباتشيك ، الذى أجرى تعديلات فى « آليات (الجراس) » . وفى

١٨٨٦ ، استعاضوا عن النظامين بآليات « ليبل » ، واخترت جميع هذه الأسلحة فى السودان • وفى ١٨٨٤ ، أدخل الألمان طريقة التعمير من الخزنة الى بنادقهم الماوزر ، بينما خطا البريطانيون خطوة مماثلة لتعديل مختلف بنادقهم (*) • وما جاءت التسعينات حتى عفا الزمان على جميع البنادق المنفردة الطلقات فى جميع ربوع أوربا •

ولم يكن مستغربا منطقيا أن تؤدى البندقية التى تعيد التعمير الى اختراع الرشاش ، وظهر أول رشاش « جاتلنج » فى الحرب الأهلية الأمريكية ، وقبيل الحرب الفرنسية البروسية اخترع الفرنسيون المترليوز (**) وجميع هذه الرشاشات متعددة المواسير ، وتحمل باليد ، ولا تختلف عن مدفعية الميدان فى صعوبة تشغيلها فى أى موقع قريب من مدى نيرانها • وفصلا عن ذلك ، فكثيرا ما تصاب بالأعطال وهى فى « عز » المعركة • واشترى البريطانيون عشرة رشاشات جاتلنج ١٨٦٩ • وفى ثمانينات القرن ، زودوا سفنهم الصغيرة ومستعمراتهم بهذه الرشاشات • وفى ١٨٨٤ ، ابتكر هيرام ماكسيم أول بندقية قادرة على اعادة التعمير الذاتى ، بطريقة آلية صحيحة • وتميزت بخفة الوزن مما ساعد على سهولة حمل الجندى لها ، واحتلالها أى موقع دون أن ترى• وكانت قادرة على قذف ١١ طلقة فى الثانية • وفى السنة التالية زار اللورد ولزلى الذى فتح آشانت مصانع ماكسيم ، وأعرب عن فائق اعجابه بالمهام التى تستطيع البندقية النهوض بها ، وبخاصة فى حرب المستعمرات ، وقدم جملة مقترحات للمستر ماكسيم ، وأثبت الرشاش ماكسيم قدرته على احراز نتائج حاسمة فى حروب المستعمرات فى منعطف القرن ، يتماثل ودور البندقية سريعة الطلقات فى السبعينات والثمانينات•

وجاءت آخر خطوة فى تقدم تطور البندقية كاستجابة لاحتياجات الامبراطورية ، وكما قال المؤرخان اللذان عنيا بكتابة تاريخ البندقية(***) « •• لقد رفضت القبائل الهمجية التى اشتبكنا فى القتال معها دوما الانصياع والرضا بالطلقة نمرة ٢ • والواقع أنها كثيرا ما تجاهلتها تجاهلا تاما ، وبعد اطلاقها من أربعة أو خمسة مواقع سقطت فى مواضع قريبة أثارت عدم الارتياح » • واهتدى نقيب يدعى برتى كلاى من هيئة الذخائر فى الهند فى دوم ــ دوم الى الحل الذى يقضى على هذا الابتعاد عن الارتياح • وكان هذا الابتكار هو الطلقة المعدة على طريقة عش الغراب

(*) Lee-Metford, Lee-Burton, Lee-Enfield.

(**) Montigny

(***) Ommundsen and Robinson

التى ســــميت باسم « دوم ـ دوم » • وأحدث هذا الاختراع بالذات آثارا شريرة ، لأنه كان يخترق الجسم ، ويحدث ثقوبا واسعة فيه مما دفع الأوربيين الى اعتبار اصابة الأوربى لأخيه الأوربى ضربا من القســوة ، ولكن لا بأس من استعماله في الحروب الآســيوية والأفريقية لاصــابة الوطنيين !

واكتملت ثورة البندقية فى تسعينات القرن ، وتسنى لمعظم المشاة الأوربيين آنئذ اطلاق ١٥ طلقة من الرصاص في بضــع ثوان ، والرقود دون أن يراهم العدو ، فى أى مناخ ، ولمدى قد يصــل الى نصف الميل (ثمانمائة متر) • وربما حقق استعمال الرشاشات ما هو أكثر ، وبذلك انتهى عصر الشـجاعة الصحيحة والصلب ، وبدأ عصر ســباق التسلح وصناعة الآلات الفتاكة ، وان كان كبــار الجنرالات لم يتنبهوا لذلك لسنوات طويلة •

تتماثل ثورة البندقية هى وأى اختراع تكنولوجى آخر فى عــدم امكان حصر الكلام عنها على مخترعيها • بيد أن انتشار البنادق الجديدة والتكتيكات الجـديدة يعـد عملية بالغة الصعوبة والتعقيد قد جعل منها نموذجا لدراسة كيفيــة انتشــار التكنولوجيــا تحت ضغط الضرورة والحاجة ، ففى الصين ، أدت هزيمتها مرتين فى حربين ضــد القوات الأوربية ، والصراع ضد الثوار (*) الى دفع كثيرين الى اعادة النظر فى أسطورة التفوق الصينى فى المســائل التكنولوجيــة والعســكرية ، وفى الستينات وبعد ذلك ، أقنعت « حركة التعزيز الذاتى » الحـكومة بشراء المدافع الغربية والسفن الحربية الغربية وانشاء أحواض للسفن وترسانات لصنع الأسلحة ، غير أن هذه المحــاولات تعرضت للتعويق من أثــر نقص الاعتمادات المالية المخصصة لتمويلها ، وفى ١٨٨٥ ، عندما شاهد المبعوث الصينى فى لندن (لى هوانج شانج) بندقية ماكسيم صرح بعدم قدرة الصــين على تحمل نفقــات ســلاح يستهلك ما قيمته خمسة جنيهات ثمنا للخرطوشات (أو الطلقات) التى تطلق كل دقيقة • وكان نصف الجنود الصينيين حينذاك يحملون بنادق تعتمد على « خزانة الايراء » ، وربعهم يحمل بنادق من التى تطلق « بديك الصوان » • ولم يزد عدد المسلحين ببنادق تعمر من الطرف الخلفى للماسورة عن الربع ، أما القوات الاحتياطية فليست مجهزة بأية أسلحة نارية على الاطــلاق مكتفيــة بحمل الرماح والأقواس والسهام • وفيما بعد ، وعندما حدثت ثورة بوكسر ١٩٠٠ ، تمكنت قوة روسية من مهاجمة بكين مستخدمة رشاشين وأربعـة مدافع

(*) Taiping .

ضد آلاف من الجنود الصينيين المسلحين بالمسكيت • وفى النهاية لعل اخفاق حركة « التعزيز الذاتى » يرجع الى انحلال زعامة مانشو والطبيعة المحافظة للمجتمع الصينى

وتسللت ثورة البندقية الى أفريقيا فى أشكال مختلفة • فبعد أن أعاد الأوربيون تسليحهم بالبنادق التى تعمر من الطرف الخلفى للماسورة فى الستينات والسبعينات ، وبالبنادق التى تعيد تعمير نفسها فى الثمانينات ، تخلوا عن مقادير هائلة من الأسلحة الزائدة عن حاجتهم للوطنيين ، واستطاع الكثير من الأسلحة ، شق طريقه الى افريقيا عن طريق التجارة أو البحارة عبر افريقيا • وفى المناطق التى احتاج فيها الأوربيون الى عمال أفارقة ـ كما حدث فى جنوب افريقيا فى خمسينات القرن التاسع عشر وبعد ذلك ، كثيرا ما لم يكن بمقدورهم الحصول على هذه الخدمات الا فى مقابل بيع الأسلحة • وفى كل مرة استطاع المستعمرون البيض الحصول على أسلحة جديدة ، اهتدى جيرانهم السود الى السبل التى تمكنهم من الحصول عليها أيضا • غير أن البيض سواء أكانوا مستعمرين أو من العسكريين أو المبشرين ، كان لديهم مبرر للخوف من حصول الأفارقة على الأسلحة ، وحاولوا الحد من بيعها • ولقد نص قرار اجتماع بروكسل ١٨٩٢ على الربط بوضوح بين مصالح الأوربيين وثورة البندقية ، كما يبين من الكثير من التعليمات التى كانت تصدر حينذاك « كقصر بيع البنادق ذات الزناد وديك الصوان على الأفارقة الذين يعيشون بين خط العرض ٢٠ شمالا وخط العرض ٢٠ جنوب خط الاستواء ، وتحريم بيع البنادق التى تعمر من الطرف الخلفى للماسورة تحريما قاطعا » ، غير أن هذه القيود لم تزد عن كونها قيودا شكلية أو رمزية • اذ كان ما يهم الأفارقة فى نهاية المطاف هو الحصول على التكنولوجيا الأكثر تقدما ، وشراء القدرة التى يتمتع بها الأوربيون •

وتميزت الأسلحة الجديدة فى الستينات وبعد ذلك بشدة فاعليتها وفتكها ، بحيث استطاع من يملكها فى كثير من الأحيان ان يحصل على مأربه بمجرد التلويح والتظاهر بامتلاكها • فمن بين المكتشفين الأوربيين لافريقيا كان بعضهم (*) يحققون أهدافهم عن طريق مصادقة الأهالى الذين يزورونهم ، غير أن هناك آخرين اضطروا الى شن حملات شبه عسكرية مثلما فعل صموئيل وايت بيكر ، مكتشف منابع النيل برفقة ألف من

(*) من امثال René Caillé, David Livingstone, Heinrich Barth

الرجال وقدر كاف من الأسلحة والذخائر تكفى للاستعمال سنوات طويلة ، واكتشف ستانلى الكونجو بمعاونة حملة مؤلفة من مئات الأفراد ، ولم يتردد عن استعمال البنادق المخصصة لصيد الأفيال والمفجرات ضد أفارقة لم يروا مثل هذه الأسلحة النارية البتة • وبين هذين الطرفين المتقابلين ، كان معظم المكتشفين يحملون بنادق قليلة ، لصيد الوحوش « وتهويش » المواطنين بها ، واكتسب أحد السنغاليين الذين رافقوا مكتشفا فرنسيا ، كان الممثل الوحيد لفرنسا فى الكونجو شهرة واسعة بفضل استعماله لبندقية ونشستر التى تعيده تعمير نفسها ، واشتهر أيضا لبراعته بالصيد بها ، وكان جوستاف رولفس عندما يتجول فى شتى أنحاء جزيرة بورنيو يهدد الأهالى الوطنيين بين الفينة والأخرى ببندقيته • واعتمد هاوبتمان كلنج فى اكتشافه لغانا الوسطى على رشاش كان يحطم به جدران الأكواخ ويثير الهلع ، ولم يكن الفارق بين السياح والغزاة مشوبا بالغموض مثلما كان فى أواخر القرن التاسع عشر فى أفريقيا •

وعند اقتراب القرن من نهايته ، تزايد ابتعاد المعارك الاستعمارية عن طابعها المعهود • ويرجع ذلك الى الارتقاء المتواصل للأسلحة الأوربية ، ولابتعاد المناطق الافريقية المستولى عليها فى كثير من الأحيان عن السواحل مما جعل الحصول على الأسلحة الحديثة أمرا شاقا • وفى حروب الستينات ، كالحرب التى نشبت بين الاثيوبيين والبريطانيين ، أو بين دولة أورانج وسوثو ، كان لدى الأوربيين بنادق تعمر من الطرف الخلفى للماسورة ومدفعية ميدان ، بينما لا يملك الأفارقة غير المسكيت والرماح ، نعم لقد كسب الأوربيون المعارك ، ولكنهم لم يحسموا الموقف كما ينبغى بالاستيلاء على الأرض • وفى السبعينات والثمانينات ، قام ساسة أوربا من قبيل التظاهر والعنجهية والاطمئنان على نحو لم يعهد من قبل فى حوليات الغزاة برسم خطوط على خريطة أفريقيا تبين المواقع التى ستقع فيها غزواتهم مستقبلا ، ولم يكن ما أقدموا عليه الا انعكاسا لايمانهم بالقوة المطلقة للأسلحة الأوربية ، وقدرتها على سحق أية مقاومة وطنية ، وفى حرب آشانتى (١٨٧٣ ـ ١٧٨٤) وحرب الزولو ١٨٧٩ ، أثبتت انتصارات الوحدات الأوربية والوحدات التى يقودها أوربيون على الجيوش الافريقية المؤلفة من عشرات الألوف ، الى أى حد تميزت بنادق الجاتلنج والبنادق التى تعمر من الطرف الخلفى للماسورة تفوقها وقوتها ، وفى ١٨٨٧ ، سحق جيش فرنسى مؤلف من ١٤٠ مسلحا (*)

(*) مسلح ببنادق طراز Gras Kropatchek

ببنادق تكرر تعميرها ، محمود الأمين ، واضطلعت الرشاشات مارك جاردنر ونوردنفلت بدور مهم في عملية احتلال مصر (١٨٨٢ - ١٨٨٤) ٠

وفي التسعينات ، وبعد أن قاومت القيادات العليا بقوة الاستعانة ببنادق ماكسيم في جيوشها الأوربيـة ، وافقت على ارسال بعضها الى المستعمرات ٠ وحولت هـذه البنادق هي ومدافع الميدان والبنادق التى تعمر من الطرف الخلفي للماسورة متعددة الطلقات هذه المعارك الى مذابح من طرف واحد ، وفى ١٨٩١ ، وبالقرب من بورتونوفو ، هزمت وحدة فرنسية مؤلفة من ٣٠٠ رجل جيش «فون» فى معركة لم تستغرق أكثر من ساعتين ونصف الساعة بعد أن أطلقت ٢٥٠٠٠ طلقة من الذخيرة ، وفى ١٨٩٧ ، هزمت شركة النايجر الملكية قوات خليفة سوكوتو اعتمادا على سبعة مدافع صغيرة ، وست بنادق ماكسيم ٠ وفى تشاد ١٨٩٩ ، هزمت قوة فرنسية قوامها ٣٢٠ رجلا معظمهـم من الجنود السودانيين محاربى « رباح » (٢٫٠٠٠ مقاتل) ، وكانوا مسلحين بألفين وخمسمائة بندقيـة ٠

وفى أغلب الظن ، لعل أفضل حرب معروفة بين الحروب الاستعمارية هى غزو اللورد كتشنر للسودان ١٨٩٨ ، وقد رافقته ست بواخر مسلحة تسليحا ثقيلا وأربع سفن أخرى ٠ وكان لدى جيشه ٢٤ قطعة من المدفعية و ٢٠ بندقية ماكسيم ٠ وفى ٢ سبتمبر ١٨٩٨ ، واجهت الحملة الجيش الرئيسى للدراويش المؤلف من أربعين ألف شخص فى أم درمان ٠ ودون تشرشل وصفا للمعركة جاء فيه :

« أطلقت المشاة نيرانها بثبات وبلا اكتراث ، ودون تعجل أو اضطراب لابتعاد العدو عنهم ٠ والتزم الضباط الحذر ٠ وفضلا عن ذلك ، فقد كان الجنود شغوفين بعملهم ، وبذلوا جهدا كبيرا ، وان كان العمل البدنى الصرف قد بات مثيرا للملل فى الحاضر ٠ وطيلة الوقت استمرت على الجانب الآخر من السهل الطلقات تمزق الأجساد وتفتت العظام ، ونزفت الدماء بغزارة من الجروح ، وكافح الرجال الشجعان من خـلال صـفير قرقعة الرصـاص وتفجر القنابل وتناثر الغبار ، وهم يعانون يائسـين ثم يموتون » ٠

وانتهت المعركة بعد ساعات قليلة ، وسقط فيها ١١٠٠٠ من القتلى من الدراويش و ٤٨ من البريطانيين ٠ وعقب تشرشل على ذلك بقوله : « هكذا انتهت معركة أم درمان ، ولعلها أعظم دليل على انتصار أسلحة العلم على الهمج ٠ ففى غضون خمس ساعات ، تم القضاء على أشجع جيش همجى وأفضل الجيوش التى تم حشدها حتى الآن ضد قوة أوربية

حديثة ، بلا أقل صعوبة ، وبعد مواجهة خطر بسيط نسبيا ، فلم يتعرض المنتصرون الا لخسارة واهية » • وكما لاحظ تشرشل فان أهم عامل لا غنى عنه حقا هو سلاح العلم الذى حقق أكبر تفاوت فى قوة النيران بين الأوربيين والأفارقة •

وتستأهل استراتيجية وتكتيكات الامبريالية الجديدة تنويها خاصا ، لما تكشف عنه من تغير فى مقومات الحرب • فنادرا ما واجهت الجيوش الاستعمارية تكتيكات حرب العصابات • وبدلا من ذلك فانها كانت تهاجم المرة تلو الأخرى هجوما بالمواجهة تشنه كتل كبيرة من المقاتلين على الأرض المكشوفة للقتال • ويصح هذا الحكم عن الصينيين والزولو والندبيل (*) والدراويش والغون وغيرهم كثيرون • وكثيرا ما كشفت هذه القوات عن أعلى درجات الانضباط والشجاعة ، وحاربت وفقا لأنسب تكتيك يتواءم ونوع الحرب التى اعتادوها • غير أن هذه التكتيكات قد أصبحت عديمة الجدوى فى مواجهة الأسلحة الأوربية • فقد أصبحت النيران تطلق أثناء التحرك ، ويعاد تعمير البندقية فى الوضع واقفا ، أو عند اسراع العدو واقترابه بدرجة كافية لرشق رمح ، مما جعل هذه التكتيكات تتخذ مظهرا انتحاريا •

وأعادت القوات الامبريالية فى مواجهة الهجوم المكشوف لحشود المقاتلين احياء تكتيك « مربع الجيش » الذى عرف أيام نابليون ، يعنى انشاء قلعة بشرية محاطة بجدار من نيران الرصاص لا يمكن اختراقه • ويوفر هذا التكتيك دفاعا منيعا قريبا ضد أية قوى مهاجمة مسلحة بأسلحة متدنية ، بغض النظر عن ضخامة عددها • وحدثت معركة من هذا القبيل بالقرب من زيمبابوى فى جنوب افريقيا • فقد واجه طابور يتألف من خمسين شرطيا بريطانيا من جنوب افريقيا محاربى ندبيل (خمسون ألف مقاتل) تحت قيادة الملك لوبنجولا • وكان الندبيل يحملون رماحا مقذوفة ودروعا ، أما البيض فكانوا مسلحين بأربعة بنادق ماكسيم وبنادق نوردينفلد وجاردنر • ووصف الالتحام المقدم جراهام هاتشسون ـ وهو كاتب بريطانى من مدرسة مولعة بالعبارات الطنانة التى كانت شائعة فى العهد الامبريالى :

« اشتعل الحماس العنصرى المتعصب عند رجال القبائل الشرسين فتسلحوا بالرماح وركبتهم العفاريت بينما كانت آلاف طبول الحرب تدق نغمات وحشية متصاعدة داعية الى الأخذ بالثأر ، وسط الأكواخ المتناثرة • وعلى الرغم من أن وحداتنا قد تعززت على عجل بمتطوعين روديسيين ،

(*) Ndebele

وكانوا يواجهون من البداية عدوا يفوقهم عددا ، الا أنهم لجأوا للدفاع ، وأقاموا معسكرا متنقلا لايواء الأطفال والنساء والمؤن ، واستفزوا الماتابل(*) • وثبتت المدافع بعد توجيهها على زاوية خاصة من المعسكر : واستطاع مقاتلو الماتابل المرة تلو الأخرى اثارة الغبار لمسافات أبعد من رشقات الرمح القاتلة » •

على أن الأوربيين لم يلتقوا فى جميع الالتحامات بمقاتلين مسلحين بمثل هذه الأسلحة البالية ، والتكتيكات التى عفا عليها الزمان • فبعد أن تعلم بعض الأفارقة والآسيويين وجوب التسلح بنفس نوعية هذه الأسلحة الحديثة حتى يتمكنوا من محاربة العدو المسلح بنفس هذه الأسلحة ، لجأوا الى حرب العصابات • ولم يروا بأسا من اتباع الأسلوبين معا • وهناك أمثلة عديدة دالة على ذلك عند اليابانيين والأفغان وسوثو وريفى • ويكفينا هنا الاستشهاد بمثلين :

ففى غرب السودان ، واجه الفرنسيون ساموری توریه (**) ـ وهو ممن أنشأوا دولة على الطريقة البدائية ، ومن الزعماء الدينيين ومن المجددين فى فن القتال • وشكل جيشه فى البداية من خمسمائة مقاتل و ٣٦ بندقية ، تعيد تعمير نفسها (١٨٨٧) • واستطاع بقدوم ١٨٩٨ تجميع اربعة آلاف بندقية من هذا النوع المتقدم • وتمكن بفضل تكتيكات العصابات الصمود وايقاف تقدم الفرنسيين زهاء عشر سنوات ، ولكنه تعرض فى النهاية للخذلان بعد أن قطعت امداداته من الأسلحة الجديدة والخراطيش الجديدة اثر توقيع الاتفاق بين انجلترا وفرنسا •

أما امبراطور الحبشة منليك فكان أسعد حظا • اذ بدأ بقاعدة ضخمة مزودة بأحدث الأسلحة ، وواجه عدوا أضعف منه ، وأثبتت معركة عدوة ١٨٩٦ ، والتى هزم فيها الايطاليون تحلى الاثيوبيين بالشجاعة ، وكانت نذيرا باقتراب اليوم الذى ستتقن فيه الشعوب غير الغربية استعمال الأسلحة الغربية الفتاكة ، وبذلك تضيق فجوة القوة بينهما •

ولقد كسبت القوى الامبريالية الأوربية فى أواخر القرن التاسع عشر التى اشتبكت فى أضخم عمليات هجومية استراتيجية منذ عهد جنكيز خان معظم معاركها باتباع تكتيكات دفاعية (***) • وأشاد العقيد

(*) Matabele قبائل من الزولو ، أرغمهم البوير فى جنوب افريقيا على النزوح الى الترنسفال :

(**) Samori Touré

(***) أساليب الـ Laager والـ Square Wagon

تشارلز كولول (*) بهذه الطريقة العجيبة التى جمعت بين الاستراتيجية الهجومية والتكتيكات الدفاعية ، ولكنه لم يتابع كوامن مثل هذه الخطة ٠ فلقد سلم بمبدا التفوق فى الأسلحة ، ونادرا ما علق عليه ، وبدلا من ذلك أشار فى صفحات كتابه بتفوق الأوربيين والجنـود المدربين على الطريقة الأوربية على الشعوب التى وصفها بالقطعان والمتعصبين والهمج والمتوحشين، أو نعتها على أحسن تقدير بالشعوب شبه المتحضرة ، ونسب انتصارات القوات الغربية الى الحمية والتصميم والعزيمة والجرأة والمبادرة والحيوية والجسارة ، وغير ذلك من الخصال الحميدة ٠

ولو صح القول بأن تفسير كولول قد مثل بنى جلدته وزمانهم ــ وأظن ذلك كذلك ــ فان ما قاله سيساعدنا على توضيح ما حدث فى الحرب العالمية الأولى ٠ فلم تحارب الجيوش الأوربية زهاء أكثر من أربعين سنة غير هذه الحروب الاستعمارية ، وأحرز أغلبها نجاحا عظيما ٠ وكان ما عزز غزواتها الاستعمارية النظرية النابوليونية بأن النصر حصيلة عاملين : الاستراتيجية الهجومية الجسورة ، ونيران الأسلحة الكاسحة ٠ أما ما غاب عن فطنتهم فهو كون الأسلحة الجديدة أسلحة دفاعية ، وأن ما صنع لهم امبراطورياتهم ــ هو التكتيكات الدفاعية ٠ فلم يكن ثمة اختلاف من حيث الوقفة المنيعة بين الجندى القابع فى أحد الخنادق بالفلاندر ممسكا برشاشه أو بندقيته وبين نظيره الرابض فى « المربع » فى أم درمان أو « عربة المعسكر » فى ندلبلاند ٠ فلقد أغشت الأوصاف العنصرية التى استعملها كولول وأقرانه فى منعطف القرن فى وصـف الشـعوب غير الأوربية ، وأنستهم حقيقــة مرة المذاق ، وهى أنه عندما يقع الجندى تحت وابل من الرصــاص المتدفق من الأسلحة الجـديدة لن يكون للشـجاعة والسورة الحيوية أى نفع ، لان الجندى الأوربى عندما كان يتقدم الى الصفوف الأمامية من الجبهة الغربية كان يكتشف أنه بلا حول ولا قوة ، ومعرضا للتهلكة مثل أى درويش أو مقاتل من الزولو ٠ ومن هنا يصح القول بأن المعارك الحديثة فى أرض المعركة بأوربا كانت متعارضة أيما تعارض وحالها فى المستعمرات ٠ وبدلا من أن تحقق النصر السريع المنشود القليل التكلفة الذى تتوقعه الكافة ، فانها جعلت الانتصار مستحيلا ٠

(*) Col Charles Callwell مؤلف كتاب Small Wars

المـراجـــع

W. Baumgart, Imperialism : The Idea and Reality of British and French Colonial Expansion (1880-1914), 1982.

W. Brunschwig, French Colonialism, 1871-1942. Myths and Realities (1966).

B. Cohen, The Question of Imperialism : The Political Economy of Dominance and Dependence 1973.

W. B. Cohen, The French Encounter With Africans : White Response to Blacks 1530-1880 (1980).

P. Curtin, The Image of Africa : British Ideas and Actions 1780-1850. (1964).

C. C. Eldridge, England's Mission : The Imperial Idea in the Age of Gladstone and Disraeli 1868-1880 (1974).

D. K. Fieldhouse. Economics and Empire 1839-1914 (1973).

D. R. Headrick, The Tools of Empire : Technology and European Imperialism in the Nineteenth Century (1981).

R. Koebner and H. D. Smith, Imperialism : The Story and Significance of a Political World 1840-1960 (1964).

W. H. McNeil, The Pursuit of Power : Technology, Armed Force, and Society Since A.D. 1000 (1982).

C. Reynolds, Modes of Imperialism (1981).

R. Robinson and J. Gallinger, Africa and the Victorians, 1961.

W. H. Schneider, An Empire for the Masses : The French Popular Image of Africa (1870-1900) 1982.

W. D. Smith, The German Colonial Empire (1978).

الآدميـون فى مواجهـة النيران

ميكائيـل هـوارد

شهدت الحرب العالمية الأولى مصرع أعداد لم يسبق لها مثيل من الجنود من بين جميع المعسكرات الأوروبية المتحاربة • فقد قتل مئات الألوف من الآدميين ، وجرحوا فى فترات زمنية قصيرة بدرجة ملحوظة • فلماذا كرر القادة ارسال قواتهم فى عمليات هجومية جبهوية ضد قوات العدو التى لا يمكن أن ترى ، والتى كانت مسلحة بالرشاشات أو البنادق المتلاحقة الطلقات ، وما هى الأفكار والتجارب التاريخية التى أقنعت القادة العسكريين باتباع هذه التكتيكات ؟

قرابة منتصف القرن ، انقسمت الآراء حول هذه النقطة • فلقد أثبتت التغيرات فى التكنولوجيا والأسلحة العسكرية عدم جدوى أساليب المشاة التقليدية نسبيا فى كل من الحرب السبعينية وحرب البوير ١٨٩٨ • كما ثار الكثير من الجدل حول هل يسلح الفرسان بالبنادق الحديثة أم بالسيوف التقليدية ؟ ويكمن وراء المجادلات عن جدوى هجوم الفرسان والمشاة سؤال كامن عن قيمة تكتيكات الصدمات على القوات العاملة فى قلب المعركة •

وفى ١٩٠٥ هزمت روسيا فى حربها ضد اليابان • وكان القادة اليابانيون قد أجبروا المشاة على الهجوم ، واستعان الجيش الروسى المنهزم بفرسان مسلحين بالبنادق • ودرست الحرب الروسية اليابانية بعناية فى جميع الدوائر العسكرية الأوربية • وبناء على تجربة هذا الصراع أعاد أصحاب النظريات الحربية فى اوربا توكيد الأهمية الرئيسية للهجوم ، وتكليف المشاة بالهجوم • وفى هذا الجو الهجومى الفتاك ، وغير المجدى ، اصـدروا أوامرهم الى مئات الألوف من القوات خـلال الحرب العالميـة الأولى •

نقـلا عن International Security Vol. 9 No. 1 : Men Against Fire : Expectations of War in 1914.

تاليف Michael Howard (١٩٨٤) •

في سنة ١٨٩٨ ، نشر بباريس كتاب من ستة أجزاء عن حرب المستقبل من المنظور التكنولوجي والاقتصادي والسياسي(*) ، وكان هذا الكتاب ترجمة لسلسلة من المقالات التي ظهرت في روسيا،وتمثل ثمرة عدة أبحاث ، راجعها شخصية رائدة في عالم المال والصناعة في روسيا : ايفان (جان دي) بلوخ (١٨٣٦ ـ ١٩٠٢) بعد أن راجعها ونقحها بأستاذية لامعة • وقد وصف المؤلف أحيانا بالمصرفي البولاندي • ولعل هذه الصفة نسبت اليه بفضل موهبته الادارية التي تضعه في مصاف آل روتشيلد في العالم الغربي أو كارنجي في الولايات المتحدة • ولقد جمع بلوخ ثروته من منشآت السكك الحديدية ، ثم اكتسب خبرة من جوانب استثمارية شتى • ويرجع اليه الفضل فيما حدث من انتعاش في الاقتصاد الروسي في تسعينات القرن التاسع عشر • وألف بغزارة في المشكلات الاقتصادية للامبراطورية الروسية ، وشعر بانزعاج متزايد من مقدار تعقده آنئذ ، مثلما هو الآن ، من جراء ضغوط الاحتياجات العسكرية لتبوأ الصدارة في عصر تتطور فيه التكنولوجيا بسرعة فائقة ، وللحاق بركب الدول الأثرى والأرقى في الغرب • ولما كان بلوخ قد عهدت اليه مسئولية تنظيم الامداد بالسكك الحديدية للجيوش الروسية ، في حربها مع الامبراطورية العثمانية في الحقبة الواقعة بين ١٨٧٧ و ١٨٧٨ ، لذا توافرت له خبرة فذة بمسائل الاحتياجات العسكرية • وأقدم على دراسة الحرب اعتمادا على نوع جديد تماما من العقلية ، التي تجمع بين القدرة التحليلية للمهندس الاقتصادي وعالم الاجتماع • والواقع ان كتابه يعد أول مؤلف في التحليل الحديث للعمليات الحربية ؛ ولم يضاهه في الجمع بين الرسوخ وسعة الأفق أي كتاب حتى الآن •

ولم يترجم الى اللغة الانجليزية سوى الجزء الأخير من الكتاب تحت عنوان : هل تعد الحرب الآن مستحيلة ؟ (**) • ويلخص هذا الجزء على نحو مقبول حجج السفر بأكملها • ولخص بلوخ نظرته في مقابلة مع الصحفي الانجليزي ستيد (***) وأرفق حديثه بالطبعة الانجليزية للكتاب ، وفيه يستهل الكلام بطرح الخلاصة التي انتهى اليها : « لقد غدت الحرب بين الدول الكبرى الآن مستحيلة ، ولعلها ستصبح أقرب الى الانتحار » • اذ أدى الاسراف في التسليح الحديث ، وما طرأ على تنظيم المجتمع من تبدل « الى تصعيب اشعال نار الحرب ، واقترابها من المستحيل » • وبالمقدور اثبات ذلك على نحو تقريبي باستخدام لغة الأرقام • فبعد أن ازداد مدى الأسلحة

(*) La Guerre Future ; aux points de vue technique, et économique, et politique.

(**) Is War Now Impossible

(***) W. T. Stead.

النارية الحديثة ، وازدادت دقتها ومعدل نيرانها ـ بعد أن أصبحت البنادق قادرة على تصويب اصابات قاتلة من بعد ألفى متر ـ والمدفعية من بعد ستة آلاف متر ـ أضحى متعذرا الآن وقوع « معارك حاسمة » كتلك التى كانت تحدد نتيجة الحروب فيما مضى • فلم تعد المشاة قادرة على الاقتحام باستعمال السلاح الأبيض ، ولم يعد باستطاعة الفرسان الهجوم بالسيف • واضطرت الجيوش الى حفر خنادق للاحتماء بها من العاصفة العاتية للنيران المتدفقة على أرض المعركة الحديثة ، وبذلك « غدا الفأس مماثلا فى أهميته للبندقية ، كسلاح للجندى • ولعل هذا السبب أحد الأسباب التى تصعب نشوب معارك فى المستقبل القريب ••• وسوف تستمر المعارك أياما معدودة ، وان صعب فى نهاية الأمر التيقن من تحقق نصر حاسم » •

والى هنا لم يأت بلوخ بجديد • وغاية ما اهتدى اليه هو طرح مشكلة سبقت دراستها من قبل جميع أصحاب الفطنة من ضباط جميع الجيوش الأوربية ، منذ تجربة الحرب الفرنسية البروسية ١٨٧٠ ، والحرب الروسية التركية (١٨٧٧ ـ ١٨٧٨) اللتين كشفتا على نحو أرجح ، من الحرب الأهلية الأمريكية ، وبطريقة أكثر مباشرة تأثير الأسلحة النارية الحديثة على ساحة المعركة • فلربما دفع « البارود عديم الدخان » فى ثمانينات القرن التاسع عشر ، وزيادة مدى جميع الأسلحة النارية وازدياد دقتها ، وامكان الاقتراب من العدو دون أن يرى مستعملو الأسلحة الحديثة ، الى تفاقم تعقيدات الهجوم وفداحة خسائره • بيد أنه رغم الاعتراف بجميع هذه المؤثرات فقد ساد الاعتقاد بعدم تأثر الطبيعة الأساسية للمشكلة بهـا •

وأعتقد أن الرد يكمن فى تقدم قوة نيران المهاجم،وبخاصة المنطلقة من المدفعية • واستوجب ذلك اقتراب المشـاة المهاجمة من مواقع القـوات الملتزمة بالدفاع ، والاستعانة بالسواتر حتى يتسنى لها نشر وابل من نيران البنادق على مواقع المدافعين • ويتوجب على المدفعية أن تتعاون عن كثب ، مع الحرص على ارغام المدافعين على خفض رؤوسهم ، باستعمال الشرابنل ، ودفنوم فى خنادقهم بتعريضهم للقذائف الشديدة الانفجار • أما فيما يتعلق بالرشاشات فرئى أنها بفضل سرعة حركتها وقوة تركيز نيرانها ، فمن المحتمل أن تزيد من قوة الهجوم أكثر من زيادتها لقوة الدفاع • فلا ننسى ما قاله الكولونيل فرديناند فوش فى محاضرات مدرسة الحرب ١٩٠٠ : « الكلمة الأولى للنيران » حقا فان تفوق النيران يعد أهم مقومات القيمة القتالية للمشاة • ولكن لابد أن تجىء ان عاجلا وان آجلا اللحظة التى يتوقف فيها التقدم عن المضى قدما قبل الوصول الى نطاق يكاد يتعذر اختراقه ، ولا توجد فيه أية خطوط اقتراب مستورة ، لحماية

المهاجمين من وابل طلقات الرصاص ، مما يؤدى الى اضطرار المقاتلين الى اختيار أحد سبيلين : « الهروب أو الهجوم » • واعتقد فوش ومعظم المفكرين الفرنسيين حين ذاك أن الهجوم مازال أمرا ممكنا ، وبالاستطاعة انجاحه اعتمادا على الكثرة العددية : « ويقصد بالهجوم هنا الهجوم بأعداد كبيرة ، وبذلك يتحقق تأمين القوات • فاذا زدنا عدد المدافع سيتسنى لنا اسكات مدافع العدو • ويصح القول نفسه عن البنادق والسونكيات ، اذا تمكنا من معرفة كيفية استعمالها » ، واذا لم يتوافر للآخرين نفس القدر من الاطمئنان لموقفهم • فلقد فضل الألمان الذين كانوا مازالوا يذكرون بعد ثلاثين سنة من الذكريات الحية دماء جنود مشاتهم التى أريقت فى معركة جرافلوت(*) ، وكانوا يفضلون لو أمكن «تدبيس» العدو فى مكانه عن طريق النيران الموجهه اليه من الأمام ، ولم يدركوا أن الهجوم يجب أن يشن على أحد جناحى العدو • فلم يكن هناك من يشك حتى ١٩٠٠ بما فى الهجوم بالمواجهة من مشقة ، وبفداحة تكاليف النجاح من الخسائر الجسيمة للغاية• والحق لقد كان هناك قدر كبير من الاتفاق مع الحسابات التى ذكرها بلوخ فيما يتعلق باحتياج التفوق عند الهجوم الى أن تكون نسبة تفوق المهاجم ثمانية أضعاف قدرة المدافع لضمان تحقق النجاح •

الحرب فى المستقبل عند بلوخ

مواجهة بين مجتمعين

لقد سبق بلوخ معاصريه بخطوات فى النتائج التى استخلصها من دراسة الساحة الحديثة للمعركة • ولا يرجع ذلك الى ما بينه وبين هؤلاء المعاصرين من اختلاف ، ولكن مرد ذلك هو عدم اعارتهم المشكلات التى بحثها أى اهتمام على الاطلاق •

فلقد تساءل بلوخ عن ماهية النتيجة النهائية التى يحتمل أن تترتب على التوقف فى العمليات الذى يحتمل حدوثه فى ساحة المعركة ؟ • « فاولا ــ سيزداد سفك الدماء ، وسيزداد لدرجة بشعة بحيث يغدو من المستحيل دفع المعركة الى نتيجة حاسمة ، ومن ثم وبدلا من شن الحرب الى نهايتها المريرة وخوض سلسلة من المعارك الحاسمة ، سيتعين علينا الاستعاضة عن ذلك بفترة طويلة من الاستنزاف المتواصل لقوى المعسكرين المتحاربين ومواردهم » • وسيعنى ذلك « القضاء المبرم على الصناعة وقطع أواصر جميع موارد الامدادات التى يعتمد عليها المجتمع ، والتى يقع على عاتقها وحدها العبء الثقيل للحرب • ان هذا هو مستقبل الحرب :

(*) Gravelotte

الاجاعة بدلا من القتال ، وافلاس الشعوب بدلا من ذبح الآدميين ، واصابة النظام الاجتماعى كله بالتصدع » • وفى مثل هذه الحالة ستتخذ الصدارة بين العوامل الحاسمة : « مستوى الخشونة ــ القدرة على التحمل ــ الصبر على الحرمان ــ العناد فى مواجهة الظروف المعاكسة ، والاحباطات •• نعم سيصبح العامل المؤثر الذى يعتمد على مسلك المدنيين هو العامل الحاسم فى الحرب الحديثة أكثر من أى عامل آخر » • ويختتم بلوخ تحليله بالقول : « قد يحارب جنودك تبعا لمشيئتهم • ولكن القرار الأخير سيكون للجوع »• وسيكون الجوع هو أول من يوجه ضرباته الى العناصر البروليتارية الأكثر استعدادا للثورة ، فى المجتمعات المتقدمة صناعيا •

ومن المهم أن ندرك وقوع بلوخ فى عدد لا بأس به من الأخطاء ، كزعمه تعذر نهوض السلطات العسكرية المسئولة بالمهام التى تستغرق وقتا طويلا والخاصة بالاعاشة ، والتموين ، وادارة الجيوش الضخمة التى قد يتطلب الموقف استخدام معدات النقل لتحريكها من مكان لآخر ، وتصوره سرعة اصابة الجيوش فى ميدان القتال بالانحـلال والتعرض للجوع ، ولأحداث العصيان الجماعية ، أو تكهنه باتخاذ عملية العناية بالمرضى واخلاء الجرحى أبعادا يصعب التحكم فيها ، وما يترتب على ذلك من تكدس الموتى والمحتضرين فى أرض المعركة ، مما يجعلهم من العراقيل التى يتعين الخلاص منها لحماية الأحياء من نيران العدو • وارتاب بلوخ مثلما فعل كثيرون من الجنود المحترفين فى قدرة جنود الاحتياط الذين انتقلوا وهم مازالوا فى حالة غضة من الحياة المدنية ــ على تحمل مشاق القتال : « فمن المتعذر الاعتماد على الجيوش الحديثة ، واستعدادها للتضحية والحرمان بالقدر الذى يطالب به أصـحاب النظـريات من العسكريين ، الذين يتناسـون ما لحق أخلاقيات المجتمع الغربى من مكتسبات » • والواقع أن كفاءة اعاشة الجنود الذين تجاوز عددهم الملايين فى الميدان ، والنجاح الذى أثبتته الخدمات الطبية ــ مع بعض استثناءات مريعة ــ للنهوض بالمهام العديدة التى واجهتها وحدات جميع القوات المحاربة ، وذكرتنا بسجايا الرواقيين فى الفكر اليونانى القديم قد أثبتت قدرة القوات المحاربة على مواجهة مشاق أبشع مما خطر ببال بلوخ • ولعل هذه النواحى كانت من المظاهر الملحوظة والرائعة للحرب العالمية الأولى • وبذلك يكون بلوخ مثل الكثيرين من أصحاب النبوءات المتشائمين ــ بما فى ذلك العاملون بالقوات الجوية قبل ذلك بجيل ــ قد بخسوا قدرات المجتمعات البشرية على تكييف نفسها فى مواجهة الظروف المعاكسة •

غير أن بلوخ كان حاد البصيرة فى نواح أخرى تثير الدهشة ، عندما أشار مثلا الى اعتماد معدل الخسائر الحربية على براعة القادة ، « وعندما

حثنا على أن لا نتناسى عدم تعرض أعداد وفيرة من أصحاب الرتب العليا من الضباط فى الجيوش الحديثة للنيران على الاطلاق » ، بينما ارتفع معدل الخسائر بين صغار الضباط عندما كانوا يؤدون وظائفهم القيادية (على خير وجه) » وأخيرا فقد حدثنا عن مشكلة تدبير اقتصاديات الحرب ، وما يحتمل أن تكون آثارها فى المدى البعيد ، واستنتج بلوخ من ذلك : « اذا افترضنا أن الحكومات سترغم على التدخل فى وضع نظام للأسعار ودعم أهل البلاد ، فهل سيكون من السهل آنئذ التخلى عن هذه الممارسة واعادة الأوضاع الاقتصادية الى سابق عهدها قبل الحرب ؟ » • وهكذا يتضح أنه اذا توقفت الحرب وانتهت بالنصر أو الخسارة ، سيكون النظام القديم مهددا بالتغير من عل ، ان لم يحدث هذا التغير عن طريق الثورة من أسفل » •

ان هذا المخطط البالغ الدقة للحرب التى اندلعت فى أوربا ١٩١٤ ، واستمرت أربع سنوات ونصف السنة ، ولم تنته الا بعد حدوث تفسخ اجتماعى للمحاربين المنهزمين ، وبعد أن أنهكت القوى الاقتصادية للجميع ، لم يكن هذا المخطط ثمرة لرؤية بعيدة ، وانما جاء نتيجة لتحليل فاحص دقيق للأسلحة والقدرات والأنظمة العسكرية والعقائد الاستراتيجية والبيانات المالية والاقتصادية • ولقد شغل هذا المخطط خمسة أجزاء سمان مازالت تعد مرجعا ممتازا لدارس الأحوال العسكرية والتكنولوجية والاقتصادية لأوربا فى نهاية القرن التاسع عشر • ولم يبحث أحد حجج بلوخ الاقتصادية أو يحاول اثبات بطلانها • لقد تجوهلت فحسب • ولربما تساءلنا لماذا لم يعرها الساسة والقادة العسكريون الا القليل من الانتباه ؟ ولماذا تابعوا السير فى طريق كان سيؤدى حتما الى تحطيم النظام القديم ، كما تنبأ بلوخ دون أن يقع أى خطأ ؟ والسؤال من الاسئلة الوثيقة الاتصال بعصرنا ، على نحو لا يدعو الى الارتياح •

بطبيعة الحال ، الرد على ذلك هو أنه ليس بالمقدور احداث تحول فى نمط العلاقات الدولية بين عشية وضحاها ، بناء على نبوءة واحدة ، مهما كانت درجة اقناع حجتها • والحق لقد أدت رؤية بلوخ وتأثيره الى استحثاث القيصر نيقولا الثانى على الدعوة لعقد مؤتمر السلام الدولى الأول الذى اجتمع فى هيج فى مايو ١٨٩٩ ، بل ولعلها كانت بعيدة الأهمية فى تعبئة الدعم العام فى شتى أنحاء أوربا لغايات المؤتمر • غير أن هذا المؤتمر لم يزد عن فقاعة فى تيار السياسة الدولية • اذ كانت المشكلة الأكثر الحاحا كما أشار بلوخ مرارا – هى عدم وجود جهات فى أوربا مسئولة عن مهمة التفكير فى مشكلات الحرب بأى صورة من الصور الشاملة ، بقدر اشتغالها بالمسائل الهامشية والمسائل الحرفية التى تخص

العسكريين • أما فيما يتعلق بالعسكريين المتخصصين ، فلم يكن من المتوقع اعترافهم بأن المشكلات التى تواجههم غير قابلة للحل ، وانهم سيعجزون مستقبلا عن تسيير الحرب بفاعلية وتصميم ، كما كانوا يفعلون فى الماضى •

دروس من حرب البوير

لقد أثبتت حجج بلوخ فائق صحتها ، عندما شبت الحرب فى جنوب افريقيا بعد أشهر قليلة من نشر كتابه (*) • وقد تسلح المعسكران المتحاربان فى هذه الحرب لأول مرة بالتكنولوجيا الحديثة كالبنادق التى تعمر من الخزنة ، والمدافع التى يستطاع اطلاقها بسرعة الرشاشات • وجرت الأحداث فى ميدان المعركة على نفس الوتيرة التى تكهن بها بلوخ • فقد كان الجيش البريطانى يتحرك فى تشكيلات منضمة ، ويطلق وابلا من النيران ، ولم يكن باستطاعته الاهتداء الى موقع قريب من العدو ، الذى لم يكن يراه • وقوبل بمقاومة عنيفة من البوير فى مواقع (**) عندما هاجمها بالمواجهة • وتكبد خسائر فادحة • وكما كتب الكولونيل هندرسون (***) الذى رافق الجيش فى جنوب افريقيا بعد ذلك بوقت قصير :

« لقد حدثت محاولة مستمرة للمواءمة بين المعركة وأرض القتال حتى يكون نجاحها معتمدا على الشجاعة والولاء ، والتكيف بين الذكاء وشخصية المقاتلين والظروف التى يتعرض لها القتال • فلم تكن قد تكشفت حتى الآن الأغلوطة عن امكان حماية أى خط كثيف من النيران فى الأرض الخلاء لنفسه اعتمادا على النيران وحدها ، اذ كان مصدر هذه النيران خارج المرمى المؤثر لنيران العدو • ولم يكن هناك من تنبه الى أن المدافع عندما يحتل خنادق منشأة بذكاء ، ويستعمل بارودا بلا دخان ، سيكون محصنا — عمليا — من تأثير كل من المدافع والبندقية » •

ويجنح الملاحظون الأوربيون من غير المتعاطفين على الجيش الانجليزى الى غمط أهمية تجربة جنوب افريقيا على أساس أن الجيش البريطانى وقادته لم يدربوا تدريبا صحيحا لمواجهة عدو « متحضر » بعد أن شعروا بالتيه من أثر الانتصارات التافهة التى حصلوا عليها فى مصر والسودان • وفوق كل ذلك ، فلقد أشاروا الى أثر الاختلاف فى أرض المعركة وحيلولته

(*) La Guerre Future

(**) مثل Magers fontein, Modder Rover, Colenso, Spion Kop.

(***) G. F. R. Hendersen.

دون الاستفادة من دروس الحرب مثلما حدث فى حالة الحرب الأهلية الأمريكية عندما لم تتوامم دروسها مع ما يجرى فى المسرح الأوربى • وبينما كان البريطـــانيون أنفســهم قد عجزوا عن انكار عــدم ملاءمة تكتيكاتهم وتدريباتهم التقليدية للتواءم والأحوال المتغيرة للحرب ، الا أنهم رغم ذلك كانوا قادرين على الاشارة الى أنهم بمجرد المامهم بالتقنيات الضرورية قد أفلحوا فى التحول نحو الهجوم ، وكسبوا الحرب من جراء ذلك • وتحقق النصر بعد أن نجحوا فى « تدبيس » البوير فى مواقعهم بفضل قوة نيرانهم ومناوراتهم على أجنحة مواقعهم اعتمادا على الفرسان ، الذين لم يتبعوا الدور التقليدى القائم على احداث صدمات فى أرض المعركة ، ولكنهم أقدموا على ابتكار نوع من سرعة الحركة الاستراتيجية التى اقتضـــاها الموقف ، للتغلب على المشكلات الناجمة عما حدث من ازدياد فى القوة الدفاعية • وعندما أوضح بلوخ (١٩٠١) لبعض مستمعيه فى معهد (*) الخدمات البريطانية الملكية المتحدة ، كيف مثلت تجربة الجيش البريطانى فى جنوب أفريقيا حججه فى صورة مكبرة دقيقة ، كما يتوقع أن يجرى فى أوربا ، أشار الحاضرون الى انجاز اللورد روبرتس ، الذى أثبت امكان الجمع بين المزايا التكتيكية لقوة النيران والمزايا الاستراتيجية لخفة الحركة عند الفرسان وبذلك تمكن من تحقيق النتائج الحاسمة التى ظن بلوخ انها مستحيلة فى المستقبل •

ويبين من أية دراســات للمؤلفات العسكرية الوفيرة التى ظهرت حينذاك (بين ١٩٠٠ و١٩٠٥) اجماع المفكرين الاستراتيجيين الأوربيين حول نقطتين : النقطة الأولى هى الأهمية الاستراتجية للفرسان كقوة نيران خفيفة الحركة • فلو صح الأخذ بما قيل عن استحالة اقدام الفرسان على مهاجمة المشاة دون تعرضهم لخسائر فادحة بفضل قوة النيران المتوفرة للدفاع — وهى النظرية التى قبلت على مضض منذ وقوع كارثة الحرب الفرنسية البروسية ١٨٧٠ — فان الدرس المستفاد من ذلك هو وجوب انماء الفرسان لقوة نيرانهم بعد تعزيزها بالمدفعية خفيفة الحركة القادرة على اطلاق نيران سريعة وبالاستعانة بالرشاشات ، مع استغلال الفرصة على نطاق لم يحلم به أحد منذ عهد الحرب الأهلية الأمريكية • ولقد نبهت تجربة جنوب أفريقيا الفرسان ، وبخاصة فى انجلترا ، الى دراسة الحرب الأهليــة الأمريكية ، ربما للمرة الأولى فى الأغلب • وفى الجيش البريطانى تم التسليم بوجوب اتخاذ القربينة أو البندقية من الآن فصاعدا كسلاح أساسى للفرسان • غير أن معظم رجال الفرسان قد رأوا انحراف هذا الاتجاه عن الصواب • فليس هناك أى بلد فى أوربا يرضى بجعل هذا السلاح

(*) British Royal United Services Institution.

الأكثر اكتفاء واعتدادا بذاته ، وأبعد الأسلحة عن روح العصر ، يتضاءل في مكانته ويتحول الى سلاح للمشاة الراكبة • فيكفي ترك هذا النوع من الواجبات لمروضى الخيول فى المستعمرات ! ولاحظ الجنرال الألمانى فردريش فون برنااردى(*) بمرارة فى وقت متأخر يرجع الى ١٩١٢ : « ان الفرسان ينظرون الآن الى عملية الهجوم فى المعركة على أنها واجبهم الأسمى • ويكاد كل منهم يغمض عينيه عن ادراك التغيرات البعيدة الأثر التى طرأت على الحرب • وعندما فعلوا ذلك سدوا الطريق أمام تحقق نجاحات أوفر »، ومن هنا ثارت الخلافات داخل صفوف الفرسان فى كل جيش أوربى ، ولم يتم حسمها الا باتباع ما يشبه الحل الوسط ، وقد عبرت عنه موسوعة الفرسان البريطانية (**) ١٩٠٧ بقولها :

« يكمن جوهر روح الفرسان فى الحفاظ على التوازن الصحيح بين قوة النيران والتحرك لاحداث الصدمات • فلابد أن يقبل من حيث المبدأ القول بأن البندقية ورغم ما عرف عنها من فاعلية لا يمكن أن تحدث نفس الأثر الذى يحدثه الحصان بسرعته الفائقة : فلابد من الجمع بين مغناطيسية الهجوم والرعب المنبعث من الصلب البارد » (***) •

ولعل أفضل من عبر عن روح رجال الفرسان فى بداية الحرب العالمية الأولى هو التحليل الذى تضمنته العقيدة العسكرية البريطانية ، ونشر ١٩١٤ :

« من الناحية التقنية ، أصبح الدور الحاسم لهجوم الفرسان فى الجبهة الرئيسية فى ذمة التاريخ • أما التدرب على تكتيكات الصدمة فمن الأمور التى يطالب بها جميع الثقات فى الفروسية • فمازالت هذه التكتيكات ضرورية للاستعمال الاستراتيجى للسلاح • وحتى فى أرض المعركة ، ما زالت تكتيكات الصدمة فى بعض ظروف معينة ممكنة تصورا • بينما ستتاح فى أغلب الظن يقينا فرص لامعة لممارسة القوة التى ستكتسبها الفروسية عندما تجمع بين خفة الحركة ، والقدرة على اطلاق النيران أثناء الحركة • فمهما اختلفت التكتيكات التى ستتبع ، ستظل الرغبة فى اتخاذ موقف الهجوم دوما باعثا لحيوية الفروسية ، وعندما يتعذر اجراء تكتيكات الصدمة ، فلابد أن يعد الفرسان العدة للتضحية بآخر رجالهم أثناء تقدمهم سيرا على الأقدام ، وهم ممسكون بالبندقية فى أيديهم ، لو كان هذا هو الطريق الوحيد لتحقيق النصر » •

(*) Friedrich von Bernhardi.

(**) British Cavalary Manual.

(***) Magnetism of the charge and the terror of cold steel.

وهكذا استمر التدرب على تكتيكات الصـدمة • اذ كان أصحاب النظريات الاصلاحية أنفسهم مرغمين على الاعتراف بمطالبة الفروسـية بمواجهة فروسية العدو ، ودحرها ، ومن ثم رأينا فون برناردى يكتب ١٩١٢ : « سيتميز استهلال حرب المستقبل بالمعارك الكبرى للفروسية » •

وبذلك واصلت الفروسية التدرب على القتال بالسيوف ، واستمرت المشاة ، لنفس السبب ، فى ممارسة تمارين السونكى •• ولم ير الكاتب الألمانى فيلهلم بالك(*) سببا يدعو الى اجراء أى تعديل للعقيدة العسكرية التى دعا اليها فى الطبعة الأولى لكتابه الجسيم عن التكتيك ، عندما أعاد طبعه ١٨٩٦ :

« لابد أن يتعلم الجندى عدم تهيب الهجوم بالسونكى والتعرض لطعناته • ولكن عليه أن يسعى اليه ••• ولو انتزع السلاح الأبيض من المشاة واذا زعم استحالة القتال بالسونكى ••• ستظهر مشاة غير لائقة للهجوم ، وتفتقر الى صفة عظيمة الضرورة ، يعنى الروح المعنوية التى تساعدها على الاقتراب من مواقع العدو ••• (واستطرد بعد ذلك مستشهدا بما قاله الجنرال الروسى دراجوميرف ـ وهو من المعروفين بتعصبهم لهذه الفكرة) : « ليس بالمقدور استبعاد السونكى ، لأنه السلاح الوحيد الذى تتجسم فيه ارادة القوة التى تتفرد فى كل من الحرب والحياة اليومية بتحقيق الأغراض التى تسعى اليها ، بينما يقتصر دور العقل على تيسير الاهتداء الى الغرض ، هذا هو السبب الأساسى ، ان لم توجد أسباب أخرى » •

وعبرت نشرات هيئة الأركان البريطانية عن نفس المعنى مع تعديل طفيف : « ان الأثر المعنوى للسونكى أبعد كثيرا من تأثيره المادى ، وليست أقل هذه المميزات أهمية المساعدة على تعزيز الروح الهجومية •••• ويتشابه حرمان المشاة من استعمال السونكى هو وحرمان الفرسان من استعمال سيوفهم ، وسيترتب على ذلك ـ الى حد ما ـ سلبهم الرغبة فى الإقتراب من العدو » •

وتنقلنا هذه النقطة الى نقطة أخرى أثارت اضطرابا أكبر عند محاولة الاجماع عليها ، وتعرف عليها المفكرون العسكريون الأوربيون كنتيجة لحرب جنوب أفريقيا • انها الصعوبة التى لم يسبق لها مثيل فى اجراء الهجوم بالمواجهة حتى فى حالة توفر دعم مدفعى جوهرى ، والتى حتمت زيادة

(*) Wilhelm Balck.

(**) Taetics.

انتشار التشكيلات عند الهجوم • ولقد شبت خلافات متواصلة حول هذه النقطة منذ ١٨٧١ • اذ كان التشكيل المألوف لهجوم المشاة والموروث عن عصر نابليون يتألف من ثلاثة خطوط : الخط الأول ويتألف من المناوشين في تشكيل مفتوح ، يحتمى بالسواتر كلما استطاع سبيلا للوصول الى موقع يستطاع استعماله لاطلاق نيران مركزة على العدو الذى يسير فى تشكيلات منتظمة • ويتم ذلك بالتعاون مع المدفعية «لكسب حرب النيران» • ويسير خلف هذا الخط خط الهجوم الرئيسى فى تشكيل منضم عادة تحت السيطرة المباشرة للضباط للهجوم بالسونكى • وأخيرا يجىء خط الوحدات المعاونة ، يعنى الاحتياطى التكتيكى المباشر •

ونزع الجيش الألمانى دائما بعد تذكره لمذابح مشاته في الهجوم فى بعض المعارك (*) الى اتباع نظرة ترى أنه بمجرد تعرض المشاة للنيران سيتعذر اتباع التشكيلات المنضمة على الطريقة العتيقة • ومن ثم فعلى خط الهجوم الأساسى أن ينتشر ويشق طريقه قدما لتكثيف خط المناوشين، أو لكى يزيد خطهم امتدادا اذا شعر بتهديد لأجنحته • ومن الناحية الفعلية ، أصبح « المناوشون » هم الذين يتحملون صدمة الهجوم ، ولن يتحقق النجاح الا اذا سيطروا بنيرانهم • واذا حدث واستعمل السونكى ، فانما سيرجع ذلك الى محاولة جنى الحصيلة التي اكتسبت بالفعل عن طريق البندقية والمدافع •

هذه هى العقيدة التى اتجه اليها دراجوميروف وأتباعه فى كل مكان بأنظارهم • ويتعين الاعتراف باحتوائها على مشكلات حقيقية • فبمجرد تعرض القوات المهاجمة للتشتت ، وتركها على سجيتها بعيدة عن سيطرة الضباط الذين تتركز مهمتهم على الهامهم بسواء السبيل ، وبعيدة عن ضباط الصف الذين يعملون على « افزاعهم » ، فهل سيبقى بعد ذلك أى حافز لديهم للتقدم ومواجهة نيران العدو ؟ فبمجرد انبطاحهم على الأرض وراء ساتر ، هل يتوقع نهوضهم مرة أخرى ؟ لقد حدثت عدة أمثلة شهيرة ١٨٧٠ ، عندما شعرت بالضياع نسبة عددية كبيرة من التشكيلات الهجومية الألمانية ، على نحو لم يعمل حسابه • ونشر أحد كبار الضباط (**) ، ممن قتلوا فى هذه الحرب ، والذين احتوى كتابه على بعض أذكى الملاحظات التى نشرت عن الروح المعنوية للقوات المسلحة وصفا لشعور الجندى بانعزاله المفزع فى أية معركة حديثة (وحتى قبل استعمال البارود الخالى من الدخان) بمجرد تجرده من معاونة رفاقه المنتشرين على جانبه بعرض

(*) فى معركة St Privat, Woerth فى أغسطس ١٨٧٠

(**) Colonel Ardent du Picq وقد نشر كتاب Etudes sur le Combat بعد مقتله

الجبهة . وكان لهذا الوضع دور عظيم في تشجيع الرجال على مواجهة الموت منذ أيام الحشود الرومانية : « فالجندى شخص غير معروف حتى عند أقرانه ، ويشعر بافتقاده لهم عندما تضطرب المعركة ، وتفقد اتجاهها فيلفى الجندى نفسه وكأنه يحارب وحيدا ، بعد اختفـاء الاشراف الذى يساعد على توكيد التضامن المتبادل بين الجنود . فلقد أصبح كل شيء الآن يعتمد على الروح المعنوية ، وامكان الاعتماد على الوحدات الأصغر . فلقد شاءت الظروف تحويل جميع المعارك في الوقت الحاضر الى معارك جنود ، فهل يتوقع أن يتحول هؤلاء الرجال المفزوعون الوحداء بعد أن حرمناهم من صوت الطبول وأبواق الحرب وتشجيع قادتهم وعون رفقائهم الى شجعان يقبلون على الموت بصدر رحب ؟ » .

وقد شعر الجيش الفرنسى بتقاليده في القيادة العسكرية والتشكيلات المنظمة عند الهجوم ، والتى سبقت من حيث الزمان حتى عصر نابليون ، شعروا بالاحجام عن قبول المنطق الحديث لقوة النيران . وحاول قادته بعد عشر سنوات من سنة ١٨٧٠ ، فرض تكتيكات التشكيلات المفتوحة على وحداتهم . ولكنهم لم ينجحوا نجاحا فعليا على الاطلاق . وتضمنت تعليمات ١٨٨٤ مرة أخرى الاشارة الى « مبدأ الهجوم الحاسم ، ورفع الرأس عاليـا ، دون مبالاة بالخسـائر » . أما تعليمـات ١٨٩٤ السيئة السمعة ، فقد أعلنت صراحة وجوب تقدم القوات المهاجمة في تشكيل منضم تكاد أذرع المتحاربين تتلاصق فيه ، وبعدم احداث تصدع في التشكيل للاستفادة بمميزات الساتر . فيجب أن يتم الهجوم كتلة واحدة(*) « بعد تلقى الأمر من نوبة البروجى والطبول » . ولم ينفرد بتفضيل اتباع هذا الأسلوب المؤمنون بهذا الهراء والفرنسيون . فهكذا فعل الروس أيضا رغم تجاربهم التى اقتضت منهم مثل معركة بلفنا في بلجاريا (١٨٧٧) التى خاضوا غمارها ضد الأتراك . والأمر بالمثل فيما يتعلق بالانجليز أيضا . فلقد عادوا هم الآخرون بعد عشر سنوات من حيرتهم متأثرين بأحداث ١٨٧٠ لتقاليدهم القديمة . ففى التعليمات التى صدرت ١٨٨٨ كتب العقيد هندرسـون :

« لقد أعاد السونكى تأكيد دوره مرة أخرى . وسيعهد للخط الثانى المزود بالسلاح الصلب الأبيض (السونكى) وحده ـ كما كان الحال في عهد شبه الجزيرة البريطانية ـ سيعهد اليه بواجب التعجيل بانهاء المعركة . ويرجع الاضطراب الذى حدث في المعارك الروسية الى حد كبير الى اعتناقهم المبادىء الثابتة التى لا تتغير للتكتيك . وهم قدوة سيئة علينا أن نتفادى التأثر بها وتقليدها . ان حكمة شعبنا مرشد أكيد . واذا أردنا الاقتداء

(*) En masses

بعد ١٨٧٠ بأحد فلتكن هذه القدوة تكتيكات الحرب العظمى الأخيرة التى شنها الجنود المتحدثون بالانجليزية » •

وكان الأمريكان فى الجانبين (الشمال والجنوب أثناء حربهم الاهلية) يشنون دائما هجومهم بالمواجهة فى تشكيلات منضمة بعد أن اكتشفوا : « انه للحيلولة دون تدهور المعركة وتحولها الى صراع مستعر ممتد بين جيشين محصنين فى الخنادق ، ولتحقيق نتائج سريعة وحاسمة ، فان مجرد الزيادة فى النيران لن تعد أمرا كافيا » • وكان الدرس واضحا : « النظام (التشكيل) المنضم عندما يتيسر ذلك • ويقتصر الالتجاء الى التشكيل المفتوح عندما يكون اتباعه أمرا لا مندوحة منه » •

وفى ١٩٠٠ ، ازداد هندرسون شعورا بالأسى • وازدادت آراؤه اتصافا بالحكمة ، بعد أن بينت أحداث جنوب افريقيا للعالم أنه عند التعرض للنيران فان التشكيل المنضم لن يكون ميسورا ، وما يقال عن أثره الحميد على الروح المعنوية يثير الضحك : « عندما تعانى أغلبية الحشود من خسائر ضافية ، وعندما يشعرون مثلما سيشعر آخرون أنه كان بالاستطاعة اتباع سبل أخرى أقل تكلفة لتحقيق الغاية ذاتها ، فأظننا نعرف ما الذى سيحل بروحهم المعنوية ؟ ويردف هندرسون فيقول : « ان أعظم الانتصارات الهجومية المعية لم تظهر فى المعارك التى كانت أقرب الى عراك بالشوم » ، والتى استنزفت أكبر قدر من الدماء ، وانما هى التى اكتسبت عن طريق المفاجأة والمناورة الحاذقة ، وتعمية العدو وتضليله ، بعد حسن الاستفادة بتضاريس الأرض • انها المعارك التى قلت فيها الذبائح (أى تضاءلت فيها الأرقام المثبتة فى فاتورة الجزارة) • وبعد ذلك بجيل رأينا ليدل هارت مواطن هندرسون ينمى هذه الفكرة البصيرة ويحولها الى فلسفة كاملة للحرب • ولكن قبل ١٩١٤ بفترة طويلة ، تخلى الجيش البريطانى عن هذا الاقتراح الهدام والذى مؤداه أن التبصر ربما كان أفضل جوانب الجسارة •

على أنه عند المفاضلة بين التشكيلات المنضمة والتشكيلات المفتوحة عند الهجوم رئى ان تجربة جنوب أفريقيا تعد بوجه عام قد حسمت هذه المسألة • فحتى القيادة الفرنسية الغامة ، فانها بينما نسبت الكوارث التى لحقت بالبريطانيين الى ما يتصف به الانجلوسكسون من تبلد ، فانها عندما أعادت كتابة تعليماتها ١٩٠٤ ، تخلت عن التشكيلات القائمة على «التصاق المرافق» (*) التى اتبعتها ١٨٩٤ ، وأشارت باتباع التقدم فى شكل جماعات صغيرة تستر بعضها بعضا بالنيران • أى نوع تكتيكات

(*) Coude à coude.

المشاة التي عم اتباعها في الحرب العالمية الثانية . ومع هذا فمن المشكوك فيه أن تكون هذه الارشادات العاقلة قد تركت انطباعا عند جيش أصيب باضطراب اداري يقترب من الفوضى اثر قضية دريفوس . ومن المؤكد أن أداء المشاة الفرنسية ١٩١٤ لا يكشف عن أي دلالة على ذلك . وعلى العموم فان هذه التكتيكات تتطلب من الجندي العادي قدرا من المهارة والاعتماد على الذات لم يتوقعه الجيش الفرنسي ، أو أي جيش أوربي آخر (مع امكان استثناء الألمان) . ولم يحاولوا غرسه في صغار الضباط أو الرتب الأخرى .

وبقيت دون حل المشكلة الأساسية الدائمة الالحاح ، يعني مشكلة الروح المعنوية التي استفحلت بعد ان أصبح السواد الأعظم من جميع الجيوش يتألف من جنود احتياطيين ممن يخشى أن تكون معنويتهم قد تسللت اليها عناصر هدامة من تأثير موهنات الحياة المدنية . واتجه المفكرون الأوربيون العسكريون الى التعميم واعتبروا الاهتمام بالروح المعنوية للجيش متصلا بالروح المعنوية للشعوب في جملتها . ولم يتركز هذا الاهتمام على هل ستستطيع هذه الشعوب الصمود أمام ما سيعتري الاقتصاد من تضعضع - والذي يكاد بلوغ أن يكون قد انفرد بالتكهن بأهمية هذا العامل - ولكنه تركز حول هل سيكون باستطاعتها غرس ذلك الازدراء الرواقي للموت في شبابهم ، حتى يتسنى لهم مواجهة فظائع الهجوم ، وقهرها .

الحرب الروسية اليابانية وانتصار الروح الهجومية

وحدث عندما بلغ الاهتمام بقيمة الروح المعنوية ذروته ان شبت الحرب بين اليابان وروسيا في الشرق الأقصى . ففي فبراير ١٩٠٤ ، شن الأسطول الياباني هجوما مباغتا على الأسطول الروسي في بورت آرثر . وبعد أن نجحت اليابان في السيطرة المحلية على البحر ، أنزلت قوات برمائية على ساحل كوريا ومنشوريا ، واستغرق الجيش الياباني سنة كاملة لتوطيد أقدامه في المنطقة المتنازع عليها في منشوريا ، واستولى على بورت آرثر بعد هجوم بري ، وشق طريقه في محاذاة السكة الحديدية بالاستيلاء على القاعدة الروسية الأساسية في موكدن في معركة دامت أسبوعين ، اشترك فيها أكثر من نصف مليون رجل . وكانت حربا استعمل فيها الطرفان أحدث ما أنتجته التكنولوجيا . فلم يقتصر الأمر على استخدام البنادق التي تعمر من الخزينة ومدفعية الميدان ذات الطلقات السريعة ،

وانما اشتركت أسلحة ومعدات أخرى كالمدافع الثقيلة السريعة الحركة والرشاشات والألغام والأسلاك الشائكة والأنوار الكاشفة والاتصالات التليفونية ، بل وقامت الخنادق بدور مهم فى هذه الحرب • وأثبتت الحرب الروسية اليابانية بما لا يتطرق اليه الشك أن أنفع سلاح لجندى المشاة بعد البندقية هو المجرفة(*) • وعلى الرغم من اتصاف هذه الحرب بطابع خاص تميزت به ، وهذا أمر محتوم ، الا أن الطرفين حاربا فى النهاية بعد أن امتدت خطوط تموينهما فى مناطق قاحلة غير آهلة بالسكان ، قيدت قدرتيهما على الزج بقوات اضافية للاشتراك فى الحرب • وهذه مسألة لا يصح الاستهانة بها ، كما فعل عديدون من المفكرين المحافظين فى أوربا عندما لم يعترفوا بحرب البوير باعتبارها مجرد حرب استعمارية بعيدة الصلة بالحرب بمعناها الصحيح • وكان الجيش الروسى واحدا من أعظم جيوش أوربا ، وأشرف على تدريب القوات اليابانية ، وتجهيزها ، أوربيون ، وبخاصة من الألمان ، على أعلى المستويات الأوربية • وأرسل الأوربيون – والأمريكان – مراقبين عسكريين وبحريين لمرافقة القوات المسلحة ، ورجعوا بتقارير فنية عن العمليات التى استوعبتها قياداتهم ، وأمعنت النظر فيها مليا ، ورأت الجيوش البريطانية والفرنسية والألمانية جدارة ما كتب عن تاريخ الحرب الروسية بالعديد من المؤلفات المتعددة الأجزاء • واستمر زهاء عشرات السنوات تحليل دروسها تحليلا ضافيا دقيقا من قبل بعض النحارير فى المجلات الحربية ، الى أن خبا الاهتمام بها من تأثير الأحداث القريبة من بلادها • ولم تكن حرب البوير أو الحرب الأهلية الأمريكية ، أو حتى الحرب الفرنسية البروسية هى التى خطرت ببال المتخصصين العسكريين الأوربيين عندما نشرت قواتهم ١٩١٤ • ولكن ما شغل أذهانهم حينذاك كان القتال الذى جرى فى منشوريا (١٩٠٤ – ١٩٠٥) •

وجنح المتخصصون – كما جرت العادة – الى تفسير تجارب الحرب على النحو الذى يرضى أهواءهم ويتجاوب وأمانيهم ، فلاحظ رجال الفرسان المحافظون اخفاق الفرسان الروس – الذين تدربوا على استعمال البندقية – فى تحقيق أى شىء على أكمل وجه لا داخل المعركة أو خارجها • اذ أدى الافتقار الى الروح الهجومية الى صبغ غارات هؤلاء الفرسان واستكشافاتهم بطابع عديم الفاعلية • وعلى عكس ذلك ، لاحظ المصلحون كيف تمكن اليابانيون من نشر فرسانهم بكفاية ، وكيف نجحوا فى استثمار قوة النيران الخفيفة الحركة ، ولاحظوا أيضا الدور المهم الذى قاموا به فى معركة

(*) Spade.

موكدن ، واتفق الجميع على الاعتراف بالأهمية الفائقة االتى اكتسبتها المدفعية بفضل ما لديها من دقة وقدرة على اصابة الأهداف البعيدة وارتفاع معدل النيران ، ورأوا وجوب حرصـها دوما على استعمال النيران غير المباشرة والشرابنل أكثر من اعتمادها على المقذوفات شـديدة الانفجار باعتبارها أشد فاعلية ، وان كانت هذه المميزات لا تنسينا نهم المدفعية فى استنفاد الذخيرة • وتلقى المسئولون دروسا ثمينـة تخص مشكلات الامدادات والاتصالات وضرورة ارتداء زى لا يلفت الأنظار • وسرعان ما أعاد الجيش الأوربى الباس جيوشه زيا عسكريا من اللون البنى والرمادى بمختلف درجاتهما • ويرجع تأخر الفرنسيين فى الاحتذاء بالآخرين الى أسباب سياسية محافظة وليس لأسباب عسكرية ، مما عاد عليها بالعواقب الوخيمة • ولكن الأهم من كل هذا هو الاجماع العام على اعتبار هجوم المشاة بالسونكى مازال ممكنا ، بل وضروريا ، بالرغم من تجربة جنوب افريقيا • فلقد اتبعه اليابانيون المرة تلو الأخرى ، وحقق عادة نجاحا حاسما •

ولم تكن هجمات اليابانيين بالسونكى تجرى الا بعد عمليات تقدمية طويلة حذرة • وكانوا يقتربون أثناء الليل بقدر الاستطاعة ، ويحفرون مواقعهم قبيل الفجر ، ويسترخون بالنهار ، ثم يكررون فى الأيام التالية نفس الخطوات الى أن يتعذر تقدمهم الى ما هو أبعد • ثم ابتعدوا تماما عن التقليد الأوربى الذى يتبع التقدم فى خطوط متراصة ، فكانوا ينقضون أو ينطلقون قدما فى جماعات صغيرة تتألف كل منها من عشرة أو عشرين جنديا ، ويحدد لكل جماعة هدف خاص بها ، وتنتقل من ساتر الى آخر الى أن تقترب إقترابا كافيا من الهجوم • ووصف أحد المراقبين الفرنسيين هذه الحالة بقوله :

« لقد أصبحت الجبهة اليابانية بأسرها تتوهج ببريق السونكيات بعد انتزاعها من جرابها • وغادر الضباط الملاجىء مرة أخرى ، وهـم يصيحون صيحات مجلجلة « بانزاى » ! ، تردد صداها بين جميع الرتب • وتقدموا متمهلين ، وان وجب عدم انكار نجاحهم فى شق طريقهم رغم الأسلاك الشائكة والألغام والحفر ووابل الطلقات التى لا ترحم • وتعرضت وحدات بأكملها للابادة ، وحلت وحدات أخرى مكانها • وتوقفت الموجات الزاحفة للحظات ، ثم عاودت الزحف الى الأمام • ولقد أصبحوا بالفعل قيد أمتار من خنادق العدو • وبعد ذلك رأينا على الجانب الروسى جبهة ترتدى اللون الرمادى وتطلق بدورها غلالة من النيران ، وبعد أن تطلق بعض القذائف العلوية فى نهاية الغـلالة تهرع مسرعة الى الطرف البعيد من التل » •

وتكبد اليابانيون خسائر جسيمة فى هذه الهجمات ، ولكنهم نجحوا ، ومن هنا يصح القول بأن مثل هذه التكتيكات ستنجح مرة أخرى • هكذا رأى أصحاب النظريات من الأوربيين • وكما عبر عن ذلك أحد الكتاب العسكريين الانجليز : « لقد أثبتت تجربة منشوريا المرة تلو الأخرى ان السونكى ليس على أى نحـو سلاحا عفا عليه الزمان • اذ ربما اعتبر الاقتحام أهم من الحصول على التفوق فى النيران الذى يسبقه ، لأن الاقتحام بمثابة لحظة الذروة فى القتال • ويعتمد عليه فى حسم النزاع ••• ومن هذه الأمثلة المجيدة يصح أن نستخلص وجوب عدم النظر الى اى واجب قتالى مهما بلغت درجة صعوبته على أنه مستحيل ، اذا اضطلع بانجازه جنود مشاة حسنو التدريب ومنضبطون يتمتعون بروح معنوية عالية » •

نعم لقد كان ما أسر انتباه جميع المراقبين هو « هذه الروح المعنوية وهذا الانضباط » ، وأجمعوا على الاتفاق بأن هذه الخصائص لا تنفرد بالتميز بها القوات المسلحة ، ولكنها سمة الشعب اليابانى عن بكرة أبيه • ولاحظ الجنرال كوروباتكين قائد القوات الروسية متأسيا فى مذكراته :

« فى الحرب الأخيرة ، كانت روحنا المعنوية أضعف من الروح المعنوية لليابانيين • وترجع هزائمنا الى هذا النقص ، وليس الى أخطاء القيادة ، ••• لقد تأثر اصرارنا على القتال بوجه خاص بافتقارنا الى الروح القتالية وارتفاع الروح المعنوية والنوازع البطولية • وفى حالات كثيرة لم يتوافر لنا التصميم الكافى على قهر خصوم مثل اليابانيين » •

وأثارت نفس المميزات اهتماما مماثلا عند الجنرال ايان هاملتون ممثل الانجليز لدى حلفائه اليابانيين :

ان ما يقلقنى الآن ليس مراهنتنا على الحصان الخاسر • ولكن ربما شعر الساسة الأوربيون ببعض القلق عند تناسى شعوبهم وجود ملايين خارج الحلقة السحرية للحضارة الغربية على استعداد لانتزاع الصولجان من الأيادى الواهنة ، التى سمحت لروحها العريقة بالاستكانة ••• ومن حسن الحظ أن اليابان حليفتنا •• ومن ثم فلدى انجلترا الوقت الذى يساعدها على اعادة ترتيب شئونها العسكرية • الوقت الذى يسمح بغرس المثل العسكرى الأعلى فى أفئـدة أبنائها ودفعهم للتعلق بهـا • الوقت للاستعداد للقرن العشرين • وما سيتصف به من اضطراب وقلق • فعلينا أن نبدأ بدور الحضانة ، ولعبها ، وبمدارس الأحد ومدارسنا الحربية ، وأن نركز الدعوة لحث الجميع على الولاء والالتزام بالتقالية فى برامج التعليم حتى يستتب فى العقول الفتية لأبناء الجيل الصـاعد من

صبية الانجليز والفتيات الانجليزيات الشعور بالاحترام والاعجاب بالروح الوطنية لدى أسلافهم » .

وبالاستطاعة العثور على تعبيرات مماثلة للاعجاب بعقيدة بوشيدو التى انتشرت حينذاك على نطاق واسع فى المؤلفات العسكرية ، أو التى تتحدث عن موضوعات عسكرية . على أن ما يهمنا بوجه خاص لما نسعى تأكيده هو الاعتراف العام بأن الأداء اليابانى قد أثبت التفوق المعنوى والعسكرى الكامل للأسلوب الهجومى . فلقد أدت سلبية اختفاء خفة الحركة عند الروس ـ بالرغم من جميع المميزات التى كان بوسعهم التمتع بها بحكم اتخاذهم موقف الدفاع ـ فى المدى البعيد الى تأكيد هزيمتهم . كانت هذه هى النتيجة التى تبناها ـ بقلوب راضية ـ العسكريون فى كل مكان بعد الشكوك السقيمة التى ترتبت على حرب البوير . وكتب اللواء سيرنوكس بكل بساطة ١٩١٤ : « ليس أسلوب الدفاع أسلوبا مقبولا للبريتون على الاطلاق . فلقد أثبت ـ يقينا ـ على المدى الطويل أنه وراء كل هزيمة لحقت بمن يتبعه » . أما وزير الدولة للشئون الحربية هالدين فكان قد كتب قبل ذلك ١٩١١ : « ليس التركيز على مبدأ الدفاع السلبى هو الذى ساعد جنودنا على تحقيق المجد الذى تنعم به بلادنا حاليا » . وعندما تقاعد الجنرال الألمانى فون شليفن كرئيس لهيئة الأركان ١٩٠٥ أوصى خلفاءه بالحرص على أن تتبع الجيوش النموذج الذى اتبع فى الحرب السبعينية : « الهجمات والمزيد من الهجمات الشرسة . صحيح أنها أحدثت خسائر منقطعة النظير ، ولكنها حققت النصر أيضا . ومن المحتمل أن يكون من الصحيح أيضا القول بأنها هى التي تحسم المعركة » . وعلينا أن لا ننسى أيضا تأييد فون مولتكه الأصغر الذى خلف شليفن فى منصبه لهذه الوصية : « لقد تعلمنا الهدف الذى سعى (شليفن) لتحقيقه وهو عدم الحصول على نجاحات محدودة ، بل يجب توجيه ضربات قوية قاضية . فالهدف هو القضاء على العدو ويجب أن توجه جميع الجهود لتحقيق هذه الغاية » .

على أن الدرس لم يقابل فى أى موضع آخر بالمزيد من الامتنان الا فى فرنسا . فلقد وصف الماريشال جوفر ، الذى ينظر الى عملياته الهجومية إبتداء من ١٩١٤ عبر ١٩١٦ على أنها سلسلة من المهالك الثقيلة الوطأة ، وصف رد الفعل الفرنسى تجاه الحرب الروسية اليابانية فى مذكراته باخلاص ودون شعور بأى أسف ، فكتب :

« بعد حرب البوير ، تهاطلت سلسلة كاملة من العقائد العسكرية الزائفة ... التى نزعت الى اضعاف حتى المشاعر الهجومية الواهنة التى ظهرت فى مذاهبنا الحربية .. اذ أدت الدراسة المبتورة للأحداث التى

وقعت فى حرب واحدة الى اعتقاد صفوة المفكرين فى جيشنا أن ارتقاء الأسلحة النارية وقوة توجيه النيران قد عززا من مبـدأ اتخاذ الموقف الدفاعى ، حتى فقد الموقف الهجومى المقابل له جميع مميزاته » ٠

ومع هذا فبعد الحرب الروسية اليابانية رأيناه يقول :

« أخيرا برأ شباب صفوة مفكرينا من آثار المرض الذى ألم بالعالم العسكرى من جراء تعلقه بهذه الاكليشيهات ، ورجع الى تصور أسلم للأحوال العامة السائدة فى الحرب » ٠

واعترف القائد الفرنسى جوفر بأن هذا الولع الجديد بالهجوم « قد اتخذ طابعا بعيدا عن العقل الى حد ما » ٠ واستشهد بمحاضرات الكولونيل جرانميزون الشهيرة ١٩١١ كمثال ٠ فقد صرح جرانميزون لمستمعيه « بأن الأصح هو وصف هذا الاتجاه بأنه ابتعد تماما عن العقل » ٠ « فعلينا حقا أن ننجح دائما عندما نقاتل فى انجاز أشياء تبدو مستحيلة اذا نظرنا اليها نظرة فاترة ٠ فمثلا ٠٠ التقدم تحت وابل النيران ٠٠ علينا أن نعد له العدة ، وأن نعد الآخرين له بأن نغرس فى كل واحد منهم ما يحمل طابع الروح الهجومية ٠ ولربما دل اتباع هذا الطريق الى حد المغالاة ، على أننا لم نسترسل فى متابعته بالقدر الكافى » ٠

ولم يتضمن كلام جرانميزون أية اشارة لبيان الاستعمال الحريص للأرض ، والتعاون المتبادل بين الأسلحة ، أى المميزات التى تميزت بها التكتيكات اليابانية الفعلية ٠ وهى تكتيكات اقتربت على نحو ملحوظ من المبادىء التى وردت فى التعليمات الفرنسية للمشاة ١٩٠٤ ، والتى نظر اليها بعد ذلك بازدراء ٠ غير أن جرانميزون لم يكن يطرح عقيدة عسكرية بقدر نزوعه الى ترديد شعارات قومية مستندة الى توكيد الذات والتعصب الشوفينى الذى كان مهيمنا على المؤسسات الفرنسية من مدنية وعسكرية على السواء فى سنة ١٩١١ و ١٩١٢ ٠ انها روح بذلت جهدا كبيرا لاستعادة الروح المعنوية لجيش محطم ومضطرب ، بعد ما حدث فى قضية دريفوس من تجاوزات ، ولكنها لم تكن قادرة فى ذاتها على ابتكار مهارات ميدانية ، كتلك التى تميز بها الجيش اليابانى ، وبدونها لا تكون « الروح الهجومية » مجرد تأكيد للمعنوية القومية بقدر كونها رغبة عامة للموت ٠ وكانت هذه الروح هى التى صحبت الضباط الفرنسيين عنـدما قادوا الهجمات فى أغسطس وسبتمبر ١٩١٤ ، والتى تمخضت خـلال سـتة أسابيع عن وقوع خسائر تقدر بـ ٣٦٥٠٠٠ ، من بينهم مائة ألف من القتلى ٠

ومات بلوخ ١٩٠٢ ، ولكن كان بمقدوره الشعور بمزيد من الارتياح لما أسفرت عنه تجارب الحرب الروسية اليابانية • اذ كانت معاركها طويلة ومكلفة وغير حاسمة • لقد تحقق النصر عن طريق الانسحاق ، وعنت الهزيمة بالنسبة لروسيا الثورة التى تولدت عنها • ولكن نقاد بلوخ بمقدورهم القول بالمثل بأن فكرته الأساسية قد أثبتت عدم صحتها • فلقد أثبت استمرار الحرب أنها ليست مستحيلة ولا انتحارية ، بل ظلت أداة فعالة للسياسة ، تتبعها أية أمة عندما تتوافر لها الشجاعة لمواجهة أخطارها، وتتوافر لها القدرة على تحمل اعبائها ونفقاتها ـ خصوصا ما تتكبده حتما من خسائر فى الأرواح البشرية يمكن التكهن بها • وقال هؤلاء النقاد : على الشعوب التى لا تعد نفسها لجعل مصيرها موقع اختبار ، عليها أن لا تتوقع أية رحمة أو شفقة فى الحرب الشرسة للصراع على البقاء التى تميز بها دوما التاريخ البشرى ، والتى بدا محتملا أن تشن فى القرن التالى بقدر أكبر من الشراسة • وبهذه الروح وهذه الآمال ، توجهت الشعوب الأوروبية صوب الحرب ١٩١٤ :

المراجع

L. Albertini, The Origins of The War of 1914 (3 Vols.) 1952, 1957.

T. Ashworth, Trench Warfare 1914-1918 : The Live and Let Live System 1980.

V. Berghan, Germany and the Approach of War in 1914 (1873) (1981).

W. Y. Carman, A History of Firearms from the Earliest Times to 1914, (1955).

F. Fischer, Germany's War Aims in the First World War (1967).

O. J. Halle, The Great Illusion 1900-1914 (1971).

P. Kennedy, The Rise of the Anglo-German Antagonism 1860-1914, (1980).

P. Kennedy, The War Plans of the Great Powers 1880-1914 (1978).

L. I afore, The Long Fuse (1965).

J. H. Miller, Military Strategy and the Origins of the First World War (1985).

J. H. Morrow (Jr.) German Air Power in World War I (1982).

D. Porch, The March to the Marne : The French Army, 1871-1941, (1981).

K. Robbins, The First World War (1984).

Z. Steiner, Britain and the Origins of the First World War. (1977).

L. C. F. Turner, Origins of the First World War (1970).

اضطرابات عمال بتروجراد في الحرب العالمية الأولى

تسيوشى هازيجاوا

اندلعت الثورة فى روسيا ١٩١٧ • وفى نوفمبر ١٩١٧ ، سيطر البلاشفة على الثورة ، وعلى الرغم من أن المظالم والافتقار للكفاءة والمساوىء الاجتماعية التى صحبت الحكومة القيصرية ، كانت وراء الأسباب بعيدة المدى للاضطراب السياسى فى روسيا ، الا أن ما حدث كان نتيجة لتجربة الحرب العالمية الأولى التى عجلت بالأحداث على نحو لم يتخيله احد البتة قبل ١٩١٤ • ولقد ترتب على المجهود الحربى الروسى سلسلة من الهزائم العسكرية المهلكة على الجبهة وعلى الأحوال الفظة للانتاج داخل البلاد ، مما زاد من حدة سخط العمال ، الذى كان مستعرا بالفعل قبل وقوع الصراع •

وكانت بتروجراد (سان بطرسبورج الآن ، والتى سميت فى مرحلة الشيوعية بلينينجراد) محور اضطرابات العمال • وتضم المدينة أكبر تجمع عمال فى الصناعات المتصلة بالحرب • ولقد تزايدت قوة العمال أثناء الصراع ، وفى ذات الوقت ، وباستثناءات قليلة ، هبطت الأجور الفعلية هبوطا حادا ، بعد زيادة ساعات العمل ، وبعد أن تفاقم النقص فى الغذاء ، وردت الحكومة بالقمع المسلح على سخط العمال • وبالرغم من ذلك ، سعى عمال بتروجراد الى حماية مصالحهم بالاستعانة بالسبل القانونية القليلة المتاحة لهم ، مثل حركة التامين واتحادات العمال وتعاونيات العمال ، وأندية القراءة والثقافة • وتحولت جميع هذه المؤسسات الى منابر للأنشطة السياسية والتنافس السياسى بين المعسكرات السياسية المتعددة للطبقة العاملة •(*)

(*) نقلا عن كتاب The February Revolution : Petrograd 1917. تأليف Tsuyshi Hasegawa (1981).

بيد أن الوسيلة الكبرى لاحتجاج العمال فى بتروجراد كانت الاضراب • ونظم العمال والثوريون المحترفون الاضرابات على الرغم من الجو السائد المتأثر بالهزيمة العسكرية والضغوط القيصرية ضد أعضاء البرلمان الروسى (الدوما) لليبراليين • اذ كانت أسباب الاضرابات وأهدافها متصلة اتصالا مباشرا أكبر باهتمامات العمال أنفسهم ، التى تركزت على الأجور والغذاء والقمع البوليسى • وبين ١٩١٥ و ١٩١٦ ، ارتفع عدد المشاركين فى الاضراب ارتفاعا مفزعا • وفضلا عن ذلك ، اشترك عمال ينتمون الى مختلف الصناعات تدريجيا فى هذا الاضراب ، واتصفت موجة الاضرابات التى بدأت فى فبراير ١٩١٧ بروحها النضالية وبتفشيها ، وأدى ما حدث من اضطراب الى تصدع حكومة القيصر ونشوب الثورة •• ومن بين الجماعات الثورية المختلفة الساعية لاضعاف النظام القيصرى ، نجح البلاشفة بمهارة فائقة فى القاء شباكهم التى ضمت أهدافهم السياسية وسط احتجاج القوة العاملة ببتروجراد على الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية •

لم يكن هناك ما هو أخطر على النظام القيصرى من « العزلة السياسية الاجتماعية للطبقة العاملة التى كانت تحيا بمعزل عن النظام الاجتماعى القائم » • فلم تحظ بأى نصيب فى امتيازات المجتمع ، وشاركت فى اثارة الطبيعة المتفجرة الهدامة للطبقة العاملة عناصر كثيرة كالتركيز الشديد للعمال فى القليل من المدن الكبيرة ، وغلبة الأنشطة الصناعية الكبيرة الحجم ، والخليط الغريب الذى يجمع بين التكنولوجيا المتقدمة وتخلف التقدم الصناعى الروسى • نعم لقد رحب العمال باندلاع الحرب ، ولكن حماستهم الوطنية سرعان ما انطفأت جذوتها ، بعد وقوع الهزيمة الحربية ، وفساد الحكومة ، وشعورهم بالاحباط ثم الغضب ، بعد أن ارتفعت تكاليف الحياة ارتفاعا حادا • وأدت سياسة القمع التى اتبعتها الحكومة ، التى استبعدت من الناحية الفعلية جميع السبل القانونية الرئيسية للاحتجاج الى اندفاعهم نحو الاشتغال بالتطرف • وفى أواخر ١٩١٦ ، اتجه العمال بعد ان أجبروا على التزام الصمت بعد بدء الحرب الى الانصات لمثيرى الشغب ، وهم ينادون مطالبين بقلب النظام القيصرى ، ومن هنا رأينا الاهتمام بفحص مصدر النزوع السريع نحو التطرف الذى حدث بين عمال بتروجراد •

كانت بتروجراد أضخم مركز صناعى فى روسيا ، ففى بداية ١٩١٧ ، كانت تضم ٨٫٣٪ من مصانع البلاد داخل حدودها ، وتنتج ٢٢٪ من الناتج الصناعى الكلى ، وكان أكبر عدد من العمال متركزا فى

بتروجراد • ففى بداية ١٩١٤ ، بلغ عددهم ٢٤٢٦٠٠ أو ٩٪ من المجموع الكلى لعمال فى روسيا ، وارتفع هذا العدد فى أول ثلاث سنوات من الحرب الى ٣٩٢٨٠٠ ، أى بزيادة قدرها ٦٢٪ • وهناك ٢٤٠٠٠ آخرون كانوا يقيمون فى المناطق المجاورة خارج العاصمة حيث توجد بعض المصانع الكبرى (*) • وبذلك وصــل عدد العمال فى بتروجـراد وضواحيها الى ٧٤١٠٠٠ ، أو ما يقدر بـ ٩ر١١٪ من جميع العمال بروسيا •

وارتبط هذا التوسع السريع فى صناعة بتروجراد ارتباطا وثيقا بالحرب • ففى أغسطس ١٩١٦ ، عمل ٩٤٪ من العمال و٦١٪ من مصانع بتروجراد فى الانتاج الحربى ، وأحـدثت الحرب تغييرا بالغ الأثـر فى تكوين العمال ونوعية عملهـم ، فتضاعف عدد العاملين بالتعدين الى ٢٣٧٠٠٠ أو ٦٠٪ من المجموع الكلى للعمال فى بتروجراد • وعلى الرغم من حدوث تضاؤل فى عدد عمال النسيج خلال الحرب ، الا أنهـم كانوا يحتلون المركز الثانى بين عدد العمال فى روسيا (٤٤٠٠٠ أو ٢ر١١٪ من العدد الكلى للعمال) ويأتى بعدهم عمال الصناعات الكيماوية الذين ازدادوا بنسبة ٨٠٪ فبلغ عددهم ٤٠١٠٠٠ ، أو ٢ر١٠٪ • وثمة أثر مهم للحرب هو ازدياد عدد المصانع الكبيرة • اذ ارتفع متوسط عدد العمال فى المصنع من ٥٣٦ (١٩١٣) الى ٩٧٤ (١٩١٧) • وفى بداية ١٩١٧ ، ضم عدد ١٣٢ مصنعا فقط ١٣٪ من مجموع العاملين بالمصانع ، التى كان يعمل بها ٣١٧٣٢٨ أي ٧ر ٨ من المجموع الكلى لقوة العمال فى بتروجراد• وكان متوسط عدد العمال فى المصنع من هذه الفئة هو ٢٤٠٤ر٢ ، وأكبر المصانع هو مصنع بوتيلوف ، وكان يعمل به أكثر من ٢٤٠٠٠ ويليه مصنع الأنابيب فى بتروجراد (١٩٠٤٦ر١٩) ترويجولنك (**) (٣٣٨ر١٥) وأوبوخوف (***) (٦٠٠ر١٠) والمفرقعات أوختا (٢٠٠ر١٠) ومصنع الخراطيش بتروجراد (٢٩٢ر٨) ، وجميع هؤلاء العمــال يشتغلون فى الانتــاج الحربى ، وتملك الدولة جميــع هــذه المصــانع باستثناء مصنع ترويجولنك •

ولابد من ملاحظة أن اعادة احياء حركة العمال أثناء الحرب كانت مصحوبة فى خلفيتها بحركة توسع هائلة فى الصناعة الروسية ، وبخاصة فى القطاعات الوثيقة الاتصال بالانتاج الحربى ، وخلق هذا التوســع أزمة نقص حادة فى العمال ، وعلى الأخص بين العمــال المهرة المشتغلين

(*) مثل مصانع الأسلحة (Izhora, Sestroretsk) ومصانع المدافع Schluesselburg

(**) Treugol'nik

(***) Obukhov

بالتعدين . واضطلع هؤلاء العمال بالذات بدور نشط فى حركة الاضراب، وكانوا أقدر على التعبير عن مطالبهم من أقرانهم المشتغلين بالصناعات الأخرى الذين لم يتماثلوا معهم فى حالة الرخاء التى نعموا بها أثناء فترة الانتعاش التى خلقتها الحرب . وبعد الحرب بوقت قصير ، توقفت الحكومة عن تجنيد العمال المهرة فى الجيش ، وعاد من سبق تجنيدهم تدريجيا الى المصانع

ولم يكن من تصدروا الحركة الراديكالية للعمال من العمال المميزين فى أكبر المصانع ، حيث كانت الأجور والعلاوات العرضية أفضل حالا من مثيلاتها فى المصانع الأصغر حجما ، وحيث توجه الحكومة مزيدا من العناية ، وتمارس أسلوب الثواب (الجزرة) والعقاب (العصا) . اذ جاء معظم المشاركين النشطين فى حركة الاضراب أثناء الحرب من بين عمال مصانع التعدين فى مقاطعة فيبورج التى كان يعمل بها ما بين ألف عامل و ٨٠٠٠ عامل ، ومن ليستر الجديدة (٦٫٥٠٠) وبارفينين (*) (٧٫٣٠٠) وايفيز (**) (٤٫٠٠٠) وبروميت (٣٠٠٠) وفونكس (١٩٤٠) واريكسون (٢٫٢٠٠) وتوبل (١٦٠٠) وعلى الرغم من احتياج النتائج الأكثر دقة الى اجراء المزيد من البحث والتنقيب ، الا أن الظاهر أن عمال مصانع الذخيرة الكبرى التى تملكها الحكومة كانوا أقرب الى التقدم فى السن ، وعملوا بنفس المصنع لسنوات عديدة . أما عمال مصنع فيبورج فكانوا أقرب الى صغر السن ، ومعدل استبدالهم بعمال آخرين أعلى ، ولو صح هذا الاستنتاج ، فاغلب الظن أن الباعث الأكبر لجنوح عمال بتروجراد نحو التطرف قد جاء بتحريض من عمال التعدين الأعلى مهارة ومن شباب العاملين بالتعدين ممن كانوا يتمتعون بمميزات اقتصادية أفضل من العاملين فى القطاعات الأخرى من الصناعة ، ان لم يتماثلوا فى المهارة هم والعمال الأقدم فى مصانع الحكومة الكبيرة ، كما أن حجم هذه المصانع لم يبلغ حدا من الضخامة يحول دون الاتصال السريع بين عمال المصانع ، ولم يتصف بضآلته بقدر كان يتيح للمسئولين عن ادارة المصنع والشرطة قمعهم بسهولة ، مما سهل سرعة تعبئة العمال .

وأول مؤثر شارك فى اعادة احياء حركة العمال ابان الحرب هو حدوث انخفاض فى الأجور ، وعلى الرغم من أن أجور عمال بتروجراد كانت أعلى بمقدار مرة ونصف من المتوسط القومى للأجور ، الا أن التضخم التهم هذا الاختلاف . إذ كانت الأجور الفعلية لعمال بتروجراد (١٩١٦)

(*) Parvianen
(**) Aivaz

ما بين ٩٠٪ و ٩٥٪ من مستوى أجور ١٩١٣ ، وفي فبراير ١٩١٧ هبطت بمقدار من ١٥ الى ٢٠٪ . على أن هذه الأرقام لاتكشف التقلبات الواسعة بين مختلف الصناعات ، مثلما تكشف ما بين العمال المهرة وغير المهرة من اختلاف ، فلم تحدث زيادة فى الأجور الفعلية الا فى قطاعين من قطاعات الصناعة : قطاع صناعة التعدين وقطاع الصناعات الكيماوية ، وكانت هذه الزيادة ما بين ٢٠٪ و ١٣٪ على التوالى ؛ وفي الصناعات الغذائية وصناعة النسيج ، حيث كانت العماله الغالبة من النساء والأولاد ، كانت الأجور أقل من نصف أجور عمال التعدين . وتعد الزيادة غير العادية في تكاليف المعيشة مسئولة بصفة مباشرة عن تدهور الأجور الفعلية . وفى أكتوبر ١٩١٦ ، عندما قورنت الأسعار بأسعار ١٩١٣ اتضح حدوث ارتفاع فى سعر الشيلم بمقدار ٢٤٣٪ ، وفى سعر دقيق القمح بمقدار ٢٦٩٪ وارتفع سعر الحنطة السوداء ٣٣٠٪ وسعر اللحوم ٢٣٠٪ وسعر السكر ٤٥٧٪ والأحذية والملابس من ٤٠٠ الى ٥٠٠٪ . فلا عجب اذا رأينا أهم مطلب اقتصادى للعمال أثناء الحرب يتركز على زيادة الأجور .

ويعتقد بعض الكتاب (*) فى وجود عمال أرستقراط خلال الحرب ، ارتفعت على أكتافهم الدعامة الاجتماعية للاشتراكيين المعتدلين ، ويبين من البيانات الخاصة بتوزيع الأجور فى لستر الجديدة ما يأتى : ٢٧٪ كانوا يحصلون على ماهو أقل من ٦٠ روبل و٢٥٪ (ما بين ٦٠٠ و١٠٠ روبل) و٢٠٪ (ما بين ١٠٠ و١٤٠ روبل) و١٩٪ (ما بين ١٤٠ و٢٠٠ روبل) ويظن الكاتبان أن ما بين ٥٪ و ٧٪ من عمال بتروجراد كانوا ينتمون الى العمال الأرستقراط الذين يتقاضون أكثر من ٢٥٠ روبل شهريا . ولا يستبعد وجود تناسب عكسى بين مقدار الدخل والاستعداد للمشاركة فى حركة الاضراب ، ولعل شباب العاملين المهرة بالتعدين الذين مثلوا صميم حركة الاضراب لم يكونوا من بين من يحصلون على أعلى أجور ، ولكنهم كانوا يحصلون على ما هو أكثر من العامل المتوسط . ومع هذا فمازالت النتائج الأدق تنتظر دراسة احصائية أوفى وأشمل .

ومن العوامل المؤثرة على الاقبال على الاشتراك فى حركة الاضراب طول ساعات العمل . اذ كان متوسط ساعات العمل فى مصنع التعدين (من ١١ الى ١٢ ساعة) يوميا . وكثيرا ما كان بعض العاملين فى مصانع النسيج والجلود يعملون أكثر من ١٢ أو ١٣ ساعة يوميا ، وأدت هذه الاطالة فى ساعات العمل الى حدوث زيادة فى التعرض للحوادث وحالات

(*) من امثال Shakaratan, Leiberoy

المرض لما يقرب من ضعف مستوى ١٩١٣ ، وضعف ونصف هذه النسبة ٠ واكتشف مفتشو المصانع (١٣٧٢ حالة انتهاك للشروط الصحية وتعليمات الأمن) ١٩١٥ ، ولم يحكم بالغرامة الا على عشرة من أصحاب المصانع بما قيمته ٣٦٥ روبل ، وفى ذات السنة ، كانت هناك أحكام بالغرامة تقدر بمبلغ ٨٩٨ر٣٢١ وقعت على العمال ، وبذلك بلغ مجموع الغرامات ١٠٩٦٣٣ وكثيرا ما أدى التهاون فى تطبيق اجراءات الأمن الى وقوع أحداث مأسوية ٠ ففى ١٦ ابريل ١٩١٥ ، دمر انفجار وقع فى مصنع ذخيرة المدافع « أوختا » ورشتين وثمانية أبنية سكنية فى الضواحى ، وقتل ١١٠٠ شخص وجرح أكثر من ٢٢٠ ، وفى ١٥ نوفمبر ١٩١٥ ، أدت رداءة التهوية فى احدى ورش ترويجلنك الى اصابة ٣٩ من العاملات بالتسمم بالاضافة الى ظهور أعراض هستيرية تمثلت فى شكل صياح وبكائيات وضحكات ، وبعد ذلك بخمسة أيام ، أصيب أحد عشر عاملا بالتسمم فى الورشة نفسها ٠ وفى ١٠ أكتوبر ، أرسل خمسون عاملا فى لاجنتيبر - لم يذكروا أسماءهم - التماسا الى مفتش المصنع يطلبون منه التدخل لصالحهم لانشاء أنبوبتين وفتحتين للتهوية تركبان بالورشة بعد أن شكا جميع العمال من الصداع الناشىء عن «الدخان ورائحة الزيت» ، ورفضت ادارة المصنع المطلب ، وردت عليه بقولها : « لستم بحاجة الى مثل هذه الأنابيب ، لأنكم ستشعرون بالبرودة ، عندما تتسرب السخونة من فتحة الأنابيب ، وسيلحق الهواء ضررا جسيما بكم » ٠

وتحمل العمال الكد والكدح طيلة اليوم فى ظروف خطيرة ، ولم تتوافر لهم فى بيوتهم سبل الراحة أو اليسر ، ولقد سبقت الاشارة الى شدة الازدحام فى أحياء العمال ، وأدى اكتظاظ العمال الجدد فى بتروجراد الى نشوء أزمة سكن حادة فى الايواء ، والى اقدام ادارة المصانع الكبرى على انشاء عنابر للنوم فى مجمعات المصنع ، وارتفعت قيمة الايجارات الى أن بلغ عنان السماء متوسط الايجار الشهرى ١٩١٦ بمقدار ١٢ روبل ، بالمقارنة بثلاثة روبلات أو أربعة قبل الحرب ، واضطر كثير من المستأجرين الى المبيت بالطرقات لعجزهم عن دفع قيمة الايجار ٠

غير أن أهم مشكلة واجهت عمال بتروجراد بعد صيف ١٩١٥ ، كانت موارد الغذاء ، اذ هبطت كميات الدقيق التى تنقل الى قطاع بتروجراد بمقدار ٦٥ مليونا بود (والبود يعادل ثمانية عشر كيلوجراما) والى ٦ر٢٨ مليون بود ١٩١٧ ، أى أنقص بمقدار ٤٤٪ عن مستوى ١٩١٣ ٠ وفى خريف ١٩١٥ ، اختفت اللحوم ودقيق القمح والسكر والزبد من الأسواق ، وتعذر شراء الكبريت والصابون والشموع والكيروسين ٠ واضطر العمال الى

الوقوف في طوابير طويلة بعد انتهاء العمل لشراء رغيف من الخبز ، وكثيرا ما يكون قد نفد عند مبارحتهم لمقار عملهم •

ولم يتوافر للحكومة أى حل لمشكلات العمال ، ولكنها لجأت الى القمع في كثير من الأحيان لاحتوائهم ، ودفعت اتحادات العمال الى الانزواء عن الأبصار والالتجاء الى الوسائل غير المشروعة فور اندلاع الحرب وأوصدت أبواب دور النشر الخاصة بالعمال ، وقبض على رؤساء تحرير صحفها • وبعد القبض على المناضلين الحركيين ، تم الخلاص من منظمات صندوق المرضى من العمال ، وتوقفت اجتماعات مجالس التأمين فى طول المدينة وعرضها ، بعد القبض على جميع أعضائها عدا اثنين فقط ، وقال أحد المخبرين السريين (أوخران) مزهوا : حتى الآن فى بتروجراد ، توقف العمل فى اتحادات العمال ، وتعد نقابة الصيادلة هى الوحيدة التى مارست عملها أثناء الحرب • واعتبرت الاضرابات مخالفة للقانون ، وعوقب المضربون بالأشغال الشاقة لمدة تتراوح بين أربعة شهور وأربع سنوات • ونشرت احدى جرائد موسكو(*) : « تعد جميع الاضرابات التى تؤدى بالقطع الى تباطؤ تزويد الجيش باحتياجاته مساعدة صريحة وسافرة لعدونا • ولا يمكن أن ننظر اليها الا على أنها خيانة شريرة لجنودنا البواسل ، وخيانة لوطننا » ، وفى ٢ سبتمبر ١٩١٥ ، أصدر الجنرال فرولوف قائد حامية بتروجراد تحذيرا للعمال قال فيه ان أى اشتراك فى الاضرابات سيؤدى الى التعرض للمحاكمة أمام محكمة عسكرية والحكم بالنفى لمدة غير محدودة •

ولم تحل مثل هذه الاجراءات القمعية دون استمرار اضرابات العمال ، التى ظلت الوسيلة الفعالة الوحيدة للتعبير عن الضمير • وعندما كشفت حركة الاضراب فى صيف ١٩١٥ عن بوادر عودة اندلاعها ، بحثت الحكومة احتمال تجنيد العمال • وفى أغسطس ١٩١٥ ، قدم وزير التجارة والصناعة اقتراحا الى مجلس الوزراء بوضع جميع الصناعات الملتزمة بالانتاج الحربى تحت امرة وزير الحربية والبحرية واخضاع العمال للانضباط العسكرى ، وبناء على هذا الاقتراح « يحرم العمال من حق ترك العمل والتوقف عن ممارسته ، وأداء الخدمة » ، غير أن مجلس الوزراء قرر عدم الأخذ بهذا الرأى خشية أن يثير مثل هذا الاجراء ثائرة العمال ، لأنه سيؤدى الى تحويلهم الى مجندين • وفى أواخر ١٩١٥ ، تزودت حركة الاضراب بقوة دافعة • وفى بداية ١٩١٦ ، عاود مجلس الوزراء النظر فى مسألة تجنيد العمال ، وتقرر توقيع العقوبات على المضربين بدلا من ارسالهم

(*) جريدة Gaz'eta Grazhdanskaya / Graždnachal'nik

الى الجبهة ، وذكر المؤرخان لايبروف وشخاراتان الأرقام الآتية : لقد تم تجنيد ما مجموعه ستة آلاف من متزعمى الاضراب بالجيش خلال الحقبة بين يوليو ١٩١٥ وديسمبر ١٩١٦ ، وبيانهم كالآتى : ٣٠ عاملاً من لسنتر الجديدة واركسون وحوض السفن « نيفا » • وفى يوليو ١٩١٥ جند ثمانون عاملا من مصنع التعدين ببتروجراد و ١٧٥٠ عاملا فى المصانع الرئيسية فى أكتوبر ١٩١٦ • ويبين من هذه الأرقام التجاء الحكومة الى العقوبة لتثبيط الاضرابات دون أن تدرك مغبة اتباعها لهذه الوسيلة التى ساعدت على نشر المشاعر الثورية فى وحدات الجيش •

واستمر أصحاب المصانع يتبعون أسلوب القوائم السوداء ـ يعنى توزيع « قائمة بأسماء غير المرغوب فيهم سياسيا » على أعضاء جمعية أصحاب المصانع لعدم تشغيل كل من ذكر اسمه فى القائمة ، الا أن النقص فى العمال المهرة ، وسهولة اخفاء الحركيين لهويتهم قد جعل « القوائم السوداء » عديمة الجدوى •

وعلى الرغم من اجراءات القمع التى قامت بها الشرطة ، فقد حرص عمال بتروجراد على الحفاظ على شبكة أنشطتهم المشروعة وغير المشروعة • فخلال الحرب ، حاولت أربعة أنماط من التنظيمات القانونية حماية مصالح العمال ، وهذه التنظيمات هى منظمة التأمين واتحادات العمال وتعاونيات العمال ، والأندية والحلقات الثقافية والتعليمية •

ومنح قانون التأمينات ١٩١٢ العمال حق انشاء ادارة لصندوق المرضى بالمصانع من اختصاصه ايفاد ممثلين لمجالس التأمين والأقاليم والمدن ، وعلى الرغم من أن مجالس التأمينات قد تألفت أساسا من ممثلى أصحاب المصانع ، ووضعت تحت الاشراف الدقيق لوزير التجارة والصناعة ، الا أن العمال حصلوا على متنفس قانونى ييسر لهم حماية مصالحهم الجماعية ، وشن العمال فى الحقبة الواقعة بين ١٩١٢ و ١٩١٤ حملة لنشر التأمين ، فأنشأوا صناديق للتأمين على المرضى بالمصانع ، وانتخبوا ممثلين للعمال فى مجالس التأمينات وأنشأوا مجلة (*) ، وخضعت هذه المجلة لتأثير البلاشفة ، وأصبحت الصحيفة الشرعية للبلاشفة ، وبعد اندلاع الحرب ، منعت الحكومة صدور المجلة ، وألقت القبض على زعماء الحركيين فى الحركة التأمينية ، وان كانت لم تستبعد تماما جميع المنظمات التأمينية • وعلى الرغم من توقف الجماعات العمالية فى مجالس التأمينات عن العمل ، فان صناديق المرضى فى مستوى المصانع واصلت أنشطتها ، وزودت العمال بمنظمتهم الشرعية الحيوية الوحيدة ، وفى

(*) Voprosy Strakhovaniia.

بواكير ١٩١٥ ، شرع الحركيون فى منظمات صـــندوق المرضى ، معاودة الاتصال فيما بينها . وما أن جاء شهر فبراير حتى بدأت جماعة تأمين العمال تمارس عملها ، وعادت مجلتها للظهور ، وتولى تنظيم هذه الحملة ـ كما كان الحال قبل الحرب ـ البلاشفة الذين عاودوا مرة أخرى الاشراف على مجلة التأمين ، واستعانوا بها لنشر نفوذهم بين عمال بتروجـراد . وشغل محترفون من الثوريين البلاشفة (*) ، عمــل الخبراء فى مسائل التأمين فى جملة مصانع مختلفة ، وشن الحركيون حملة انتخابيـــة فى ديسمبر ١٩١٥ ويناير ١٩١٦ لشغل الأماكن الأحد عشر التى خلت بعد القبض على ممثلى الأعضاء الخمسة عشر فى مجلس التأمينات ، وأسفرت النتيجة عن انتصار ساحق للبلاشفة الذين انتخبوا فى عشرة من المقاعد الشاغرة ، ولم يتخلوا عن أكثر من مقعد واحد للمناشفة (المنشفك). واعتبرت مجلة أوخرانا المنظمات التأمينية ككتائب احتياطية للاشتراكيين الديموقراطيين ، وكانت محقة فى ذلك ، واضطهدت الحركيين بلا هوادة . فمن أغسطس ١٩١٤ حتى ديسمبر ١٩١٦ ، شنت الحكومة « ٧٧ حملة تفتيشية وتدميرية » على منظمات صندوق المرضى ، ولما كان قد تم القبض على أربعة من العمال فى خريف ١٩١٦ ، ولم يبق منهم سوى اثنـان ، لذا أجرى انتخاب آخر فى أكتوبر ١٩١٦ ، حصل فيه البلاشفة على أربعة مقاعد من خمسة .

لقد زودت « حركة التأمينات » العمال بقاعدتهم التنظيمية المشروعة ، وسعى الحركيون فى صناديق المرضى للحصول على الحد الأقصى من الحماية للعمال ، كما نص عليها قانون ١٩١٢ . وعلى الرغم من تقيدها بالرقابة الحكومية ، الا أنها سعت لاصدار مجلة قانونية ـ أو بصفة شرعية ـ ترمى الى تعريف العمال بالمشكلات الاقتصادية ، رغـــم ما تضمنتـــه من صفحات بيضاء محيت بأمر الرقابة ، واستفاد البلاشفة ممن قادوا حملة التأمينات خلال الحرب من كل مناســبة لنشر شـعاراتهم السياسية المتخفية وراء الأنشطة التأمينية ، وما أن هلت نهاية ١٩١٦ حتى بلغ عدد منظمات صندوق المرضى فى بتروجراد ثمانى منظمة ضمت بين صفوفها أكثر من ١٧٦٠٠٠ يعنى ٤٥٪ من المجموع الكلى لعمال بتروجراد .

وكانت المنظمة الأخرى التى حاول العمال استعادتها خلال الحرب هى اتحاد العمال ، ولقد كرر العمال التماسهم للحكومة بالسماح باعادة تشكيل الاتحادات المعترف بها شرعيا . وقدم خمسة عشر اتحادا مختلفا مثل هذه الالتماسات بين ديسمبر ١٩١٤ وفبراير ١٩١٧ ، ولكن الحكومة

(*) M. T. Kalinin, V. V. Kuibyshev, S. Roshal, A. A. Andreef.

لم تسمح بإعادة أكثر من خمسة اتحادات . وبعد أغسطس ١٩١٦ رفض انشاء أية اتحادات عمالية جديدة ، وأثناء الحرب ، وحتى فبراير ١٩١٧ ، كانت بتروجراد تضم أحد عشر اتحادا للعمال يعمل سرا ، وثلاثة اتحادات شرعية لغير العمال (للكتبة فى مصانع الطباعة والصيادلة والبوابين !) . ولم يضم حتى أكبر الاتحادات (يعنى اتحاد عمـــال التعدين) أكثر من أربعة آلاف عضو من بين ٢٣٧٤٠٠ من المشتغلين فى هذه الحـــرفة . وتعرضت ممارستهم لواجبهم للتعويق من أثر الخصـــومات الحزبية بين البلاشفة والمناشفة ، والصراع على السيطرة على الاتحاد ، ولم تشرف باقى الاتحادات على أكثر من بضع مئات من العمال ، على أكثر تقدير ، وبوجه عام ، فان وجودهم غير القانونى قد جعل وضعهم عديم الفائدة ، ومن هنا فضل الحركيون بذل جهدهم من خلال منافذ قانونية أخرى .

ودفع التضخم الذى لم ينته قط الى انشاء نوع آخر من المنظمات القانونية : تعاونيات العمال ، وأنشئت المنظمة التعاونية الاولى فى نوفمبر ١٩١٥ بفضل الجهود المشتركة لأصحاب المصانع ، وبعض زعماء المنسفيك وكانت المهمة الرئيسية للتعاونيات شراء الأغذيه ، وغير ذلك من الضروريات وتوزيعها بأسعار مخفضة على المستهلكين . وفى أقل من عام ، ظهر أحد عشر جمعية تعاونية للعمال فى مختلف أنحاء المدينه ، ونجحت فى تجنيد ١١٠٠٠ عضوا . وفى فبراير ١٩١٧ ، كان هنـــاك ٢٣ جمعية تعاونيـــة تضـــم خمسين ألف عضـــوا ، واذا كانت الحركة التأمينية قد نمت برعـــاية البلاشفة ، فإن المناشفة المعتدلين هم الذين تزعموا الحركة التعاونية ، التى أشرفت على تحرير مجلة « ترود » وهى المجلة التى تخصصت فى الدعوة للحركة التعاونية ، وفى ابريل ١٩١٦ ، تشكل اتحاد بتروجراد لرابطة المستهلكين كمركز للتنسيق بين جميع الجمعيات التعاونية فى بتروجراد ، بيد أن الحركة التعاونية لم تبق مجرد منظمة اقتصادية .. فقد استغل المناشفة الجمعيات التعاونية كنقطة اتصال بين حركة العمال والمعارضة الليبرالية ، وأيضـــا كقـــاعدة لتدعيم نفوذهم بين الجماهير الواسعة من العمال ، وفى بداية ١٩١٦ ، ذكر أحد المخبرين الصحفيين لمجلة « أوخرانا » ، « ان العناصر ذات العقلية الثورية تحاول استغلال الجمعيات التعاونية كمجرد شكل من أشكال الامكانيات القانونية .. » .

وضمت شبكة أخرى لحركة العمال الأندية الثقافية والحلقات الثقافية فى المصانع والفصول المسائية التى نظمها الحركيون الليبراليون للخدمات الاجتماعية . وفى بيوت الشعب وفى الكثير من المصانع الكبرى ، كانت هنـــاك أندية شبه قانونية وحلقات للمطالعـــة . وكانت مادة المطالعـــة والمناقشات والمناظرات فى هذه الأندية سياسية سافرة ، ومخططة لغرس

الوعى الطبقى بين جموع العمال ، وعملت أيضا كمراكز سرية لالتقاء الحركيين ، وتجنيد رفقاء الكفاح • وكثيرا ما استغلت بطريقة غير مشروعة كاماكن تجمع لمنظمى الأحزاب لوضع المخططات • ولا يعرف عدد ما وجد من مثل هذه الأندية والحلقات ، أو كيف شارك العديدون من العمال فيها ، ولكن دورها فى تزويد الحركيين بمكان يلتقون فيه لا يعد أمرا بعيدا عن الأهمية •

وبالرغم من كل هذا ، فان أعظم سلاح توافر للعمال ظل هو الاضراب، وان كانت هذه الحركة سرعان ما هدأت حدتها فور اندلاع الحرب • ففى ١٩ يوليو ، واستجابة لحركة التعبئة ، نظم المتشددون فى حركة العمال ـ وعددهم حوالى ٢٧٠٠٠ من بين المصانع الكبرى للتعدين فى مقاطعة فيبورج مظاهرة ضد الحرب ، ولكنها طوردت على عجل من قبل الشرطة الراكبه •• وزحفت مظاهرة عابرة أخرى تضم خمسين شخصا ـ بجرأة ـ صوب نيفسكى بروسبكت ، ولكنها تعرضت لهجوم ساخط من الجماهير الوطنية الغاضبة • وتعد هاتان المظاهرتان رد فعل لحركة الاضراب التى بلغت ذروتها فى الاضراب العام قبل نشوب الحرب بأسبوعين • وبعد ذلك توارت حركة الاضراب حتى صيف ١٩١٥•فبينما بلغ المضربون ١١٠ر٠٠٠ عاملا فى ٩ يناير ١٩١٤ (ويمثل ذكرى الأحد الدموى) لم يحتفل بذكرى هذا اليوم التقليدى للاحتجاج ١٩١٥ سوى ٢٦٠٠ عاملا • وعندما قبض على المبعوثين البلاشفة « فى الدوما » فى نوفمبر ١٩١٤ ، لم تحدث أية اضرابات • وعندما قدموا للمحاكمة فى فبراير ١٩١٦ ، نظمت الاضرابات فى ستة مصانع فقط ، وضمت ٣٤٠ عاملا • وأحدثت الحرب تأثيرين سيكلوجيين على العمال : أولا ـ لم تشتعل الحماسة الوطنية الا عند حفنة صغيرة من العمال فى بتروجراد • ومما أثار ذهول الثوريين من قدماء المحاربين فى المقاومة السرية ان هؤلاء العمال قد سأروا على رأس مظاهرات وطنية وهم ينشدون « حفظ الله القيصر ! » • وأسف أحـد الحركيين البلاشفة وقال : « ان صراعنا الطبقى قد ابتلعته المجارى » أو ذهب فى أدراج الرياح • وفى بعض المصانع ، طالب العمال بطرد المهندسين وملاحظى العمال ممن يحملون أسماء ألمانية • ثانيا ـ لقد شاع الهلع بين العمال من احتمال تجنيدهم فى الجيش : « ان العمال (يتشعلقون) بالمخرطة • مثلما يتعلق الغريق بقشة حتى يبقون بالمصنع » •

بيد أن هزيمة الجيش الروسى فى ربيع وصيف ١٩١٥ بدلت روح « العمال » الى حد كبير • ففى ٤ يوليو ١٩١٢ ، أضرب أكثر من ١٥٠٠ عاملا فى لسنتر الجديدة مطالبين بزيادة الأجور ، وبذلك أعطوا اشارة البدء لموجة جديدة من حركة الاضراب • ومنذ ذلك الحين فصاعدا ، اتخذ عمال

لستر الجديدة الصدارة فى كل اضراب رئيسى حدث ابان الحرب فى بترو ـ جراد • ففى غضون أسبوع ، تفشى الاضراب وعم المصانع الأخرى ، بما فى ذلك دار صناعة السفن فى موتيلوف ودار صناعة السفن فى نيفا واريكسون • وفى المصنعين الآخرين ، تشكلت لجنتان من قبل الحركيين فى المقاومة السرية الشورية لتنظيم الاضرابات غير المشروعة ، وضمت بلاشفة ومناشفة • وأزعج التزايد المباغت للاضرابات السلطات المسئولة ، وحذر قائد الحامية العسكرية فى بتروجراد الجنرال فرولوف باحتمال توقيع عقوبة على المشاركين فى الاضرابات • وفى ١٢ يوليو ، قبضت الشرطة على أعضاء لجنة الاضراب فى دار صناعة السفن فى نيفا و١٠٣ من المضربين فى اريكسون ممن امتنعوا عن العودة لأعمالهم •

وفى يونيو ، أدى الاضراب فى مصنع كبير للغزل والنسيج فى كوستروما ـ وهى مقاطعة شمال غربى موسكو ـ الى اطلاق الشرطة للنيران، فقتلت ١٢ عاملا وجرحت ٤٥ ، ولم يحدث رد فعل فورى لذلك كاثارة الاحتجاج القوى من عمال بتروجراد • ولكن فى ١٠ أغسطس ، بالغت الشرطة فى رد فعلها ضد مظاهرة لعمال الغزل والنسيج فى ايفانوفو وفوزنسند ، فأطلقت الرصاص عليهم وقتلت ٣٠ وجرحت ٥٣ • وفى ١٧ أغسطس ، وعندما بلغت الأنباء بتروجراد ، أضرب العمال فى مصنع ايفار • وفى اليومين التاليين ، انتشر الاضراب ، وعم المصانع الكبرى فى فنبورج ونارفا ومقاطعات بيترهوف ، واشترك فيه ٢٢٥٠٠ عاملا ينتمون الى ٢٣ مصنعا قاموا جميعا بالاحتجاج على مذبحة ايفانوفو • وتوافقت الاضرابات فى أغسطس آنيا هى وتصاعد الاضرابات الاقتصادية • فلأول مرة منذ ٩ يوليو ١٩١٤ ، اصطدم المضربون بالشرطة ، وحدثت بعض حالات سلب ونهب لمخازن الأغذية • وفى أحد الشوارع القريبة من ثكنات لواء سمينوفسكى ، انضم بعض المجندين المستجدين فى لواء ايجر الى حشد من النسوة وهاجموا الشرطة ، وجرحوا عشرين من رجالها ، واضطروا الى الالتجاء الى الشرطة العسكرية لاستعادة النظام •

وبادرت السلطات برد فعلها ضد حركة الاضراب فى اسرع وقت • ففى الفترة الواقعة بين ٢٩ أغسطس و ٢ سبتمبر ، قبضت الشرطة على الثوريين الحركيين فى المقاومة الشعبية فى حركة التأمينات • وفى مصنع بوتيلوف وحده ، قبض على ثلاثين عاملا ، كان من بينهم ٢٣ من البلاشقة (خمسة منهم أعضاء فى لجنة بطرسبورج البلشفية) ، وستة من الاشتراكيين الثوريين وأحد المناشقة : وأثارت عمليات القبض الجماعية اضرابا عاما فى المدينة كلها • ففى ٥ سبتمبر أضرب أكثر من ٦٠٠٠ عاملا فى مصنع بوتيلوف ، وتجمع عمال من سبع ورش مختلفة فى بوتيلوف فى فناء

المصنع ، وأعدوا قرارا تضمن بضع مطالب : أولا ـ استدعاء المبعوثين البلاشفة من المنفى • ثانيا ـ الافراج عن عمال بوتيلوف المقبوض عليهم • ثالثا ـ تعيين وزارة مسئولة • ورابعا ـ تجنيد رجال الشرطة بالجيش • خامسا وأخيرا ـ زيادة الأجور بمقدار ١٥٪•واحتجوا أيضا على تخصيص بعض مقاعد لشخصيات بالذات فى البرلمان • واشتمل القرار على بعض ملامح منشفية قوية • وردا على اضراب بوتيلوف ، عجل الحركيون فى مختلف تنظيمات المقاومة الشعبية بتشكيل لجنة للاضراب تمثل مختلف أنحاء المدينة • وتحمس عمال المصانع الأخرى لمؤازرة اضراب بوتيلوف ، ولانشاء سوفيت يضم مبعوثين من العمال • ورد عمال بتروجراد باعلان الاضراب أربعة أيام • وفى ٢ سبتمبر ، اشترك ٣٧ مصنعا فى الاضراب الذى ضم ٢٥٨٠٠ عاملا ، وحدث اضراب ثان فى ٤ سبتمبر (فى ستين مصنعا) وضم ٧٠ر٠٠٠ عاملا ، وبلغ مجموع المضربين المشتركين فى الأيام الأربعة ٨٢٧٠٠ ينتمون الى سبعين مصنعا •

ومن المثير للاهتمام أن يلاحظ تأييد « لجنة الاضراب فى جميع المدن » لفكرة انشاء رابطة لمبعوثى العمال السوفيت ، وقامت هذه الرابطة بدور أساسى فى تزعم حركة اضراب العمال فى بطرسبورج فى ثورة ١٩٠٥ • وبالرغم من تعذر التيقن من أين بدأت المبادرة بانشاء « سوفيت » أثناء اضراب سبتمبر ، الا أنه من الجدير بالذكر أن لجنة البلاشفة فى بطرسبورج هى ولجنة المناشفة قد أيدتا الفكرة • واذا راعينا عدم وجود تنظيم عمالى نشط بمقدوره تنسيق الاضراب والنهوض بدور فعال فى تزعم العمال بالمدينة بأسرها ، فاننا لن نعجب اذا رأينا كيف عادت للحيـاة فكرة « السوفيت » بين الحركيين • فلابد أن يكون بعضهم قد شارك فى الكفاح ابان ثورة ١٩٠٥ • وقيل ان عمال بوتيلوف قد شرعوا فى انتخاب مبعوثيهم الى السوفيت فى ٢ سبتمبر ، وأن انتخابا قد جرى فى اليوم التالى فى عدد من مصانع فايبورج •

غير أن الاضراب العام قد كشف وجود اختلافات بينة بين زعماء الحركة العمـالية • اذ خشى مبعوثو الاشتراكيين الى البرلمـان أنه فى حالة افلات حركة العمال من رقابتهم ، فانها ستتفرغ للاندماج أو التحالف الممثل للكتلة التقدمية ، وتبعده عن الكفاح ضد الحكومة • وفى مساء ٥ سبتمبر ، ناقش الاجتماع الموسع للجنة الاضراب فى سائر أنحاء المدينة مسألة امكان مواصلة الاضراب • ودافعت جميع الجماعات ماعدا جماعة البلاشفة عن صرف النظر عن الاضراب ، الذى انتهى فى سبتمبر •

وتوافقت حركة الاحيـاء المفاجئة لاضراب العمـال فى بتروجراد ـ آنيا ـ هى وهزيمة الجيش الروسى والأزمة السياسية التى حدثت فى

علاقة الحكومة بالبرلمان (الدوما) • فالى أى حد أثرت هذه الأحداث فى حركة الاضراب ؟ وهل كانت اضرابات العمال احتجاجا ضد هزيمة الجيش الروسى ؟ وهل أعدت كرد على قمع الحكومة لحريات البرلمان ، ومن قبيل التعاطف على المعارضة الليبرالية ؟ لقد حدثت اضرابات الأيام الثلاثة (من ١٧ الى ١٩ أغسطس) كرد مباشر على مذبحة ايفانوفو ، وليس هناك من دليل على أن العمال كانوا مهتمين بمصير الجيش الروسى فى المعركة ، أو أنهم تظاهروا تعاطفا على الكتلة الليبرالية التى تشكلت • ولعل التضامن البروليتارى وعدم الاكتراث التام بالنزاع القائم بين الحكومة والمعارضة الليبرالية كانا من بين مؤشرات الاتجاه الذى تنوى الحركة العمالية اتباعه فى المستقبل • ومن العوامل المؤثرة الأخرى على حركة الاضراب فى صيف ١٩١٥ ، الضيق والغضب من الأوضاع الاقتصادية • فاذا صح القول بأن هزيمة الجيش الروسى قد أثرت على حركة العمال ، فانها ستكون قد أحدثت تصدعا فى « الوحدة المقدسة » ، وكشفت عن حالة وهن استغلها العمال للتعبير عن غضبهم •

وتوافقت الموجة الثانية من موجات الاضراب (من نهاية أغسطس الى بدايات شهر سبتمبر) هى وتعطيل البرلمان (الدوما) غير أن اجراءات القمع التى اتخذتها الحكومة ضد الليبراليين لم تكن عاملا أساسيا • اذ كان ما أشعل فتيل المعركة هو الاحتجاج على القبض على عمال بوتيلوف • وعلى الرغم من أن القرار الذى اتخذه عمال بوتيلوف قد اشتمل على الاحتجاج على تعطيل البرلمان وعلى المطالبة بتشكيل وزارة مسئولة ، الا أن هذا يبدو استثناء • فلم تحتو تقارير « أوخرانا » التى روت أحداث اضراب الأيام الأربعة بالتفصيل ، على أية اشارة أخرى للبرلمان • ومن ثم فالظاهر أنه كما يعد اضراب الأيام الثلاثة من سبتمبر رد فعل على مذبحة ايفانوفو ، كذلك يعتبر اضراب الأيام الأربعة من سبتمبر رد فعل على قبض الشرطة على المضربين فى بوتيلوف • ولقد اتخذت حركة اضراب العمال أثناء الحرب طابعا طبقيا ملحوظا • فلقد تمت بمعزل عن المعارضة الليبرالية وصراعها مع الحكومة • ولم يكن هناك قاسم مشترك بين الليبراليين وحركة العمال وميلوكوف وماكلاكوف وغيره من الليبراليين المعتدلين الذين كانوا يخشون اضراب العمال أكثر من خشيتهم اقدام الحكومة على قمع الحركة ، وكان لدى الحكومة مبرر قوى لذلك •

وعلى الرغم من تعرض الاضرابات السياسية للوهن الشديد بعد اضراب سبتمبر ، الا أن الاضرابات التى حدثت لأسباب اقتصادية ، حافظت على المستوى الجديد للاضرابات التى نشبت فى يوليو ١٩١٥ • ولم تتجاوز الاضرابات الاقتصادية عشرة اضرابات فى الحقبة الواقعة بين

يوليو ١٩١٤ ويونيو ١٩١٥ ، ولكنها جنحت الى التذبذب فى الشدة والكثرة بين ١٣ و ٩ ، من يوليو وخلال ديسمبر ١٩١٥ . ولم يكتف العمال بالمطالبة بزيادة الأجور ، ولكنهم طالبوا أيضا بالحلول محل المسنين بالمصنع واعادة العمال المرفوتين الى الخدمة ، وتحسين أحوال المعيشة (كانشاء نظام جديد للتهوية واصلاح سقوف الأبنية وصرف صابون لدورات المياه) ، وحسن معاملة الادارة للعمال . وتجدر الاشارة أيضا الى أن كثيرين من عمال النسيج ممن لم يشتركوا فى الاضرابات السياسية قد شاركوا فى الاضرابات الاقتصادية فى النصف الأخير من سنة ١٩١٥ ، وأيضا فى خريف ١٩١٥ ، اشترك عمال بتروجراد فى محاولات حية تتعلق بانتخاب ممثلى العمال فى مجلس الصناعات الحربية .

وتكشف التغير فى روح العمال الذى نما خلال السنة على نحو جلى فى الاضرابات التسعة التقليدية في يناير ١٩١٥ و ١٩١٦ : ففى ذكرى « الأحد الدموى » ١٩١٦ ، لم ينضم الى اضراب ١٩١٦ أكثر من ٦١٠٠٠ عاملا ينتمون الى ٨٦ مصنعا . وتسترعى هذه الأرقام الانتباه ، اذا راعينا المعارضة المعتدلة للمنشفية وجماعة العمال فى مجلس الصناعات الحربية ، على أساس عدم اجماع العمال بالقدر الكافى لكى يصبح الاضراب حاسما . وفى ذلك اليوم ، أظهر العمال روحا نضالية فاقت الروح التى كشفوا عنها عند مواجهتهم للشرطة ، وبخلاف السنة السابقة ، لم يجر أى تظاهر فى مقاطعة فيبورج . وعندما واجه المتظاهرون الشرطة (*) ، اندفعت شاحنة عسكرية تنقل الجنود ، واصطدمت ببعض خيالة الشرطة كانوا يهاجمون المتظاهرين ، وسط تهليل الحشود التى شاهدت الحادث .

وبلغت حركة الاضراب ذروتها مرة أخرى فى فبراير ومارس ١٩١٦ . ففى فبراير ، أضرب ٤٢٣٠ من عمال الورش الكهربائية فى مصنع بوتيلوف مطالبين بزيادة الأجور بمقدار ٧٠٪ ، وعلى الفور ، استغل الحركيون فى المقاومة الشعبية اضرابهم الاقتصادى . فقد قررت الجموع البلشفية التى تراوح عددها بين ٨٠ و ١٠٠ فى مصنع بوتيلوف بالتعاون مع الجناح المتطرف فى المنشفية(**) التوسع فى الاضراب بحيث يضم المصنع بأسره . والتقى جمع حاشد فى فناء المصنع ، والقى بعض الخطباء البلاشفة خطبا نارية تستهوى العمال(***) ، وتدعوهم الى مؤازرة عمال الكهرباء . وفى ٦ فبراير ، أغلقت الادارة المصنع ، وأعلنت احتمال طرد العمال الذين لا يعودون فورا الى العمل ، والتقى زعماء الاضراب فى مكتب صندوق

(*) فى Samponievskii Prospect.

(**) Mezhraiontsky .

(***) خطب بعض الفلاسفة من امثال ايجوروف عضو لجنة بطرسبورج وأيفوموف من Mezhraionets و I. I. Bogadang.

المرضى ، وقرروا دعوة باقى العمال لمؤازرة اضراب بوتيلوف • وأوفد ايجوزوف الى مقاطعة فيبورج لتنسيق عملية هجوم العمال بين اضراب بوتيلوف ومقاطعة فيبورج ، وشعر العمال من مختلف المستويات فى مصنع بوتيلوف بالانزعاج لقيام الثوريين المحترفين بالهيمنة على حركة الاضراب • وبعد أن أحس العمال بالفزع من احتمال فقدانهم لوظائفهم ، وبعد أن اقتنعوا باستعداد الادارة ـ جزئيا ـ للاستجابة لمطالبهم ، عادوا للعمل فى ١٠ فبراير ، غير أن الاضراب العام الذى كان الحركيون البلاشفة يأملون فى وضعه موضع التنفيذ لم يتحقق •

ولم يرض العمال عن تنازل الادارة ، الذى تمثل فى زيادتها الأجور بمقدار تراوح بين ٣٪ و ٢٨٪ لمن يتقاضون أقل من ١٠٠ روبل شهريا • ففى ١٨ فبراير ، أضرب العاملون بالورشة الحديثة للقنابل ، وطالبوا بزيادة فى الأجور تصل الى ٧٠٪ • وما لبث الاضراب أن تفشى وانتقل الى باقى الورش • ففى ٢٢ فبراير ، لجأت الادارة الى تعطيـل العمل مرة أخرى ، ورفتت المضربين ، وصدرت الأوامر لأكثر من ألفين من المضربين فى بوتيلوف باخطار ادارة التجنيد بأسمائهم ، وفى ٢٩ فبراير ، قرر المجلس الخاص للدفاع تنحيـة المسئولين عن مصنع بوتيلوف ، وايكال عملية ادارته للمختصين فى المدفعية • واستفز هذا الاجراء العنيف عمال فيبورج ، ودفعهم الى القيام برد فعل فورى • وفى ٢٩ فبراير نظم عمال من جهات مختلفة (*) اضرابا تعاطفيا • وفى الأيام الثلاثة التالية (من أول مارس الى ٣ منه) أضرب عمال المصانع الكبيرة واشترك فى الاضراب ٧٣٠٠٠ عاملا ينتمون الى ٤٩ مصنعا •

وأصر عمال نيولستر على تزعم حركة الاضراب فى بتروجراد ١٩١٥ و١٩١٦ • فمن بين ستة آلاف عامل ، كان أقوى المشاركين من البلاشفة الذين ناهز عددهم ستة آلاف عامل ، ومن بينهم أربعة أعضاء من لجنة بطرسبورج (**) تولوا قيادة المقاومة الشعبية السرية • وفى مارس أضرب ١٧١٦٠٠ عاملا فى ورش القنابل الصغيرة والمعدات فى نيولستر ، وطالبوا بزيادة الأجور من ١٠٪ الى ٦٠٪ • وفى اليومين التاليين ، انضم الى الاضراب ١٩٢٠ من عمال الورش الأخرى ، وطالبوا بزيادة الأجور وحسن المعاملة ، ورفع مستوى الخدمات الصحية ، وأنشىء مجلس للاضراب يضم خمسة أعضاء تحت قيادة أحد البلاشفة (***) ، وفى ٢١ مارس ، أضرب جميع

(*) Parviainen, Nobel, Baranovskii, New Lessner

(**) T. K. Kondratiev, — R. R. Boiarshinov. N. P. Komarqc, V. V. Schmidt.

(***) N. V. Kopylav.

عمال المصنع ، ولجأت الادارة الى تعطيل العمل به ، وزفت المضربون ، وجند منهم ستمائة عامل ، وكانت هزيمة اضراب نيولسستر باهظة التكاليف • اذ أسفرت عن استبعاد معظم العمال السياسيين من المصنع ، ومن بينهم جميع البلاشفة ، وبمجرد وقوع هذه الهزيمة ، خمدت الحركة على الفور •

وبلغت حركة اضراب العمال مرحلة جديدة ، وطبقا لما جاء فى دراسة لايبروف ، فانه فى غضون ثلاثة عشر شهرا (بين يوليو ١٩١٤ ويوليو ١٩١٥) ، اشترك فى الاضرابات الاقتصادية ما جملته ٧٦٣٦٢ ، ينتمون الى ١٤٧ مصنعا ، وارتفعت هذه الأرقام الى ٥٤١٨٥٨ (فى ٦٣٣ مصنعا) • وارتفع المتوسط الشهرى من ١١ر٣٪ مصنعا و ٥٨٧٤ر٥ مشتركين فى الاضراب فى الشهور الثلاثة عشر الأولى الى ٤٨ر٧ مصنعا و ٤١٦٨١ مضربا فى نفس المدة الزمنية التالية • وفى الشهور الستة التالية من سبتمبر ١٩١٦ الى فبراير ١٩١٧ ، أى قبل ثورة فبراير ، ارتفع المتوسط الشهرى مرة أخرى الى ٨٨ر٣ مصنعا (٩٨٢٢٥ مضربا) •

وما من شك أن تردى موقف التموين وأزمة السلطة العامة ، قد ساهما فى تجدد حركة الاضراب فى خريف ١٩١٦ • وبلغ استياء العمال من التضخم ونقص الغذاء حدا دفع حتى الزعماء المعتدلين لجماعات العمال فى مجلس المصانع الحربية الى الاعتراف « بأن حدوث مجرد استفزاز واحد كفيل باشعال نيران القلاقل فى العاصمة مما قد يسفر عن ضحايا يقدرون بالآلاف بل وبعشرات الآلاف » ، ولو صح أن جماعات العمال قد استخلصت من ذلك امكان اقدام زعماء حركة العمال على عملية لكبح الجماح ، فان البلاشفة حاولوا استغلال أزمة التغذية لصالح الكفاح العام ضد النظام القيصرى • وفى بداية أكتوبر ، أخطرت لجنة بطرسبورج عمال الحزب : « بأن يثبتوا لجموع الشعب وثوق الصلة بين ارتفاع تكاليف الحياة والكفاح من أجل اقامة حكومة جمهورية ديموقراطية وانهاء الحرب » • وعقدت جماعات العمال فى عدة مصانع (*) بعض الاجتماعات ابتداء من ١٣ أكتوبر لمناقشة مشكلات التضخم والنقص التموينى ، وحاول بعض العمال اقامة مظاهرات فى الشوارع الرئيسية ، ولكن الشرطة نجحت فى تفرقتها • وأدت هذه الاهتزازات الى حدوث انتفاضة مباغتة فى ١٧ أكتوبر • ومما أدهش حتى الحركيين المتطرفين اشتراك بعض العمال (**) فى الاضراب وتظاهرهم فى الميدان الرئيسى (***) • وعندما

(★) مثل Erikson, New Lessner, Phoenx

(★★) من مصانع Parivlainen وسيارات رينو الروسية ، ونيولسنر •

(★★★) ميدان Sampsonievski Prospekt.

اقترب المتظاهرون من ثكنات اللواء المشاه ١٨١ حيث قوبلوا بترحاب من حشود الجنود الذين كانوا يتفرجون على المظاهرات من وراء أسوار الثكنات ، هاجمت الشرطة المتظاهرين ، وغضب الجنود لهذا المسلك ، فقذفوا الشرطة بالحجارة وهم يصيحون : « اضربوا الشرطة ! » وقفز الجنود من فوق الأسوار ، وزحفوا تحت سور الثكنات ٠ ونظرا لتفوقهم فى العدد على الشرطة ، فقد تمكنوا من محاصرة رجالها وتجريدهم من سيوفهم ، ومسدساتهم ٠ ولم تهدأ الحالة الا بعد أن وصل القوزاق وقسم التدريب فى لواء موسكو الى منطقة الصدام ، وتبعا لما ذكره أحد الجنود ممن شاركوا فى المظاهرة واسمه ايفانوف وكان عاملا سابقا فى مصنع بوتيلوف : كان هناك كثيرون من بين جنود اللواء ١٨١ ممن اشتركوا قبل ذلك فى الاضراب ، وواصلوا عمليات الشغب السياسى فى الوحدات العسكرية ، وقبضت السلطات العسكرية فيما بعد على ١٨٣ جنديا ، وأقصى لواء المشاة ١٨١ عن بتروجراد ٠ وعندما شارف اليوم على الانتهاء ، كان عدد المشاركين فى الاضراب فى مقاطعة فيبورج ٢٧ر٣٠٠ عاملا ينتمون الى عشرة مصانع ، وفى اليوم التالى (٨ أكتوبر) انتشر الاضراب ، وبلغ عدد العمال المشتركين فيه ٤٦٣٠٠ ينتمون الى ٣٤ مصنعا فى مقاطعات فيبورج وبتروجراد وفاسيلفسكى ٠ وفى ١٩ أكتوبر ، ارتفع العدد الى ٧٥٤٠٠ عاملا و ٦٣ مصنعا فى جميع أنحاء المدينة ٠

وتبع اضراب الأيام الثلاثة موجة أخرى من الاضرابات فى نهاية أكتوبر ٠ وكان الاضراب الثانى اضرابا سياسيا بحتا ٠ وكان البلاشفة هم الذين تبنوه ٠ فلقد قررت لجنة بطرسبورج التوسل الى العمال لتنظيم اضراب سياسى للاحتجاج على محاكمة البحارة البلاشفة فى أسطول البلطيق الذين قبض عليهم لنشاطهم الثورى ، وللاحتجاج أيضا على القبض على جنود لواء المشاة ١٨١ ٠ وفى اليوم المحدد لبدء المحاكمة (٢٦ أكتوبر) شارك ٢٥٠٠٠ عاملا من عمال المصانع الثلاثة عشر فى الاضراب الذى عم فشمل ٥٢ر٠٠٠ عاملا فى ٤٧ مصنعا فى ٢٧ أكتوبر ، وفى اليوم الثالث ، بلغ عدد العمال المشاركين ٧٩٠٠٠ فى ٧٢ مصنعا ٠ ولو تذاكرنا أن نداء لجنة بطرسبورج ودعوتها للاضراب (بعد القبض على مبعوثى البرلمان البلشفى) لم يستجب لها سوى ٣٤٠ عاملا فى ستة مصانع ، فى فبراير ١٩١٠ ، سيبين من عدد المشاركين فى اضراب النصف الثانى من أكتوبر مدى تزايد التطرف بين عمال بتروجراد ، والتأثير المتفاقم للبلشفية ٠ وأدى ذلك بدوره الى نزوع جماعة من العمال الى التطرف ، بعد ادراكهم ما اعترى تأثيرهم من تعثر ، فحاولوا استعادة أرضهم المفقودة ٠

وبعد أكتوبر ، هدأت حركة الاضراب ٠ وهذا هو المصير المحتوم لكل تفجر ينجم عن اضراب العمال ، وقبض على الزعماء ، وقطعت أواصر

شبكة الاتصالات والأنظمة ، واحتاج العمال الى بعض الوقت للبرء مما أصاب مشاعرهم من اجهاد • اذ كان من طردوا فى حاجة الى البحث عن أعمال أخرى ، وكثيرا ما كانوا يحصلون على عمل اذا أخفوا هويتهم • ومع هذا فلم تعن حالة المد فى حركة العمال فى نوفمبر وديسمبر اصابة العمال بالتبلد والخمول • صحيح أن الاضرابات قد خمدت ، ولكن الهجمات الفردية المتفرقة على مخازن المواد الغذائية انتشرت ، وعندما استردت حركة الاضراب قوتها الدافعة مرة أخرى فى يناير ١٩١٧ ، بعد توقف دام شهرين ، فانها حرصت فى هذه الأثناء على استدراج جمع أكبر من عمال بتروجراد بحيث يستطاع فى نهاية المطاف اشعال نيران الثورة •

وبالمقدور تقسيم عمال بتروجراد الى أربع فئات تبعا لاشتراكهم فى الاضرابات التى وقعت أثناء الحرب : أولا طلائع حركة الاضراب ، ويندرج فى هذه الفئة عمال التعدين فى ايغاز (٤١٠٠ عاملا) وبارانوفسكى (١٣٠٠) وفولكان (١١٠٠) وديناموا (٢١٠٠) ونوبل (١٦٠٠) وبروميت (٣٠٠٠) وبارفيانين (٧٠٣٠) ولسنر القديمة (١١٠٠) ولسنر الجديدة (٦٥٠٠) وفونيكس (١٩٠٠) وديافلون (٨٢٠) واريكسون (٢٢٠٠) ويناهز عدد هذه المجموعة ٣٣٠٠٠ ويمثلون العمود الفقارى لكل اضراب كبير حدث أثناء الحرب • وكانت جميع هذه المصانع الاثنى عشر تمثل مواقع فى مقاطعة فايبورج ماعدا ديناموا (مقاطعة نارفا) وفولكان (مقاطعة بتروجراد) وديافلون (مقاطعة بتروجراد) • ويملك جميع هذه المصانع أفراد باستثناء مصنع ديناموا • واذا استثنينا مصنع ديافلون واريكسون سنرى أن جميع هذه المصانع كانت تشتغل بصناعة الأسلحة والذخائر ، أما مصنع ديافلون فكان ينتج الآلات الكهربائية والآلات الميكانيكية ، وتخصص مصنع اريكسون فى صناعة التليفونات ، وأثناء الحرب توسع فى الانتاج وعمل بصناعة الأسلحة أيضا •

ثانيا : تضم الفئة الثانية العمال الذين يرجع انضمامهم للاضراب أساسا الى أسباب اقتصادية ، وان كان بعضهم قد انضم فى بعض حالات متفرقة الى الاضرابات السياسية ، وتنتمى الى هذه الفئة ثلاث نوعيات مختلفة من العمال : ١ ــ عمال أكبر مصانع الذخيرة التى تملكها الدولة كدور صناعة السفن فى نيفا (٦١٠٠) وأونجوف (١٠٦٠٠) والتعدين ببتروجراد (٦٧٠٠) ودار الصناعة بوتيلوف (٤٣٠٠) ، ولكن هناك مصانع ذخيرة أخرى لم تشترك فى أية اضرابات أثناء الحرب من أمثال الترسانة (٤٠٠٠) وبتروجراد للخراطيش (٨٣٠٠) وأوريدنسكى (٣٥٠٠) وكابل (٢٣٠٠) ودار صناعة سفن الأدميرالية (٤٥٠) وأوختا للمفرقعات (١٠٢٠٠) وأوختا لانتاج ذخيرة المدافع (٥٧٠٠)) •

وتضم النوعية الثانية عمال مصانع التعدين المشتغلة في انتاج الأسلحة : روزينكرانتس (٣٨٠٠) ولانجنتسبين (٢٠٠٠٠) واكفــال (٣٠٠) ورينو الروسية (١٧٠٠) وسيمنوف (٧٠٠) وأرماتوني (١٠٠٠) وسيمنس شوكيرت للأشــغال الكهربائيــة (٢٠٠٠) وكوبل (٦٠٠) وبتروجراد للمركبات (٢٠٠٠) وبوزيريف (٢٠٠) والمحركات الروسية البلطيقية (٤٠٠) وشركات أخرى (*) • ٣ ـ وتضم النوعية الثالثة ، عمال النسيج (**) • ويبلغ العدد الاجمالى لهذه النوعية مائة ألف اشتركوا فى الاضراب ، وكافحوا لتحقيق مكاسب اقتصادية ، ولكنهم لم يكونوا دائما أعوانا فعالين للاضرابات السياسية ، وعلى الأخص عمــال الغزل والنسيج ، الذين لم يشــاركوا فى الاضرابات السياسية الا عنــد بداية ١٩١٧ •

٣ ـ وتضم الفئة الثالثة عمال المصانع الذين أضربوا مرة أو مرتين خلال الحرب ، ولكنهم على الجملة قد التزموا موقفا سالبا • وتضم هذه الفئة عمالا ينتمون الى مصانع الورق ، والخشب ، والصناعات الكيماوية ••• الخ • ويبلغ عددهم جميعا ٥٤٣٠٠ • أما مجموع الفئات الثلاث فيقدر بـ ٤٠٠ر١٨٧ ولما كانت هــذه الأرقام تمثل عمال جميع المصانع التى أضربت فلا يستبعد أن تكون قد جنحت الى الاسراف فى الاتجاه نحو الحدود القصوى ، ومن ثم فيعتقد أن المشاركين الفعليين فى الاضرابات أقل بكثير مما يفترض • ومع هذا فان هذا العدد المبالغ فيه لا يمثل أكثر من ٧ر٤٧ من مجمــوع العمال فى بتروجراد فى يناير ١٩١٧ ، أى حــوالى نصف العمال • أما النصف الآخر فيمثل الفئة الرابعة ، أى فئة من لم يشتركوا فى أى اضراب طيلة أيام الحرب •

بيد أنه لا مبرر للاعتقاد بأن الأغلبية التى التزمت الســكينة من هؤلاء العمال قد قبلت حالة الشقاء التى كانت ترزح فيها باستسلام • اذ يبين من الاتجاه العام لحركة الاضراب أن الحركة التى قادتها طلائع من عمال التعدين كانت تستدرج تباعا الأفراد الذين اعتادوا التزام الحذر من عمال المصانع الكبرى،وأيضا القطاعات الأقل تنظيما من الطبقة العاملة• ولقد بينت الاضرابات السياسية والاقتصادية التى تمت على أوجه مختلفة خلال ١٩١٥ وبداية ١٩١٦ ظهور اتجاه لضم الصفوف فى تيار واحد فى أواخر ١٩١٦ •

(*) Sliusarenko, Russian — Baltic Aeronautique

(**) Nikoliskaia, Chesher, Liutch. Voronin

كان عمال بتروجراد هم المصدر الأساسى للاضطراب فى السياسة الروسية خلال الحرب ، وسرعان ما تبددت الروح الوطنية التى تكشفت عند اندلاع الحرب ، بعد أن اصطدمت بحقائق الواقع · فاذا راعينا استبعاد العمال من النظام الوطيد للمجتمع وحرمانهم من تأليف التنظيمات الشرعية للتنفيس عن شكاياتهم ومظالمهم — « وان كان قد طلب منهم الاستمرار فى التضحية بكل مرتخص وغال فى سبيل الشرف القومى والعزة القومية » — فاننا لن نعجب اذا استجاب العمال لنداء مثيرى الشغب الداعين الى التطرف ·

المراجع

J. H. Bates, St. Petersburg : Industrialization and Change 1976.

W. H. Champerlin, The Russian Revolution 1917-1923 (3 Vol), 1950-53.

J. L. H. Geep, The Russian Revolution, : A Study in Mass Mobilization (1976).

L. H. Harmson ed, The Politics of Rural Russia 1905-1914, (1979). and the July 1917 Uprising 1968.

N. M. Naimark, Terrorists and Social Democrats : The Russian Revolutionary Movement under Alexander III.

R. Pearson, The Russian Moderates and the Crisis of Tsarism 1914-1917, (1977).

A. Rabinowitch, Prelude to Revolution : The Petrograd Bolesheviks and the July 1917 Uprising 1968.

A. Rabinowitch, The Bolesheviks Come to Power 1968.

S. Schwarz, The Russian Revolution of 1915 : The Workers' Movement and the Formation of Boleshevism and Menshevism (1967).

T. H. Von Laue, Why Lenin ? Why Stalin ? (1964).

A. Ulam, The Bolsheviks : The Intellectual and Political History of the Triumph of Communism in Russia 1965.

A. K. Wildman, The End of the Russian Imperial Army. The old Army and the Soldiers Revolt (March-April 1971), 1980.

حشود الشباب الفاقد من الانجليز

روبــرت وول

امتدت آثار الحرب العالمية الأولى الى أبعد الحدود ، فأحدثت قدرا من المعاناة التي تدير الرؤوس وتفقد الصواب ، وترتبت عليها تغـيرات اجتماعية شديدة الاثارة للذهول والحيرة ، وجاءت تسوية السلام مخيبة للآمال مما دفع الكتاب الى تأملها ومعاودة التمعن فيما جرى ، وظهرت في العالم الغربي في نهاية عشرينات القرن العشرين أشعار وروايات وسير ذاتية ومذكرات تدور حول الحرب ، ولم يقتصر ما جاء في هذه المؤلفات على اعادة رواية قصة الحرب العالمية ، ولكنها تضمنت تفسيرات اوفي لمعنى ما حدث •

وشتت هذه الكتابات في انجلترا اسطورة أو خرافة تزعم ان افضل أبناء شباب الجيل من الراشدين قد دفعوا للتهلكة في أتون الحرب العالمية ، وأسفرت هذه الخسارة التي حلت بمواهب وقدرات من المتعذر تعويضها عن تعرض طابع الحياة الانجليزية ومكانتها في الامبراطورية البريطانية لتدهور شنيع • وتستأهل هذه القولة الكثير من الشــك • ولا تتكافأ وقائع هذا الموقف هي وما تزعمه هذه الخرافة • غير أنه في العقود التي أعقبت الحرب العالمية الأولى استند الادعاء الشائع عن فقدان الانجليز لما كانوا يتمتعون به من حظوة ونفوذ على ما حل بهم من خسارة بعد ضياع هذا « الجيل الذهبي » •

هناك خرافة تتعلق بتاريخ انجلترا في القرن العشرين ، وكغيرها من خرافات فانها تتمثل في صور شتى ، اشتركت في صنعها عدة عقول • وعلى الرغم من أنها لم تسجل بحذافيرها في أي مكان ، الا أنه بالاستطاعة الاهتداء الى شذرات منها في كتب عديدة • كما أنها تعيش في الذاكرة

(★) كتاب The Generation of 1914 تأليف Robert Wohl (١٩٧١) •

القومية والتراث الشفهى . وتتخذ هذه الخرافة صورة مماثلة للصورة الآتية :

فى يوم من الأيام قبل الحرب العالمية ، عاش جيل من أفذاذ الشباب ، يتميزون بالشجاعة والجرأة والاقدام والوسامة . وجمع هذا الجيل بين القوة البدنية وعمق العلم الكلاسيكى . ولما كانوا شعراء فى صميم أفئدتهم ، فانهم كانوا يعشقون كل ما أبدعه العقل لذاته ، واستبعدوا بصفاقة من الكفاح العام . وعلى الرغم من انحدارهم من شتى ربوع انجلترا ، الا أنهم كانوا موجودين على الأخص فى اكسفورد وكيمبردج ، وفى حالة صغار الفتية ، فاننا كنا نصادفهم بين أفضل أبناء المدارس الارستقراطية ، وعندما شبت الحرب تطوعوا للخدمة فى القوات المسلحة ، وقاموا بما كان فى مقدورهم القيام به للتعجيل بتدربهم حتى يتحقق لهم اللحاق بميدان المعركة ، وكان أخشى ما يخشونه هو أن تنتهى الحرب قبل أن يصلوا الى الجبهة . فلقد شبوا على تعظيم انجلترا ، وأداء واجبهم ، واعتنقوا قضية بلادهم ، وقبلوا عن طيب خاطر احتمال موتهم وهم فى ريعان الشباب . ولقد قتل معظمهم على أرض المعركة فى غاليبولى وايبر ولوس والسوم وباسنشنديل وكمبراى ، ومن لم يقتل منهم تعرض لاصابة فى عقله أو بدنه ، ورجعوا الى بلادهم ١٩١٩ وهم عرجى ، واكتشفوا أن تضحيتهم ضاعت هباء منثورا . فلقد عاد أصحاب الوجوه الجهيمة والقلوب المتحجرة من العجائز الى الامساك بزمام السلطة بقبضة من حديد . لقد قهر العجائز فتوتهم ، وتلقت الحضارة ضربة قاضية . وكانت أعدادهم قليلة . ولقد أجهدوا وأصابتهم صدمة القنابل المتفجرة ، ثم شعروا بالاحباط لما رأوه فى عقر دارهم . ولقد جلسوا عاجزين خلال سنوات ما بين الحربين يتأملون شيوخ الساسة ، وهم يتعثرون لعجزهم ، ويبددون المكاسب التى حققها هؤلاء الشباب . وضاع السلام ، وضاعت السيادة الانجليزية على العالم ، وضاعت الامبراطورية ، بل وضاعت أيضا القيم الانجليزية ، بعد أن خضع الانجليز لطغيان النماذج الأجنبية المستوردة . وأخيرا شبت حرب عالمية ثانية لكى تصدق بخاتمها على فظائع الحرب الأولى ، وانزلقت انجلترا بعد خوار عزمها ، وانحطت قوتها الى مستوى دول الدرجة الثانية . ان كل شىء كان سيختلف أمره لولا ما حدث من اهدار لدم شباب ١٩١٤ فى ساحات الفلاندرز وسواحل غاليبولى .

وردد شعراء الحرب « لحنا » مؤداه أن الشبيبة التى كتبت عليها اللعنة قد ساقها العجائز غلاظ القلوب ــ دون تبصر ــ لكى تلقى حتفها لمجرد أنها كانت فى ريعان الشباب . غير أنه كان لابد من مرور عشر سنوات حتى يزدهر هذا اللحن ويترجم الى كلمات منثورة على نحو منهجى

أو مدعم بالأدلة ، تتدفق في سيل من الكتب عن جيل ١٩١٤ وتجاربهم في الحرب • وحظى كثير منها بالاعجاب ، واعتبر من أروج ما صدر من كتب ، واتصفت هذه الكتب بروحها المتشاءمة وشدة الخبث ، وأحيانا بالوحشية ، وبما ينضح منها من مرارة ، وبدت جميع هذه الكتب ، وكأنها أضافت ألمعية لحكم بارباروسا في كتاب « تحت النار » (*) التي وضعها ساسون (زيجفريد) في صدر مجموعته الشعرية ١٩١٨ ، والتي قال فيها ان الحرب قد كشفت عن كل ما يتصف به الانسان من سفالة : « الخبث والشقاوة الى حد السادية ، والأنانية الى حد البشاعة ، واشتهاء المتعة الى حد الخبل » • وألف معظم هذه الكتب أشخاص ولدوا في تسعينيات القرن التاسع عشر ، ممن تخرجوا – بالكاد – من المدرسة عند وقوع الحرب ، وعلى الرغم مما بدا في هذه الكتب من فطنة عند كتابتها ، الا أن أفكارها لم تتوارد لخاطر مؤلفيها بسهولة ، لأن كثيرين ممن حاولوا الكتابة عن تجاربهم فور انتهاء الحرب ، أخفقوا أو أصيبوا بالاحباط الذي حال دون استمرارهم في الكتابة ، ولم يستأنفوا المحاولة الا بعد أن شعروا بأن عامة الناس قد أصبحوا على استعداد لسماع أشياء عن الحرب ، فبحثوا عن مخطوطاتهم في حقائبهم ، وبدأت الصحافة تتأوه وينطلق منها عشرات الكتب عن الحرب ، ارتفع عددها في نهاية الأمر الى مئات حتى صاح النقاد طالبين الرحمة بهم ، والتمهل في اصدار الأحكام ، وبينما ركزت هذه الكتب على حقبة الحرب ، الا أن أكثريتها حاولت الاحاطة بالفترات السابقة للحرب ، والتالية لها أيضا • وهكذا جمعوا – على أقل تقدير – في ذاكرتهم بين عالمين وشذرتين من الحياة مزقتهما الحرب اربا • واتخذت بعض هذه الكتب شكل الرواية • وفي كثير من الأحيان ، تخلى المؤلفون عن الزعم بأنهم يؤلفون روايات ، وأسموا مؤلفاتهم « بالذكريات » أو « المذكرات » أو السير الذاتية ، التي قد تلقى الضوء على التجربة الجماعية لجيل بأكمله يشترك في نفس السن والمصير •

وظهر أول الأمر كتاب ادموند بلوندن(**) وكتاب ساسون(***) • وتكهن بلوندن المولود سنة ١٨٩٦ بشكل الحرب التالية ، وساعد على التعريف بطابع الحرب التي ستجيء فيما بعد بعد أن تخلى عن أية محاولة لوصف سياق أحداث الحرب التي صادفها في تجربته الشخصية ، مكتفيا بالتركيز على « الأشياء التافهة » التي تشغل صدر الحياة فخصها باستهلال الكتاب•وكان في أفضل حالاته عندما استرجع الذكريات المريرة لما تبدد ، وكيف نمت هذه المرارة ١٩١٧ ، بين من ظلوا على قيد الحياة بعد معركة

(*) Under Fire .

(**) Unrertones of War : Edmund Biunden.

(***) Memoirs of a Fox Hunting Man, : Sassoon

السموم وكتب ذلك بأسلوب أدبي ثقيل في أغلب الأحيان ومتكلف بقصد : « عدم جدوى الاتجاه الهجومي ، والتباين من حيث الكيف بيننا وبين الملامح العامة للسنة السابقة ، والاعتقاد بأن الأهالى المدليين لا يدركون شيئا عن حالتنا وندرة الفكر ، وتفاقم الشدة واكتساح القوى الهدامة ، وتسبب هذه النظرات فى خلق روح أنانية مثلما تلحظ فى عبارة : سنموت جميعا ــ كما يفترض ــ حول ايبر » أما مذكرات ساسون التى جنحت نوعا للطابع القصصى ، ونشرت أول مرة دون ذكر اسم المؤلف فى طبعة صغيرة ، فكانت تثير الاعجاب أساسا لما فيها من تركيز على السخرية (بطريقة علية القوم) والتى لجأ اليها الشاعر ــ الذى أصبح مشهورا الآن ــ عندما مقارنته العالم الذى نشأ فيه ــ العالم الفردوسى ــ الروضة الخضراء المحاطة بسياج النباتات الشائكة المبللة بالندى ، والتى ازدادت تألقا وبهاء عندما انعكست عليها ضياء شمس الصباح • ولا وجود فيها لمتاعب الاخفاقات • وفيها خيول رقاق وسيدات ذوات حسب ونسب تفيض قلوبهن بالرحمة والمحبة ، وخدم من مختلف الأشكال والألوان ولصوص « حلنج » من دساكر لندن فى مقابل الجبهة الغربية فى الحرب العالمية الأولى بقتامتها وتجهمها وقبحها • وقد عاش بطل روايته جورج شيرستون ١٩١٦ فى غمار عالم الحرب والقبح الذى لم تهيئه حياته السابقة لفهمه • وعندما ينتهى الكتاب فى يوم الأحد فى عيد الفصح ١٩١٦ نرى سايس شرستون قد مات فى الجبهة بعد اصابته بالالتهاب الرئوى . وقتل صديقه ديك تلتوود الذى كان بمثابة « خلاصة لامعة لجيله المصاب بالمرارة » أثناء توليه اصلاح السلك • ويدرك شرستون آسفا أن الحرب ستحطم ماضيه • وعندما وقف فى « الخندق الموحش » لم يهتد الى أى عزاء وسلوان « عندما تذكر صعود المسيح الى السماء » •

وبلغ نشر كتب الحرب ذروته ١٩٢٩ ، عندما نشر فى هذه السنة ما يقرب من تسعة وعشرين كتابا بالمقارنة بواحد وعشرين كتابا نشرت ١٩٢٨ ، وستة كتب فقط نشرت ١٩٢٦ ، وكان أهمها هو ترجمة كتاب كل شيء هادىء فى الميدان الغربى (*) ، وكتاب روبرت جرافز (**) وكتاب ريتشارد الدنجتون (***) • وتتماثل علاقة هذه الكتب الثلاثة بكتاب بلوندن والمذكرات اللطيفة لساسون بنفس صلة أحاديث أحد الجنود باحدى صونيتات بروك • ويعد كتاب « ريمارك » الذى صادف نجاحا باهرا فى انجلترا ، وبيع منه ٢٥٠ ٠٠٠ نسخة فى السنة الأولى لنشره بعد أن

(*) Im Western nichts Neues وكتاب Erich Maria Remarque

(**) Goodbye to All That. — Robert Graves.

(***) Death of a Hero.

نشر مسلسلا فى صحف يوم الأحد ، وينافس بذلك مسرح العرائس الشهير جوينول (*) فى شكل قوطى مجدد • فالجنـود عند ريمارك يتساقطون كالذباب ، وتتناثر أشلاؤهم عند جدار الخندق ، مما ييسر لك كنسها بمنعقة ودفنها فى صفيحة قمامة الميس (مكان تناول طعام الضباط) • وقبل موتهم ، يفرون من الخدمة ، ويرفضـون الطاعة خشية التعرض للتهلكة ، ويسرقون ساعات رفاقهم الجرحى ، ويتسابقون للاستيلاء على حذاء صديق مائت • ولا يكشفون عن أى اهتمـام يفوق اهتمامهم بشهواتهم الجسدية ، وكما أوضح ريمارك فى رسالته الى الجنرال سير ايان هاملتون قائد حملة الدردنيل : « ان ما يرمى اليه هذا الكتاب هو تصوير مصير جيل من الشباب سيقوا لمواجهة الموت عندما كانوا فى ريعان الشباب يتهيأون للاحساس بنبضات الحياة » •

أما كتاب « وداعا لكل ذلك » ، فابتعد عن روح الكتاب السابق ، وتضـاءل فيه الشـعور بالمرارة ، وازداد اقترابا من تقاليد المدارس الارستقراطية البريطانية ولهجتها المتعالية • وساعدت هذه الصفات على تقريبه لذوق النقاد الانجليز الذين وصفوه « بالكتاب المرح الجرىء لما فيه من محاولة للنقد والحفاظ على روح الدعابة » • بيد أن هذا الكتاب الذى ألفه جرافز قد استهزأ أيضـا بالقيم المتحضرة للشـجاعة المستلهمة من الروح الوطنية عند القوات ، عندما أشار الى توقف مدى فاعلية أى ضابط من الضباط فى المشاة من الواقفين على خط النار وحماسته الى حد كبير على المدة التى أمضاها فى هذا الخط • « والتعساء هم الضباط الذى عانوا الأمرين سنتين أو يزيد من الخدمة المتواصلة بالخنادق ، وأصيبوا فى كثير من الحالات بنوبات من الخبل » • ان هذه الملاحظة البادية البراءة لم تعد تصدم أحدا فى أيامنا هذه ، ولكنها أحدثت صدمة عند نشرها ١٩٢٩ ، عندما كان التظاهر ما زال سائدا ، فكانوا يعتقدون أن الافراط فى الشراب مرض من أمراض الأوساط الدنيا ، وليس مصدرا للشجاعة عند الضباط وأولاد الذوات • ولا يحارب الجنود ـ عند جرافز ـ فى سبيل الملك والوطن أو الله ، وانما من أجل شرف لوائهم ، أو لأجل خاطر أحد أصدقائهم ، أو أحيانا لأنهم يستمتعون بذلك ، وهم لا يتصفون بأية صفة دالة على الشهامة • فالحق أنهم يعبرون عن عدم الاحساس على نحو مؤسف بمصير رفاقهم ، ولا يتذكرون دائما محاولتهم أسر أحد من الأعداء ، ولابد أن يكون جرافز قد قصد بطرفه احـداث صدمة ، وان كان الكتاب كاد يقترب أحيانا فى لهجته من الكتب الهزلية • ولكن عندما أحس الكاتب بالارتياب من احتمال عدم ادراك القارىء لنظرته الى الحرب أوضح ذلك فى رسالة

(*) Grand Guignol.

الى رئيس تحرير ملحق التايمز ، استخفت بالحرمات قال فيها : « ان الجنود البريطانيين العاديين فى حرب ١٩١٤ خلافا لأسلافهم من نفايات السجون الذين نهبوا بايازيد ، كان من الضرورى أن يخدعوا عن طريق الدعاية الكاذبة ، وبحملة ترمى الى اثارة اشتهائهم للدماء بأن يقال لهم أن أهم شرط للمحارب الناجح هو الفظاظة وانعدام الخلق • وهـذه هى السمة القذرة التى اتسمت بها الحرب العظمى » • ولا شىء فى مثل هذا الكلام يدخل فى باب الهزل •

وكان كتاب الدينجتون « موت بطل » أعلى هـذه الكتب صـوتا ، ولا يوصى النقاد أحدا ـ بوجه عام ـ بقراءة هذا الكتاب اليوم ، وان كان لابد من نصح كل من يحاول فهم نفسية من استطاعوا الافلات من الموت فى الحرب بقراءة الكتاب ، الذى كتب فى صورة رواية حملت اتهاما غاضبا لجيل أواخر عهد فيكتوريا الذين لم يدركوا مغبة ارسال أبنائهم للموت فى معارك فرنسا والفلاندرز • وحاول الدينجتون (١٨٩٢) اقامة علاقة بين النفاق الجنسى فى عهد فيكتوريا وروح الوطنية المسرفة التى سادت انجلترا فى الحقبة الواقعة بين ١٩١٤ و ١٩١٨ ، وصاح قائلا : « لقد كانت أساليب الجعجعة قبل الحرب هى التى جعلت الالتجاء للجعجعة ابان الحرب أمرا سهلا بدرجة ملعونة • وعندما بلغنا سن الرشد ، سلمنا الفيكتوريون صكا صغيرا لطيفا بمبلغ عشرين جنيهـا مقابل واحد وخمسين شهرا فى الجحيم ، وما تبع ذلك » • ويذهب بطل رواية الدينجتون الذى سماه « جورج ونتربورن » ، بعد أن ارتدى زى البطولة للقاء حتفه فى نوفمبر ١٩١٨ « فى صورة حطام انسان جرفه شلال الحرب الدوارة » ولم تفتقده زوجته وأمه لأنهما اهتديا الى ما يشغلهما ، أى عشاقهما ، أما أبوه فقد أفلح فى تبرير ما حدث بنسبته الى ارادة الله الخفية ، ولم يسبق لأى كتاب آخر من كتب الحرب أن قام بمثل هذه المباينة اللاذعة بين من لم يغادروا عقر دارهم وظلوا قابعين خلف الخطوط ـ وبخاصـة النساء ـ وبين العاملين بالجبهة ، الذين تعرضوا للشقاء دون أن يبتلوا بالشراسة والقسوة ، وحاربوا وماتوا فى سبيل قضية لم يعد هناك من يؤمن بها • وأعجب المعلق الأدبى فى ملحق التايمز ـ وكان من المحاربين السابقين ـ بالكتاب فقال : « اننا ما كنا نرغب له أن يكون البطل فى كتاب (موت بطل) شخصا آخر غيره ، أى انسانا ذعر من اللاانسانيات التى حلت فجأة بمن كانوا فى زهرة الشباب ، ويأملون كل خـير من الحرب ، ثم قلبوا ظهر المجن ضد من اعتبروهم مسئولين عما قاموا به من تضحية لم يدروا عنها شيئا » •

وتلاحق ظهور كتب الحرب سنة ١٩٣٠ · وأهم ما ظهر منها هو كتاب ساسون (*) وكتاب مانينج (**) وكتاب هنرى وليمسون (***) · ولخص هذا الكتاب الأخير فى لغة منثورة فظة أشبه بطلقات « المترليوز » مغامرات الجندى جون بولوك وهو من الموظفين الكتابيين الذين تطوعوا للخدمة فى أغسطس ١٩١٤ ، وعاد الى داره بعد اصابته بمرض ١٩١٧ ، وتكشفت له حقيقة الحرب ، وأدرك فى بعض اللحظات « أنها نوع من العبودية » ·

وعرض وليمسون فى نص تقل صفحاته عن المائتين ومحلى بالرسوم الكاريكاتورية كوكبة من الأحداث المخزية قصد بها الكشف عن جوهر الحرب وحطتها ، كما كان يحياها هو ومن تماثلوا معه فى المرتبة ، ويعرف الكاتب القارىء فى شريط من الأحداث السريعة المتلاحقة حكاية جندى أطلق على نفسه الرصاص لعجزه عن تحمل ضغوط الحياة فى الجبهة ، وحكاية عصيان فى القوات البريطانية بعد أن تعرضت لعملية قمع شديد ، وحكاية هجوم مات فيه ستمائة جندى من بين سبعمائة فشلوا فى العودة لوطنهم ، ومحاولة بطل لجأ الى مضغ الكورديت (الذى يستعمل فى المفرقعات) لكى يصاب بحمى تبقيه بعيدا عن خط النار ، وزيارة لمومس تبعها افراط الجنود فى الشراب مما حال بينهم وبين حضور عروضها الترفيهية ، الى جانب عقوبة ميدانية لمدة أسبوعين وقعها عقيد فظ ، والمعركة الثالثة فى ايبر والتى فقد فيها أعز أصدقاء جون بولوك قدمه · وبقدوم ١٩١٧ ، لم يعد جون بولوك يعبأ بالموتى من المقاتلين أو بمن جرحوا أو حملوا فى النقالات ، وكان ما دفعه للاستمرار هو أمل واحد : الأمل فى أن « يجرح فينقل بعيدا عن الحرب » · وفى كل مرة يتعالى فيها طنين القذائف ويتحول الى أزيز مباغت عميق ووحشى ينذر باقتراب اقتحام العدو ، كان يجثو على ركبتيه ويتربص ويتصبب العرق من بدنه وهو يرتجف · وعندما يؤمر جون بولوك بالاقتحام ، كان يلبى النداء وهو يقشعر من الخوف ، ثم ينتهى الأمر بسقوطه فى احدى حفر القنابل ، ويعود الى داره دون أن يرى جنديا ألمانيا واحدا ، مما أثار تقزز والده ، وارتيابه · اذ كان يأمل ان يعود ابنه حاملا بين ذراعيه واحدا من الهون (الألمان) على أقل تقدير · وفى نهاية الكتاب نرى جون بولوك بساق واحدة ، جالسا يستنشق الهواء فى احدى حدائق لندن فى يوم وقف النيران · ولا يخفى أن الوطنى الغيور قد تحول آخر الأمر الى انسان زائد عن الحاجة سرعان ما ستنسى تضحيته ·

(*) Memoirs of an Infantry Officer : Sasson.

(**) Her Privates We : Fredrick Manning.

(***) The Patriot's Progress : Henry Williamson.

وبذلت جهود لمناهضة هذه النظرة الى الحرب ورد فعلها على الجيل الذى اكتوى بنارهـا ، فألف دوجلاس جيرولد (١٨٩٣) كتابا غاضبا كشف فيه عن « الأكاذيب والأباطيل التى رويت عن الحرب » ، ووصف كتب الحرب التى صدرت (١٩٢٩ ــ ١٩٣٠) بأنها زائفة ، لأنها حولت ما هو نادر الحدوث الى شيء شائع ، وابتعدت عن الدقة التاريخية عندما زعمت أن من حاربوا فقدوا كل ايمان بما كانوا يحاربون من أجله ٠ ويصر جيرولد على القول :« لا أحد يتحلى بالأمانة والاخلاص والابتعاد عن الهوى عندما يتذاكر ما جرى فى الحرب ، سيرى أن ما صادفه المتواضعون العقلاء من أصحاب الضمائر الحية من ذكريات ومعان قصية لا يمكن التعبير عنها بالكلمات ليس بوسعهـا أن تعكس سوى مزيج من الخير والشر ، ازدادت سرعة تكثفه فى الزمان عما يجرى فى أوقات السلام ، وان كان نسبيا هناك تكافؤ أساسى بين الحالين ، وأشار جيرولد أيضا الى أن كتب الحرب الجديدة قد أحدثت تأثيرها الفعال بأن ركزت على معاناة الجندى الفرد ، وفصلته عن الوحدات الأكبر التى كان جزءا منها ، وعمدت الى التعتيم وأغفلت النظر الى الدور الجماعى للحرب ، وأن هناك قضـايا جماعية هامة قد غدت فى خطر ٠ وزعم تشارلز كارينجتون ١٨٩٧ (*) زيف خرافة ازالة الوهم التى لجأ اليها الانهزاميون ٠ فما يقال عن « ازالة الوهم » لم يظهر الا بعد أن ساد السلام ، وليس أيام الحرب ٠ لقد كان الحديث عن السلام فى البداية « كلاما فارغا » ، وشعر محارب سابق آخر بعد قراءة هذه المؤلفات باختلاف الحرب عن الوصف الذى جاء فى هذه الكتب الجديدة :

« لم نكن فى حالة هجوم دائم ، كما لم نكن دوما معرضين لوابل النيران ٠ ولم يقتل أصدقاؤنا دائما ، وفى تلك الأيام كان لدينا أصدقاء ، أما الآن فنكاد نكون بلا أصدقاء الا فيما ندر ، وكانت الصداقة حلوة فى فترات الراحة الوجيزة فى بعض القرى الفرنسية خلف خطوط النار ، حيث كنا ننعم أحيانا بالربيع ، وكانت هناك أشجار فواكه ما زالت تثمر وتزدهر ، وطيور تغرد ، وشجيرات قمح فى أول مراحل نموها ٠ وحتى بعد حدوث أول حالة احباط شديدة أعقبت معركة السوم ، التى وصلت أخبارها الى انجلترا عن طريق الجنود العائدين الى أرض الوطن ، كان صغار الملازمين ما زالوا يتخرجون من المدرسة وقلوبهم مفعمة بالحماسة ٠ اذ كانوا يشتهون الذهاب الى هناك بأنفسهم ، لكى يروا ما يجرى فى الميدان حتى وان عرفوا مسبقا ما ينتظر أن يرونه » ٠

(*) A Subaltern's War تأليف Charles Carrington نشر ١٩٢٩ وأعيد طبعه ١٩٣٠ ٠

ولكن هذه الأصوات المتفردة وعديمة التأثير أخفقت فى هداية السواد الأعظم من الانجليز المشتغلين بالكتابة ، أو ثنيهم عن عزمهم فى الاسترسال فى ترديد ما أصبح يعرف الآن بالفكرة المستحوذة ، فواصلوا ترديد ما قاله ساسون بأن الحرب كانت حيلة قذرة لعبها الجيل الأقدم ، وتحايل بهـا على الجيل الأصغر ، وأنها كانت جريمة ضد الانسانية ، وأنها مسئولة عن معظم البلايا التى ابتليت بها انجلترا ، ان لم تكن مسئولة أيضا عن جميع الأخطاء • وعندما نتذاكر الآن ما جرى سيتيسر لنا بقدر كاف فهم لماذا فعلوا ذلك • فعلى نهـاية عشرينات القرن العشرين ، اعتقد جميع المفكرين الانجليز أن الحرب كارثة عامة يجب أن لا يستهان بها ، وأن انتصار انجلترا لا يزيد ــ فى الحق ــ عن هزيمة لحقت بهم ، ومن ثم فان من تسببوا فى دخول انجلترا الحرب والقتال والخوض فى مذابح دموية ، اما أن يكونوا أوغادا من المرتزقة ، أو من الحمقى الخطائين • وربما اشترك فى ترديد مثل هذه النغمة المتطرفون والرجعيون على السواء •

فمن المنظور المحافظ ، بدا واضحا أن الحرب قد قضت على العالم القديم ، بحيث لم يعد هناك أى أمل فى اعادته الى سـواء السبيل ، واكتشف أبناء الطبقة الراقية حدوث تزايد فى تقييد الدولة لأفعالهم ، وأصبحت حقوقهم الموروثة مهددة من حزب العمال واتحادات العمال ، وتعرضت ثرواتهم للتضاؤل بعد حدوث هبوط وتقلبات فى سعر الجنيه الاسترلينى • وأرغمت ضريبة الارث بعض ملاك الأرض من الاستقراط على تقسيم أملاكهم وبيعها للتجار الذين اغتنوا من الحرب (أو أضافوا ثروات جديدة الى ما لديهم) فى الوقت الذى يتعرض فيه الملاك الأصليون للموت فى الميدان • ومن الحق أيضا حدوث تدهور فى قوة الأنجليز ، ونفوذهم فى العالم ، الى جانب أنه لم يعد هناك من يخدع نفسه بتوهم أن بريطانيا تسـيطر على موجـات جميع البحار والمحيطات ، أو أن انجلترا تحتل الصدارة (*) فى نادى القوى العالمية • فمن كان يجرؤ فى الكتابة ١٩٢٩ مثلمـا كتب صـحفى معروف بثقة قبل ذلك بعشر سـنوات : « بأن الامبراطورية واثقة من استمرارهـا فى البقـاء نفس المدة التى عاشتها الامبراطورية الرومانية فى أقل تقدير ؟ » • قصارى القول لقد ماتت انجلترا عهدى فيكتوريا وادوارد وولى عهدهما الى الأبد •

ومن منظور اليسار ، بدت الأشياء فى صورة أفضل نوعا • ألم تساعد الحرب على تيسير شق الطريق نحو مستقبل جديد أكثر ديناميـة ؟ فلقد أثبتت الصفوة العريقة بزعامة ستانلى بلدوين (السياسى المحافظ ورئيس الوزراء فى الثلاثينيات) أنها عاجزة عن اعادة البلاد الى سابق عهدها • ولكن العسكريين قد تماثلا فى عدم رضائهما التنازل عن زمام

(*) Primus inter pares

السلطة ، ودلفا يترنحان من شدة الارهاق ، ومن تنازل لآخر كجيش منكسر مجهد يتراجع على مهل . وظهر حزب العمال لفترة وجيزة فى مظهر يبشر بمعايير المستقبل . ولكن ما أن هلت ١٩٣١ حتى أحبط هذا الحزب آمال أنصاره . فقد حصلوا على أغلبية كبيرة فى انتخابات ١٩٢٩ ، ساعدتهم على الاستيلاء على السلطة ، ولكن زعماء الحزب أسرعوا بالتعبير عن ولائهم للاتجاه المحافظ فى المسـائل المالية ، وكشـفوا عن الخوف والارتعاب من الأفكار الجديدة ، واتضح عدم وجود اختلاف بين الاشتراكى رامزاى ماكدونالد والمحافظ بلدوين . كما أن الحرب لم تحقق السلام لأوربا .. اذ استمرت حالة التوتر بين بلدان أوربا ، والموجة الصـاعدة للقومية الجرمانية كعوامل تذكرة اضافية بأن « الحرب لانهاء الحرب » كانت صيحة جوفاء ، ولم تجد فتيلا ، فهل هناك ما هو أكثر مسايرة لطبيعة الأشياء من القاء اللوم على « عواجيز » العهد الفيكتورى المتشددين غلاظ القلوب ممن افتقروا الى الشجاعة والرحمة والخيال . وهكذا شعر بالأسف المفكرون الذين سمحت أعمارهم بتذكر عالم ما قبل الحرب ، وان كانوا قد تماثلوا هم والفتية السذج الى حـد ما فى أسفهم على جيلهم « الفارغ » وترحمهم على الأيام الخوالى التى كانت حافلة بالجهابذة من الرجال ، وتكهنوا باتجاه انجلترا ـ كأوربا ـ نحو كارثة محققة ، وان كان قلائل قد ارتضوا الذهـاب بعيدا مثلما فعل سير أوزوالد موسلى (١٨٩٦) الذى انسل من حزب العمال ١٩٣٠ ، وأعلن الحرب على العواجيز « الذين ضللوا جيلى ، وساقونا الى حرب ١٩١٤ ، والذين عكروا صفو حياتنا ١٩٣٠ ، وأوقعونا فى أزمة ١٩٣١ . انهم العواجيز الذين بددوا سلطان انجلترا وأمجادها » ..

وانزلق موسلى نحو الفاشية ، وتبعه هنرى ويليمسون وحفنة من المفكرين . ووصف موسلى الاتحـاد البريطـانى للفاشيين الذى أنشأه فى أكتوبر ١٩٣٢ بأنه تحالف بين « جيل الحرب » والشبيبة الانجليزية موجه ضد زمرة العجزة المسنين . غير أن انجلترا اختلفت عن ألمانيا ، لأن فكرة الأجيال ربما كانت أكثر شعبية فيها أكثر من شعبيتها عند مفكرى اليمين . ولقد تحدثت عن المثل الكلاسيكى للجيل الانجليزى الضائع فى الأدب ، الذى عرضته فيرا بريتان (*) فكان بمثابة شهادة لامرأة تؤمن ايمانا قويا بالنزعة الاشتراكية وحقوق النساء . وكانت بريتان طالبة فى اكسفورد عندما شبت الحرب وتطوعت للخدمة خارج انجلترا كممرضة ، بعد أن قتل خطيبها أثناء العمليات الحربية فى فرنسا ، وقبل أن تنتهى الحرب ، فقدت أخاها واثنين من الأصدقاء الذكور كانت متعلقة بهما . وصممت ١٩٢٥ على تأليف رواية مستندة الى تجاربها . على أنها لم تشرع فى كتابة

(*) Verra Brittain.

مسودة الكتاب حتى نوفمبر ٠ وفى ذات الوقت ، وبعد أن رأت ما صادفته رواية « نهاية رحلة » من نجاح مذهل ، وبعد أن قرأت كتب الحرب (١٩٢٨ ــ ١٩٢٩) ، اقتنعت بجدارة قصتها بالكتابة ، وأن عليها أن تصوغها فى صورة ذكريات تمثل جيلها : « بعد قراءة هذه الكتب ، بدأت أتساءل : لماذا يحتكر هؤلاء الشباب الحرب لأنفسهم ؟ ألا توجد حرب للنساء أيضا ؟ ٠٠٠ ودرست مذكرات بلوندين وساسون وجريفز بعناية علمية دقيقة ، وأيقنت عدم اختلاف قصتى عن قصصهم من حيث الطرافة ، والى جانب ذلك ، فلقد مررت بتجارب أخرى لم يعرفها أحد منهم ، كما أن رؤيتى لبعض ما رأوا تمثل منظورا مختلفا » ٠

وكتاب « شهادة الشباب » مسرف فى الاستغراق فى الذاتية ، وشديد الاشفاق على الذات ، ويفتقر افتقارا كبيرا الى الاستهانة بالأناوية المستهجنة ، مما لا يبيح ادراجه ضمن الأدب الجيد ، ولكنه حقق نجاحا كبيرا فى مبيعاته ، وحقق لمؤلفته شهرة كبيرة عندما نشر سنة ١٩٣٣ ٠ ويدين هذا الكتاب بنجاحه الى أنه عرض « على المكشوف » سرد مسلسل اتبعه كثير من الانجليز الذين بقوا أحياء بعد الحرب عند تذكرهم لماضيهم ، وهو ما لم يفعله أى كتاب آخر عن الحرب ٠ وهذا الشكل الأدبى صورة « مكيفة » لرومانس القرون الوسطى ٠ ويبدأ الكتاب بمرحلة البراءة أو السذاجة التى تزامنت هى والسنوات السابقة لسنة ١٩١٤ ٠ وبعد أن تخرج الشباب من أبطال فيرا بريتان من مدرستهم الارستقراطية فى يوليو ١٩١٤ ، لم يلمحوا أية نذر بما يتوعدهم من كرب ، وبالشدائد التى ستتعثر فيها أقدامهم ٠ وجاءت بعد ذلك محنة الخدمة بالحرب فى فرنسا ٠ وعندما تطوعوا كانوا يشتعلون حماسة ، ونفضوا أوهامهم البطولية قبل أن يموتوا فى الحرب التى أصبحوا ينظرون اليها على أنها شريرة عديمة الجدوى ، وتأتى المرحلة الثالثة فى السرد بعد العودة الى انجلترا ٠ وبعد أن اقتلعت « الريح العاصفة » كل شىء ولم يبق سوى قلة من الأحياء قدر لهم العودة الى ديارهم ، اكتشفوا تحولهم الى أشباح وافدين من زمان ليس بمقدور أى مستقبل غرس الحياة فيه ٠ فلقد حكمت الأقدار عليهم بالتجوال على غير هدى بقلوب محطمة ،دون اهتداء الى بر أمان يرسون عليه ، ويجىء آخر احباط عندما يكتشف الأحياء أن تضحية من ماتوا قد ضاعت هباء ٠ فلم يزد الانتصار المزعوم عن ردة للحضارة ، وستعاود الحرب الاندلاع ، وسيتحطم جيل آخر من أصحاب المنزع المثالى ٠

وتختتم رواية « شهادة للشعب » بهذه النغمة المفعمة بالتشاؤم ٠ فلقد فشل جيل الحرب فى رسالته ، أما من بقوا أحياء ، فلا يزيدون عن قلائل ، وهنت عزائمهم من تأثير محاولتهم تجريد العجائز من السلطة : « لعل أفضل ما ترك لنا لكى نفعله هو أن نرفض النسيان ، وأن نعلم

اخلافنا ما نذكره آملين أن تتوافر لهم عندما يحين يومهم قوة أكبر لتغيير الحال في العالم ، أكثر مما استطاع أن يحققه هذا الجيل المفلس والمشتت. ولربما استطاعت توجعات فيرا بريتان أن تلمس بعض المشاعر الدفينة عند جمهور القراء الانجليز • ففي غضون ست سنوات ، بيع من كتاب « شهادة شباب » ١٢٠٠٠٠ نسخة ، ثم أعيد اصداره ١٩٧٨ •

وبعد اندلاع الحرب العالمية الثانية ١٩٣٩ ، استقرت فكرة الجيل الضائع في أذهان الانجليز ، وكانت على وشك التجمد والتحول الى تفسير مقبول للتاريخ الانجليزى القريب العهد • وما من شك في شيوع هذه العبارة في أقلام الصحفيين وكتاب المذكرات وفي مراثي الوفيات وأحاديث الدوائر الأكاديمية • غير أنها تسللت أحيانا الى كتب المؤرخين الجادين ومقالاتهم • وفي ذات الوقت ، حدث تحول مثير للاهتمام في استخدام هذه العبارة • اذ تزايد النظر الى عبارة « جيل ضائع » على أنها مرادفة لعبارة « الجيل المفقود » • فقد خضعت فكرة فقدان الاتجاه والاتصال للايحاء بالغياب المادى ، الى حد أن العبارة تستعمل أحيانا ، وكأنه لم يعد هناك من استمر على قيد الحياة ممن تستحق شخصيته التنويه بها اطلاقا •

ولقد انتشرت هذه الفكرة الغريبة مثلما تنتشر الشائعة ، وتتعرض للتحريف في كل مرة يعاد فيها ترديدها • فلقد نشرت ١٩٣٠ مجلة انجليزية رائدة (*) مقالا جاء فيه ما يلي : « لو نظرت حولك فانك لن تجد في انجلترا في عالم السياسة أو ميدان الأعمال أى شاب من ذلك الجيل يشغل الوظائف التي تتقاضى أجورا أسمى وأفضل » • ولم يعترض أحد من رؤساء التحرير على هذا الكلام • ويردف الكاتب على سبيل الاعتراض : « لم يعد هناك الا قلة من الأحياء من الجيل المفقود ، والقلائل الذين بقوا منه قد نشطوا في العمل خارج انجلترا في السنوات التي تلت الحرب مباشرة ، وكأن استمرارهم على قيد الحياة كان غلطة بحق ، وكأنهم من الأشياء التي كان يتعين تواريها حتى « ينسى » أمرها • وفي ١٩٤٢ ، عبر المؤرخ وودورد عن شعور بالمرارة وخيبة الأمل من المعاملة التي عومل بها جيل الحرب من قبل الأكبر سنا ، ولاحظ في غلو : « ان من عادوا من الحرب قد انحطت قيمتهم في العالم السياسي لبلادهم في أغلب الظن أكثر من أى جيل ابان القرنين أو ثلاثة القرون الماضية » • وعندما قيم ريجنالد باوند ـ وهو كاتب سيرة معروف ، وكان ممن تطوعوا في الحرب تفسير التاريخ على هذا النحو ـ في كتاب عنوانه الجيل الضائع (**) ، استخلص حدوث الخسائر الحقة في الحرب العالمية في الامكانات الثقافية

(*) The Nation.

(**) Reginald Pound كتاب The Lost Generation.

وفي الشخصيات : « لم يحدث ادراك لمدى ما حل بالفكر الخلاق من ضمور ، أو لما أصاب التعليم والأدب والعلم من جراء تحطم كثير من أصحاب العقول الخصبة القوية • وقال باوند متعجبا : « ألم يكن بمقدور هؤلاء المفقودين أن يقاوموا القوى الشيطانية التى غزت الفنون ؟ ألم يكن بوسعهم الحيلولة دون احتلال أصحاب المواهب من الدرجة الثانية لمواقع الموهوبين من الدرجة الأولى ، أو ألم يكونوا قادرين على ايقاف تحول انحدار الغضب المعنوى الى تسامح خال من البطولة » ورأى باوند أن الحياة القومية البريطانية قد كشفت ــ « كما لم يحدث من قبل ــ عن حالة تشوش جسيمة • نعم لقد حدث اجداب في مختلف المقومات » • وتأثر ناشرو هذا الكتاب بهذه الخواطر لدرجة أنهم وضعوا مقتبسات منها فى الصفحة الاستهلالية ، وأعادوا ذكرها عند التنويه في نبذة قصيرة على ظهر الكتاب بما جاء فيه • والخرافة ملفتة للغاية لحد أن أحد المؤرخين وقع فريسة لها عندما حاول تصحيحها ، وتساءل حديثا روبرت سكيدلسكى (*) : ألم يكن بامكان موسلى عدم التراجع فى تمرده ضد الأحزاب العتيدة ١٩٣٠ ، لو أنه لم يقتل فى الحرب مثل هذا العدد الوفير من القريبين له فى السن ؟ واعتقد سكيدلسكى بعد أن راجع نفسه أنه لم يكن هناك عدد كاف من شباب المحافظين والعمال والأحرار لتأييد وجهة نظر موسلى عندما أقدم على انشاء حزب جديد ، « ولكن اذا بحثنا بين أبناء الجيل فاننا كنا سنعثر على العديدين من بينهم • ولعل تاريخ انجلترا كان سيتغير آنئذ » •

ان أى مؤرخ ينوى اعادة كتابة التاريخ البريطانى من منظور الطبقات التى لا تتخذ الصدارة لن يصادف أية مشقة عندما يحاول تحطيم أسطورة الجيل المفقود • اذ كانت الخسائر البريطانية أقل نسبيا من خسائر البلدان الأوربية الرئيسية الأخرى التى اشتركت فى الحرب ١٩١٤ • فلقد مات فى فرنسا ــ التى تتساوى تقريبا هى وانجلترا فى عدد السكان ــ ضعف العدد • ولو أن خسائر بريطانيا تساوت فى معدلها هى ومعدلات خسائر ألمانيا لارتفع عددها الى مليون ومائتى ألف بدلا من سبعمائة ألف • نعم لقد هبط عدد الذكور (الذين تتراوح أعمارهم بين ٢٠ سنة و ٤٠ سنة) فى كل ألف من السكان بين ١٩١١ و ١٩٢١ • ولكن هذا الانخفاض لم يزد عن الهبوط من ١٥٥ الى ١٤١ • ويصعب القول بأن ما حدث كان تغيرا مهلكا أو راديكاليا ، لو نظرنا الى هذه المسألة نظرة احصائية • فبعد انتهاء الحرب بثلاث سنوات ، ضم تعداد السكان أكثر من خمسة ملايين ممن ولدوا بين ١٨٨٢ و ١٩٠١ ، وتحملت الفئات التى يقع سنها فى هذه المرحلة من العمر صدمات الخدمة فى الصفوف الأمامية للحرب •

(*) Skidel ky.

وجاءت الخسائر بينهم مريعة ، ولكنها لم تكن بالجسامة التى تؤدى الى القضاء على جيل ، اذا عرفنا الجيل فى جملته بأنه مجموعة من الأشخاص الذين يتقاربون فى السن ويرتبطون سويا بتجربة تاريخية مشتركة ، وبمصير مشترك ٠

غير أن مثل هذه الأرقام التى ذكرناها لا توضح صميم أسطورة أو خرافة « الجيل المفقود » ، لأن الأسطورة تعتقد أن أفضل الأشخاص قد ماتوا ، أى يفترض أن من سقطوا صرعى فى ساحة الوغى كانوا الأنقى سريرة والأسمى والأشجع والأعظم ثقافة ، وأن من استمروا أحياء كانوا الأضعف والأقل شجاعة ٠ ويعنى هذا الانتقاء المعكوس ، ويجر فى ذيله ما حدث من اخفاق وبلايا فى كل فرع من فروع الحياة الانسانية ، وبدت هذه الظاهرة عند بعض كأنها المسئولة عن تدهور انجلترا ونشوب الحرب العالمية الثانية ٠

وهناك شعور بالميل الى رفض هذه الفكرة باعتبارها هراء ومن أوهام النخبة ٠ فأولا ــ كان من بين الصفات المميزة لحرب الخنادق خلال الحرب العالمية الأولى أنها لم تكن موجهة ضد أشخاص ، وأن الموت كان يصيب الشجاع والجبان بلا تفرقة ، اذ كانت هناك احتمالات أكبر فى تعرض أحد الأشخاص للموت من رصاص رشاش غير مرئى أو قنبلة تسقط « عميانيا » من خندق العدو ، أو اصابة عرضية للمدفعية أكثر من التعرض لرصاصة أحد القناصة ، أو لطعنة سونكى فيما يشبه القتال المباشر ، أو وجها لوجه ٠ فلقد مات عديدون دون أن يلمحوا العدو ، وليست هناك علاقة بين من استمروا أحياء وبين الطهر والسمو ، وان أمكن المجادلة والقول بأن الأقوى والأفضل تغذية من القطاعات الأوفر حظا وميسرة من المجتمع كانت لديهم فرصة أفضل لتحمل صرامة الجو وأخطار العدوى والتعب المترتب على العمل المضنى وعدم انتظام النوم ، فلقد مات كثيرون من تأثير الاجهاد مما حال دون تمكنهم الاحتماء بساتر ، أو لأنهم كانوا شديدى التبلد أو البؤس مما جعلهم لا يحرصون على التفرقة بين الحياة والموت ٠ وساعد الذكاء أيضا فى ابقاء بعض أفراد أحياء ، فلقد رفض بعض جنود ــ بعناد ــ ارتداء أقنعة الغاز ، أو تجاهلوا الانتباه الى وجود قناصة ، عند ارتيادهم بعض القطاعات لأول مرة ٠ ولعل هذه الحالات هى التى خطرت ببال جرافز عندما أحدث صدمة لقس الابرشية ورفاقه فيها فى احدى الصلوات التذكارية التى أقيمت فور انتهاء الحرب عندما قال لهم : « ان من سقطوا فى الحرب وتحطموا كأنهم سقطوا من فوق برج « سيلوآم » ، لم يكونوا فضلاء بوجه خاص أو آثمين بوجه خاص ، ولكنهم كانوا أوساط الجنود » ٠ وجاءت نصيحته لمن بقوا أحياء « أن

يشكروا الله لأنهم ما زالوا أحياء ، وأن يبذلوا ما فى وسعهم للحيلولة دون وقوع حروب فى المستقبل » •

من هذا يتضح عدم وجود مبرر للاعتقاد بأن الجماعات المشتركة فى سن واحدة ممن قاتلوا فى الحرب قد تناقص عددها مما صعب نهوضها بدور فى انجلترا فى أعقاب الحرب ، أو للظن بأن من استمروا أحياء كانوا أسوأ حالا ــ أو أفضل ، من الذين ماتوا ، فما الذى ساعد على تغلغل تصور « الجيل المفقود » فى انجلترا على هذا الوجه ؟ أولا ــ ان هذا يرجع بلا شك لما تتميز به الصفوة الانجليزية من صغر فى حجمها وتحديد لملامحها ، ولأنها لم يسبق لها الاشتراك فى أى قتال فعلى فى الحرب • فما أسهل نسيان اختلاف بريطانيا عن القوى الأوربية الأخرى فى نظام الخدمة العسكرية • فقبل ١٩١٤ ، لم تكن هذه الخدمة اجبارية بصفة مقدسة ومفروضة على جميع المواطنين الذكور من أصحاب البنيــة السليمة ، ولكنها كانت حرفة تمارسها قلة مميزة ، بوجه عام ، يعنى الأقل تمتعا بالموهبة من أبناء الطبقات العليا ، وملاذا وخاتمة مهلكة لأبناء المراتب الأدنى ممن عجزوا عن شق طريقهم فى الحياة المدنية ، أو لم يرغبوا فى ذلك • وتغير هذا الوضع بأسره فى الفترة الواقعة بين ١٩١٤ و ١٩١٨ ، وتحول الجيش الى مصير اشترك فيه السواد الأعظم من الرجال المولودين بين ١٨٨٠ و ١٨٩٩ ، وتعرض لهذا المصــــير رجال من جميع الفئـات الاجتماعية • على أنه فى السجلات التى بقيت للأخلاف وفى الحوليات التى ضمت أسماء من حصلوا على أعلى قدر من الثقافة ، ارتبط هذا المصير بأبناء الطبقات الوسطى والعليا ، وربما اقتصر عليهم •

وعندما نتذاكر ما حدث سيتضح بما فيه الكفاية لماذا حدث هذا ، وكيف ؟ فعلى الرغم من تدفق اناس من جميع الخلفيات الاجتماعية على مكاتب التطوع فى المراحل الباكرة ، فان من كانوا ينتمون الى الطبقة العليا والطبقة المتوسطة ، كانوا أسلم صحة وأمتن بنيانا • وكانوا أقدر على التخلى عن اشغالهم فى وقت السلام (لو كان لديهم مثل هذه المشاغل) ، ومن ثم كان تقرير صلاحيتهم للخدمة فى الميدان أقرب للاحتمال ، فأوفدوا الى فرنسا أو الفلاندرز حيث قتل خمسة محاربين من بين كل تسعة ، أو أصيبوا بجراح أو فقدوا • وجاءت الخســائر من بين خريجى الجامعات والمدارس الثانوية العامة (الارستقراطية) عالية بوجه خاص ، لأنهم كانوا المفضلين لشغل وظائف صـغار الضـباط • وتعرض الضـباط الأصاغر لخسائر أفدح مما تعرض لها الرجال الذين خدموا تحت قيادتهم • اذ كانت مهمة الضباط الأصاغر هى تولى القيادة فى الهجمات والاقتحامات ، وتسيير الحملات ، والاطمئنان الى اصـــلاح الأسلاك الشـــائكة المحيطة

بخنادقهم ، وكانوا يخاطرون بحياتهم عندما يطلب منهم ذلك ، لأنهم كانوا يدركون أن واجبهم يحتم اتخاذ رجالهم هؤلاء الضباط قدوة لهم ، ومن ثم كان هناك تناسب طردى بين صغر سن الضـــابط وامتياز تعلمه واحتمالات قتله .

وأحدثت الخسائر الثقيلة التى لم يسبق لهـا مثيل بين جماعات صغار السن من أبناء الطبقة العليا والطبقة المتوسطة جرحا جماعيا اشتدت حدته بمرور كل سنة من سنوات الصراع ، وكان من بين الوسائل التى لجأ اليها من بقوا على أرض انجلترا لمواجهة هذه الخسائر صب جام غضبهم على العدو الألمانى ، والتبليغ عن الجواسيس المزعومين المتقاعسين ، الذين لا يؤدون واجبهم على الوجه الصحيح ، والوسيلة الأخرى هى تكريم الموتى ، والتظاهر بأن من ماتوا قد استشهدوا وحالفهم الحظ . وكانت جـريدة التايمز تنشر نعى القتلى فى ميدان الشرف ، وترفقهـا بعزاء من آبائهم وأمهاتهم وأصدقائهم ومعلميهم ، وتلصق لافتات تتضمن الاشادة ببطولتهم . أو تقام لهم تماثيل نصفية فى المدارس والجامعات . وفى حالات كثيرة ، كانت تجمع أشعار الضابط الشهيد ومراسلاته وتنشر . وباختصار ، كانت تتخذ جميع الوسائل التي تساعد على تخليد ذكرى الفقيد ــ أو فقيد الصفوة بمعنى أصح ــ حتى تبقى ذكراه حية عطرة فى قلوب أحبائه . وفيما بعد وعندما انتهت الحرب وتكشف شبح ثمارها ، تحولت هــذه الخسائر الى وسيلة ــ فى نظر الشعب ــ للتدليل على ما حدث من تدهور للبريطانيين .

لم يكن هناك اذن أساطير تتعلق بهذه الخسائر ، ولا يحزنون . ولعل الأساطير قد ظهرت فى الحكايات التى رويت لاستغلال هذه الفكرة فيما بعد . فلقد سقط الأولاد الأبكار من أبناء انجلترا بأعداد مريعة خلال الحرب الكبرى . وبالمقدور تصوير ذلك بهذه الأرقام التى أختيرت بطريقة شبه عشوائية . فمن بين ٥٥٨٨ من خريجى كلية ايتون ممن خدموا بالحرب ، قتل ١١٠٩ وجرح ١٦٤٩ . وقدر روبرت نيقولس عدد من ماتوا فى السنوات ١٩١١ و ١٩١٢ و ١٩١٣ من أبناء كلية اكسفورد ، ممن اشتركوا فى الحرب بواحد وثلاثين قتيلا ماتوا أثناء العمليات الحربية أو متأثرين بجراحهم من بين ١٣٦ . ومات ١٢٨ من كلبة تشابمان فى اكسفورد . أما فى كلية المسيح فمات عدد يمثل الملتحقين بهذه الكلية خلال ثلاث سنوات ، وفقدت عائلات كثيرة من علية القوم أبكارها ، بينما فقدت بعض عائلات أخرى اثنين أو ثلاثة من أبنائها فى بحر سنة واحدة .

غير أنه ما زال بالاستطاعة القول بأن أغلب من خدموا بالميدان ، حتى من الصفوة قد رجعوا سالمين . وشغل اثنان منهم منصب رئيس

وزراء انجلترا : أنطونى ايدن وهارولد ماكميلان • والتحق عدد لا حصر له منهم فى البرلمان ، وشغلوا مناصب أقل مكانة ، وان كان لها أهميتها فى الحياة العـــامة • فقد كانوا من المسئولين فى الوزارات والأحزاب السياسية ودور النشر ، ومن المشتغلين بالكتابة فى الصحف أو التأليف أو الكتابات النقدية • وكان من بينهم من أسسوا مؤسسات عامة أو عملوا أساتذة بالجامعات أو أداروا معاهد علمية أو معامل ، أو مثلوا بلادهم فى الخارج ، وكان لهم دور فى تشكيل عقول مواطنيهم على أنحاء شتى عديدة ، وتركوا مذكرات تملأ العديد من رفوف المكتبات ، ونسى قلائل من بينهم الاشادة فى كتبهم بمن كانوا يفضلونهم ، أو كانوا ألمع منهم ممن ماتوا من أصحاب الأعمار المماثلة أو المقاربة • وتثير هذه الحالة سؤالا يدعو الى الحيرة • انه سؤال أشد مراوغة من التساؤل عن الأصول التى انحدروا منها ، والذى فرغنا من التحدث عنه • هذا السؤال هو : لماذا ثبت الأحياء الذين خرجوا سالمين من الحرب العالمية هذه الأسطورة ؟ وما هو السند الذى يحتمل أن يكونوا قد ارتكنوا عليه فى حفاظهم على بقاء فكرة الجيل الضائع أو الفاقد ؟ •

والرد على ذلك هو أن أسطورة الجيل الفاقد قد أتت بصورة ذاتية هامة لمن بقوا أحياء من داخل دائرة صفوة المثقفين ، وجاءت أيضا بتفسير مريح سيكلوجيا ، بل وضرورى فى أغلب الظن لما جرى لهم بعد أن عادوا من الحرب • وهكذا غدت « عبادة » الموتى وسيلة لتفسير ما حدث من احباط فى الحاضر • وما من شك أن أصل هذه « العبادة » يرجع الى تجربة الحرب ذاتها ، فهى تعكس الشعور بالذنب المتوقع عند من بقوا على قيد الحياة ، وكانوا يعرفون ان الحياة لم تعد من حقهم بعد أن مات من كانوا حولهم ، وتعكس مشاعرهم الغاضبة التى تميزت بقوتها فى انجلترا أكثر من أى بلد آخر ، لأنهم كانوا ضحايا حيلة قذرة لعبهـا التاريخ المتجسم فى الصورة الشريرة للجيل الأعجز • ولقد رددت أشعار أوين (*) عن الحرب بالفعل معظم هذه المعانى الأساسية : الاشادة بالقوات المقاتلة ـ خيـانة الأكبر سنا للشبيبة ـ الطبيعـة المأسوية لمصـير جيل أوين ، غير أن المشاعر التى عبرت عنها قصائده ، ربما يكون أثرها قد أصيب بالوهن بمرور الأيام • أما ما حدث من تجدد فى الأنشطة فقد تأيد بعد العودة الى انجلترا ، ومن تجربة الحياة أثنـــاء العشرينيـات وبدايات الثلاثينيات • فما رآه الباقون أحياء لدى عودتهم لم يكن دارا تليق بالأبطال ، وانما كان عطلة طويلة لنهاية الاسبوع ، شعروا خلالها « بأن الحياة فى انحدار مستمر » « وبمشاعر معاكسة » • وفى هذا الجو الممثل للانحدار

(*) Owen.

قامت عدة مؤثرات كالحنين للماضى والأزمة المؤجلة التى مرت بها انجلترا بين الحربين وأسطورة الجيل الفاقد بكل ما تحمله من اشارات ومعانى بدور هام فى نظر من استمروا أحياء ٠ فلقد استحضرت ذكريات عالم الطفولة الذى فقدوه ، ومن اختفى فى الحرب من أصدقاء ومعـارف ، و « التوهان » والاغراب الذى صادفوه لدى عودتهم لديارهم ، والمعارك التى حاربوها وخسروها ، خلال عقدين من الزمان أعقبا ١٩١٨ ٠ وفى ذات الوقت ، فانها فسرت عجزهم عن تحقيق أحلام العظمة التى شبوا على الاعتقاد بأنها ستكون من نصيبهم ، والتى اعتقد كثيرون أنهم حققوها ، حتى وان كان ذلك بصورة عاجلة عابرة فى ميادين قتال الحرب العالمية ، وخنادقها ، وفسر الأحياء من أبناء الطبقات المميزة التفاوت بين أحلامهم ومنجزاتهم بالتركيز على الفضائل الفذة التى إتسم بها من سقطوا فى ساحة الوغى ، وبالاشارة الى ما فى مراتبهم من ثغرات وفجوات ، وألقوا تبعة ما حل بهم على مقاومة الجيل الأقدم ٠

وانفرد لورنس (توماس ادوارد) ، وكان من بين أشهر من بقوا أحياء من المشتركين فى الحرب من الانجليز وأفصحهم بيـانا باستهجانه للاستغلال الخطير لأسطورة « الجيل الفاقد » ٠ ويثير هذا الموقف الكثير من الدهشة ، لأن لورنس بالذات ، كما يبين من أفعاله وكتاباته قد ساهم فى تثبيت هـذه الأسطورة ومصـداقيتها فى الفترة التى أعقبت الحرب مباشرة ٠ وتماثل لورنس هو وروبرت بروك فى قيامهما بتحويل نفسيهما الى أسطورتين ، قبل أن تبدأ الحرب ٠ بيد أنه فى حالة لورنس ، كان هناك قدر كبير من المواد المدعمة للأسطورة ، والكثير من الخفايا الحقيقية التى أحاطت بأحوال معيشته ٠ فلقد هجر أبوه توماس تشابمان ــ وهو من النبلاء الايرلانديين الذين يعتنقون البروتستانتية ــ أمه وأربع بنات ، ومكانة مرموقة ومركزا ماليا متينا هاربا برفقة مربية الأسرة الاسكتلندية ، وبدل الاثنان اسميهما الى لورنس ، وأنجبا خمسة أبناء ، كان ثانيهما توماس ادوارد المولود ١٨٨٨ ، واستقرت الأسرة فى نهـاية المطاف فى اكسفورد حيث عاشت حياة متواضـعة بدخل ثلثمائة جنيه استرلينى سنويا ٠ وأدى هذا الوضع الاقتصادى الى اضطرار توماس تشابمان الى التخلى عن اسلوب الحياة الذى اعتاده فى ايرلاندة ، وأرغم الزوجان على حياة الضيق ، واستعاضة الماديات بالروحانيات ٠ ودلت جميع الدلائل على أن هذه الروحانيات كانت عظيمة الأثر ٠ اذ كانت سارة لورنس من أتباع كالفان فى شدة التزامها بالفضيلة ، وايمانها العميق ، مما دفعها الى السعى عن التكفير عن خطيئتها الفظيعة باختطاف زوج امرأة أخرى ، بالعيش حياة طاهرة زاهدة لا غبـار عليها ٠ ونجحت بفضـل عزيمتها الحديدية وتصميمها الذى لا يلين فى فرض قيمها على زوجها وأبنائها ٠

واختار أحد الأبناء الخمسة العمل مبشرا دينيا ، وتزوج آخر ، وتأثر جميع الأبناء بدعوة أمهم بوجوب قيام الزوج بدور الحارس الصارم والتصدى لشهوات الجسد ورذائله • وعلمت سارة أبناءها أيضا بأن يتخذوا كمال الانجاز غاية لهم ، وأن لا يقنعوا بأنصاف الأفعال • واتخذ هذا الشعور فى حالة توماس صورة تطلع للمغامرة ، وحرص على ابقائه حيا وحارا فى صباه ومراهقته بفضل قراءة رومانسات العصر الوسيط •

واذا تأملنا الصــور الفوتوغرافيــة للورنس ، سنجد كم تصعب المواءمة بين الصورة والأسطورة • غير أن من عرفوا لورنس فى شبابه عن كثب يذكرون أنه كان صبيا فذا وسط زمرة من « الاخوة الأفذاذ » فى « وكر صغار النسور » ، كمـا وصفهم خريج اكســفورد دون ارنست باركر • وكان توماس هو أسرعهم وأكثرهم انطلاقا وتحررا • وأظهر منذ حداثته قدرة على تعلم اللغات ، وتحمل الجهد البدنى ، وتمتع بذاكرة ساعدته على حفظ أدق التفصيلات الأثرية ، وكان مبهورا بصفة خاصة بالفن المعمارى للقرون الوسطى ، ولا سيما بطريقة انشاء الأبنية الشبيهة بالقلاع العسكرية • وعندما بلغ الثامنة عشر من عمره ، كان قد اكتسب معرفة وخبرة بميدان القتــال • وكان مولعـــا بالرحلات ، ومن محبى المخاطرات ــ بعكس بروك • وبين ١٩٠٦ و ١٩٠٩ ، زار القلاع والكنائس الفرنسية راكبا دراجة ، وأحيانا كان يقطع فوق دراجته مسافة تقارب مائتى وخمسين كيلو مترا فى اليوم ، ويقتصر طعــامه على اللبن والجبن والفاكهة ، لو تمكن من الحصول على هذه الأصناف • ولعل هذه الرحلات كانت تدريبا على المغامرات الكبرى التى سيقدم عليها فى السنوات القليلة التالية • ففى ١٩٠٩ ، زار الشرق الأوسط لأول مرة فى رحلة على الأقدام فى سوريا لجمع بيانات للرسالة التى قدمها لجامعة اكسفورد عن قلاع الصليبيين • وعلى الرغم مما لاقى فى رحلته من مرض وعداء وازعاج ، الا أنه انبهر بالبلد وأهلها حتى أنه عاود الرجوع اليها فى ديسمبر ١٩١٠ للنهوض بمهمــة التنقيب عن الحفريات فى كارشميش (موقع له قيمــة حضــــارية من عهد أشور وبابل) على نهر الفرات ، وأثنــــاء اقامته فى كارشميش ، أتقن اللغة العربية ، وأثبت قدرته على اكتســاب احترام العرب ، وثقتهم • وعلى الرغم من أنه كان قادرا على التطلع الى تحقيق مستقبل باهر كعالم أثرى ، الا أنه آثر خلال هذه الحقبة تصور نفسه فنانا متميزا ورحالة يبحث عن الأشياء المثيرة • وما كاد يعود الى اكسفورد فى اجازة قصيرة حتى بدأت الحرب •

وتطوع ثلاثة من الاخــوة لورنس هم (توماس وفرانــك وويل) للخدمة العسكرية ، ورقوا الى رتبة الضابط • وفى سبتمبر ١٩١٥ ،

فارق اثنان منهما الحياة فى فرنسا · وكان توماس الأوفر حظا وتالقا ، فبعد عام ونصف أمضاهما فى القاهرة فى أشغال بعيدة نسبيا عن الخطورة فى مكتب المخابرات الحربية الانجليزية ، طلب نقله الى المكتب العربى المنشأ حديثا ، وعلى الرغم من صغر سنه وحداثة رتبته فقد استطاع القيام بدور محورى فى تخطيط الثورة العربية على الأتراك ، وتنفيذها · وفى أكتوبر ١٩١٦ ، قام بأول رحلاته الى بلاد العرب حيث توطدت صلته بالأمير عبد الله والأمير فيصل (الملكين بعد ذلك) نجلى الملك الحسين شريف مكة · وفى ١٩١٧ و ١٩١٨ ، أصبح القائد الفعلى ومخطط استراتيجية فيصل ، ورافقه عند دخوله دمشق ظافرا فى أكتوبر ١٩١٨ · أما قصة حملات لورنس فى الصحراء ، وما أنجزه وما عجز عن انجازه ، وما زعم أنه حققه فما زالت موضع خلاف ، ولا يستبعد أن تظل على هذا الحال دوما ، وما يهمنا من منظور بحثنا هو أن لورنس قد نجح فى عالم الواقع فى تحقيق أحلامه الرومانسية التى حلم بها كثيرون عندما شاركوا فى الحرب ١٩١٤ · فلقد نسف معابر ، وأجرى عمليات استكشافية (تجسسية) وراء خطوط الأتراك ، وشارك فى حرب العصابات ، ولم يعرف قط حرب الخنادق الساكنة ، التى لا تساعد على ابراز الشخصية الفردية ، والتى أصابت بالكرب أمثال ساسون وجرافز وأوين ، فلقد أصبح بطلا بالمعنى الحقيقى للكلمة واعترف به العالم كذلك ·

بيد أن لورنس تأثر بتجاربه فى الحرب ، وانعكس ذلك على طباعه وأرائه · فبعد أن كان يمثل المتطوع الوطنى المتشامخ (فى ١٩١٤ ــ ١٩١٥) تحول الى شخصية هاملت ، وما عرف عنها من تعاسة وشكوك فى الذات ، حتى أصبحت هذه الشخصية ترمز الى فقدان الايمان بالحرب عند من قاتلوا فيها ، ولقد عرفنا لورنس نفسه الدلالات الكثيرة التى تفسر لماذا وكيف وقع هذا التغير ، فقال لقد اعتل جسمه من تأثير ثمانية عشر شهرا من الكد والحرمان ، وتحطمت روحه المعنوية وتداعى اعتزازه بنفسه بعد وقوعه فى أسر الأتراك لفترة وجيزة تعرض فيها للضرب المبرح ، وربما أيضا للاغتصاب · وازدادت صورة النقاء تداعيا عندما اكتشف فى نفسه القدرة على اشتهاء الدم والثأر التى نسبها قبل ذلك للشعوب البدائية وغير الأوربية · ان أية تجربة من هذه التجارب كانت كفيلة باشعال فتيل التغير الذى حدث لشخصية لورنس ، غير أن الواقعة الكامنة وراء الأصل الحقيقى لجرحه السيكلوجى تكمن فى موضع آخر · فلورنس بوصفه شخصية جمة التعقيد ، لم يكن قادرا على تحمل أعباء نجاحه · فلما كان ابنا غير شرعى لتوماس تشابمان فانه لم يستطع التخلى عن الشعور بأنه يحقق طموحاته وأوهام طفولية على حساب اناس يموتون وشعوب يستهان بمغامرها أو مصالحها · لقد عجز عن التوفيق بين الدورين اللذين كان

يقوم بهما ، أى كعميل للمصالح البريطانية القومية فى الشرق الأوسط وكمحرر للعرب من السيطرة الأجنبية ، لأنه أدرك ــ أو لعله ارتاب ــ فى تعارض كل دور مع الدور الآخر ٠ وامتزجت درايته المتزايدة بعجزه عن الوفاء بوعده للعرب بالألم الناتج عن تصوره المدنس لنفسه ، مما خلق عنده موجة عارمة من التقزز وكراهيته لذاته ٠ وفى ١٨ يوليو ، اهتدى لورنس الى تصور « ضخامة » المهمة الملقاة على عاتقه ، وتراءت له جميع الأشياء فى صورة أوهام ، « وكأنه قد تحول الى حالم يقظة ، أو ممثل على مسرح أجنبى (يرتدى زيا من الأزياء التنكرية ويتكلم لغة غريبة) ، ويتوقع أن يوجه اليه اللوم ، اذا لم يتحقق كل شىء على خير وجه » ٠ « فالانجاز اذا تحقق سيصبح احباطا ، ولكن هـذا الاحبـاط لن يكون بالجسامة الكافية القادرة على ايقاظ الانسان الكامن داخله من سباته » ٠

وتحقق الانجاز ، وان لم يحدث ذلك بسهولة ، وعاد الى لندن ، ثم انتقل منها الى باريس أثناء انعقاد مؤتمر السلام فى فرساى ، وحارب لورنس من أجل مصالح فيصل والعرب ، وساعد كونه عقيدا يحمل على صدره النياشين والميداليات ، واشتغاله مترجما ومستشارا للأمير فيصل ، واسمه (لويل توماس) على تحوله الى شخصية عالمية شهيرة ، قادرة على التحرك ، وانما لفترة وجيزة ، فى قمة الأروقة السياسية ، وأنصت اليه جورج لويد وكليمنسو وويلسون ومكتب المستعمرات ٠ وكان واحدا من المحاربين القدماء الذين شهدوا مؤتمر السلام من داخل أروقته ٠ غير أن ما شاهده لم يرضيه ٠ فلقد شعر بالأسى والاحباط المتفاقم لما حدث عندما أطيح بالامكانات التى أتاحهـا النصر لاحداث التغير ، ففى حالة الشرق الأوسط ، تمت التضـحية بقضـية العرب تجنبـا للاصطدام بطموحات الفرنسيين ، فأوكل أمر المملكة السورية التى حارب فيصل فى سبيلها ، والتى تعهد البريطانيون بتمكينه منهـا الى فرنسـا فى صورة بلد تحت الانتداب الفرنسى ، وتلاشى حلم لورانس بانشاء ثلاث ممالك عربية ترتبط برباط حر ببريطانيا العظمى ، وتوارى خلف غبار العهود التى لم تتحقق٠ وعبر لورنس عن مشاعره بالخيانة والهزيمة فى تمهيد غريب وجميل لأول طبعة من طبعات كتابه أعمدة الحكمة السبع (*) التى روى فيها تاريخ الثورة العربية ٠ وعلى الرغم من امتلاء هذا الكتاب بالاشارات الى الحملات العربية ، وما بدا فيها من روح ايجابية عند عرض تجربة الحرب ذاتها ، الا أن الكتاب يقع ضمن الكتب التى اتبعت طريقة السرد التى تميزت بها المؤلفات النثرية الانجليزية فى أواخر العشرينيات وبواكير الثلاثينيات :

(*) Seven Pillars of Wisdom.

يعنى البراءة المتبوعة بالشعور بخيانة الجيل الأقدم والتعرض للهزيمة على يديه :

« لقد كان كل منا مولعا بالآخر ، وجمعت بيننا ذكريات الزحف فى الأماكن المفتوحة ، وتذوق الرياح العاتية وضياء الشمس والآمال التى كانت تدفعنا للعمل · وبدا الوقت كأنه نهار ، تنعشه نسائم العالم الذى نشتهيه · لقد عشنا جملة أعمار فى هذه المعارك الدوارة ، دون أن ندخر وسعا للبحث عما هو خير وما هو شر · ولكن بعد أن أنجزنا مهمتنا وأشرق فجر العالم الجديد ، خرج العواجيز مرة أخرى من جحورهم ، وسلبونا نصرنا ، وأعادوا تشكيله على غرار العالم القديم الذى عرفوه · أجل ! ان بمقدور الشباب أن ينتصر ، ولكنه لم يتعلم كيف يحافظ على النصر ، وشعر بالضعف الى درجة تثير الشفقة فى مواجهة الطاعنين فى السن · ولقد تأتأنا وتلجلجنا عندما قلنا اننا عملنا فى سبيل تحقيق مثل جديدة وانشاء بلد جديد ، وتلقينا شكرا عطوفا ، وتبعته عملية السلام · وعندما سنكون فى نفس سنهم ، لا أظننا سنسلك نحو أبنائنا نفس المسلك » ·

وسعى لورنس لتحقيق السلام لنفسه ، فهرب من بريق الشهرة التى حصل عليها · غير أن صيته قد طارده وتعقبه بلا هوادة كظله ، وعاد لفترة وجيزة للاشتغال بالسياسة (١٩٢١ ــ ١٩٢٢) بناء على طلب تشرشل عندما انهارت تسوية الشرق الأوسط التى وضعت فى فرساى ، وساعد فى اجلاس فيصل على عرش العراق ، وتخصيص مملكة شرق الأردن لعبد الله (شقيق فيصل) ، ثم انتهز أول فرصة للانسحاب من الحياة العامة · ومما أدهش أصدقاءه وأذهلهم ، وكانوا آنئذ يمثلون حيرة العقول الرائدة والشخصيات السياسية التى تزعمت انجلترا ، أن يتخلى لورنس عن زمالته فى احدى كليات اكسفورد ، ويغير اسمه الى روس ، وينضم الى سلاح الجو البريطانى كمتطوع بسيط ، ولم يكن هذا الاجراء منافيا للعقل ، كما بدا لأصدقائه حين ذاك · اذ كان لورنس يعشق الآلات والعربات السريعة ، وشعر شعورا قويا « بأن غزو الفضاء هو أعظم مهمة يتعين على أبناء جيلنا النهوض بها » فلقد مل قيادة الآخرين ، ولما كانوا قد نسبوا اليه صفات لم يعتقد أنه يستحقها ، لذا أراد أن يجرب العمل بالقوات الجوية من أول درجات السلم · والأهم أنه كان يتطلع للهروب من نفسه وماضيه الذى تخيله كابوسا يجثم على صدره ، ولعله كان يأمل أن ترد اليه القوات الجوية الاحساس بوجود هدف لحياته ، وتعيد اليه الشعور بالزمالة الحميمة والانضباط الذى افتقده منذ ترك الجيش ·

وفى ذات الوقت ، أكمل لورنس كتابه عن تاريخ الثورة العربية ، وكان يأمل أن يكون من آيات العصر ، وفى نفس مكانة نفائس التراث العالمى ككتاب الاخوة كارامازوف لدوستويفسكى وزرادشت لنيتشه وموبى ديك لميلفل ، كلاسيكياته الأثيرة • واعتقــد أن مستقبله يدعـوه الى احتراف الكتابة ، وشرع يتعلم هذه الحرفة ويتقنها اتقانا تاما حسب ظنه مرة أخرى ، وعلى الرغم من شدة اعجاب أصدقائه من الكتاب ، واغداقهم المديح عليه عندما قرأوا كتاباته ، فان كتاب أعمدة الحكمة السبعة قد جانبه التوفيق ، وأدرك لورنس ذلك ، اذ اتسم الكتاب بطابعه الشخصى واقتصاره على مشاعر الكاتب وتجاربه ، بحيث لا يصح النظر اليه كبيان عن الحرب ضد الأتراك • وفى الوقت نفسه ، فانه أخفى الكثير ، واتسم بطابعه الغيبى بحيث لا يجوز وصفه بالصورة الصادقة للرجل الذى قاد الثورة العربية ، فلا هو تاريخ ، ولا هو رواية أدبية ، ولكنه خليط عجيب من الشيئين ، أغفلت فيه جميع الروابط التى كان لابد من وجودها لفهم القصة ، ونزع لورنس بالذات الى الاحساس بما أصاب رؤياه للحرب من مسخ من تأثير حالة الاحباط التى كانت تلازمه عندما ألف هذا الكتاب ، وأخبر فردريك ماينينج أنه لو أقدم على تأليف الكتاب فيما بعد لما كان من المستبعد أن يجىء أكثر اشراقا وأكثر موضوعية •

ودفع عدم رضاء لورنس عن كتبه التى ألفها عن الحرب الى النزوع الى النظر بعين الارتياب الى كتابات الحرب التى ألفها معاصروه • ففى ١٩٢٩ ، عندما بدأت حركة انتعاش كتب الحرب فى الانحسار ، وتحولت حالة الاشفاق عند من ظلوا على قيد الحياة بعد الحرب الى اتجاه يحظى بالتقدير ويحقق الكسب ، حذر لورنس أصدقاءه من القاء المسئولية على الحرب • ولاحظ كيف ظهرت الحرب بمظهر مريع عندما تحولت الى ذكرى ماضية ، أكثر مما بدت لهم عندما خاضوا غمارها ، واعتقد أن ما طرأ على من بقوا أحياء بعد الحرب من تغير وتحول هو الذى أغشى رؤيتهم ، وعندما ظهرت الترجمة الانجليزية لكتاب « كل شىء هادىء فى الميدان الغربى » فى انجلترا ، شجبه لورنس ووصفه بالعمل المنبعث من حالة تشوق حالم لحياة ما بعد الحرب ، انعكس على الحرب ذاتها ، وبأنه « صرخة انسان ضعيف » وشكا الى هنرى وليمسون بأن أسوأ صفة يتصف بها جيل الحرب عندما ينظرون داخل أنفسهم هى العجز عن الحفاظ على الروح المزدهرة فى داخلهم ، وكرر المرة تلو الأخرى « وجوب تجاوز الحرب باعتبارها فترة مضنية فقدنا فيها مواطن أقدامنا المعتادة » • والظاهر أن لورنس كان يخشى أن تغدو أسطورة الجيل الفاقد مبررا للتقاعس والاستغراق فى الذات عند كثيرين من أمثاله ممن حاربوا ، وحققوا امتيازا فى الحرب • وقال على سبيل الاعتراض : ليس صحيحا ما يقال بأنه لم يبق بين

الناجين من الحرب أى فطاحل أو جهابذة « فكم كنا جيلا وحشيا محبطا ، نحن أبناء فترة الحرب • لقد قالوا أن أفضل الأشخاص قد قضوا نحبهم • غير أنه ما زال هناك كثير من الموهوبين على قيد الحياة » •

لقد أصبحنا الآن أقدر على الابتعاد عن الأسطورة على نحو لم يتسن للورنس تحقيقه ، وغدونا أقدر على التفرقة بين الحقيقة ، والـوهم • وتتماثل الأسطورة الانجليزية عن الجيل الفاقد هى ومعظم الأساطير فى وجود تناظر بينها وبين الواقع ، فبالاستطاعة ردها الى الخسائر المريعة التى لحقت بنخبة صغيرة من الطبقة العليا ، ذات الملامح المحددة ، وردها أيضا الى الصعوبات التى عاناها أبناء هذه الطبقة (وآخرون ينتمون الى طبقة أدنى) للتوافق مع الحقائق السياسية والاجتماعية فى انجلترا بعد الحرب • نعم لقد عانت عائلات من مختلف شرائح المجتمع ، ولكن الأباكر فى الصفوة السياسية والثقافية الحاكمة ماتوا بأعداد لا تتناسب وضآلة عددهم ، ونشرت أخبار فقدهم على نحو غير متناسب مع الحدث ، كما يظهر لنا الآن ، ان فهم هذا المعنى على وجهه الصحيح ، لقد عنى مصطلح الجيل المفقود فى انجلترا الصفوة المفقودة • وعنى مصطلح الصفوة المفقودة ، الابادة ، والدمار الجزئى ، وانقلاب الأوضـــاع ، سيكلوجيا ، بالنسبة لخريجى المدارس الارستقراطية والجامعات الذين حكموا انجلترا خلال نصف القرن الماضى • واذا قرأنا مؤلفات الجيل الفاقد قلما نذكر أنه من بين سبعمائة ألف من المقاتلين الذين ماتوا خلال الحرب ، لم يكن بينهم أكثر من ٣٧٤٥٢ من الضباط ، وان كان هذا العدد الأخير ، وليس الوحدات التى تولوا قيادتها ، هو الذى خلق هذه الأسطورة •

ومن المؤكد أن كثيرين من أبناء الصفوة قد غابوا عن ساحة ما بعد الحرب • بيد أنه حتى اذا استمروا عائشين ، فانهم كانوا سيكتشفون ـ مثلما فعل سيجفريد ساســون ـ ان عالمهم قد ولى بعــد أن سرعت (بشد الراء) الاتجاهات الراسخة والتى لا تقبل الارتداد اتساع فرصة الصعود للسلطة السياسية وتفاقم بيروقراطية الحكومة والتطلع لمجتمع الرفاهية ، وبزوغ أنظمة تضم رجال أعمال وعمالة تتحدى حــكم أولاد الذوات والأعيان الاقطاعيين ، وسيشاهدون انحلال الامبراطورية،فلا عجب اذن اذا شعروا « بسقوطهم فى الفجوة التى تفصل بين الحربين » •

من هذا يتضح أن ما افتقدته انجلترا أثناء الحقبة الفاصلة بين الحربين لم يكونوا أصـــحاب القدرات والمواهب ممن سقطوا فى ساحة الوعى • ان ما فقد كان الظروف الضرورية لتحقيق أحلام « الأباكر » بين من خرجوا سالمين من الحرب ، وأيضا أحلام اليقظة بالاستمتاع بالسلطة

والهيلمان التى نشأ فى ظلها أبناء المحظوظين من جيل ١٩١٤ ٠ وكان من الضرورى التخلى عن هذه الأحلام كما أدرك لورنس فيما بعد ، وأن تحل محلها أحلام أخرى أنسب للتواءم والحالة التى ألفى الانجليز والأوربيون والآخرون أنفسهم يحيون فى ظلها الآن ٠ وكانت هذه المهمة ملحة وباعثة على الكدر ، وعجز السواد الأعظم من أبناء هذا الجيل عن الاضطلاع بهذا الدور أو عزفوا عن القيام به ، مثلما فعل لورنس عندما تخلى عن أوهام السلطة ، وانضم الى القوة الجوية الملكية كطيار بسيط ٠ لقد أنحى الجيل الانجليزى ١٩١٤ باللائمة على الحرب واعتبروهـا مسئولة عن فقدانهم لعالمهم ٠ ولكن الحقيقة هى أن جزيرة ايثاكا ـ التى حدثنا عنها هوميروس فى الياذته ـ قد بدأت ملامحها تتغير قبل أن يبحر الجيش الى طروادة بفترة طويلة ٠

المراجع

B. Bergonzi, Heroes Twilight : A Study of the Literature of the Great War (1980)

F. Field, Three French Writers and the Great War : Studies in the Rise of Communism and Fascism 1975.

P. Fussel, The Great War and Modern Memory 1975.

H. Klein, ed. The First World War in Fiction : A Collection of Critical Essays 1976'.

A. Marwick, The Deluge : British Society and the First World War 1965.

R. N. Strombery, Redemption by War : The Intellectuals and 1914. (1982).

A. J. P. Taylor, English History 1914-1945. (1982).

M. P. A. Travers, German Novels on the First World War and Their Ideological Implications 1916-1933. (1976).

ثامناً

المواجهة السلطوية والدبلوماسية في منتصف القرن العشرين

ظهرت أوضاع سياسية ودبلوماسية جديدة من تأثير وحشية معاهدة السلام بباريس ، وتفكك المجتمع في أعقاب الحرب ، وانتصار البلاشفة في الثورة الروسية ٠

ففي ألمانيا ، اضطرت جمهورية فيمار الحديثة الانشاء الى التصدى للتدابير التى وردت فى معاهدة فرساى ، والتى ألزمتها بدفع التعويضات للدول المنتصرة فى الحرب ٠ غير أن « سالى ماركس » ترى أن التعويضات التى احتدم الجدل حولها ربما كانت أقل اثارة للتصدع الاقتصادى ، مما اعتاد الساسة ومعظم المؤرخين الزعم منذ ذلك الحين ، وتلاحظ « ماركس » أيضا كيف اعترضت حكومة فيمار على التقديرات التى طولبت بدفعها ٠

وبالرغم من كل هذا ، فقد ظلت التعويضات فى نظر كثير من الألمان خلال عشرينات القرن تبدو كرمز للهزيمة ٠ وساعدت الحالة العقلية والتمزق الاجتماعى المترتب على الحرب ، والتضخم فى مشارف العشرينات على ظهور الأحزاب السياسية المتطرفة ٠ ويصف ريتشبارد هاريس كيف جند أوائل أعضاء الحزب النازى ، وكيف تحولوا من جنود ألمان مهزومين ومتعطلين عن العمل فى أغلب الأحيان الى أعضاء حزب مخلصين وغيورين ٠

وأثناء كفاح جمهورية فيمار لتحقيق الاستقرار الداخلى والاحترام فى الخارج ، شرعت الحكومة البلشفية الثورية فى اعادة تنظيم روسيا

وتحويلها الى اتحاد سوفيتى • وأثناء عزلة روسيا عن باقى العالم ابان العشرينـات ، شب صراع طويل على السلطة والسياسة داخل الحزب الشيوعى الحاكم • ويحلل روبرت تاكر كيف وطد ستالين أقدامه كحاكم أوحد للدولة وللحزب الشيوعى السوفيتى فى وجه منافسة حزبية داخلية ضارية •

وساعد استيلاء النازى على السلطة ١٩٣٣ على حث الألمان على بذل الجهد لمراجعة تسوية السلام ، وقوبل استهزاء الألمان بمعاهدة فرساى والتعديات الأخرى بسياسة مهادنة بلغت ذروتها فى أكتوبر ١٩٣٨ ، بعد توقيع ميثاق ميونخ • ويبحث رونالد سملسر الأهداف السياسية الألمانية من وجهة نظر زعامة الحزب النازى كمحاولة لفهم هل كانت هناك فرصة لنجاح سياســة المهادنة • ثم يفحص بعد ذلك وليمسون موراى الموارد العسكرية لقوى ١٩٣٨ ويتساءل هل كان الأصوب الدخول فى حرب مع ألمانيا ١٩٣٨ بدلا من ١٩٣٩ •

وأنهت الحرب العالمية الثانية السيادة الأوروبية على العالم • فبعد ١٩٤٥ ، انحصرت القارة الأوربية بين قوتين عظمتين ضخمتين تتمتعان بأقوى نفوذ : الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى • وفى ١٩٤٩ ونتيجة لامتداد النفوذ السوفيتى بعد الحرب فى شرق أوربا وفرض الحصار على برلين ، أنشأت الولايات المتحدة وبلدان أوربا الغربية منظمة الناتو التى تضم دول شمال الأطلسى ، والتى تعد بمثابة العمود الفقارى للتحالف الدبلوماسى بين الولايات المتحدة وأوربا • ويبحث ميكائيل ماندلباوم كيف تأسس التحالف ، وحظه فى البقاء فى العصر النووى •

خرافة التعويضات

سالى ماركس

تركت تسوية باريس للسلام ١٩١٩ عددا من المخلفات التى لازمت العلاقات الدولية ابان السنوات الفاصلة بين الحربين العالميتين • وضمت هذه المسائل مصير الدول التى نشأت حديثا فى اوربا الشرقية ، وعصبة الأمم المشكوك فى أمرها ، ورسالتها ، والتى انتهى بها المطاف الى ان اصبحت بلا حول ولا قوة ، واخفاق الولايات المتحدة فى التصديق على معاهدة الانضمام للعصبة ، بيد ان أكثر المشكلات اثارة للمتاعب ، والتى زادت من حدة تعقيد العلاقات السياسية والدبلوماسية ، واشعلت فتيل القلاقل السياسية الداخلية فى المانيا ، كانت فرض التعويضات على المانيا ، والزعم بمسئوليتها عن الحرب التى ارتبطت بها •

والتعويضات عبارة عن صكوك مدفوعات تتيح للقوى المنتصرة حق الحصول من المانيا على مواد مثل الخشب والفحم وبعض الممتلكات التى تملكها الدولة الألمانية ، وفقا لما نصت عليه معاهدة فرساى من حيث المبدأ ووفقا للبيانات التى طرحها المفاوضون المبعوثون من قبل الحلفاء ، وانقسم الرأى بدرجة ملحوظة بين القوى المتحالفة ، لاسيما بين فرنسا وبريطانيا حول قدرة المانيا على الدفع والوسائل المناسبة للاتباع للارغام على ذلك ، واحتدم الخلاف بوجه خاص ١٩٢٣ عندما غزت فرنسا حوض الروهر عندما ثارت مشكلة حول دفع التعويضات الأخيرة • وقرر الزعماء الألمان من شتى الاتجاهات السياسية الاعتراض على هذه الخطوة ، والامتناع عن تقديم الصكوك المطلوبة • ولجأوا الى جملة سبل لتحقيق ذلك ، كان من بينها تخفيض قيمة المارك بعد غزو الفرنسيين للروهر ، واجراء سلسلة من المباحثات كخطة دوز (*) (١٩٢٤) وخطة يونج ١٩٢٤ ، وعلى

نقلا عن The Myths of Reparation تأليف Sally Marks عشتن
Central European History Vol. 11.
١٩٧٨

(*) Dawes

الرغم من التعاطف التقليدى مع الألمان واعتبارهم ضحية عاجزة نسبيا لجشع الحلفاء ، فان هذه التكتيكات نجحت بدرجة كبيرة ، ودفع الألمان نسبة صغيرة من المبلغ الكبير المطلوب سداده • والواقع أن مقاومة الألمان للتعويضات قد وفرت عليهم الكثير وحرمت الحلفاء من الأموال التى كانت ستدفعها ألمانيا ، وتدفع كمعاشات للمحاربين من الحلفاء •

وكانت مشكلة التعويضات فى صميمها سياسية أكثر من كونها اقتصادية • اذ كانت فرنسا تتوقع أن يساعد دفع التعويضات على اعادة توكيد هزيمة ألمانيا ١٩١٨ ، وكان اعتراض الألمان على دفع التعويضات مظهرا من جملة المظاهر التى اتبعت لاثباتهم رفض الاعتراف بأن الهزيمة نهائية ، ولتوكيد دورهم فى العلاقات الدولية التى أعقبت الحرب ، ولقد تحقق هذا الهدف للسياسة الخارجية فى ظل جمهورية فيمار قبل استيلاء النازى على السلطة •

[ملحوظة : على القارىء أن يلاحظ أن معدل تبادل العملة فى هذا المقال كان أربعة ماركات مقابل الدولار الواحد ، وأن مصطلح بليون يمثل مصطلحا أمريكانيا قيمته ألف مليون] •

بالاستطاعة تقسيم التعويضات بعد الحرب الى نوعين : تعويضات لا ألمانية ستبقى الى حد كبير ضمن الموضوعات المجهولة من المؤرخين ، وتعويضات ألمانية أشبه بغابة كثيفة متشابكة الفروع ، لم يغامر سوى قلائل من المغامرين البواسل بالتغلغل فيها والكشف عن أسرارها ، ولا يخفى أن معظم دارسى تاريخ القرن العشرين قد آثروا السلامة ، وتجنب اقتحام مجال المسائل المالية الجمة التعقيد ، وترتب على ذلك شيوع عدة اساءات لتصور تاريخ التعويضات الألمانية ، وليست هذه الخلاصة الموجزة موجهة للمنقبين الكادحين الذين يستحق جهدهم كل تقدير ، ولكنها تخص الكثيرين الذين تجنبوا الكد والبحث ، ووثقوا فى الخرافات التى تروى عن التعويضات ، وما زالت تزدان بها دراسات تاريخ جمهورية فيمار وتاريخ ما بين الحربين العالميتين •

وتبدأ خرافة التعويضات الألمانية بمعاهدة فرساى ، ولم تتضمن المادة الخاصة « بمجرمى الحرب » ، التى طالما تعرضت للانتقاد (المادة ٢٣١) والتى قصد بها أصلا وضع أساس ثانوى للتعويضات ، أية إشارة الى مجرمى الحرب ، فهى تخص بالذكر « مسئولية ألمانيا وحلفائها والمرتبطين بها عن جميع الخسائر والأضرار التى تعرضت لها حكومات الحلفاء ، ومن ارتبطوا بهم وبشعوبهم نتيجة للحرب التى فرضت

عليهم من أثر اعتداء ألمانيا وحلفائها » · ولم تكن مسألة اعتداء ألمانيا على بلجيكا موضع نزاع على الاطلاق ، وتبعا لنظرية المسئولية الجماعية ضمن المنتصرون الجملة ذاتها بعد اتباع مبدأ مراعاة عدم تناسى بعض الاختلافات التى تقتضيها الضرورة (*) العبارة نفسها عند توقيعهم للمعاهدتين مع النمسا والمجر ، ولم تفسر أية دولة من هذه الدول العبارة على أنها تعنى مجرمى الحرب · وفى السنوات الأخيرة ، أرغى المؤرخون والدعاة الألمان وأزبدوا وأفاضوا الكلام عن « مجرمى الحرب من طرف واحد » ، وأقنعوا الكثيرين ممن لم يقرأوا المعاهدات بما فى هذه العبارة من تعسف ·

وبينما طرحت المادة ٢٣١ احتمالات نظرية لا حدود لها ، رأينا المادة ٢٣٢ ، تحصر نطاق المسئولية الألمانية فى خسائر المدنيين ، كما تحددت فى الملحق ، ولقد سكب الكثير من المداد لايضاح اشتمال الأضرار التى لحقت بالمدنيين على معاشات أرامل الحرب ومكافآت من اعتمدت أحوالهم على الحرب ، وفى واقع الأمر ، ولما كان مشروع التعويضات قد كتب ١٩٢١ على أساس تقدير الحلفاء لمقدرة ألمانيا على الدفع ، وليس على أساس مطالب الحلفاء ، لذا لم تتعرض هذه البنود لمدى استعداد ألمانيا للدفع ، وانما إقتصرت على تعديل ما يوزع مما يقدم من تعويضات ، وبعبارة أخرى ، لقد زادت اضافة المعاشات والأتعاب الى التعويضات من نصيب بريطانيا فى الغنيمة ، ولكنها لم تضخم الغنيمة ذاتها ، وكانت أعظم آثار تضخم ما يطالب به الانجليز هى الزيادة الهائلة فى مصاعب الاتفاق بين الحلفاء على اجراءات تسوية للتعويضات ، وارتفاع أصوات السخط عند الألمان ، بعد ما قيل عن استعدادهم لدفع هذه المبالغ الطائلة ، (وكانت هذه الدعوة من قبيل التضليل) مما أثار رد فعل ناقم عند الرأى العام الألمانى · وفى هذه المسألة ، كما هو الحال فى الكثير من جوانب التعويضات ثمة تفاوت بين الظاهر والواقع ، مما ساعد على شيوع كثير من خرافات التعويضات ·

ولقد ثار كثير من الجدل أيضا لأن المعاهدة لم تحدد مقدار المبلغ الكلى الذى تستطيع ألمانيا دفعه كتعويضات · وعندما ثارت بعض الشكوك عند الألمان والدول المنتصرة حول هذه المسألة المالية ، نجحت ألمانيا فى شن حملة دعائية مؤثرة عن مدى ما حل بها من ظلم ، بعد ارغامها على « توقيع شيك على بياض » · وكان التأخر ـ فى الحق ـ لصالح ألمانيا ، وأدت المغالاة فى مطالبات شعوب البلدان المنتصرة الى بلوغ مجموع التعويضات التى نوقشت فى مؤتمر السلام رقما فلكيا يتجاوز ستة عشر ضعف المبلغ الذى أدرج فى نهاية المطاف ، وكان الخبيران البريطانيان :

(*) Mutatis Mutandis.

اللورد سامنر وكاتليف بعيدين عن الواقع حتى أطلق عليهما اسم « التوأمين السابحين فى ملكوت » • وبمرور الوقت ، انخفضت أرقام التقديرات تباعا ، واقتربت (١٩٢١) من الواقعية الى حد ما •

وأخيرا حددت معاهدة فرساى فترة زمنية تنتهى يوم أول مايو ١٩٤١ ، تدفع ألمانيا قبلها مبلغ عشرين بليونا من الماركات الذهبية ، الى أن يتسنى للجنة التعويضات حصر المجموع الكلى للدين ، والواقع أن جملة ما دفعته ألمانيا خلال تاريخ التعويضات بأسره لم يتجاوز عشرين بليونا من الماركات ، ولم تدفع خلال الفترة المحددة سوى ثمانية بليون ماركا على سبيل الائتمان نظير صكوك أملاك حكومية ، ومن الناحية الفنية ، لم ينظر الى أى شيء منها على أنه ضمن التعويضات ، بعد أن التهمته المصاريف الأولية التهاما كاملا ، وعلى الأخص نفقات الاحتلال وتكاليف اعاشة الألمان الأسرى ، بيد أنه بمرور الزمان ، تزايد الاعتراف ضمنا ـ بالبلايين الثمانية كتعويضات •

وتقرر أن تدفع التعويضات على جملة أقساط ، فكانت هناك مبالغ تدفع نقدا من حين لآخر ، وأخرى تدفع « عينيا » عن طريق مواصلة شحن بعض السلع ، وعنيت عبارة « الدفع العينى » عند الألمان تسليم سلع مثل الفحم والخشب والأصباغ الكيماوية والعقاقير الطبية ، وفسرت عبارة أن تكون قيمة الشحن بالذهب على أنها تعنى الدفع بضمان فاتورة التعويضات الكلية المطلوبة من ألمانيا ، وباستثناء حالتين هما التعويضات الائتمانية التى تضمنت ممتلكات الدولة فى المناطق التى استولى عليها المنتصرون مثل مناجم الفحم باقليم السار وسكك حديد ألمانيا فى الأقاليم التى تم اقتطاعها من ألمانيا وضمت لبولاندة ، وباستثناء حالة الالزاس واللورين ، فان البلدان التى كانت تتبع ألمانيا قد نظر اليها على أنها جزء من ألمانيا الامبريالية ، وحملت نفقات الدين ، كما كان الحال فى أول أغسطس ١٩١٤ ، وأخيرا تضمنت التعويضات بعض مطالب لايتم الوفاء بها غير مرة واحدة • فلم تصرف تعويضات ائتمانية عن عودة نفائس الفن ، واكتفى بطلب ترميم مكتبة لوفان (*) المدمرة وروعى بالمثل خصم امدادات الدواجن والأدوات الزراعية وآلات المصانع ومواد البناء التى طلب تسليمها على سبيل التعويض عن عمليات الازالة الشاملة أثناء الانسحاب الألمانى ، من حساب التعويضات •

(*) Louvain

وتماثلت « فواتير » التعويضات فى معاهدتى النمســا والمجر فى الخطوط العريضة هى وتلك التى فرضت على ألمانيا ، فلم يذكر أيضــا مجموعها الكلى ، واحتسبت تكاليف تنفيذ معاهدتى الســلام كمصاريف أولية ومقابل للمدفوعات ولا تضاف لحسابات التعويضات ، ومع هذا فقد رئى منح ائتمانات للدفع الفورى ، والتسليم العينى ، ونقـل ملكيات الدولة ، بينما تقرر أن تتكبد الدول التى حلت محل الدول التى انتهى أمرها بعد الحرب ، مسئولية دفع حصص جوهرية من الدين المستحق على دولة النمسا والمجر قبل الحرب ، وحددت المعاهدة البلغارية مبلغا محددا سرعان ما روجع وتم تخفيضه ، وفى معاهدة سيفر ، التى لم يصـدق عليها ، خفض الدين المستحق على الأتراك تخفيضا حادا بعد مراعاة ضخامة حجم ما خسروه من أراض ، وفى معاهدة لوزان ، استبعد الدين استبعادا تاما ، وبلغت النمسا حدا من الفقر دفعها الى عدم دفع أية تعويضات اكتفاء بالتحويلات المستحقة نظــير الممتلكات المنقولة ، بينما لم تدفع المجـر الا القليل ، ولما بدا واضحا أن ألمانيا هى الدولة المهزومة الوحيدة القادرة على الدفع ، لذا تركزت المعركة على ارغام ألمانيا على دفع التعويضات

واحتدم الخلاف حول ائتمانات ممتلكات الدولة المنقولة ، وعمليات الشحن ، وان كانت المشــاحنات لم تتوقف حــول مختلف التعويضات الألمانية ، النقدية والعينية على الســواء ورغم حـدوث الكثير من الصعوبات فى شحن مواد الصــباغة ، الا أن معظم المشكلات لم تكن من صنع الألمان ، وفى هذا المقام ، ينبغى أن يصحح الاعتقاد الشائع فى هذا الشأن • فالحقيقة هى أن الولايات المتحدة كانت تطالب ألمانيا بما يقدر ببليون ونصف دولار أو قرابة ستة بلايين مارك ذهبى ، وأنهــا كانت تتلقى شحنات منتظمــة من مواد الصــباغة حتى وقت متــأخر ، يعنى حتى ١٩٢٢ ، ثم تخلت عن حقها فى الحصول على تعويضات عينية من مواد الصباغة • واذا جمعنا المطالب المختلطة للأشــخاص بصفتهم الفـردية وتكاليف احتلال الراين وتعويضات الحكومة سيبين أن الولايات المتحدة قد تلقت فى نهاية الأمر ماينوف عن ربعمائة مليون مارك ذهبى •

على أن مواد الصباغة كانت مشكلة جانبية ، كمــا كانت مسألة التعويضــات بالنسبة للولايات المتحدة مسألة هامشية ، وتركز الانتباه على الدفع نقدا ، وعن طريق أصناف كالفحم والخشب ، بينما كانت هذه المسألة تلقى أكبر عناية من قوى الحلفاء (فرنسا وبريطانيــا وايطاليــا وبلجيكا) ، وقد تلقت نصيب الأسد من هذه التعويضـــات ، وكانت مصاريف شحن الفحم أقل من الحصص المقررة من البـداية على وجه

التقريب ، واتفق المنتصرون في مؤتمر سبا (*) الذي عقد في يوليو ١٩٢٠ على دفع قسط تأمين يقدر بخمسة ماركات عن كل طن فحم ، وذكر في التبرير الرسمي لهذا الاجراء أنه لرفع مستوى تغذية عمال المناجم ، وتقديم قروض كبيرة لألمانيا لتيسير عمليات شحن الفحم ، غير أن هذه الحصص لم تنفذ • فقد نوقشت مسألة احتلال الحلفاء لحوض الروهر لارغام ألمانيا على الوفاء بالتزاماتها لأول مرة في مؤتمر لندن (مارس ١٩٢٠) وأعيد بحثها جديا في مؤتمر سبا ، ثم أثيرت المسألة بعد ذلك مرارا بعد أن تواصلت التجاوزات في المخطط الدائم الذى حل محل مشروع الاتفاقات الوقتية ١٩٢١ •

وبناء على ما طالبت به معاهدة فرساى ، أعلنت لجنة التعويضات في ٢٧ ابريل ١٩٢١ أن جملة المديونية الألمانية تقدر بمبلغ ١٣٢ بليون مارك ذهبي،ويعد هذا الرقم حلا وسطا اهتدى اليه البلجيكيون بين المجموع الفرنسي والمجموع الايطالى الأكبر الذى يطالب به الفرنسيون والمجموع الأدنى الذى قدره الانجليز ، ويمثل أدنى قدر يرضى به الرأى العام في الدول المستحقة للتعويضات ، وكانت الضغوط البريطانيـــة من أجل تخفيض المجموع الكلي للديون ، وتخفيض التعويضات الألمانية مستمدة من افتراض ارتكان استعادة الاقتصـــاد البريطاني انتعاشـــه على الرجوع السريع لأنماط التجارة التى كانت متبعة قبل الحرب ، والتى كانت تحتاج بدورها الى اعادة احياء فورية للاقتصاد الألماني • ولما كان الزعماء البريطانيون قد افترضوا أن أية مدفوعات المانية كبيرة لدفع التعويضات قد تلحق خسارة بالمنتجين البريطانيين ، لذا عارضوا أى ارغام على الوفاء بالمتطلبات الأساسية للتعويضات من ألمانيا •

ولقد ركز المؤرخون على الرقم ١٣٢ بليونا دون فحص لطبيعة القدرة على الوفـاء بتسديده • فلقد استودعت قائمـــة لندن للمدفوعات في ٥ مايو ١٩٢١ هذا المبلغ ، وقامت في ذات الوقت بالغاء وجوده ، وقدرت المديونية الكاملة لجميع القوى المركزية مجتمعة ـ وليس ألمانيا وحدها ـ بمقدار ١٣٢ بليون ماركا ذهبيا تحت العجز والزيادة ، وصنف القرض الألماني في ثلاث مجموعات من السندات « أ » و « ب » و « ج » • ومن بين هذه السندات ، كانت الســـندات « ج » التى ضمت الجزء الأكبر من الصكوك مصممة على نحو وهمي ؛ اذ كانت بعيدة تمـــاما عن الواقع ، ومهمتها الأولى هي تضليل الرأى العام في البلدان التى ستؤول اليها وايهامها بأن الرقم ١٣٢ بليونا متوافر عند الألمان • وكان خبراء الحلفاء

(*) SPA .

يعرفون أن ألمانيــا ليس بمقدورها دفــع ١٣٢ بليونــا مــن الماركات ، وان ما تستطيع باقى قوى وسط أوربا دفعه لا يتجاوز مبلغا اقل من ذلك بكثير ، وهكذا مثلت السندات أ ، ب ، جـ ــ التى كانت صحيحة ــ تقدير الحلفاء الفعلى لما بوسع ألمانيا دفعه • فكانت السندات « أ » والتى تقدر بمبلغ اثنتى عشر بليونا من الماركات الذهبية تمثل الرصيد المؤقت المقدر بعشرين بليونا ، بينما تقدر السندات « ب » بثمانية وثلاثين بليونا ، وهكذا مثلت السندات « أ » و « ب » جملة تعويضات المديونية الألمانية التى كان على ألمانيا مواجهتها (القيمة الاســـمية) بخمسين بليونــا من الماركات الذهبية ، أو ١٢٫٥ بليون دولار ، وهو مقدار أصغر من المقدار الذى عرضت ألمانيا دفعه • وتضمن جدول لندن أيضا اختلافات الدفع فى حالة استرجاع السندات أ و ب بعد سداد قيمتها ، وتتضمن جدولين بالحدود القصوى السنوية للحدود الثابتة والحدود المتغيرة •

وفى صيف ١٩٢١ ، واجهت ألمانيا أول عملية دفع فورى لمبلغ بليون مارك ذهبى كاملا ، ولقد نفذت هذه العملية ، لأن تقاضى رسوم الجمارك كان تحت أمرة الحلفاء كما كانت المنطقة المحيطة بمدينة دوسلدورف محتلة من قبلهم أيضــا • واتخذت هذه الاجراءات فى مارس ١٩٢١ ، أولا كمحاولة لحمل الألمان على دفع مبلغ مقبول ، واستمرت لارغام الألمان على قبول « جدولة » المدفوعات الذى وضعته لندن • وبعد الدفع النقدى الصورى ١٩٢١ ، أمسك الحلفاء عن تقاضى الرسوم الجمركية ، ولكنهم طالبوا دوسلدروف بها ، ثم دفعت ألمانيا بعد ذلك جزءا صغيرا جدا من المديونية المستحقة الدفع فى نوفمبر ١٩٢١ ، ومقادير صغيرة من الأقساط السنوية المستحقة فى أوائل ١٩٢٢ ، ولكنها لم تدفع أى شىء نقدا بعد ذلك حتى بدأت خطة « دوز » فى وقت متأخر ١٩٢٤ • وخلال ١٩٢٢ ، استمر الدفع العينى ، وان لم يكن كاملا البتة ، بينما أجريت شتى الحيل لاصدار سندات كبديل للدفع النقدى ، ومع هذا فقد تحدد موعد انهــاء هذه الاجراءات الخاصة بالسداد الوقتى بنهاية ١٩٢٢ ، ورئى بعــدها اما أن تفرض خطة جديدة للتعويضات أو تضطر لندن بموجب ما جاء فى جدولها إلى فرض مطالبها بالقوة •

وفى صيف ١٩٢٢ ، بدا واضحا استحالة استعادة ما ورد فى جدول لندن ــ والذى كان معلقا بالفعل ــ غير أنه لم يحدث أى اتفاق على ما يتعين القيام به • وانخفض حين ذاك سعر العملة الألمانية انخفاضا حادا ، وبدأ هذا التدهور فى سعر العملة أثناء الحرب العالمية الأولى • واستمر فى خطوات شاردة ، واقترنت الحدود القصوى للتعويضات بالترنح المذهل لتضخم

المارك ، وأرجع الألمان ما حل بعملتهم الى تأثير التعويضات ، بينما اتفق الخبراء البريطانيون والفرنسيون على ادانة ألمانيا لتحطيمها المارك عمدا تجنبا لاحداث اصلاحات فى الموازنة والنقد ، والأهم من ذلك لتجنبها دفع التعويضات ، وأصاب خبراء الاتفـاق الودى فى هذه الناحيـة وجه الحقيقة • أما المؤرخون الذين قبلوا الزعم الالمانى بأن التعويضات كانت سببا لحدوث التضخم ، فقد تناسوا أن التضخم قد سـبق التعويضات زمنيا ، وتناسوا بالمثل أن التضخم قد انتشر فى الحقبة الواقعـة بين صيف ١٩٢١ ونهاية ١٩٢٢ ، عندما كانت ألمانيا قائمة بالفعل بدفع القليل من التعويضات • ولقد أخفقوا أيضا فى تفسير لماذا توافقت الفترة التى انخفض فيها التضخم هى وفترة دفع أكبر قدر من التعويضات فى أواخر عشرينات القرن العشرين ، ولماذا زعـم الألمان بعـد ١٩٢٠ ، أن هذه التعويضات هى التى أحدثت التضخم ، وليس من شـك أن ارتيـاب البريطانيين والفرنسيين فى أواخر ١٩٢٢ كان له ما يبرره ، اذ يبين من الرجوع إلى محفوظات مستشارية الرايخ أن زعماء ألمانيا ١٩٢٢ و ١٩٢٣ قد اختاروا تأجيل الاصلاحات الضريبية واجراءات تثبيت العملة ، يحدوهم الأمل فى الحصول على تخفيضات جوهرية فى التعويضات •

على أن « الاتفاق الودى » على الوقائع لم يعد بأى حلول ، بعد أن استخلص الفرنسيون والانجليز نتائج سـياسية متعارضـة من نفس التقديرات ، اذ رأى البريطانيون أنه لما كانت ألمانيا قد نجحت فى تحطيم عملتها ، لذا يتوجب منحها حق عدم الدفع لمدة أربع سنوات كاملة لجميع المبالغ المدفوعة كتعويضات لتيسير عملية اعادة اصلاح موازنتها المالية ، بينما اعترض الفرنسيون على منح فترة « موراتوريوم » طويلة ، كأنهـا مكافأة على سوء السير والسلوك ، وأصرت على قيام الحلفاء بمصادرة كل شىء كالمناجم أو الغابات المملوكة للدولة ، ورسوم الجمارك أو أى شىء من هذا القبيل ، كضمان مدر للدخل يساعد على استئناف الدفع فى آخـر الأمر • وعارض البريطانيون الاستيلاء على « الضمانات الانتاجيـة » متذرعين بأن أى ارغام قد يساعد على تحطيم محاولة عودة الألمـان لسابق عهـدهم • بينما رأى الفرنسيون أن أى موراتدريوم سيبدر منهم معناه نهاية التعويضات • وابان الجزء الأخير من ١٩٢٢ ، لم تهتـد لجنـة التعويضات ولا مؤتمرات الحلفاء الى أى حلول وسط •

وتصاعد التوتر فى ديسمبر ١٩٢٢ عندما أعلنت لجنة التعويضات وبعد تأييد ثلاثة أعضاء واعتراض عضو واحد هو (انجلترا) تقصـير ألمانيا فى توريد الأخشاب ، ولم يحدث أى اختلاف حول ما حـدث من تقصـير أو أبعـاده •• وعلى عكس ما تردد فى الخرافة التاريخيـة » فان

التقصير فى توريد الأخشاب كان عملا جسيما ، حتى وبالرغم من أن حصص الخشب قد روجعت فى كثير من الفئات على أدنى العروض المقدمة من الألمان ، ولم يحدث خلاف أيضا حول تفسير أسباب القصور ، الذى دل على وجود سوء نية عند الألمان • غير أن بريطانيا عارضت اعلان التقصير خشية أن يؤدى الاعلان الى اندلاع الحرب • وكان الاجراء المجدى الوحيد « للاتفاق الودى » احتلال حوض الروهر ، والذى عارضته بريطانيا معارضة شديدة عندما اقترب موعد تنفيذه • وبينما لم يتخذ أى اجراء فعل لمواجهة القصور فى عملية توريد الألمان للاخشاب ، الا أن اعلانه اثار مظاهرات حماسية حول الاعلان الرسمى عن حدوث قصور فى الوفاء بتوريد الفحم فى يناير ، بعد أن نفد صبر فرنسا ، وصمم الزعماء الفرنسيون على اعتبار عملية تكرار التقصير عن توريد الفحم مبررا للارغام على تنفيذ معاهدة فرساى بحذافيرها • وكانت حصص الفحم تسلم شهريا • ووفت ألمانيا بوعدها فى يناير وأكتوبر ١٩٢٠ ، ولكنها فيما عدا ذلك قصرت بانتظام ، فكانت تسلم هذه الحصص بمقادير متفاوتة بالرغم من المراجعات التى أسفرت عن اجراء تخفيضات عديدة فى الحصص المقررة ، وبخاصة بعد أن فقدت ألمانيا حقول الفحم فى شيليزيا • لذا بلغ عدد مرات التقصير فى تسليم الفحم فى بحر ستة وثلاثين شهرا (فى يناير ١٩٢٢) ٣٤ مرة •

وفى يناير ١٩٢٣ ، التقت دول « الاتفاق الودى » فى باريس ، وقدمت كل بلد ــ ماعدا بلجيكا ــ مخططا ونشرته على الفور ، وبذلك أشعلت حماسة الرأى العام فى كل مكان • وجاءت الخطة الألمانية ــ التى قدمت ميثاقا لأرض الراين حجبت به ميثاق لوكارنو ــ محاولة غير ناجحة للالهاء عن تقصير ألمانيا فى دفع التعويضات • وطالب مخططا فرنسا وايطاليا بتوقيع عقوبات اقتصادية محدودة ، وباقامة وحدة تستند الى « الاتفاق الودى » ، بالرغم من أن فرنسا قد أعلنت أنه فى غيبة أى اتحاد كامل ، فانها ستتخذ خطوات شديدة • واستبعد الانجليز المخططين جانبا ، وأصروا على اعتبار مشروعهم الأساسى المشروع الأوحد الذى يصلح قاعدة للتباحث • وقبل رئيس الوزراء البريطانى الجديد أندرو بونارلو الذى كان مريضا وعديم الخبرة بالعقوبات وغارقا لأذنه فى السياسة الداخلية والأزمة التركية ، قبل خطة جون براد بيرى المفوض البريطانى فى لجنة التعويضات • وكان هذا المشروع مجرد صورة أخرى من مشروع آخر سبق أن رفضته فرنسا ، ووصفه الألمان بأنه « متعذر التنفيذ » • وكان معقدا لدرجة يتعذر فهمها ، مما دفع كارل برجمان الخبير الألمانى الى التململ والقول بأنه يفضل دفع التعويضات

على قدح زناد فكره لفهم مشروع براد بيرى • وكان من بين ملامحه غير المستساغة الأخرى امكان قضىء المشروع البريطانى على جميع المنافع التى ستجنيها بلجيكا من التعويضات ، بعد أن منح ألمانيا حق الامتناع عن الدفع نقدا وعينيا لمدة أربع سنوات (أى ضعف ما طلبته فى ديسمبر) دون الاستناد الى أية ضمانات انتاجية ، ومطالبته بالالغاء الصريح للسندات « جـ » (وهو اجراء صعب التنفيذ من الناحيــة السياسية) ، وانقاص عــدد أفراد هيئــة التعويضات ، واعادة تشكيلها لانهـــاء غلبة الفرنسيين فيها ، ومنح الانجليز حق املاء سياسة اتفاق الجنتلمان فى التعويضات غير الألمانية • ولما كانت هذه الخطـــة قدعنت فى نهـــاية الأمر تصفية التعويضات ، لذا لم يكن بمقدور ساسة أوربا قبولها ، واســــتمرار بقائهم فى مناصبهم ، ولم يقرها أحد ، وفشل المؤتمر •

وفى ٩ يناير ١٩٢٣ ، أعلنت بعثة التعويضات حدوث تقصـــير فى تســليم الفحــم (وكانت نتيجة التصويت ٣ : ١) وصممت فى نفس الاقتراع على احتلال حوض الروهر • وفى ١١ ينـــاير ، دخل الفرنسيون والبلجيك والايطاليون حوض الروهر للحصول على الفحــم مصحوبين ببعض قوات الطوارىء من الفرنسيين والانجليز ، ووقفت انجلترا موقف المتفرج ، ورفضت الاحتلال بوصفه لاأخلاقيا وغير مشروع ، ولكنها قدمت بعض التفسيرات المتعارضة هى وهذا الرفض عندما وافقت على استعمال خطوط السكك الحديدية الانجليزية فى أرض الراين•وبينما اعتمدت وجهة نظرها على أسس أخلاقية فى أغلب الظن ، فان الرأى القانونى الانجليزى قد اســتند أكثر من ذلك على تفســير بعض الزعمـــاء الانجليز لمعاهدة فرساى أكثر من اعتماده على ما قالته بالفعل ، وعلى الرغم من عدم امكان وضع القرارات موضع التنفيذ لاستحالة تحقيق اجماع فى الرأى بين وفد التعويضات ، الا أن أية قراءة دقيقة لمعاهدة فرساى تبين شدة اعتماد نظرة الانجليز على أساس مشروع •

ولما كانت المقاومة السلبية الألمانية لاحتــلال حوض الروهر قد تصاعدت وتحولت الى عملية حربية رئيسية ، لذا رفضت بريطانيـــا الانحياز الى أى طرف ، ومن ثم طالت الأزمة وأوغرت صـــدر الطرفين • وخشى بونارلو (رئيس وزراء بريطانيا) حدوث فجوة فى العلاقات مع فرنسا ، ورفض الاعتراف بوصول هذه القوات • ولما كان قد رغب فوق كل شىء آخر عدم وصول الخلاف الى حد الشقاق وتعذر رأب الصدع ، لذا لم يتخذ أى قرار لصالح أى طرف من الطرفين • كما أنه فشل فى فهم وجهة نظر رئيس الوزراء الفرنسى المسيو ريمون بوانكاريه ، وتجاهل بونارلو القرائن التى بينت سعى بوانكاريه لتجنب مثل هذه الخطوة

الشديدة الوطأة . ولم يدرك قط أنه بالاشتراك مع اليمين الفرنسى ، وبخاصة الكسندر ميراند (*) فانه قد أرغم بوانكاريه على دخول حوض الروهر بأن رفض الحلول الأكثر اعتدالا . وبمجرد اتخاذ الخطوه ، ادرك بوانكاريه أن فرنسا قد نعبت آخر ورقة فى جعبتها ، وانه من الواجب أن تربح ، لأن البديل سيكون هزيمة ساحقة ، اذ كانت فرنسا اضعف فطريا من ألمانيا ، كما يبين من اخفاقها الفعلى ارغام الألمان على تسليم مجرمى الحرب المزعومين والحصول على قبول ألمانيا للممرات العسكرية من المعاهدة ، أو الحصول على أى مشاركة فعالة فى عمليات التعمير المكلفة للمناطق المهدمة فى فرنسا . ولو أن ألمانيا لم تدفع التعويضات ، وخففت بعض الأعباء عن فرنسا ، لأدى تفوقها الاقتصادى الكامن ، بالاضافة الى ما حدث من تضعضع متزايد لمعاهدة فرساى الى قلب ميزان القوى رأسا على عقب . وعندما طبق بوانكاريه العقوبات على ألمانيا فى آخر المطاف ، واحتل حوض الروهر ، فانه كان يقوم بمحاولة أخيرة لارغام ألمانيا على الاعتراف بهزيمتها فى الحرب العالمية الأولى وقبولها معاهدة فرساى ، وكان يدرك تمام الادراك أن المشكلات الأساسية لاتنصب على الفحم والخشب ، ولكنها تخص بالأحرى استمرار سريان المعاهدة وانتصار فرنسا فى الحرب ، ولم يدرك الانجليز البتة انهم يشاهدون امتدادا للحرب العالمية الأولى ، ولما كانوا لم يدركوا المشكلات الأساسية ، ولم يدركوا أيضا حاجة فرنسا الحقيقية للفحم ، والمال ، لذا لم يتمكنوا من تفسير لماذا طار صواب بوانكاريه ، وتجهم ، عندما تخاذلت ايطاليا وبلجيكا .

وأعلن البريطانيون الذين كسبوا معركة الدعاية ـ كما لايخفى ـ أن احتلال حوض الروهر عملية غير مربحة ، ووقعوا فى ضلال عندما قارنوا ايرادات حوض الروهر بجدول لندن للمدفوعات ، وتجاهلوا أن جدول لندن قد ولى عهده ، ولم يعد بالامكان احياؤه ثانية ، وأن الاختيار الذى أصبح ميسورا لهم الآن هو بين ايرادات الروهر أو لا شىء ، والواقع أن احتلال الروهر عملية مربحة ، حققت ربحا متواضعا فى البداية ، ولكنها حققت أرباحا طائلة بعد مقاومة سالبة . فبعد استبعاد المصاريف وتكاليف احتلال أرض الراين ، يتضح أن ما حصلت عليه القوى الثلاث المشتركة والولايات المتحدة صافيا من حوض الروهر قد بلغ حوالى تسعمائة مليون ماركا ذهبيا .

(*) Etienne Alexandre Millerand. (١٨٥٩ ـ ١٩٤٣) سياسى ومحامى فرنسى .

واستفاد آخرون أيضا . فلما كانت الحكومة الألمانية قد مولت المقاومة السلبية من خزانة خاوية ، لذا بلغ المارك حد الخراب ، وكان التضخم الخرافي الذى نجم عن ذلك من نتائج السياسة الألمانية ، ولم يكن نتيجة للاحتلال بالذات ، ويسر التضخم للحكومة الألمانية دفع ديونها الداخلية ، بما فى ذلك قروض الحرب ومشروعات الدولة مقابل ماركات لا قيمة لها . وكسب بعض أشخاص معروفون من رجال الصناعة المقربين من مجلس الوزراء الألمانى أرباحا طائلة أيضا ، واستفاد الاقتصاد البريطانى المعتل كذلك بدرجة كبيرة من تفسخ الصادرات الألمانية ، وان كان المسئولون الرسميون البريطانيون لايعترفون قط بهذه الحقيقة ، حتى بينهم وبين أنفسهم . فلما كانوا مقتنعين بأن بياناتهم الاقتصادية لا تتصل بأية صلة بالحادثة الشريرة (يعنى معاهدة فرساى) لذا لم يتوقفوا أبدا عن الدعوة لحل الأزمة .

غير أن دعواتهم قد أصبحت ضرورية بعد أن ألف جوستاف اشترزمان حكومة جديدة ، وتخلى عن المقاومة السلبية فى سبتمبر ١٩٢٣، وما لبث أن أنهى التضخم . وبات وضع تخطيط جديد للتعويضات أمرا ضروريا الى جانب اعادة بناء السياسة المالية الألمانية ، ووضع مشروع لانتزاع حوض الروهر من أيدى فرنسا وبلجيكا ، وما لبثت قوى أخرى أن شاركت لتخفيف وطأة الدمار الذى حل بألمانيا ، وشيئا فشيئا ألفت فرنسا نفسها منعزلة ، وساعد هبوط قيمة الفرنك على زيادة وهن مركزها الدبلوماسى ، وعندما أوضح الرئيس كالفن كوليدج (*) أنه بالمقدور اشتراك الخبراء الأمريكان بالمساعدة كمواطنين بصفتهم الشخصية لوضع خطة جديدة للتعويضات حتى تتيسر المشاركة الأساسية للمصارف الأمريكية ، كان لابد أن يحدث قدر معين من رد الفعل لذلك ، وحاول بوانكاريه تعطيل تنفيذ هذه الفكرة ، وتمكن من اتخاذ الاجراء ، لكنه لم يكن قادرا على الحيلولة دون وقوع ذلك ، وهكذا بدأت لجنة « دوز » العمل فى يناير ١٩٢٤ ، ودلت وأثبتت جهودها أنه بينما يصح القول بأن بوانكاريه قد كسب الحرب ، الا أنه قد خسر السلام .

وعملت خطة دوز فى ٩ ابريل فى مستويين ، وتدين تفاصيلها التقنية الدقيقة بالكثير للدراسات البلجيكية (**) فى ١١ يونيو ١٩٢٣ ، التى أجريت عن المصادر المحتملة لايرادات التعويضات ، بينما تعد التسوية السياسية — أساسا — والتي احتوت على فقرات غامضة متعمدة

(*) Calvin Colidge.

(**) Etudes.

من وضع خبير أمريكي (أوين • د • يونج) • وعلى الرغم من أن لجنة دوز قد بينت أن مشكلة احتلال الروهر خارجة عن نطاق جدول أعمالها ، الا أنها قد احتوت ـ ضمنا ـ على اقتراح بالانهاء الفورى للاحتلال الاقتصادى ، وتخفيف الاحتلال العسكرى ، بحيث يقتصر على قوة رمزية (لانقاذ ماء وجه الفرنسيين) • وطالبت الخطة باعادة تنظيم كاملة للمالية الألمانية ، على أن تخضع للاشراف الخارجي ، وتقديم قرض كبير لألمانيا ، وتعيين مفوض عام للتعويضات فى برلين للاشراف على التنظيمات الاشرافية المعقدة ، وطالبت الخطة بزيادة الايرادات حتى تتمكن من دفع التعويضات، مع رهن الصناعة الألمانية وسكك حديد الدولة ، وعودة الحكومة الألمانية للاقتراض من الداخل ، وفرض ضرائب كاسحة لانهاء الانحراف (وانتهاكات معاهدة فرساى) كما يبين من فرط تدنى معدل الضرائب فى ألمانيا بالمقارنة بما يماثلها فى الدول المنتصرة•وبينما أثبتت بعض البيانات عكس ذلك ، الا أن الواقع قد أثبت أن ادماج تكاليف الاحتلال ونفقات البعثة وجميع المصاريف السابقة الأخرى تحت اسم التعويضات الألمانية السنوية قد خفض من المجموع الكلى لهذه التعويضات ، بالرغم من أن حجم التخفيض لم يعد واضحا ، وأن مدة سريان الخطة لم تتحدد ، وطلب من ألمانيا دفع بليون مارك فى السنة الأولى ، من القرض الدولى أساسا ، ويزداد مقدار المبلغ المحصل بعد ثلاث سنوات ، ويدفع مليونان ونصف المليون ماركا ذهبيا لمدة سنة ، وفيما بعد يطلب من ألمانيا دفع بليونين ونصف البليون ماركا مضافا اليها نسبة مئوية تتحدد بالرجوع الى دليل معقد يسترشد منه على مدى وفاء الألمان بعهودهم •

أما مسألة المطالبة بفرض ضريبة مكافئة فى مخطط دوز ، فكانت عملا سياسيا خداعا على غرار ما حدث فى سندات « ج » فى جدول لندن، ولم تفرض معدلات ضريبية مكافئة للمعدلات السارية فى البلدان المنتصرة لأن الخبير البريطانى الرائد سيرجوشيا ستامب قدر احتمال تحقيق مثل هذه المعدلات فائضا يمكن الانتفاع به فى التعويضات مقداره أربعة ملايين مارك ونصف فى السنة ، ورأى أن هذا المقدار يفوق ما بالامكان تحويله ، وكانت مشكلة التحويل (يعنى الصعوبات المتضمنة فى تحويل موارد حقيقية من بلد لآخر ، أو بمعنى أصح لتحويل الثروة الألمانية الى عملة أجنبية للتعويضات دون حط من قيمة المارك) مشكلة ابتلى بها تاريخ التعويضات ، وساعدت على الحيلولة دون دفعها ، وبوجه عام ، لقد لاذ بالصمت فيما يتعلق بالاستثمار على نطاق واسع لرأس المال الأجنبى فى ألمانيا قبل التفجر الذى حدث اثر احتلال حوض الروهر وبعده ، ممن تشددوا لأسباب سياسية ورأوا ضرورة اقامة العراقيل أمام تحويل

التعويضات . اذ كان هذا الاستثمار يمثل تحويلا لأموال حقيقية فقدها المستثمرون الأجانب بعد أن استفحل التضخم أو الامتناع عن تسديد ديون التعويضات ، وقد تزودت منها ألمانيا بعملة أجنبية لدفع التعويضات ، أما مدفوعات الألمان ذاتها ، فان صعوبات التحويل التى ظهرت عند دفع البليون الأول (١٩٢١) ، والتى مثلت المدفوعات الأولى التى لها قيمة قبل أن يسرى مفعول مخطط دوز ، فقد كانت مدفوعة الى حد كبير من ألمانيا كمحاولة للتهرب من التعويضات . وفى أواخر عهد التعويضات ، بعد تخفيض المدفوعات ، بناء على ما ورد فى خطة يونج ، فان التحويلات لم تحدث أية مشكلة ، فطبقا لما جاء فى خطة دوز ذاتها ، فقد تحققت الحماية ضد الصعوبات المحتملة للتحويلات ، بعد أن تحدث قيام ألمانيا بدفع التعويضات فى بنك الرايخ الألمانى الجديد ، وتفويض لجنة تحويلات الحلفاء التى يرأسها المفوض العام الأمريكى للتعويضات بتقرير الموعد الذى يستطاع فيه اجراء التحويلات بطريقة آمنة .

وعندما صدرت خطة دوز فى ابريل ١٩٢٤ ، أجمعت البلدان المعنية على عدم التحمس لها لأسباب شتى ، وان كانت كل بلد من هذه البلدان قد قبلتها لعدم عثورها على بديل لها . وبقيت معلقة مسائل آليات تطبيقها ، واعادة تكوين لجنة التعويضات ، والترتيبات لاجلاء فرنسا عن حوض الروهر . ولم يبت فى هذه المسائل الا فى مؤتمر لندن فى يوليو وأغسطس ١٩٢٤ . ويعد القرار الذى اتخذ حين ذاك انتصارا شخصيا للمستر رامزاى ماكدونالد رئيس الوزراء البريطانى ، الذى يستأهل التقدير لأنه أرضى زملاءه المتبرمين ودفعهم الى قبول حل وسط ، وان كان افتقار الوزير الأول الفرنسى ادوارد هريو للخبرة هو الذى ساعد على تيسير مهمة ماكدونالد . ومع هذا فقد حدثت ضغوط حاسمة من وراء الستار قام بها ممثلو شركة ب . مورجان التى كان رضاؤها ضروريا لدفع قرض كبير لألمانيا كما نصت خطة دوز ، وفضلا عن ذلك ، فقد واصل الفرنك الفرنسى الهبوط ، واحتاجت فرنسا ــ بالحاح ــ الى قروض من المصارف الأمريكية ، كما احتاجت لموافقة مورجان . وهكذا اضطرت فرنسا لقبول المشروع النهائى بالرغم من أن وكلاء شركة مورجان طالبوا ببعض التدابير التى تضعب توقيع أية عقوبات مستقبلا ، فى حالة التقصير، لأن القروض الأمريكية كانت ستمتد ٢٥ سنة ، بغض النظر عما يحدث فى أمر التعويضات . وأرغمت الأزمة المالية والعزلة الدبلوماسية فرنسا على ابتلاع أى شروط غير مستساغة . وكما لاحظ احد الانجليز المتبصرين : « لقد بدا مؤتمر لندن لرجل الشارع الفرنسى استعراضا حافلا للتخلى عن النفائس التى كان يعتز بها » ، فقد رأى كيف تخلى

المسيو هريو عن المقتنيات التى حققت الغلبة للفرنسيين فى لجنة التعويضات ، الواحدة تلو الأخرى ، كحق توقيع العقوبات فى حالة حدوث تقصير من الألمان ، والاحتلال الاقتصادى لحوض الروهر ، وخطوط السكك الحديدية الفرنسية البلجيكية . وأخيرا الاحتلال العسكرى لحوض الروهر فى بحر سنة واحدة .. » .

وبفضل خطة دوز ، تمكنت ألمانيا دوما من مواجهة التزاماتها بالكامل تقريبا . ويرجع الفضل فى ذلك الى حد كبير الى سيل القروض الأجنبية التى تساوت على أقل تقدير هى والمبالغ المالية التى دفعت من قبيل التعويضات ، وكان يحدث فى كل سنة تقصير حين يحتمل أن لا يكون متماشيا والقيم الأخلاقية ، ولكنه لم يرتفع الى درجة تثير الاهتزاز . غير أن ألمانيا نظرت دائما الى الخطة على أنها اجراء مؤقت ـ كما لاحظ الفرنسيون ـ وكانت تأمل فى مراجعتها قبل أن يصبح الدفع ملزما . وبعد أن طالب المفوض العام للتعويضات بمشروع أكثر استمرارية فى أواخر ١٩٢٧ ، قدمت ألمانيا انتقادا لهذا المشروع ١٩٢٨ ، أى عندما اقترب موعد دفع القسط المقرر وقدره ملياران ونصف المليار من الماركات، وفضلا عن ذلك،ففى بواكير ١٩٢٨ طالب اشترزمان صراحة بالاخلاء الفورى غير المشروط لحوض الراين ، ولما أحس زعماء فرنسا ـ بعد أن أصابتهم الأزمة المالية بلطمة قوية (١٩٢٦) ولشعورهم بأن المساومة على اخلاء حوض الراين قد ضعف أثرها ـ بعد أن اقترب الموعد المحدد فى المعاهدة للانسحاب ـ قرروا الانتفاع بالمبادرة بانسحاب القوات العسكرية الفرنسية ، وتأمين موقفهم المالى . وهكذا طالب المشروع المقدم لاجتماع جنيف الذى حضرته بعض البلدان لتوقيع ميثاق التفاهم مع الألمان بوضع خطة دائمة للتعويضات النهائية ، وطالب أيضا بالإخلاء المبكر للراين ، وتعيين لجنة لتقصى الحقائق تتولى عمليات التفتيش المستمرة للمنطقة المنزوعة السلاح .

ولما كانت خطة التعويضات هى أعقد عناصر الصفقة ، لذا رئى البدء بالنظر فيها . وبناء على ذلك اقترحت اللجنة التى رأسها أوين يونج اعداد خطة جديدة فى ربيع ١٩٢٩ كمحاولة « للتصفية النهائية لآثار الحرب ، وتسوية مسائل ما بعد الحرب » . ونصت الخطة على أن تتولى ألمانيا دفع أقساط سنوية بمقادير متفاوتة ، تقل جميعها عن الرقم السابق اقراره فى خطة دوز (٢½ بليون مارك) لمدة ٥٩ سنة ، وهى المدة المحددة لدين الحلفاء لأمريكا ، وتشتمل هذه الأقساط على جميع المصاريف بما فى ذلك خدمات قرض دوز ، وراعت الخطة تحديد مبلغ ٦٦٠ مليون مارك (نحو الثلث بوجه عام من كل قسط

سنوى) يدفع دون قيد أو شرط ، ويؤجل الباقى فى حـالات الضيق الاقتصادى والمالى • وساعدت هذه الوسيلة على سد الفجوة بين توقعات (ميثاق التفاهم) ورؤيا ألمانيـا لما هى قادرة على سداده ، ولم يلتفت لمطالبة الفرنسيين بتأمين حصـولهم على استحقاقاتهم ، واكتفى بمنحهم خمسة أسداس أقساطهم السنوية غير المشروطة • وفضلا عن ذلك ، فقد نجحت ألمانيـا فى تخفيض الأقسـاط السنوية للسنوات العشر الأولى الى ما هو أقل من بليـونى مارك ، اذ كانت تتوقع فى هـذه الأثناء اما الغاء التعويضات نهائيا ، أو اجراء تخفيض آخر خلال هذه الفترة ، وأخيرا حدثت محاولة للنظر الى مشكلة التعويضات على أساس تجـارى صرف ، بعد أن خفت حدة حماية التحويلات بقدر جوهرى ، وألغيت لجنة التعويضات ، وهيئة الاشراف الخاصة « بدور » الغاء تاما ، وحل محلها مصرف التسويات الدولية فى مدينة بازل بسويسرا لتلقى التعويضات وتوزيعها ، بالاضافة الى الاضطلاع بدور وكالة للتعـاون بين المصارف المركزية ، وكانت الحاجة ماسة لوجود مثل هذه الهيئة ، ومازال البنك موجودا كتذكار أثرى لقضية التعويضات ، ويضطلع بثانى الأدوار التى أشرنا اليها •

وانشغل مؤتمر هيج الأول بتطبيق خطة يونج فى أغسطس ١٩٢٩ـ الى حد كبير ـ بنزاع دول « التفاهم » حول توزيع الحصص المتلقاة ، وبالمسائل السياسية المتعلقة بهذه الناحية • وكان ما أغرى اشترزمان ـ الذى هدفت غاياته الى « اخلاء حوض الراين دون قيد أو شرط » استنادا الى شرط آخر وهو اجـراء تخفيض آخـر فى مدفوعات التعويضات ـ هو تأليف وزارة عماليـة جديدة فى انجلترا ، التى نجحت فى مسعاها الحصول على نصيب الأسد من الأقسـاط السنوية المشروطة ، والتى أعلنت احتمال انسحاب القوات البريطانية من الراين قبـل حـلول عيد الميلاد ، ولم تظهر الا القليل من الاهتمام بأمن فرنسـا • وهكذا اضطرت فرنسا الى التخلى عن بعثة تقصى الحقائق وتقديم موعد انسحابها من حوض الراين ، حتى يتسنى لها كسب التسوية المخفضة للتعويضات والتى يفترض أنها دائمة • وعلى الرغم من اتخـاذ بعض القـرارات الأساسية فى شهر أغسطس ، الا أنه بات من الضرورى عقد مؤتمر ثان بهيج فى يناير ١٩٣٠ لحسم الأمور ، ووضع تسوية شاملة لتعويضات البلدان غير الألمانية • وفى هـذه الأثنـاء ، اشتدت حدة العداء لخطة يونج بألمانيا ، وقد عبر عن ذلك الاستفتاء الذى جرى فى ديسمبر ١٩٣٠ ، والذى استغله أدولف هتلر للفت الأنظار اليه ، واثارة انتبـاه الكافة •

وكسب هتلر بفضله تمويلا قيما من معسكر اليمين • وفيما بعد ، أعلن ٥ر٨ مليونا من الناخبين معارضتهم لخطة يونج • وعلى الرغم من أن هذا الاجراء قد أثار التساؤلات حول النوايا الطيبة لألمانيا مستقبلا ـ والتى تعد الضمان الوحيد لتنفيذ الخطة ـ الا أنه لم يلغ التصديق الألمانى على الخطة ، التى كانت مصممة بحيث يبدأ تنفيذها فى أول سبتمبر ١٩٢٩ ، ولكن تنفيذها بدأ بأثر رجعى ، فكانت ألمانيا تدفع أقل من نصف ما هو مستحق عليهـا تبعـا لخطة دوز ، وكوفئت نظير قبولها هذا التخفيض باخلاء الراين فى ٣٠ يونيو ١٩٣٠ •

وعندما انزلقت ألمانيا الى الأزمة الاقتصادية الحادة التى جاءت فى أعقاب انتخابات سبتمبر ١٩٣٠ ، عكف الزعمـاء الألمان على الحصول على الاعفاء من دفع التعويضات ، بالرغم من أن الأزمة المبدئية للائتمانات ذاتها ترجع أساسا الى الهروب الدرامى لرأس المال كرد فعل لنجاح هتلر فى الانتخابات ، ولكنها لاترجع الى التعويضات • ولما كان الفرنسيون قد تصدوا لهذا الاجراء بوضع شروط سياسية ، وبخاصة فيما يتعلق باقتراح انشـــاء جمرك بمستوى ألمانى ، لذا انتهى الأمر الى التعرض لمأزق نجح الرئيس هربرت هوفر فى التغلب عليه عنـــدما اقترح فجـــأة اعلان الموراتوريوم لمدة سنة تبدأ بأول يوليو ١٩٣١ على القروض التى تجرى داخل الحكومة • ويمثل هذا التوقف عن الدفع رد فعـــل المستثمرين الأمريكان لمواجهة الموقف المتدهور فى ألمانيا ، وقصد به ضـــمان تأمين الاستثمارات الخاصة التى كانت معفة من الموراتوريوم بصفة خاصـــة • قصارى القول ، فبالنسبة للبلدان الدائنة ، بما فى ذلك أمريـكا ، رئى وضع الاستثمارات الخاصة فى صدر الحسابات العامة •

وأدركت فرنســا ، التى كان من المتوقع أن تعانى خسارة فادحة من جراء تنفيذ المشروع ، أن التعويضات بمجرد وقفها ، فانها لن تستأنف• وبالاضافة الى ذلك ، فانها كانت تأمل الحصول على موراتوريوم (توقف) سياسى عن مراجعة المعاهدة ، أى وقف اعادة تسليح الأسطول الألمانى ، واقامة الاتحاد الجمركى فى مقابل التوقف عن دفع التعويضات ، وكما هو متوقع ، احتجت فرنسا على اقتراح هوفر ، ولاحظت أن مشكلة ألمانيا هى الدين ، وليست التعويضات ، وأنه حتى فى حالة وجود التعويضات ، فان الميزانية الألمانية بمقدورها تحقيق التوازن المنشود بعكس ميزانيات معظم البلدان الأوربية • فمن المؤكد أن باستطاعتها دفع أقساط سنوية غير مشروطة • وكانت ألمانيا تتوقع بحق دفع مثل هذا المبلغ الكبير • فقد سلمت وزارة المالية البريطانية بتمتع ألمانيا بهذه القدرة ، ولكنها أصرت

على القول بأن المستثمرين لن يرضوا بما هو أقل من « الموراتوريوم » ، بعد شعورهم بالانزعاج ، ولانقاذ ماء وجه فرنسا ، وللحفاظ على الخرافة العشوائية عن استمرار الدفع ، أصدرت ألمانيا صكوكا تنص على امكان دفعها التعويضات لنفسها ، وبذلك أصبح الموراتوريوم سارى المفعول ٠

وخلال السنة التى أعلن فيها هوفر الموراتوريوم ، تفاقم الكساد العالمى ، ولما اكتشف هوفر انه من المستحيل سياسيا اعادة تحديد الموراتوريوم فى سنة الانتخابات الأمريكية ، دعت بريطانيا وفرنسا فى وقت متأخر دول اتفاقية التفاهم هي وألمانيا للالتقاء فى لوزان فى يونيو ١٩٣٢ لوضع تسوية دائمة ، أما ما قاموا بانجازه فكان أغرب من الخيال ٠ اذ طلب من ألمانيا مقدارا من المال كمدفوعات تقدر بثلاثة بلايين مارك ذهبى ، بعد التصديق على الاتفاقية ، التى لم يصدق عليها قط ، لأن المستفيدين الرئيسيين الأربعة وقعوا اتفاقا بعدم اجراء ذلك ، الى أن يتم الحصول على قرض الغوث من أمريكا ، وعرف أن هذا المطلب متعذر التحقيق ، وبذلك أصبحت اتفاقية لوزان حبرا على ورق ، وفيما بعد ، طغت الأحداث على مسألة التعويضات ، بعد أن بدا واضحا للجميع عدم جدوى دعوة هتلر لمناقشة مسألة المدفوعات ٠ ولم يتم الغاء التعويضات رسميا قط ، ولكنها انطوت فى زوايا النسيان ، بعد أن تزايد النظر اليها على أنها مسألة بعيدة عن الواقع ٠

وبعد معاهدة لوزان ، لاقت التعويضات حتفها ، وان ظلت المشكلات التى صممت لحلها باقية ٠ وجاءت النتيجة النهائية لاخفاق الألمان فى دفع التعويضات بمقادير لا بأس بها فى صورة تحول العبء على كاهل المنتصرين لو كان مازال من الضرورى دفع تكاليف اعادة بناء وتعمير المناطق المنكوبة ، ودفع معاشات للمحاربين القدماء المعوقين وأرامل الحرب ٠ وعهد بهذه المهام الى قروض الحلفاء ، وبذلك دفع المنتصرون الثمن فى نهاية الأمر ٠ ولا يخفى أن النتيجة الصافية للحرب العالمية الأولى وتسوية السلام هى الزيادة الفعالة لقوة ألمانيا النسبية فى أوربا ، وبخاصة بالنسبة لجيرانها المباشرين ٠ وكما لاحظ جرهارت فاينبرج : « لقد أدى تحويل عبء التعويضات من كاهل ألمانيا الى أعدائها الى توكيد هذا التصدع » ٠

والى جانب تعزيز التفوق الاقتصادى لألمانيا ، فلقد خلق تاريخ التعويضات استفحالا فى المظاهر البيروقراطية تمثل فى تلال من المستندات الخفية والكثير من المرارة والدعاية التى لم تقف عند حد ، خلق خرافات تاريخية فاقت الحد ، وما ينوف عن عشرين بليونا من

الماركات الذهبية ، أو ما يناهز خمسة بلايين دولارا ، كانت تحول فى الأغلب من القـروض الأجنبيـة • وانتهى الأمر بعـدم اعتراف هتلر بالكثير منها • وكان من الواضح أن بمقدور ألمانيا ـ لو أرادت ، أن تدفع قدرا كبيرا ، وبخاصة لأنها لم تستنفد الا القليل من مواردها الهائلة ، غير أن ألمانيـا رأت عدم وجـود ما يدعوها للدفع ، واعتبرت مسألة التعويضات من أولها لآخرها اهانة بلا مسوغ • وأما هل كان من الحكمة السعى وراء الحصول على تعويضات من ألمانيا ؟ فمسألة تحتمل الخلاف ، وان كانت عواقب عدم السعى لذلك ربما كانت أوخم عاقبة ، مثلما أثبت الاخفاق فى الحصول عليها بمرور الزمان ، وما من شك أنه لم يكن من الحكمة الحاق الاهانة دون الاستناد الى اجراء ارغامى صارم • على أنه بعد البحث والتمحيص ، ورغم أن مطالب التعويضات قد قصد بها تحويل الثروة الاقتصادية الحقة من ألمانيا الى المنتصرين إلى قوى تدميرية تحت امرة المنتصرين • ورغم التعقيدات الماليـة للمشكلة ، الا أن مسألة التعويضات فى صميمها كانت مشكلة سياسية ، يعنى : الصراع على السيطرة على القارة الأوربية ، والحفاظ على القرار العسكرى ١٩١٨ ، أو عكسه •

وبعد أن شرد ذهن المؤرخين من جراء تعقيدات مسألة التعويضات ، فانهم اما تجاهلوا الكلام عن هذه المسـألة تجاهلا كاملا ، أو نزعوا الى التركيز على بحث قدرة ألمانيا على الدفع ، غالبـا على أساس افتراضات مشكوك فيها ، بدلا من أن يوجهوا الاهتمام الى المسألة الأكثر ارتبـاطا بالمشكلة وهى رغبة ألمانيا فى الدفـع ، أو تصميمها على عدم الدفـع ، لو توخينا الدقة فى التعبير ، لقد أدرك زعماء ألمانيا بكل جلاء ما تجره مشكلة التعويضات ـ ضمنا ـ من عواقب سياسية ، ومن ثم كرسـوا جهودهم من البداية للنهاية على تجنب الدفع ، أو تخفيض المدفوعات ، ولمـا غـدا الجو السياسى أكثر اتساما بالروح العدوانية لمبدأ الالتجاء الى القوة ابان العشرينات ، لذا شقت فى نهاية الأمر طريقها فى سـبيل تأكيد وجودها وتكبدت فى سبيل ذلك ثمنا باهظا ، تكبده الآخـرون أيضا • فلما كانت لا ألمانيا ولا بلدان وسط أوربا قد توافرت لها نية الدفع ، لذا انكمشت مسألة التعويضات الى أن قضت نحبها ، وسيظل التاريخ الملموس للتعويضات يحير المؤرخين ، ويثبت أيضا عدم جدوى فرض مدفوعات ضخمة على بلدان اما أصيبت بالفـاقة ، أو بالتبرم ، وتوافرت لها القوة الكافية لترجمة هذا التبرم الى مقاومة فعالة •

المراجع

D. H. Aldcroft, From Versailles to Wall Street : The International Economy in 1920 (1976).

E. W. Bennet, Germany and Diplomacy of the Financial Crisis 1931 (1962).

R. E. Bunselmeyer, The Cost of the War 1914-1919 : British Economic War Aims and the Origins of Reparations (1975).

M. L. Dockrill and D. Goold, Peace without Promise : Britain and the Peace Conferences 1919-1923 (1981).

C. Kindleberger, A Financial History of Western Europe, (1984).

C. S. Maier, Recasting Bourgeois Europe : Stabilization in France, Germany and Italy in the Decade after World War I (1975).

K. L. Nelson, Victors Divided : America and the Allies in Germany 1918-1923, (1976).

D. P. Silverman, Reconstructing Europe after the Great War, 1982.

S. A. Schuker, The End of French Predominance in Europe : The Financial Crisis of 1924 and the Adoption of the Dawes Plan (1976).

M. Tractenbery, Reparations in World Politics : France and European Economic Diplomacy (1910 — 1923) 1980.

تجنيد المناضلين وتدريبهم
فى بداية عهد النازى

ريتشارد • ف • هاملتون

من أين اجتذب الحزب الاشتراكى القومى أعضاءه المناضلين ابان عشرينات القرن العشرين ؟ والسؤال عويص ، لأنه فى بواكير العقد بدا الحزب النازى وكأنه مجرد حزب آخر من الأحزاب السياسية المتطرفة التى ظهرت فى جمهورية فيمار المضطربة • ويعرض ريتشارد • ف • هاملتون صورة مختلطة من نوعيات الأشخاص الذين انضموا للحزب ، وساعدوا على نجاحه ، بعد أن يستخلص تصوره من بعض الدراسات الحديثة الظهور والمبينة فى البيبليوجرافيا • وتمثل الصورة التى استخلصها المؤلف رجالا حاربوا فى الحرب العالمية الأولى ، ثم انتقلوا الى كتائب المتطوعين(*) ، وانتهى الأمر بعد تسريح كتائب المتطوعين بالزج بهم فى الحزب الاشتراكى القومى (**) • لقد كانوا اناسا ممن لاقوا صعوبات جمة للتوافق مع الحياة المدنية فى جمهورية فيمار • وكثيرا ما تعرضوا لصعوبات عند بحثهم عن عمل • ولقد أدت تجربتهم كمنتمين الى الجيش الألمانى المهزوم وكشركاء فى الجماعات العسكرية غير النظامية التى اعتادت النظام فى بواكير عهد جمهورية فيمار الى سخطهم على تسوية السلام بوجه خاص ، والاذلال السائد ، الذى ظنوا أن ألمانيا قد تعرضت له ، وتشابكت مشاعرهم بالضيق هى وما تصوروا أنه مظالم بلادهم •

وبعد منتصف العشرينات ، وبعد ذلك ، بدأت فى الظهور الاهتمامات الكلامية الكبرى بالاشتراكية الوطنية أو القومية • وكثيرا ما كان الطلبة المشاركون ينتمون الى الأندية الوطنية أو الشعبية (***) • وكثيرا ما شعر

نقلا عن كتاب Who Voted for Hitler ? تأليف Richard F. Hamilton (١٩٨٢) •

(*) Freicorps.

(**) N.S.D.A.P.

(***) Volkisch.

هؤلاء الطلبة الذى كانوا أطفالا أثناء الحرب ، ومراهقين أثناء تشتت جمهورية فيمار باخفاق الجمهورية فى ادراك المصير القومى لألمانيا • وكما هو الحال فيما يتعلق بالمحاربين القدماء المتعضين ، انتهى الطلبة الى الاعتقاد بأن « النازى » قد جاء بقاعدة تنظيمية يمكن أن تنطلق منها أصوات السخط الشخصى والقومى •

وحرص الحزب الاشتراكى الوطنى أيضا على التعرف على الحاجات الاقتصادية والسيكلوجية ، وجاء باطار اجتماعى وببعض الوظائف لأعضائه ممن لا يناسبون فى الأغلب القوة العمالية المدنية • وبعد ١٩٢٥ ، عندما اتبع الحزب بناء على اصرار هتلر سياسة السعى المشروع عن السلطة ، أنشأ الحزب بعض المدارس التى تتحدث باسم الحزب ، وغير ذلك من الأنشطة الأخرى التى حقق الاشتغال بها عائدا ماليا متواضعا ، ربما اعتبر استكمالا لما كانوا يتقاضونه من أجور • وعلى نهاية العقد ، عندما ادت ضغوط الكساد الى زيادة تفكك المجتمع الألمانى ، والاضطراب الوطنى ، انشأ الحزب تنظيما اجتماعيا يستطيع الأفراد الشعور تجاهه بالولاء ، والاهتداء عن طريقه الى الهدف •

كوادر الحزب الاشتراكى القومى

غنى عن البيان أن الحزب النازى كان يضم أعدادا كبيرة من المناضلين، والأهم من ذلك هو من ضمهم من أصحاب الاقتدار • وعلينا أن نبحث سر ذلك • وبعبارة أخرى ، علينا أن نتساءل كيف استطاعوا حشد هذا الجيش من المناضلين • ولما كان موضوع هذا الفصل معقدا فلعله من المفيد أن نلقى عليه نظرة مقتضبة فى البداية •

ان كل شىء يبدأ بالحرب • فلقد انطلقت جميع خطى التقدم الفردية والتنظيمية على نحو أو آخر من تجربة (١٩١٤ ــ ١٩١٨) • والحرب فى ذاتها قادرة على تهيئة الظروف الضرورية لما يحدث فيما بعد • فهناك بلدان أخرى كانجلترا وفرنسا شاركت بالمثل بدور رئيسى فى الحرب ، ولكنهما لم تتعرضا لتطورات مكافئة من حيث الكم للحركات الفاشية • ولكن ، وكما سنرى ، فقد كانت هناك بعض تطورات تنظيمية مميزة داخل النظام العسكرى الألمانى • ولقد نمت هذه العناصر وترعرعت ابان فترة الحرب ، وتفردت ألمانيا بين البلدان المتقاتلة باعتقادها السائد والحماسى بأن النتيجة النهائية للحرب لم تكن عادلة • ثم هناك أيضا تصور الألمان بأن الحرب لم تنته فى نوفمبر ١٩١٨ • اذ ظن كثيرون أنها قد استمرت على حدود الرايخ شرقا وغربا وفى مدن الدولة • وكان أهم تنظيم فى هذه

الأوضاع ـ بطبيعة الحال ـ هو « كتائب المتطوعين » • وتبعا لذلك ، تزود أشد المقاتلين تحمسا بتجربة عسكرية متواصلة استمرت عند بعضهم حتى ١٩٢٣ •

وعند هذه النقطة ، وبعد انتهاء حالة التضخم واستلام القروض الامريكية ، لم تعد الحكومة ولا أصحاب الأعمال تهتم بمساعدة هذه الجحافل المنطلقة على سجيتها • وكان من الضرورى للحصول على قروض التحلى على أقل تقدير بمظهر النظام والاستقرار • ولقد تم تسريح الكتائب الرسمية للمتطوعين ، وان كان هذا التسريح لم يخل من بعض الصعوبات• وكبح جماح عمليات الكتائب غير الرسمية بعد الاضطرار للجوء لاقسى الاجراءات • وقد تيسر هذا التحكم بعد أن تحقق قدر من الحكم المركزى خلال فترة التضخم ، وبعد أن توقفت المصادر الرسمية ، لم يتبق الا كبار رجال الصناعة ، الذين كانوا فى حالة تسمح لهم بتقديم العون للجيوش « تحت الحساب » على أن يتصرفوا كما يروق لهم • ولقد تعرض الأفراد الذين يصعب كبح شكيمتهم للضياع ، بعد أن أصبح فى غير مقدورهم تلقى أى شىء من « صندوق الدعم » •

وظهرت بعض بوادر الاجهاد فى جميع الصفوف آنئذ • اذ كان المقاتلون الموالون يودون الاستمرار فى الكفاح المرير • غير أن التنظيمات المقاتلة الرئيسية الميسورة قد حدت من أنشطتهم • وكانت هذه الحقبة فترة استكشاف وتحركات انتقل خلالها المقاتلون القدامى من تنظيم شبه عسكرى لآخر • ولقد ذكر بعض الكتاب أن قواعد اليسار واليمين على السواء قد نضب معينها خلال هذه الفترة الوسيطة المزدهرة للجمهورية • غير أن هذا الرأى مثار شك ، لأن عضوية «أرباب الخوذات» (*) التى تحولت الى فرق العاصفة فيما بعد قد تزايدت باطراد وبلا انقطاع خلال هذه السنوات• وشعر بعض مقاتلى « كتائب المتطوعين » بازدراء ـ كعادة المحترفين ـ للاشتراكيين الوطنيين ، بعد أن رأوا انتفاضة ميونخ ، ووصفوها بأنها مجرد عرض رث لبعض الهواة • اذ بدا لأصحاب الخبرة الزحف خـلال أزقة ضيقة بلا أسلحة أو سواتر ، والاتجاه قدما صوب العدو عملا دالا على البلاهة •غير أنه فى السنوات الطيبة لعهد فيمار ، أثبت الاشتراكيون الوطنيـون غير المنقادين أنهم أشـد النـاس بأسا بين أبنـاء التنظيمات الميسـورة ، وأنهم ـ تبعا لذلك ـ قد نجحوا فى اجتذاب المقاتلين الى صفوفهم • ولعل اخفاقهم فى الحصول على عون صناعى رئيسى هو الذى منحهم حرية اتخاذ موقف التطرف • وكانت هذه الحرية هى الشرط الذى

(*) أرباب الخوذات Stahlhelm فرق العاصفة Sturmabteilung

سمح لهم بكسب أنصار وموهوبين مما مكنهم من التحرك فى بدايات الثلاثينات ٠

فالجانب الموجب من الحجة اذن هو تشكيل كوادر كتائب الحزب الاشتراكى الوطنى من اناس قد تعلقوا بهذا العمل الغريب أثناء الحرب فى البداية ، ثم فى السنوات الخمس التى دار فيها قتال متقطع بعد الحرب ، والتحقوا بعد ذلك بسنتين فى التنظيمات العسكرية فى الفترة الوسيطة ، ثم انضموا فى نهاية المطاف فى أعداد متزايدة الى الاشتراكيين الوطنيين (الحزب وفرق العاصفة) وتميزت هذه الكوادر التى وفدت من جميع ربوع ألمانيا بفائق سرعتها (بالمعنى الحربى للكلمة) ، وتميزوا أيضا بخشونتهم وبفتوتهم وسعة حيلتهم وبغيرتهم الواسعة ومهارتهم فى استعمال تكتيكات قتال الوحدات الصغيرة ٠ كما أنهم اتخذوا مظهر القدوة البطولية للأجيال التى ظهرت فيما بعد من الشبيبة الألمانية ، وبخاصة العناصر الشديدة التحمس للنزعة القومية من أبناء الطبقة المتوسطة ٠ ونقلت هذه الكوادر رسالة الاشتراكية الوطنية : أولا ــ الى المدن الكبرى ، ثم وهذا هو الأهم الى الأقاليم ومراكزها وقراها ٠ وهناك كانوا مسئولين عن انتصارات الحزب الحاسمة فى الانتخابات ٠ وثمة نتيجة أبعد تترتب ضمنا على هذه الحجة : هل كان فى مقدور هذه الكوادر الاعتماد على هذه الظروف فحسب (من تاريخية واجتماعية وثقافية واقتصادية) لتحقيق هذه الانتصارات ٠٠٠

كتائب المتطوعين

عادة لا تؤثر حالات السخط ، حتى اذا اتصفت بشيوعها وعمق أثرها على الأحداث ٠ وفى الحالات التى يتجمع فيها أولئك المتضررون فقط ، عندما تتبلور أوجه تضررهم فى شكل التنظيمات ، فان احتمال التصادم يصبح أمرا ممكنا ٠ وعلى هذا يصح القول بأن التنظيم موضع البحث ، يعنى «كتائب المتطوعين» (*) كان من خلق الحكومة الثورية ٠ وتلقى هذا التنظيم ــ ولو لحين ــ عونا وتأييدا ليس من الحكومة وحدها ، وانما أيضا من بعض المؤسسات الرئيسية ومن الأعيان الأرستقراط وعلية القوم ، ومن الصحافة الرسمية ، ومن الصحافة الحرة (**) الى أن حدثت الانتفاضة، وبوجه خاص من بعض الصحف الرئيسية ٠

(★) S.P.D.

(★★) مثل Berliner Tageblatt, Vossische Zeitung.

وتعد ثورة الألمان ١٩١٨ مثلا مميزا لأبعد حد لمفهوم الثورة • فكما أشار عدة كتاب فانها لم تتضمن قلبا لنظام الحكم • واذا توخينا الدقة قلنا انها كانت بمثابة انسحاب لحكومة قائمة • فلقد عهد الأمير ماكس (بادن) آخر مستشارى النظام القديم بنقل سلطات الحكومة الى زعيم أغلبية الديمـوقراطيين الاشـتراكيين وقال : « يا هـر ايـبرت ! اننى أعهـد بالامبراطورية الألمانية لرعايتك » ، وطلب ايبرت زعيم الحكومة الثورية ، وكان عزوفا نوعا عن قبول هذا العرض من سلفه الاستمرار والاضطلاع بالأعباء الادارية ، ولكن الأمير رفض •

وألفت الحكومة الجديدة نفسها في موقف لا تحسد عليه • اذ لم تكن قوات شرطة البلدية تتمتع بقدر كاف من القوة يساعدها على التعامل والقوات الثورية المحتشدة فى شوارع ألمانيا • وكانت وحدات عديدة من الجيش قد سرحت بمجرد وصولها الى عقر دارها • وكان الاعتماد على القوات الباقية مثار شك • وباختصار ، كان هناك قلائل من القوات الموالية الميسورة لمساندة الحكومة الجديدة • وكان فى مقدور أية مجموعة صغيرة من العربيدين فرض ارادتهم على الحكومة • وظهر أحد الأمثلة الدالة على ذلك قبل عيد الميلاد ، عندما تظاهرت كتيبة من البحارة الثوار فى برلين بأنها تعمل على حماية الحكومة ، ولكنها بدلا من ذلك لجأت فى احدى النقاط الى أسر الحكومة حتى تساند مطالبها الخاصة بالأجور • ولما واجهت الحكومة مثـل هذه المشكلات شعرت بضرورة الاعتماد على قوات عسكرية أقدر على حمايتها حماية حقيقية •••

ولابد أن نتحرى ما كان يجرى عند تجنيد « كتائب المتطوعين » • وسيعتمد بحثنا على كتاب هام ألفه روبرت ويت(*) • وكان شاغلو الوظائف الرئيسية فى الكتائب من صغار الضباط ، وأغلبهم من رتبة الملازم أو النقيب • وفى البداية ، اتجه منظم احدى هذه المجموعات الباكرة الى الاستعانة بالضباط الأقدم متبعا مبادىء الجيش الامبريالى ، ولكنه ما لبث أن عدل عن هذه الفكرة وقال : « لقد تعلمت أن نظريتى الأولى كانت بعيدة تماما عن الصواب • فلقد لاحظت كثيرين من صغار الضباط يتعرضون لمواقف صعبة ، وكانوا يتصرفون على نحو رائع • فالشباب يتصف بميزة عدم المبالاة وبروح المبادرة ، وأهم من ذلك اتصافه بالحمية الوطنية • وهى خصال يجب أن لا يستهان بها » •

واقتصرت القوات على وحدات المتطوعين • وكانت تجرى عمليات انتقاء دقيقة بين من يتقدمون لعرض خدماتهم • وثمة أدلة شحيحة ميسورة

(*) Robert Waite.

عن تفاصيل هذه العمليات • ولكن لا يخفى ضعف اقبال العمال اليدويين بالمدن على التطوع ، وأيضا استجابة الكثيرين من الضباط السابقين ممن كانوا ينحدرون فى الاصل من أصول غير عمالية • وهناك بعض دلائل تبين تعرض العمال ــ خصوصا من يجنحون تجاه اليسار ــ الى تثبيط الهمة حتى لا ينضمون الى هذه الكتائب • والظاهر أن الاختيار كان مرتبطا بالاحتكاكات الشخصية • ومن ثم لوحظ ايثار قادة الوحدات الجديدة لاختيار أفراد من المنتمين الى وحداتهم القديمة ممن أثبتوا جدارتهم كمحاربين • وفى الحالات التى ضمت فيها حشود المجندين اتجاهات شتى تتراوح بين المتحمسين للحرب والكارهين لها ساعدت النسبة المرتفعة لأعداد المتطوعين وعمليات الانتقاء على تشكيل كتائب يكاد يقتصر المنتمون اليها على المتحمسين للخدمة العسكرية ، بل والمغرمين بالحرب بمعنى أصح •

ويلاحظ ويت المزايا المادية الضخمة التى كانت تتحقق من وراء الانخراط فى سلك المتطوعين • اذ كان الأجر الأصلى للمتطوع يتراوح ما بين ثلاثين ماركا وخمسين ماركا يوميا (١٩١٩) • وكان الجنود يحصلون على الغذاء وبدل السكن والمخصصات العائلية ومكافأة انتهاء الخدمة ، وتصرف لهم ملابسهم العسكرية • وشاع الاعتقاد أثناء معركة « البلطيق ، بأن فى النية منحهم قطعا من الأرض اذا نجحوا فى احراز النصر فى المعركة • والى جانب المميزات المادية ، كانت هناك مزايا معنوية أيضا • اذ كان بمقدور الجنود غير اللائقين لشغل الوظائف المدنية فى المجتمع البورجوازى أو المدنى (*) ، مواصلة العمل فى الوحدات التى سبق لهم العمل بها فى السنوات الأربع الماضية • وفيما يتعلق بنظرة هؤلاء الجنود فقد عبر عنها قائد قوات العاصفة بقوله : « لقد قيل لنا ان الحرب انتهت ، وضحكنا من هذا القول • فالحرب وأنفسنا شىء واحد ، لأن لهيبها يشتعل اشتعالا قويا فى كوامن نفوسنا • فالحرب متغلغلة فى كياننا كله • ونحن نبتهج بها وباغرائها لنا بالحاق الدمار •• ولقد استجبنا لندائها ••• وسرنا الى ميدان المعركة فى عالم ما بعد الحرب مثلما فعلنا قبل ذلك عندما اشتركنا فى معارك الجبهة الغربية ، فكنا نترنم بالأناشيد بجسارة وقلوبنا مفعمة بنشوة المغامرة أثناء اتجاهنا للقتال ، ولزمنا الصمت الرهيب ، عندما واجهنا المعركة وشراستها » •

وزعم رئيس سكسونيا ــ وكان من المنتمين الى الاشتراكية الوطنية ــ ان قطاع الطرق (**) (وهو تعبير مستحب عند أعضاء كتائب المتطوعين)

(*) buergerliche.

(**) Landsknechte.

لا يبالون كثيرا بالتساؤل عن السبب الذى يحاربون من أجله ، أو من أجل من يحاربون ؟ فالأهم فى نظرهم هو أن يحاربوا ‏·· (والسلام !) ‏·· لقد غدت الحرب مهنتهم وليست لديهم الرغبة في البحث عن مهنة أخرى غيرها ‏··· ان الحرب قد أسعدتهم ‏·· وهل هناك شيء ما يتمنونه أكثر من ذلك » ‏·

ولقد قدرت أعداد أتباع كتائب المتطوعين تقديرات مختلفة ، فقدرها ارنست فون سالومون المؤرخ الاخبارى لأنشطة كتائب المتطوعين بعدد يتراوح بين خمسين ألفا ومائة وخمسين ألفا ‏· وقدرها وزير الحربية جوستاف بوسكه بربعمائة ألف ‏· أما الاشتراكى المستقل هوجو هاسه فقد اعتقد أن عدد أتباعها ينوف عن المليون ‏· ويرجع جانب من صعوبة تقدير العدد الصحيح الى أن الكتائب كانت وحدات غير نظامية ، ومن ثم كانت أعدادها تتفاوت بين الصعود والهبوط ‏·· وهناك مشكلة أخرى ترجع الى تنوع الوحدات التى تصنف تحت اسم كتائب المتطوعين ‏· فاذا غضضنا النظر عن الوحدات الأساسية ، سنرى هناك أيضا وحدات تندرج تحت اسم كتائب المتطوعين ، مثل المتطوعين للطوارىء (*) والحرس الوطنى وشرطة الأمن (**) ، وتشكيلات الطلبة المسلحة (***) ‏· وكانت وحدات كتائب المتطوعين « الحقـة » هى الوحـدات الأكثر اتصافا بخفة الحركة والقوات المقاتلة التى تتمتع بالكفاية الذاتية ‏· أما الوحدات الأخرى فتعمل فى مهام أكثر تخصصا ‏· فكانت قوات الحرس الوطنى تكلف بواجبات الحراسة وحفظ النظام فى المجتمع بعد تحرره بفضل كتائب المتطوعين ‏· ويقدر « ويت »عدد الرجال الذين التحقوا بصفة مباشرة بوحدات كتائب المتطوعين الحقة « بعدد يتراوح بين مائتى ألف وربعمائة ألف » ‏·

وكان المصدر الرئيسى للمجندين ـ كما ذكرنا آنفا ـ هو الضباط الأصاغر ‏· ويزودنا ويت أيضـا بتفاصـيل هامة ‏· فلقد خلقت الحرب ما لا حصر له من «فرص» اصلاح الأوضاع الاجتماعية ‏· اذ قتل فى بداية الحرب ما يقرب من نصف الضباط العاملين بالجيش ، ولم يبق سوى ، ١١٢ر٢٢ ظلوا يعملون حتى نهاية الحرب ‏· ونقل معظم الأحياء منهم الى الخطوط الخلفية حتى يستطاع الاحتفاظ بهم للاضطلاع بواجبات اضافية أخرى ‏· وكانت الخسائر فى الحرب بين الضباط الاحتياط (وعددهم ٢٣٢ر١٩ ، عالية بدرجة فائقة ‏· فلما كانت هذه الحرب حربا شاملة ،

(*) Zeitfreiwilligen

(**) Sicherheitspolizei

(***) فى مدينة Muenster كانت هناك وحدة تسمى Akademische Wehr

لذا اتسعت جبهة العمليات العسكرية • ومن ثم فلا عجب اذا ضم الجيش عند نهاية الحرب ٢٧٠٠٠٠ ضابطا • وكان من المتوقع أن يشغل العدد الهائل من الضباط المرقين حديثا بعض المناصب القيادية وأن يكلفوا بمسئوليات جسيمة لأول مرة فى حياتهم • ولعل كثيرين منهم قد أدركوا عدم احتمال حصولهم على مراكز مكافئة مناسبة لهم فى الحياة المدنية • ونظرا لأن معاهدة فرساى قد اشترطت أن لا يتجاوز عدد الضباط الأربعة آلاف فى الجيش المؤلف من مائة ألف جندى ، ونظرا لأن هذا العدد كان سيختار من بين الضباط الأحياء من وحدات القوات العاملة ، فقد ترتب على ذلك اضطرار أكثر من ربع مليون من الضباط الأصاغر المدربين على خوض المعارك الى البحث عن وظائف مدنية • ولم ترق هذه الفكرة الكثيرين منهم ــ خصوصا مهاويس الحرب • وعلى حد قولهم : « بمجرد حلول السلام » فانهم سيفاجئون مفاجأة غير سارة ، يعنى سيواجهون الحياة « التى تزهق الروح » ، التى يحياها المدنيون ، ومن ثم فلم يتحمس أحد لشغل بعض الأعمال مثل الباعة فى المحلات أو ممثلى شركات التأمين ، أو يهتم حتى باحتمال تعيينه فى وظيفة مدير فى احدى الادارات ، لو كان الحظ مواتيا •

وبدت لهم « كتائب المتطوعين » كمتنفس لاهتماماتهم ومواهبهم ، ولعلها أقرب الى فرصة ثانية أتيحت لهم • ويبين من دراسة لضباط بافاريا ، وهى من الدراسات القليلة للوظائف التى كانت ميسورة فى هذه الحقبة ومنها يتضح أن ٢٢٫٦٪ من الملازمين الثوان و ٢٦٫٧٪ من الملازمين الأوائل قد واصلوا عملهم الحربى فى كتائب المتطوعين • ويلاحظ ويت أن النسبة بين ضباط الرتب الأعلى كانت أقل بدرجة ملحوظة • ويقول فون سالومون (وقد استشهد به ويت) « ان الضباط العظام قد كشفوا عن حماسة فاترة للالتحاق بخدمة كتائب المتطوعين • وهذا أمر يدعو الى الدهشة • وقد قوبل هؤلاء الضباط من قبل القوات ذاتها بشىء من عدم الرضا •• » •

ويذكر لنا ويت أن الفئة التالية لفئة المحاربين القدماء كانت فئة الطلبة ، الذين يمثلون أكبر مجموعة التحقت بكتائب المتطوعين ، ووصفهم بأنهم مثاليون صغار ، شبوا على الايمان : « بالعدالة المعنوية للقضية الألمانية » • وفى ذات الوقت ، فقد كانوا من الأشخاص الذين صعقوا من هول الانهيار ومباغتته ويقول : « لقد شعر كثيرون منهم بالتعرض للتضليل لما أصاب حقهم فى القتال فى سبيل وطنهم من انتهاك بعد توقف القتال واعلان الهدنة ، مما دفعهم الى توقع فرصة أخرى اذا انضموا لكتائب المتطوعين » •

وكانت هناك حركة أخذ ورد بين الأوضاع العسكرية والأوضاع الأكاديمية . فلقد التحق الجنود المسرحون بالجامعات، وترك بعضهم الدراسة فيما بعد للانضمام الى كتائب المتطوعين . وكان بوسع بعض أبناء الوحدات الأقل انتماء الى القوات النظامية أن يتسللوا من حين لآخر الى جامعاتهم في الفترات التى تتخلل المعارك . وهكذا نشأت بعض النزعات التى خلقتها الحرب داخل الجامعات . ومثل هؤلاء المقاتلون دور القدوة لكثيرين من شباب الطلبة ، خصوصا أصحاب المعتقدات القومية . وهنا أيضا استمر الاختيار بين التطوع والتجنيد ، مما أدى الى ارتقاء البعض ، وتدنى مراتب البعض الآخر . وساعدت هذه الارتباطات على تحقيق الاتصال بين الأجيال ، مما أدى الى ظهور كتائب لا تضم غير الأصغر سنا . وهذه ناحية سنعود اليها فيما بعد .

فما الذى حققته كتائب المتطوعين ؟ لقد أجبت عن هذا السؤال عند تعرضى لبعض النقاط المختلفة فى هذا الكتاب ، ومن ثم فيكفينا هنا القاء نظرة سريعة ومقتضبة . فباعتبار كتائب المتطوعين وحدات خاضعة للاشراف الرسمى للحكومة ، فانها ظهرت لأول مرة فى برلين عند نهاية الأسبوع الطويل للانتفاضة التى اندلعت فى يناير ١٩١٩ . وكان لها دور حاسم فى هزيمة مسيرة ١٩١٩(*) ، وأثبتت قدرتها الفتاكة للمرة الأولى . فبالاضافة الى دورها فى تطهير المدن الصغيرة كبرمن ولايبزج وجوتا وبرونزفيك ، وغير ذلك من المدن ، كان أهم ما أنجزته فى هذا الوقت المبكر هو تحرير ميونخ فى الأيام الأولى من مايو .

ثم شغلوا ببعض صراعات حدودية معقدة ، أهمها مغامرة البلطيق ١٩١٩ . وأجرت هذه الوحدات الألمانية عمليات فى البلطيق — بموافقة البريطانيين — بدأت بصد غزو الجيش الأحمر (الروسى) . ومن الناحية الاسمية ، استطاعوا التحرر من الارتباط بالانجليز الذى فرض عليهم ، مما أحرج انجلترا ، واتجهوا للعمل فى خدمة السلطات الحكومية الوطنية الحديثة الانشاء . فلقد كان معظم هؤلاء المقاتلين يرغبون اشباع شهوتهم للحرب عن طريق خلق دولة يحركونها وفقا لمشيئتهم ، تحت زعامة البارونات المتجنسين بالجنسية الألمانية ممن استوطنت عائلاتهم منطقة البلطيق فى القرن الفائت . وبعد أن وعدوا بالحصول على أرض يستقرون فيها (وهو وعد تصادف عدم وجود مبرر له) اكتشفوا أنهم ينهضون بدور طليعة مستعمرة جديدة شرق ألمانيا . غير أن انتصارهم فى تحقيق هذا الهدف ، والانقلاب الذى تبع ذلك ، قد ألحق بهم الضرر . وكما قال أحدهم فى

(*) K. D. P.

أسلوب أدبي لاذع : « لقد قتلنا أنفسنا بانتصارنا » (*) • فلقد أمرتهم الحكومة الألمانية بالعودة من حيث أتوا •• وبعد عمليات رفض وعصيان وأفعال تمردية شتى عادوا في النهاية الى ألمانيا ••

والحادثة التالية الرئيسية في تاريخ كتائب المتطوعين هي محاولة قلب حكومة فيمار • فلقد زحفت جملة وحدات مختلفة ــ أبرزها لواء ايرهارت ــ على برلين ، وأرغمت الحكومة على الهروب • وكانت هذه هي فاتحة انتفاضة كاب (**) في مارس ١٩٢٠ • ولقد سبق أن تحدثنا عن كيف تداعت حكومة الأيام الخمسة •• ولعلنا نذكر أن السلاح الرئيسي للحكومة قد اعتمد على الاضراب العام • وفي النقـاش الذي دار بعـد التداعي ، أنحى مقاتلو كتائب المتطوعين باللائمة ــ صراحة ــ على الجنرالات والساسة • ولا يخفى أن «كاب» كان عديم الاقتدار من الناحية السياسية، كما أثبت القائد فالتر فون لوتفتس (***) عدم كفايته في تدبير الانتفاضة• وفضلا عن ذلك ، فانه في مواجهة الاضراب ، قد قام برد فعل وصفه حتى المقاتلون متوسـطو الكفاية بأنه كان منهكا للقوى وغـير مفهوم • وقال أحـدهم : « ان كل شيء كان سيعود بالخير لو أننا قتلنا عـددا أكبر من الأشخاص » • وأقر آخر هذا الرأى ، وعلق عليه بقوله : « الدم هو أسمنت الثورة » •

وبالاضافة الى ما ظهر من مساوىء عند الساسة والضباط العظام ، فقد عنى هذا الاخفاق ، كما عبر عنه فون سالومون : « لأول مرة ، أصبح الطريق مفتوحا الآن أمام التفكير السياسي للشباب • وقال ان اعلان هتلر الالتجاء الى القوة في نوفمبر ١٩٢٣ ما كان بالاستطاعة تصوره بغير ما حدث من تحول في التفكير السياسي » • اذ بدت حركة هتلر في نظرهم ذات ميزة بالغة الأثر ، لأنها حركة « من صنع جنود المواجهة من المقاتلين ، وليست حركة ضباط كبار ارتقوا بحكم الأقدمية » •

وآخر عمل أقدمت عليه كتائب المتطوعين قبل حلها رسميا هو ما قامت به ضد الشيوعيين في حوض نهر الروهر ، الذين استولوا على مدن مثل دوسلدورف ودورتموند باعتباره اسهاما من عندياتهم في محاولة للاضراب العام • وأمرت وحدات كتائب المتطوعين ــ بما في ذلك زعيم الانتفاضة هرمان ايرهارت ــ بالاشتراك في آخر عملية مؤيدة من الحكومة في حوض الروهر •

(*) Wir haben un togesiegt

(**) Kapp Putsch.

(***) Walther von Luettwitz.

وبعد أن بلغ الموقف هذا الحد ، أضطرت الحكومة خضوعا للضغط المتزايد من الحلفاء الى حل هذا التنظيم (كتائب المتطوعين) بعد أن ساعدت على خلقه • ومن المعروف أن أعضاء هذا التنظيم كانوا شديدى الاعتراض على هذا الاجراء • وجرى البحث على عجل عن قناع أو واجهة تتخفى وراءها التشكيلات ، التى استقر بعضها فى بقاع من شيليزيا ، أو أماكن أخرى من شرق ألمانيا ، حيث واصلوا أنشطتهم تحت ستار « أعمال الفلاحة » ، وعاودت بعض الجماعات الظهور كتنظيمات وطنية للمحاربين القدماء • وأسمى زعيم شهير لكتائب المتطوعين يدعى جيرهارت روسباخ بعض قواته باسم مكتب المباحث ، وأسمى جانبا آخر منها باسم « جماعة انقاذ المجتمع » ، التى حكم وزير داخلية بروسيا بعدم شرعيتها • وغير روسباخ اسمها وجعله « اتحاد التعليم الزراعى » ، وصرح بأن بمقدوره « استحداث تنظيمات أخرى اذا اقتضى الأمر وبسرعة تفوق سرعة حل المسئولين لها » • وانضم البعض الى تنظيمات المحاربين القدماء ، التى كانت موجودة بالفعل ، وانضم آخرون الى جماعة تدعى « أصحاب الخوذات النحاسية » (*) ، ولكن معظم المحاربين القدماء وصموا هذه الجماعة بالجمود والتزمت • ويذكر ويت ان الجمعيات المناهضة للسامية كانت أحب الجمعيات الى قلوب المقاتلين السابقين فى كتائب المتطوعين ، بفضل شهرتها بالشراسة والقسوة • واضطر أغلب من انضموا الى هذه الجماعات الى البحث عن نوع ما من الوظائف المدنية ، باعتبار تنظيمات المحاربين القدماء من الجهات التى يشغل نشـاطها الأوقات الخارجة عن مواعيد العمـل الرسمية •

وتم تنسـيق مختلف الوحدات المحلية للمقـاومة الشعبية (**) ، وادراجها تحت زعامة منظمة واحدة (***) ، قبل تحولها للعمل فى المقاومة السرية • ورفضـت حكومة بافاريا حل هـذه الوحـدات ، وبذلك أتاحت الفرصة لاختبار القوة الذى جرى ١٩٢٣ ضد حكومة برلين ، وانضم إلى هذه التنظيمات بعض فلول كتائب المتطوعين المنحلة •

ومن بين التنظيمات السرية ذات الأهمية الفائقة منظمة كونسول(****) • وتركزت مهمتها فى السهر على تحقيق العدالة والانصاف باغتيال موظفى حكومة الجمهورية ! ، وعلى الأخص من ارتبطت أسماؤهم بانهيار ١٩١٨ ،

(*) Stahlhelm.

(**) Einwohnerwehr.

(***) Eschereich. (وتختصر إلى : Orgesch) .

(****) وتختصر فى حرفين O.C.

وتنفيذ قرارات معاهدة فرساى ، أو من كشفوا أسرار العمليات الحربية السرية ، أو عملوا فى خدمة أعداء الأمة ، كما فعل على سبيل المثال الانفصاليون فى « بلاطينة » • وذكر أحد زعماء هذا التنظيم فيما بعد أثناء شهادته فى المحكمة أنه قتل ما يقرب من ألفى شخص فى شيليزيا وحدها ، وكان من بين ضحايا هذه المنظمة ماتياس ارتسبرجر (*) الذى ارتكب على حد قولهم جملة جرائم على رأسها توقيع اتفاقية الهدنة (وبذلك أنقذ هندنبرج من الاشتباه فى تورطه فى هذه الفعلة) • وأيضـا كان هناك فالتر راتيناو وزير خارجية البلاد ومهندس سياسة الانجاز •

وكانت هناك مناسبة أخرى شاركت فيها وحدات كتائب المتطوعين فى المعارك • فمن المعروف أن النزاع لم يتوقف على الحدود البولاندية • ففى ربيع ١٩٢١ عبرت جماعة من الجنود غير النظاميين البولانديين الحدود لانتزاع أرض شيليزيا العليا ، وضمها لبولندة فترك الأعضاء السابقون فى كتائب المتطوعين أعمالهم ، وركبوا القطارات عبر ألمانيا ، وأعادوا تنظيم صفوفهم ، وكسبوا معركة حاسمة • وبعد هذه الواقعة بيومين ، وبعد الهجوم عنوة على مدينة آنابرج(**) ، صدر أمر حكومى بحل وحدات كتائب المتطوعين حلا نهائيا • واكتشف المقاتلون القدامى مرة أخرى أنهم قد طعنوا فى ظهورهم •ففى الوقت الذى كانوا يفتدون فيه ألمانيا بأرواحهم ، نفذ مجرمو نوفمبر (وهو الاسم الذى أطلقوه على زعماء الجمهورية) هذه الفعلة الخسيسة •••

النقلة الى « الحزب الاشتراكى الوطنى »

هؤلاء هم المقاتلون المحنكون الذين استطاعوا بعد حل وحداتهم شق طريق الى الحزب الاشتراكى الوطنى وقوته الضاربة (***) • وأتم بعضهم هذه النقلة فى وقت مبكر ، وتحققت هذه النقلة عند بعض آخر بعد أن تنقلوا بين أكثر من منظمة من منظمات اليمين • وفى ١٩٣٢ ، لم يكن فى وسع من سبق انتماؤهم الى كتائب المتطوعين تمثيل أكثر من جزء صغير من جملة الأعضاء ، بعد أن تزايد انضمام أشخاص أصغر سنا • ولا يقصد بذلك أنهم كانوا فى جميع الأوقات يمثلون الأكثرية العددية فى الحزب ، ولكن المقصود هو القول بأن جهودهم وقدراتهم كان لها دور حاسم فى التشكيل الأولى للحزب ، مما ساعد على تحديد اتجاههم قبل التطورات التى تعرض

(*) Matthias Erzberger.

(**) Annaberg.

(***) Sturmabteilung.

لها الحزب بعد ذلك • ولولا هذه النواة من كتائب المتطوعين ما كان الحزب لينمو مثلما نما • فلقد زودته بالمواهب التنظيمية المحلية وبأعلى مستوى من القدرات التكتيكية ، وزودته أيضا بالشراسة التى مكنته من قهر خصومه • وفضلا عن ذلك فقد اضطلعت هذه النواة بدور هام فى تدريب الأجيال الأحدث ممن انضموا الى صفوفه •

ولا تسمح البيانات المتوافرة حتى بالاقتراب من أية احصاءات دقيقة تؤيد هذه الادعاءات • بيد أنه بالاستطاعة الحصول على بعض الاحساس بما حدث من اقبال على الانضمام الى الحزب من مذكرات أعضاء الحزب الاشتراكى الوطنى ، ومن السير الذاتية التى ألفها تيودور آبل ، وحللها فيما بعد بيتر ميراكل وروبرت ويت فى بحوثهما •

ومن بين الذكريات البطولية التى تميزت بها كتب كثيرة من المؤلفات التى صدرت عن دار النشر المركزية للحزب الاشتراكى الوطنى فى ميونخ ابان الثلاثينات ما ذكر عن أن استهلال الحركة قد بدأ باجتماع ثلاثة رجال فى فبراير ١٩٢٥ ، كانوا يخططون لاعادة تشكيل هيئة الحزب الوطنى الاشتراكى فى شتارنبرج ، وهى منتجع بديع يقع جنوب غرب ميونخ • وتحدث المؤلف عن الرواد الثلاثة فقال أن أحدهم كان موظفا صغيرا بالحكومة، وكان الثانى « ماكس » لاصقا لورق الجدران • والثالث هو جوشتل (البنا) • وتستطرد المقدمة فتذكر عرضا مقتضبا لتاريخهم العسكرى التنظيمى : « كانوا جنودا بالجبهة ، ومن المقاتلين فى كتائب المتطوعين » • « ولم يتجاوز سن أكبرهم السابعة والعشرين ، وكان الثلاثة أعضاء فى قوات العاصفة ، واشترك الثلاثة فى مسيرة نوفمبر ١٩٢٣ » •

ويرى الكاتب أن هؤلاء الثلاثة قد خططوا تنظيما محليا اتخذ هذه الصورة لأغراض عملية • وانضم اليهم ــ بطبيعة الحال ــ آخرون ، وبذلوا جهدا كبيرا ، ولكن كان هؤلاء الثلاثة هم الذين قاموا بدور همزة الوصل بين الحزب القديم (الذى كان موجودا قبل ١٩٢٣) والحزب الجديد. أو المحاولة الثانية • وهناك فكرة تكررت مرارا وراء هذه المحاولات التجنيدية أفاض المؤلف الكلام عنها : « فوراء النصر المستجد طريق عتيق منحدر ، وأمامه جنود الجبهة وكتائب المتطوعين وهتلر » • وفى حالة أخرى، يتركز الكلام على مقاتل قديم آخر ، ويتكرر الالحاح على نفس المعنى ، فتجمل مميزات الشخص فى الكلمات الآتية : لقد كان من جنود الجبهة ومن رجال كتائب المتطوعين ، ومن أبناء قوات العاصفة • ويردف المؤلف قائلا : « لقد جرت فى عروقه أنقى دماء الجنود ، وكان يبغض بغضه للطاعون ايثار المواقف المعتدلة والضعف والمرونة » •

وبعد أن تعرفنا على شخصية النموذج الذى رسمه آبل لأعضاء الحزب قبل ١٩٣٣ ، فاننا لن نستطيع بطبيعة الحال الاطمئنان الى ما ذكر عن ممثليه • ومن المحتمل أن يكون النموذج الذى قدمه أو العينة ، الأفضل تعلما ، وأن تكون لديه خلفية طبقية أفضل من أعضاء الحزب بوجه عام • ومع هذا ومادام هذا النموذج واحدا من النماذج القليلة من أى نوع المتصلة بالموضوع ، فانه يستأهل فحصا أدق •

وكان ١٨٪ ممن استجابوا لآبل ممن شاركوا فى بعض أشكال الأنشطة الحزبية فيما بعد الحرب مثل القتال ضد فريق الاسبرطيين (*) وانتفاضة « كاب » وحرب العصابات فى أعالى شيليزيا ، أو المناوشات التى وقعت أثناء احتلال الفرنسيين لحوض الروهر ١٩٢٣ • وكان ثلاثة من بين كل خمسة من الذين اشتركوا فى المنازعات التى وقعت بعد الحرب من صغار الشباب (أى كانت أعمارهم تقع بين ١٧ سنة و ٣٠ سنة) سنة ١٩١٤ • وفى ١٩٣٠ كان سن هؤلاء الأشخاص ما بين الثلاثينات وبداية الأربعينات • واذا قارنا مجموعة النواة بالعينة برمتها للأعضاء (كما كان الحال ١٩٣٤) سنرى شذرة صغيرة كانت أكبر سنا من مجموعة النواة ، وشذرة أكبر حجما من الأصغر سنا تمثل قرابة نصف الأعضاء • وهكذا كان الحزب خليطا يضم بعض أعضاء من « العواجيز » ، ويضم غالبا أشخاصا لديهم بعض اتصالات عسكرية تقليدية ، ولهم نظرات تنزع نحو الاتجاه القومى وتمثل المدرسة القديمة ، ونواة من المقاتلين القدماء ، وأخيرا الأكثرية من صغار السن الذين اجتذبوا للحزب فى السنوات الأخيرة للجمهورية • وبوسعنا أن نعزو النجاح التنظيمى الذى حققه الحزب الاشتراكى الوطنى فيما بعد الى قدرة مجموعة النواة على اجتذاب هؤلاء المجندين الصغار وتعبئتهم •

ويحلل ميركل نوعيات أعضاء الحزب التى ذكرها آبل على نحو مختلف نوعا ، فيوجه انتباها أكبر الى هذه الأجيال المختلفة ، والى أنماط سيول المنضمين والمجندين ، والى دوافع كل فريق من أنصار الحزب • فبينما بين آبل أن أقل من خمس من استجابوا قد اشتركوا فى مناوشات ما بعد الحرب ، بين ميركل أن الحرب وما حدث فى أعقابها قد كان لها بالغ الأثر ، فقد هزت كيان السواد الأعظم من هؤلاء الأشخاص • ويقول ان الجانب الحيوى من الفريق الذى تحدث عنه آبل كان يمثل الحرب والهزيمة أو ثورة ١٩١٨ ، باعتبارها المؤثرات التى أثرت فى حياة كثيرين ممن استجابوا لها ، واذا نحن تأملنا التجربة المحورية أو المؤثرات الكبرى

(*) Spartacists.

التى ورد ذكرها فى السير الذاتية سنرى أن هناك ما يقرب من النصف قد تأثروا بما حدث فى الحرب والثورة والاحتلال الأجنبى •

ويذكر ميركل أيضا أن المتجاوبين ممن تأثروا بالحرب أشاروا الى ما أثارته جبهة القتال(*) من حماسة،والى التشتت الذى نجم عن الانهيار ، وردود الفعل المعادية عند الجماعات التى انصب عليها اللوم بسبب الهزيمة • واكتشف أن هذه المشاعر كانت أوضح بين المتطوعين (بالمقارنة بمشاعر الجنود المحترفين والاحتياط) • واكتشف أيضا وجود تناسب عكسى بين شدة الحماسة للحرب والأداء القتالى وطول الخدمة • وتحدث أيضا عن الحشود التى تدفقت من صفوف العسكريين الى كتائب المتطوعين (أو التنظيمات شبه العسكرية المتصلة بها) • وساعد تقدم الاشتراكيين الوطنيين فى السن بما فيه الكفاية عند اشتراكهم فى تنظيمات ما بعد الحرب الباكرة على انقسام اختياراتهم • فالتحق المحاربون القدماء - خصوصا المتطوعين - فى التنظيمات شبه العسكرية • وجنح من يفتقرون الى الخبرة العسكرية - بدلا من ذلك - الى الانضمام الى التنظيمات اليمينية غير المحاربة ، يعنى الى الجماعات المحافظة أو المعارضة (**) ، وظلوا مع هذا يعبرون عن التعاطف القوى مع كتائب المتطوعين ، والكراهية الشديدة نحو المتمردين فى الداخل •

بطبيعة الحال ، كانت هناك مرحلتان متمايزتان فى تاريخ الحزب قبل ١٩٣٣ • وفى المرحلة الأولى - التى انتهت بحركة الانتفاضة ١٩٢٣ ، كان المنتمون للحزب ينحدرون من أجيال ما قبل الحرب أو فترة الحرب ، ويتألف أعضاء هذه المرحلة من الجموع التى تأثرت بالحرب ، ومن الناقمين على نتيجتها ، ومن الراغبين فى مواصلة الكفاح بعد ١٩١٨ • وظل هذا الفريق يعمل فى الحزب فى المرحلة الثانية ابتداء من اعادة انشائه ١٩٢٥ ، وتزايد عدد أفراده بعد الانتفاضة الأخيرة وانضمام مجندين من الشباب • ويقول ميركل « أن شذرة الحزب التى لم تتأثر تأثرا مباشرا بالحرب قد تأثرت مشاعرها بذكريات الزمالة فى فترة الشباب والدراسة وبحالة البطالة » •

وفى غضون هذا التحول ، يبدو أنه قد حدث تحول فى الأساس الطبقى للعضوية • وكان آبل قد لاحظ أن ثلثى المشتركين فى المناوشات المباشرة بعد الحرب كانوا من أبناء الطبقة المتوسطة • ويلاحظ ميركل « ان من ينعمون بالأمان الاقتصادى والقدرة على الانطلاق كانوا بين أوائل من

(*) Fronterlebnis.

(**) Voelkische.

انضموا الى الحزب في بداية أيامه ، وأنه حتى خلال أزمة ١٩٢٣ ، وفى السنوات الأهدأ التالية ، استمر (الفتوات) ممثلين على نحو أكبر فى حركة القمصان البنية » • وفى ١٩٣٠ فحسب لحق بهم أفراد من أبناء الطبقة الدنيا •

وتأكد وجود استمرارية بين كتائب المتطوعين والحزب الاشتراكى الوطنى فى السير الذاتية المقتضبة التى وردت فى ملحق كتاب ويت • فلقد بدأ فردريش البرس (*) ـ وكان عضوا فى كتائب المتطوعين فى موركير كقائد لاحدى قوات العاصفة ١٩٣٠ ، كما عمل فيللى أندريسون ـ وهو من المحاربين القدامى فى معركة البلطيق ومن المشاركين فى انتفاضة « كاب » فيما بعد فى احدى اللجان المحلية للحزب الاشتراكى الوطنى • وانضم بعضهم فى وقت أبكر مثل كارل بوش الذى ساهم بدور فعال فى كتائب المتطوعين فى برلين والبلطيق وأعالى شيليزيا وبروسيا الشرقية • وانضم الى الحزب ١٩٢٣ • وكان قائد(**) كتائب المتطوعين فى بروسيا الذى اشتغل بعد ذلك قائدا لجمعية التربية البدنية ، من بين من انضموا للحزب الوطنى الاشتراكى ١٩٢٢ ، وشكل بعد ذلك قوات العاصفة فى برلين وأشرف على تنظيمها • ومن بين من ورد ذكرهم فى عرض ويت : مارتين بورمان ، الذى تولى قيادة أحد الأقسام فى كتائب المتطوعين فى روسباخ ، وعمل بعد ذلك فى مجلس التنظيم • ونصادف أيضا بعض قادة الحزب الوطنى الاشتراكى مثل هانس فرانك ورودلف هس واراينهارت هايدريك واريش كوخ وأرنست روهم•وهناك أيضا اشتراكى آخر سلك هذا الطريق المميز : رودلف هوس (***) الذى تولى القيادة فيما بعد فى أوسشفيتس •

وهكذا يكون الطريق المؤدى الى الاشتراكية الوطنية قد مر بسلسلة معقدة من الخطوات • فمن الحرب الى وحدات كتائب المتطوعين ثم الى الحياة المدنية بمختلف تنظيماتها الوطنية والشبيهة بالعسكرية الى أن ظهر الحزب الاشتراكى الوطنى فى نهاية المطاف •

تجنيد صغار المجندين

واشتمل ثانى جوانب تضخم الحزب تجنيد مواطنين أصغر سنا استوعبهم الحزب فى صفوفه • ويبدو أن الجهود الشخصية للحركيين

(*) Friedrich Alpers.

(**) Kurt Daluege.

(***) Rudolf Hoess.

الأوائل كانت وراء هذا التوسع ، أو اذا شئنا القول فان هذا التوسع قد تحقق بفضل الأنشطة الدينامية للجماعات الصغرى • ولكى ندرك كيف تمت هذه العملية علينا الرجوع مرة أخرى الى ما رواه نوكيس الذى يعد من الثقات فى هذه الناحية بفضل ما احتواه كتابه من تفاصيل تاريخ التنظيمات • وقد أشار بحثه أيضا الى مصدر من مصادر الكفاح للتغلب على الصعوبات التى واجهها الحزب حتى ١٩٣٣ •

فلقد تشكلت الوحدة الأولى من الحزب الاشتراكى الوطنى فى صعيد سكسونيا فى مدينة هانوفر فى صيف ١٩٢١ • وكانت البداية متمهلة ومضطربة ، ولكن من أسسوا هذه الوحدة قد كشفوا عن قوة عزيمتهم عندما ساروا قدما دون التفات حتى لتحذير هتلر • وامتدت أنشطتهم حتى شملت الأقاليم المحيطة بهانوفر • وساعد ظهور متحدثين من الخارج ـ كان بينهم هرمان اسر من رئاسة الحزب بميونخ ـ على اجتذاب أعداد أكبر من الحاضرين وعلى تمويل الحزب ، وزيادة عدد أعضائه •

على أنه سرعان ما تعرضت هذه الجهود للاحتجاب • فبالرغم من اتخاذها عاصمة الاقليم وأكبر مدنه قاعدة لها ، الا أن الحزب قد اكتشف أن هذا المركز لا يتوافر له أفراد مميزون • فبعد أن أفلتت المدينة من الكارثتين التوأمتين : تمرد اليساريين ، وصد كتائب المتطوعين لهذا التمرد •••• فانها لم تتعرض لنفس مخلفات الخوف والكراهية والالتزام الأيديولوجى الذى كان بمثابة القوة الدافعة فى مواضع أخرى • وبعد ١٩٢٠ ، خضعت صروف المدينة والاقاليم لشخصية جوستاف نوسكه (*) الذى وصفه نواك « بأنه كان قادرا على قمع التطرف أيا كان موضعه » • وفضلا عن ذلك فقد أدت أوجه النقص داخل زعامة الحزب الاشتراكى الوطنى والصراعات المريرة الأشبه بالحرب الأهلية الى تشتت جهود الحزب لعدة سنوات •

وفى نهاية المطاف ، ظهرت أبعد الجماعات أثرا فى صعيد سكسونيا ، يعنى فى المدينة الجامعية العريقة جوتنجن • وتولى المبادرة هناك طالب طب يدعى لودولف هاسنه • وكان قد نشط قبل الحرب فى حركة مثيرة للاضطراب ضد السامية • وواصل هذا النشاط بعد الحرب قبل أن ينضم الى احدى كتائب المتطوعين ، ثم وفد فيما بعد الى جوتنجن لبدء دراساته الطبية ، وهناك انضم الى تنظيم شعبى ، ونجح فى قلب زعامته بمساعدة طالبين آخرين ، وأنتخب بعد ذلك رئيسا • ثم انتقل الى جماعة أخرى قومية المنزع ومعادية للسامية ، بعد أن شعر بعدم الرضا عن عدم فاعلية

(*) Oberpraesident Gustav Noske.

عضويته لكتيبة المتطوعين • وسافر بعد ذلك الى ميونخ ، وكان ما زال يبحث عن وسيلة فعالة ، لكي يتعرف « الى نوع جديد تماما من التنظيم » سمع به ، يعنى « تنظيما يتميز بعدوانيته الحقة » • ولما عثر على مبتغاه ، انضم الى الحزب الاشـتراكى الوطنى فى فبراير ١٩٢٢ ، وأنشـأ فرع جوتنجن للحزب ، وكان يضم ١٢ عضوا ، وانتخب أحد الحراس رئيسا لادراكه مدى كراهية العمال للطلبة • وفى ذات الوقت كان هاسه يقود الفرع من وراء الستار • وفضلا عن ذلك ، فلقد منع المفكرون مؤقتا من العضوية ، ومن ثم اقتصرت عضوية الجماعة على اناس من ممثلى أدنى فئات الطبقة المتوسطة بغض النظر عن طالب الطب واحدى المثالات •

وما لبثت جهود فرع جوتنجن أن امتدت الى الأقاليم المحيطة بها • وكان من بين الوحدات التى أنشأتها ، وأنجحها ، الفرع الذى أنشىء فى نورتهايم البلدة المجاورة ، والمعروفة لنا أكثر من ذلك من كتاب ألفه وليم تالبرج باسم « تالبورج » • واشترك فى انشاء فرع الحزب الاشتراكى الوطنى فى نورتهايم اثنان من الأبناء البارزين للطبقة الوسطى الدنيا من تنظيم شبه عسكرى (*) ، وقد التقطهما أحد المحنكين بالحزب الاشتراكى الوطنى ، وشجعهما على الاشتراك فى مظاهرة خطب فيها هاسه • ولما كانا لم يرضيا عما ساد « حزب ألمانيا الفتاة » من غموض ، وبعد أن تأثرا بخطاب هاسه ، قررا الالتحاق فورا بالحزب الوطنى الاشتراكى ، بعد أن تأثرا بما جاء فى كلامه عن المطالبة برفاق دائمين للكفاح (**) ، وليس مجرد رفاق عابرين (***) •

وتكشفت سعة حيلة هاسه فى نوفمبر ١٩٢٢ ، عندما صدر قرار عدم شرعية الحزب الاشتراكى الوطنى • وبعد أن أعدت العدة لعقد اجتماع حاشد للوحدة فى ١٨ نوفمبر ، أصدرت الشرطة المحلية حظرا لهذا الاجتماع ، الا أن هاسـه لم يرهب هذا الحظر ، وطالب العون من التنظيمات شـبه العسكرية المحلية ، واشترك عدد كبير من اتحادات الطلبة فى المسيرات التى طافت شوارع جوتنجن فى مظاهرة احتجاج دامت زهاء عدة ساعات • وتضاعف عدد أعضاء الوحدة من جراء ذلك ، وارتفع عددهم من ٢٥ الى ٥٠ عضوا ، بل وانضم اليهم فى هذه العملية أحد أساتذة الكيمياء • وشرع أستاذ الكيمياء فى تحريض زملائه بالكلية على الانضمام • ولاقى بعض النجاح ، وشكلوا أيضا وحدة من وحدات العاصفة مؤلفة من ٤٥ فردا ، أكثرها من الجنود السابقين ، ومن المنتمين لكتائب المتطوعين •

(*) Jungdeutscher Orden. (حزب ألمانيا الفتاة)

(**) Mo+kaempfer.

(***) Mitiaeufer.

وفى الشهر التالى ، نظم هاسه تنظيما جبهويا يحل محل الحزب المحظور • وفى الاجتماع الأول ، انضم اليه سبعون من الأعضاء الجدد وأغلبهم من الطلبة ، وساعدت الشرطة فى انجاح هذه المحاولة السافرة • اذ كان كثيرون منهم يديرون رؤوسهم فى الناحية الأخرى ، عندما يشرع أحد الأعضاء فى الدعاية علنا وعلى رؤوس الأشهاد • وتلقت الوحدة العون أيضا من الصحيفة البورجوازية الرائدة فى المدينة(*)،وطبع صاحبها « وهو من العنصريين منذ أيام الحرب » بعض المطبوعات للفرع بدون مقابل •

وقدم نواك بعض ملاحظات هامة عن الصفات المميزة للأعضاء فى هذا الفرع المحورى ، وذكر لنا شيئا ما عن مظاهر جاذبية الحزب الاشتراكى الوطنى ، وقيل لنا أن « حفنة من الطلبة الحركيين كانت تسيطر على فرع جوتنجن الذى كان هاسه يتزعمه ، وارتقى بعضهم الى مراكز هامة داخل الحزب الوطنى الاشتراكى ، بل وعلى مستوى الرايخ » • اذ كانت فئة الطلبة ، كما يجب أن يلاحظ ، وبخاصة حين ذاك ، تعنى شيئا آخر أدنى من مرتبة الطبقة الوسطى •

ولقد فضل هؤلاء الأعضاء من الطلبة ، وكان أكثرهم كما يلاحظ من الشباب الأصغر سنا ، الحزب الاشتراكى الوطنى على غيره من التنظيمات الشعبية بالنظر الى اتجاهه الراديكالى ، وأيضا لما «لشكله التنظيمى» من جاذبية كبرى • فلقد انفرد الحزب الاشتراكى الوطنى بوجه خاص « بجاذبية شخصية الزعيم » (**) وبقوات العاصفة•وهما ميزتان لم تتوافرا للأحزاب السياسية الأخرى ، مما أكسبه ملامح مماثلة للتنظيمات التى خبروها • والتى شكلت شخصياتهم ، يعنى الجيش وكتائب المتطوعين •

وفى السنوات التى تلت محاولة انتفاضة هتلر واعادة انشاء الحزب ، شبت مشكلة ساعدت على ظهور اختلافات داخل الحزب ، وتركزت هذه المشكلة حول مسألة النشاط الانتخابى • وبعد التسليم بالقيود التى فرضت على أنشطة الحزب ، والتسليم بامكان صدور أمر حظر كامل للحزب ، أعلن هتلر وجوب الالتزام بالشرعية ، ورفض كثيرون من مقاتلى الحزب هذا النهج الفاتر • وكان لودولف هاسه من بين الرافضين لدعوة هتلر ، ورفضت زعامة هانوفر وزعامة جوتنجن الاشتراك فى الانتخابات المحلية فى نوفمبر ١٩٢٥ • وفى ١٩٢٦ ، صممت هانوفر على المضى قدما ، وقبلت المبررات التى عرضها هتلر فى الاجتماع الوطنى فى فيمار فى هذه

(*) Tageblatt.

(**) Fuehrerprinzip.

السنة • ولكن جوتنجن واصلت الرفض التام لأى اشتراك فى الانتخابات• وفى بدايات ١٩٢٧ ، أرسلت المدينة المجاورة برونزنيك شكاية الى هتلر تبلغه احجام اقليم جوتنجن عن اتباع اتجاه الحزب ، والصعوبات التى تنجم عن ذلك فى الانتخابات القادمة • وتصور هذه الحادثة أسلوب هتلر فى الزعامة • فبدلا من أن يتدخل على الفور ويبادر باعطاء أوامر مباشرة ، فانه استمر يساير الاتجاهات المتطرفة المعادية للبرلمان التى يتبعها زعماء جوتنجن ، واستمر على هذا الحال سنة أخرى •

ولا يتضح من الرواية التى ذكرها نواك ما الذى حصل فى نهاية الأمر • فلقد أدى انحلال نشاط الاقليم ١٩٢٦ الى حدوث بعض الاهتمام فى الدوائر العليا للحزب • ويعتقد نواك أن هاسه ربما عاد مرة أخرى للتفرغ لدراساته • وعلى نهاية ١٩٢٦ ، انتقلت الزعامة الفعلية للاقليم (جنوب هانوفر) الى طالب زراعى سابق ، واختفى هاسه من الصفحات الأخيرة لكتاب نواك • ولم يعد التنظيم بعد بلوغ الأحداث هذا الحد يعتمد على قدرات شخص واحد ، وعندما اشترك فى الانتخابات فى نهاية المطاف ١٩٢٩ فى الفترة التى ظهرت فيها ملامح الأزمة الاقتصادية واضحة ، نجح الحزب الاشتراكى الوطنى فى جوتنجن فى كسب أكبر عدد من المقاعد فى أى مجلس نيابى فى ألمانيا باستثناء كوبورج ، وهى من المراكز الثقافية ومن منتجعات المياه المعدنية ، ولها شهرة واسعة كملاذ يهجع اليه الضباط السابقون ، ولعل تركيز الحزب الاشتراكى الوطنى عليها وعلى جوتنجن المدينة الجامعية قد أخرس ألسنة من أيدوا الافتراض الذى لا أساس له عن اعتماد الحزب على عناصر من قاع الطبقة المتوسطة • وعلى أى حال فان هذه المسألة تساعدنا على الاعتراف بما فى هذا التحول الجديد من تعقيدات •

ويلخص نواك العلاقة بين الاشتراكيين الوطنيين وطلبة الجامعة ببساطة شديدة فيقول : ان الطلبة قد أثبتوا شدة استهواء النازية لهم • وقد أيد هذا الحكم نتائج انتخابات المجلس حيث كشفت قوائم الطلبة الألمان التابعين للحزب الاشتراكى الوطنى عن نجاح منقطع النظير فى سائر أنحاء البلاد • ومن الملامح الملحوظة لهذا التطور أن يسبق تغلغل الحزب فى ألمانيا كلها ، انتشار الايمان به بين صفوف الطلبة • وظهر من نتائج الانتخابات فى اتحادات الطلبة أن ١٨٪ أو يزيد من عشرات معاهد التعليم العالى فى السنة الأكاديمية ١٩٢٩ ـ ١٩٣٠ قد صوتوا فى سبتمبر ١٩٣٠ لصالح الحزب الاشتراكى الوطنى ، أى قبل أن يحصل الحزب على نسبة ١٨٪ من أصوات الناخبين فى الانتخابات العامة •

وأجرت احدى الصحف الليبرالية (*) تحليلا لهذه الانتخابات فى يوليو ١٩٣٣ ، وبعد أن أعادت ترديد بعض الأراء المتواترة كفكرة مجتمع الكتل البشرية ، وفكرة الطبقة المتوسطة المهددة ، استخلصت القول بأن الطلبة الأحرار (يعنى أولئك الذين لا يشتركون فى أية جماعات اخوانية) (**) كانوا الأكثر عرضة لتأثير الحزب الاشتراكى الوطنى . غير أن تواك بين ان ما حدث فى جوتنجن لم يترتب عليه سوى تبدل بسيط . اذ فقد الأخوان أربعة مقاعد فى انتخابات ١٩٢٩ ـ ١٩٣٠ ، وكسب الاشتراكيون الوطنيون أربعة مقاعد واحتفظ الطلبة الأحرار بمقعدهم الوحيد .

ومن ناحية الايديولوجيا والمعتقدات ، فقد كان الارتباط وثيقا للغاية بين تنظيمات الطلبة والاشتراكية الوطنية ، اذ مثلت هذه التنظيمات الطلابية ما يحتمل أن يكون ريادة الحركة المناهضة للسامية فى البلاد كلها ، وكان التأثير الجماعى قويا للغاية . ففى اجتماع وطنى لممثلى الطلبة فى ايزنباخ ١٩٢٠ ، اتخذ قرار بحظر التعامل مع اليهود . وشجعت الوحدات الفردية على غرس الاعتقاد : « بوجوب الاستبعاد المطلق لفكرة اقدام المواطنين على الزواج بامرأة يهودية أو ملونة » . ونظمت مظاهرات ضد الأساتذة المشتبه فى انتمائهم الى اليهود ، اشتركت فيها هذه التنظيمات فى عشرينيات هذا القرن ، وأقدم مئتان من طلبة جامعة التكنولوجيا فى هانوفر على مقاطعة احدى المحاضرات ١٩٢٥ ، وأمرت الجامعة باحالة ١١ من الطلبة الى مجالس التأديب بينما نقل ١٢٠ من أبناء الجامعة (عددهم ١٥٠) الى جامعة تكنولوجية أخرى بالقرب من برونزفيك .

وفضلا عن ذلك ، فلم يكن شعور الطلبة بالاستهواء نحو هتلر من الأمور التى بدأت فى أواخر العشرينيات فحسب ، فلقد عقد اجتماع فى جامعة ميونخ فى ١٢ نوفمبر ١٩٢٣ بعد محاولة الانتفاضة بثلاثة أيام ، وحضره اثنان من العمداء وبعض الأساتذة المرموقين . ولقد هدف الاجتماع ظاهريا الى المصالحة ، وجاء فى تقرير الشرطة أن الكلية حاولت تهدئة الروح المتطرفة ، بينما عمدت فى ذات الوقت « الى الاعتراف بالأهداف الوطنية الصحيحة لهتلر ورفاقه ، وأدانت ـ من ناحية أخرى ـ الحكومة أيضا ، بيد أنهم رغم كل هذا عجزوا عن منع المظاهرة العاصفة المؤيدة لهتلر » .

(*) Vossische Zeitung.

(**) fraternities.

ويعرض هارولد جوردون بعض معلومات عن وظائف أعضاء الحزب في بافاريا قبيل الانتفاضة • فمن بين ١١٣٦ من الأشخاص الذين توافرت البيانات عنهم كان هناك عشرون ممن تدربوا على مهنة التدريس فى الجامعة (الجامعة التكنولوجية وجامعة اعداد معلمى المدارس الثانوية) • أما الأغلبية فكانوا من مدرسى المدارس الثانوية (الجيمنازيوم) » • وكان هناك ١٤٠ من الطلبة الجامعيين ، وأعداد متفرقة من باقى الطلبة ، و ٢٧ من مدرسى مدارس الأجرومية • ولسنا بحاجة الى أرقام احصائية مقارنة للتعرف على مدى تمثيلهم العام للبلاد بأسرها • ويذكر جوردون أن طلبة ميونخ كانوا يجندون من أجل الحزب فى مواطن اقامتهم ، يعنى فى أقاليم بافاريا • ولقد تأثر توقيت انتفاضة هتلر ـ الى حد ما على أقل تقدير ـ باشتراك الطلبة • اذ ساعد رجوع الطلبة للجامعة للالتحاق بالفترة الدراسية التى تعقد فى الشتاء « على تضخيم أعداد قوات العاصفة بدرجة ملحوظة » ، ويقول جوردون أن هؤلاء الشباب كانوا يفبضون حماسة للقضية ، وشديدى التلهف لأداء دور ما • ولم يقتصر الأمر على شعورهم بالغضب لتأخر الاستعانة بهم ، فلقد خشوا أيضا أن يؤدى انهماك الطلبة فى الدراسة الى فتور النشاط السياسى عند أكثرهم » • وقدم الطلبة مساعدات فى مواضع أخرى • ففى مانهايم ، نظمت احدى الجماعات (*) مسيرة انضمت كوحدة متكاملة الى الانتفاضة » •

ويمثل هذا الفريق من الطلبة طليعة المشتركين فى مرحلة فيمار • انهم الطلبة الذين اشتركوا فى الحرب ، أو تأثروا بها على نحو ما • وكانت دوافع المجندين من الطلبة الذين ظهروا بعد ذلك مختلفة نوعا : ويذكر نواك ان الجماعة الاخوانية ظلت بمعزل عن الاشتراكية الوطنية بفضل نظرتها التقليدية الممثلة للطبقة المتوسطة العليا ، والتى تعزف عن الاشتراك فى السياسة ، اذ كانت الحركة القومية هى شاغلهم الشاغل ، فكانوا يحتفلون بالعطلات التقليدية ، ويضعون شعارات ملونة ، ويفرطون فى الشراب ، ويترنمون بالأناشيد الوطنية ، ولكنهم ـ كما قال ـ بعيدون تماما عن الاشتراك فى مسيرات الشوارع ، ومشاجرات قاعات « البيرة » ، التى اشتهر بها الاشتراكيون الوطنيون • بيد أنه فى نهاية المطاف ، « وبخاصة بعد أن بدأ الكساد ، تأثر المنتمون لهذه الجماعة الاخوانية ببعض الأفكار ، التى استثارت كثيرين من هؤلاء المثاليين الذى ظلوا حتى ذلك الحين عزوفين عن الاهتمام بالسياسة » فتأثروا الحركة التى تتصدر فيها الناحية العملية على النواحى النظرية ، الحركة التى استغلت اتهام شباب الطبقة المتوسطة العليا بالشعور بالذنب لعزلتهم الاجتماعية ، والتى

(*) Handelschochschule.

استطاعت أن تضرب على الوتر الحساس لمثاليتهم عندما زعمت اتباعها لسياسة اشتراكية وثيقة الصلة بالعمال ، على عكس ما تزايد اعتباره اتجاه التنظيمات الداعية الى الانطوائية وعدم الاشتراك فى الأنشطة الاجتماعية • وأتاح النازيون لطلبة الطبقة المتوسطة فرصة اشباع اهتماماتهم الاجتماعية ، بينما ظل مخلصا لقيمهم القومية النابعة من صميم الشعب ، والتى رفضتها المثالية البديلة لليسار •

وبالاستطاعة عزو ما اتسم به الحزب الاشتراكى الوطنى من اجتهاد وكفاية وحرص على اتقان منجزاته الى هذه العملية الانتقائية الفريدة ، التى كانت تحسن اختيار من ينضمون الى صفوفها ، من أهل الاقتدار ، ومن بين من يشعرون بدوافع معادية لجمهورية فيمار وممثليها ، وبالاضافة الى ذلك ، فلقد كان الحزب قادرا على ملء صفوفه وزيادة أعدادها بالاستعانة بالطلبة القوميين ، واختيار مرشحين جدد من أبناء جيل الشباب •

تدريب أعضاء الحزب

زودت عمليات الانتقاء الحزب بكوادره ومناضليه ، وأمدته بمواهب متفردة تتصف بقدر غير مألوف من الالتزام • وكانت هذه المواهب تتلقى فيما بعد صقلا وتهذيبا ، يجرى عن طريق طائفة من البرامج التدريبية الخاصة • وقد عادت هذه النواحى على كفاية الحزب وقدرته على الأداء بأفضل الأثر • وكان المجندون ، وبوجه خاص المختارون من كتائب المتطوعين والوحدات القريبة الشبه بها من المتخصصين فى تنظيمات القتال على نطاق واسع ، وتسييره • غير أن تعليمات هتلر الخاصة باعادة انشاء الحزب نصت على الالتزام بالشرعية ، ومن ثم توجب على الحركيين الاشتراك فى الأنشطة الانتخابية الروتينية التى تجرى من حين لآخر • وتعارض هذا المطلب هو والمبادىء الأولية للعديدين من قدماء المقاتلين ، وتسبب ذلك — كما رأينا — فى وقوع خلافات داخلية كبيرة ، وان كان بعض هؤلاء المقاتلين قد تأقلموا بغير عناء ، وسرعان ما شعروا بالاغتباط لقدرتهم على سحق العدو باستعمال نفس أسلحته • غير أن بعضا منهم رأى لأسباب فنية عدم سهولة هذا التأقلم والتحول ، لأنهم كانوا قادرين على الاسراع باصدار الأوامر المناسبة فى حالات الاشتباكات المباشرة • أما اعداد الخطب الانتخابية فبدا لهم أمرا مختلفا عن مضمار تفوقهم •

على أن براعة الحزب تجلت مرة أخرى فى طريقة حل هذه المشكلة ، فلقد انشأ مدارس لاعداد التدريبات الضرورية • وبالنظر الى أن الخطب العامة من المسائل الجوهرية لكل أنشطة الحزب لذا رئى دراسة هذه

الناحية دراسة فاحصة للتعرف على كل دقائقها ، ومرة أخرى بوسعنا أن ندرك مدى التعارض بين محاولات الحزب في هذا الشأن ومحاولات خصومه .

واستقر الرأى على انشاء « مدرسة للمتكلمين » ، تكون بالضرورة مدرسة تعليم« بالمراسلة » . وبدأت على المستوى المحلى فى اقليم بافاريا العليا . وسرعان ما اعترف بقيمتها ، واتخذت شكل مدرسة الناطقين الرسميين باسم الحزب الاشتراكى الوطنى فى يونيو ١٩٢٩ . وتمشيا مع ما جاء فى مذكرات هملر أصبح هدفها : « تزويد المتحدث بمادة لا خلاف عليها تصلح لمختلف المناسبات حتى يتسنى له اعتمادا على معرفته الوثيقة أن لا يتعرض من البداية لهزة شبيهة بما يسمى « رهبة المسرح » اذا أدرك من البداية « عدم قابلية مادته للنقض حتى من قبل ألد خصومه » . ومن ناحية أساسية ، كان ما فعلته « مدرسة المتكلمين » هو تجميع أصحاب المواهب الطبيعية غير المدربة ، وتدريبهم باتباع تعاليم روتينية أساسية تساعد على غرس الثقة عندهم ، وتأهيلهم لعدم تهيب محاولات التكلم فى المناسبات العامة . وفى ذات الوقت اظهارهم أمام من يستمعون اليهم بمظهر من يملكون ناصية الكلام . وكان الاسلوب المتبع يمر بالخطوات الآتية :

« بعد تزويد الطالب ببعض التعاليم النظرية ، يطلب منه حفظ أحد الأحاديث البسيطة ، والتدريب على القائها أمام المرآه . وفى الوقت نفسه يكتب الطالب حديثا من عندياته يرسله الى المسئولين عن المدرسة لتصحيحه ، ويعاد الحديث مصححا ، وترفق به أسئلة تعرف الطالب بموضوع الشهر التالى ، فمثلا : « اذا تلقيت رسالة من عامل مصنع يشكو من انخفاض أجره ، فبماذا تجيب عليه ؟ » وهكذا كان لمعهد التدريب غايات محددة للغاية ، فليس من اختصاصاته تقديم أية تعاليم سياسية على نطاق واسع ، « ولكنه يزود أكبر عدد من « المتكلمين » ببعض معلومات عن أوليات أو أصول تقنيات الأحاديث العامة ، وبقدر كبير من الأحاديث الجاهزة وببعض الاجابات التى تحفظ عن ظهر قلب للاستعانة بها فى اجابة الأسئلة النمطية المقدمة من المستمعين » .

وبعد أربعة شهور من مثل هذا التدريب ، يقدم المرشح حديثه الأول فى حضرة زعيم فرع الحزب بالاقليم ، الذى يرسل تقريرا بذلك الى المدرسة . « واذا رئى أن الأداء كان مناسبا ، تخصص الشهور الثمانية الباقية من التدريب للممارسة الفعلية ، فيقدم الطالب بعض الأحاديث التى لا يقل عددها عن ثلاثين حديثا عاما قبل اعلان صلاحيته كناطق رسمى باسم

الحزب » ، ويصف « أورلو » هذا المنهج « بأنه بدائى ، ويمثل نظرة محدودة الأفق ، وان كانت عظيمة الفاعلية » ٠

وكان المتوقع أن يعلن زعماء الأقاليم أسماء المرشحين فى أقاليمهم (بواقع اثنين عن كل اقليم) ٠ وأرغم الطلبة على دفع مصاريف الدراسة (ماركان شهريا) ، وبذلك أثبت المختصون مرة أخرى وجوب عــدم تكبد الحزب أية تكاليف اضافية زيادة على ما يمكن تحصيله من الدراسين ، كلما سمحت الظروف بذلك ٠ واذا انتقلنا الى ما حدث فى مايو ١٩٣٠ ، سنرى أن ألفين وثلثمائه من أعضاء الحزب « قد شاركوا فى المسيرة » : ويقال ان المدرسة أو المعهد قد دربت ستة آلاف من الناطقين باسم الحزب فى يناير ١٩٣٣ ٠

ووزع الحزب قوائم بالمتحدثين باسمه ، لمعاونة التنظيمات المحلية فى تخطيط برامجها ٠ ومن البديهى أن يتفاوت مستوى الناطقين باسم الحزب تبعــا لقدراتهم ، وأستعين ببعضهم فى تجمعات المدن الكبرى ، ووجــه الآخرون لمخاطبة تجمعات الريف الأصغر (حيث لا يحتاج الحديث المعد الى تفريعات كثيرة) ٠ ولما كان الحزب قد سلم بقصور كثير من هؤلاء الناطقين باسمه ، لذا فانه لم يأمل فى نجاحهم فى اقناع أية أعداد كبيرة من الألمان غير المنتمين للحزب بالادلاء بأصواتهم فى الانتخابات أو الانضمام للحزب الاشتراكى الوطنى ، ولكنه كان يتطلع الى قيامهم بعرض أهداف الحزب ، على أهل القرى ، والتأثير فى عدد ولو قليل من المستمعين ، واستحثاثهم على التوجه الى أقرب مدينة للاستماع الى ما يقول المتحدث باسم الاقليم ، الأفصح بيانا والأعظم تأثيرا ، وعمل « الناطقون » على تقسيم أنفسهم الى تخصصات تبعا لموضوع الكلام ٠ فمثلا لم يقتصر الناطق باسم اقليم بافاريا العليا على تعيين ناطقين باسمه يتحدثون فى موضوعات مقننة بمعرفة الحزب الاشتراكى الوطنى كاليهودية والماركسية والجنس والريف والتاريخ ، ولكنه خصص ناطقين لمهاجمة « حزب الشعب » البافارى ٠

لقد تحدثت الفقرات الســابقة الذكر عن ما قدمه الحزب لوحداته المحلية ٠ وبالاستطاعة تصور ما هدفت اليه العمليات بالرجوع الى الوحدات ذاتها ، والى نظرات الأشخاص الذين عملوا ناطقين بلسان الحزب ، والتى يمكن استخلاصها مما ذكره نواك ٠ فمثلا ما الذى يدفع شخص ما للنهوض بهذه المهمة ؟ ولماذا يمضى أعضاء الحزب فترة من الزمن قد تستمر لمدة سنة كاملة فى احدى الفرق التعليمية ، يتكبدون فيها المصروفات المطلوبة ، بالاضافة الى عملهم الأساسى كأعضاء منتظمين مضطرين الى حضور العديد من الاجتماعات ؟ ويرد نواك على ذلك بأن دافع كثيرين كان الحاجة للمال ،

اذ كانوا يدفعون « للناطق » سبعة ماركات عن الحديث الواحد ، ويسمح له بالمبيت مجانا عندما يبتعد عن داره « وببدل سفر » • ولكن عندما ساءت أحوال العمل « تزايدت أهمية الاشتغال بهذا العمل ، بعد أن أصبح ايراد أعضاء كثيرين يعتمد على عملهم كناطقين رسميين ، وأصبح هذا العمل موردهم الوحيد » •

وتفسر هذه الحقيقة ديناميات الحزب الى حد ما • اذ كانت لديه حوافز قوية لمواصلة النشاط السياسى بعد انتهاء الحملة الانتخابية • ففى مايو ١٩٣٢ مثلا ، وبعد جولتين من انتخابات الرئاسة والانتخابات البروسية ، برر الحزب محاولاته المستمرة بحاجته « الى الاستعانة بالمتحدثين عن الاقليم الذين فقدوا وظائفهم الأصلية فى سبيل عملهم من أجل الحزب ، فعلينا أن نساعدهم على مواصلة عملهم حتى يصبحوا مستعدين لخوض الانتخابات القادمة » • وفى هذه الدائرة وفى دائرة جنوب برونزفيك واقليم هانوفر ، كان هناك ٣٢ من أمثال هؤلاء الناطقين • على أن هذا الاجراء لم يقصد به صالح « الناطق » فحسب : « اذ كان فرض رسم دخول لحضور الاجتماعات حافزا أيضا لقادة الفروع للاطمئنان الى اكتمال تنظيم الاجتماعات وتحضيراتها من الناحية الاعلامية » •

وهكذا ساعدت هذه الوسيلة التافهة ، أى فرض رسم دخول على اجتماعات الحزب الاشتراكى الوطنى على تحويل هذه الاجتماعات الى مبادرة مربحة ، اذ أصبح بالاستطاعة دفع مكافأة الماركات السبعة للناطق باسم الاقليم من حصيلة رسوم احدى الأمسيات ، وبالمقدور أيضا اطعامه فى دار أحد الأعضاء ، واذا لزم الأمر فلا بأس أيضا من استضافته طرف أحدهم • وحتى اذا اضطر « الناطق » الى تناول طعامه فى الطريق العام ، وتمضية الليلة فى دار الضيافة ، فان التكاليف لن تكون فاحشة • وبذلك يتيسنى انفاق ما تبقى من مال للأغراض التنظيمية والدعائية التى يحتاج اليها لتمويل الأحداث التالية ، ولربما تكلف المتحدث الذى يحظى بشهرة قومية أو عضو البرلمان ما هو أكثر • ولما كان أمثال هؤلاء الأشخاص يكبدون مصاريف ومطالب أكثر ، لذا لم يكن من اليسير تكليفهم بهذه المهام ، وان كان النفوذ الأكبر الذى يتمتع به هؤلاء الأشخاص قد يغرى منظمى الاجتماعات لدعوتهم توقعا لحضور جمهور أكبر يدر تبعا لذلك ايرادا أكبر •

وكان موقف المتنافسين فى الحزب الاشتراكى الوطنى فى هذه المسألة ، وبخاصة داخل الأحزاب البورجوازية مهلكا • اذ كانوا لا يتقاضون أى رسوم دخول ، فكانت اجتماعاتهم تتكبد نفقات طائلة ، لا يحصلون فى مقابلها على أى عائد ، ولم تتوافر لهم أية كوادر كبرى

للتخطيط المسبق وتنظيم الاجتماعات ، وكانوا يفتقرون الى نواة مدربة من المتحدثين المتخصصين • وفضـــلا عن ذلك ، فقد كان معظم متحدثيهم يشتغلون فى مهام تشغل كل وقتهم • ومن ثم لم يتسن لهم توفير وقت مكافىء لهذا الجهد ، كما هو الحال فيما يتعلق بالناطقين بلسان الحزب الاشتراكى الوطنى ، وتسبب الكساد فى الحاق خسائر فادحة بموقفهم • فتضاءل عدد الأعضاء ، وترتب على ذلك تخفيض المكافآت المستحقة لهم والاسهامات الطوعية وبذلك وهنت قدرتهم على عقد اجتماعات (أو للدعاية بالصحف) بدرجة حادة • فى الوقت الذى انطلق فيه الحزب الاشتراكى الوطنى على نحو لم يسبق له مثيل •

ولا يستبعد أن تكون هذه التجارب المتباينة قد أثرت على الروح المعنوية للحزب تأثيرات متعارضة ، فلعل المحليين فى فـروع الحزب الاشتراكى الوطنى قد أدركوا احتمال نجاح محاولتهم ، وأن المعرفة قد تساعدهم على مواصلة السير والاعداد للجولة القادمة ، على أن الأثر المقابل لذلك قد حدث فى احدى قرى برونزفيك (*) فى ابريل ١٩٢٨ • فعلى الرغم من توزيع مائتى تذكرة دعوة ، لم يحضر أكثر من اثنى عشر شخصا ، وكانوا جميعا من أعضاء الحزب الاشتراكى القومى ، وأدرك « المتحدث » أن هذا الاجتماع لن يحقق أى نفع من الناحية التثقيفية ، وأنه أسوأ ما حضر من اجتماعات : « ففى كل مرة أبدا فيها الكلام ، يقاطعنى شخص ما ، ولم يكن بين الحاضرين أى شخص من نوعيتنا • اذ كانوا يهابون وســـائل الحزب الاشتراكى الوطنى » •

وفاز فى أول انتخابات رئيسية يشـترك فيها الحزب الاشتراكى الوطنى فى سبتمبر ١٩٣٠ عدد ١٠٧ • غير أن تصورهم لما يمكن أن يحققه البرلمان قد ضل سواء السبيل ، اذ اتجهت أنشطتهم اتجاها مختلفا • وقد عبر هتلر عن هذا المعنى قبل ذلك ، أى ١٩٢٦ عندما أعلن : « ان أهم ما سنعنى به هو تدبير تذكرة السفر للمبعوث ، لأن هذه الوسيلة ستيسر لنا ايفاد متخصصين فى اثارة المشاعر ، وبذلك تخدم مصلحة الحزب ؛ ان الرجال الذين يمثلوننا فى البرلمانات لا يسافرون الى برلين للادلاء بأصواتهم ، ولكنهم يدورون فى كل مكان دون أن يعترضهم احد بفضل التذاكر التى يحملونها ، والتى تعود بالنفع على الحزب • ولقد تمكنا باتباع هذه الوسيلة الى حد كبير من عقد ٢٣٧٠ اجتماعا للجماهير فى السنة الماضية » • وأشار جوبلز الى نفس النقطة بعد انتخابه للرايشستاج ١٢٩٨ : « لست عضوا فى البرلمان فأنا أستاذ فى المناعة وأستاذ فى

(*) D.V.P.

تصاريح السفر بالقطارات » • وباختصار لقد ساعدت تصاريح السفر بالقطارات الحزب بأن يسرت له ايفاد ناطقين باسمه بمقدورهم الظهور فى الأوساط المحلية بتكاليف زهيدة نوعا • ولم يكن أعضاء البرلمان يشاركون عادة فى الأعمال البرلمانية ، فعلينا أن لا ننسى أن الحزب قد نظم تظاهرا تمثيليا عند خروجه من البرلمان فى فبراير ١٩٣١ ، ومن ثم فانه اهتم بتفرغ مبعوثيه للمشاركة فى هذه العملية الدعائية التى يمتد أثرها الى نطاق أوسع •

ولقد تقدمت تقنيات السياسة أيضا كنتيجة ثانوية للاجتماعات السنوية التى تحضرها الجماهير ، ولقد تركزت معظم اهتمامات المؤرخين على تشكيل جموع نورمبرج والاجتماعات التى يلقى فيها هتلر خطبه ، وعلى ما فى هذه الاحتفالات من مظاهر تتنافى والعقل • الا أن الصورة بعد معرفة جذور هذه الفكرة ستبدو مختلفة نوعا • اذ كان الأعضاء يؤلفون جماعات تبيت فى الخيام ، أثناء فترة اقامتهم ، ويتوافر لهم الوقت لتوثيق علاقاتهم الاجتماعية بطريقة بعيدة عن الرسميات ، اما قبل الأحداث الجسام ، أو فى المساء المتأخر بعد وقوع هذه الأحداث • وكانت المناسبة تسمح أيضا باستيعاب التجربة أو الاستفادة منها • وكتب أحد أعضاء الحزب الوطنى الاشتراكى فى مذكراته بأن الاجتماع كان يشعره بحجم الحركة ، وبأنه جزء من حركة كبرى متباينة الغايات ، وتركزت ملاحظة أخرى من ملاحظاته على تنوع أساليب الكفاح • وكما قال : « يختلف الكفاح باختلاف المكان • فهنا يتشاجرون ويتخاصمون مع أوغاد ومنحرفين • وهناك ينشب نزاع مع بعض القرويين السمان العقل (المحدودى الذكاء) • ويدافع أبناء جنوب ألمانيا عن أنفسهم ضد الكاثوليك الذين يسعون للخلط بين الكنيسة والسياسة • ويتلهف المنتمون لشرق بروسيا لمعارضة أى رد فعل • وفى المدن الكبيرة ، كانت « الكوميونات » تعارض وتناور • أما شرق هانوفر فكانت تكافح ضد « الجويلف » (أى أدعياء الانتماء الى الحكام الدوقات القدامى) • نعم هناك اختلاف بين كل بقعة والبقع الأخرى ، ولكنه لم يحل دون اشتراك الجميع فى الكفاح ، لأنهم يعترفون بالحاجة الى أنواع مختلفة من الحلول والتكنيكات • وهذا اعتراف يغيب فى الأغلب عن الكتب الجماهيرية والعلمية على السواء التى كتبت فى هذا الموضوع •

المـراجـــع

T. Abel, The Nazi Movement : Why Hitler came to Power ? 1938.

W. S. Allen, The Nazi Seizure of Power : The Experience of a Single German Town 1930-1935 (1965).

R. Bessel, Political Violence and the Rise of Nazism : The Storm Troopers in Eastern Germany 1925-1934 (1984). —

A. Bullock Hitler : A Study of Tyranny rev. ed (1964).

T. Childrers, The Nazi Voter : The Social Foundations of Fascism in German 1919-1933 (1983).

H. J. Gordon Jr, Hitler and Beer Hall Putsch 1970.

E. C. Helmreich, The German Churches under Hitler : Background. Struggle and Epilogue 1979.

M. H. Kater, The Nazi Party : A Social Profile of Members and Leaders 1919-1945 (1983).

P. H. Merkle, Political Violence under the Swastika 1975.

J. Noakes, The Nazi Party in Lower Saxony 1921-1933 (1971).

D. Orlow, The History of the Nazi Party 1919-1933 (1969).

D. Schoenbaum, Hitler's Social Revolution : Class and Status in Nazi Germany (1966).

M. Steinberg, Sabers and Brownshirts : The German Student's Path to National Socialism 1918-1935 (1971).

J. Stephenson, The Nazi Organization of Women (1981).

R. G. L. Waite, Vanguard of Nazism : The Corps Movement in Postwar Germany 1918-1923 (1962).

كيف ظهر تاليه شخصية ستالين

روبرت • س • تاكر

حملت جميع الأنظمة الديكتاتورية التى ظهرت بين الحربين العالميتين فى ثناياها مبدأ تاليه شخصية الزعيم ، وبعبارة اخرى ، فان الشخص الذى يعترف به كزعيم ، لا يقتصر الأمر على تركيز الانتباه العام عليه ، وتوجيه قدر عظيم من الاحترام لشخصه ، ولكن أصبح ينظر اليه كمؤثر مباشر فذ على كل من السياسة والايديولوجيا فى الحزب والدولة معا • ونسبت قوى خارقة للعـادة الى جانب القـدرة السياسية والاقتصـادية والبصيرة للزعيم الذى اضحى فى جميع الجوانب على وجه التقريب اعظم من الحياة ذاتها ، وكان هذا ما حدث فى حالة موسولينى وهتلر على سبيل المثال ، غير انه مما لاشك فيه أن اعظم حالات تاليه الأشخاص اثرا واطولها بقاء كانت مظاهر القداسـة التى احاطت بشخص ستالين فى الاتحاد السوفيتى • ولا يرجع توطدها الى كونها نتيجة لا مناص منها للايديولوجيا الشيوعية ، او لأنها من موروثات الثورة البلشفية فحسب • فالحق انها سارت فى اتجاه معاكس للظاهرتين ، والأرجح هو أن تاليه شخصية ستالين كان الى حد بعيد من صنع ستالين نفسه •

وبدأ تاليه شخصـية ستالين يبزغ كظـاهرة ١٩٣٠ على وجـه التقريب • ففى هذه السنة ، كان قد وطد هيمنته على الحـزب الشيوعى السوفيتى ، وان لم يكن ذلك بصفة مطلقة • وبوجه خاص ، ولفهم جليات الموقف ، فلقد أقصى سـتالين تروتسـكى من الحزب ، واعتبر معتقـداته أخطر انحراف عن الفهم الصحيح (يعنى الستالينى) للايديولوجيا الشيوعية • وفى ذات الوقت ، قدم سـتالين نفسـه كخليفة لينين الطبيعى والدائم الاخلاص والوفاء لأمد طويل • فلا عجب اذا اتهم أحيانا خصـوم ستالين

• نقلا عن The Rise of Stalin's Personality Cult تاليف Robert C. Tucker ضمن مجلة American Historical Review الجزء ٨٤ (١٩٧٩)ص ٣٤٧ ـ ٣٦٦ •

ـ الذين لا يصح اتهامهم بالتعاطف على تروتسكى ـ بالمنشفية او بالايمان بنظرة الاشتراكيين الروس الذين وقفوا من بلشفية لينين موقف العداء ٠ وعمد ستالين الى تغيير معانى جميع هذه المصطلحات والايديولوجيات ، واعاد تعريفها بما يناسب المقام ٠

وابان ١٩٢٩ و ١٩٣٠ خطا ستالين خطوتين حاسمتين لتدعيم الهالة المقدسة التى احاطها بنفسه ، واعتبر شخصه المصدر الموثوق فيه والرائد فى تفسير نظريات الماركسية ، واضيف اسمه الى اسماء ماركس وانجلز ولينين ، ثانيا ـ وضع صيغة لتصوره لتاريخ الحزب البلشفى ، تزعم انه ادى دورا اهم من الدور الذى نهض به بالفعل فى بواكير حياته ، واحتاجت ادعاءاته المزعومة كصاحب نظريات ومؤرخ اعادة كتابة الماضى ، وتزييفه على نطاق واسع جدا ٠ بيد أنه بحكم السلطات الرهيبة التى كانت تحت امرته ، لم يصادف اية مشقة فى العثور على اصحاب القلم القادرين على الاضطلاع بهذه المهام ٠ ومنذ ذلك الحين اصبح تاليه الثنائى لينين المائت وستالين الحى ، جزءا لا يتجزأ من الحياة السوفيتية الى أن قام خروشوف بنبذ ستالين سرا فى مؤتمر الحزب سنة ١٩٥٦ ٠

ان تاليه لينين ، الذى عارضه هو بالذات وحاول ايقافه عند حده ، الى أن أصيب بالاعياء فتقاعد اثر نوبة قلبية أصابته فى مارس ١٩٢٣ ، قد أصبح فيما بعد طابعا مميزا متغلغلا فى الحياة العامة السوفيتية ٠ ولا وجود لسبب أوحد يفسر كيفية تفشى هذه الظاهرة ، وليس من شك أن البلاشفة كانوا يعظمون باخلاص الزعيم باعتبار الزعامة الشخصية كانت ذات اهمية حيوية للحركة منذ بدايتها الى أن استولت على السلطة ، وأيضا لما حققته عندما وضعت أسس النظام السوفيتى ووطدت أقدامه فى السنوات اللاحقة ٠ غير أنه من الحقيقى أيضا أنه بعد موت لينين ، احتاج النظام ـ براجماتيا ـ الى رمز يعبر عن سلطانه ، ويعد بالمثل تاليه لينين الذى بدت أصداؤه النغمية المتصاعدة متنافرة مع المذهب العلمانى الذى يزعم الحزب الشيوعى اتباعه ، مثالا لكيفية احتواء الثقافة السوفيتية على عناصر متوارثة من الماضى الروسى ، كانت فى هذه الحالة هى تاليه الحاكم ، اذ ظل الشعب الروسى قرونا طويلة مؤلفا من أعداد كاسحة من القرويين ومتعلقا بالنظام الموناركى ٠ وفتحت الثورة الباب أمام العديد من أبناء الفلاحين لشغل مراكز مرموقة فى المجتمع الجديد ، وأدى الاتجاه نحو التصنيع ، وطبع الحيـاة بالطـابع الجماعى الى تجنيد ملايين من الأشخاص الذين ينحدرون من صلب المزارعين للعمل فى ميدان الصناعة ،

(★) Voznd.

وصحبوا معهم بالاضافة الى تجربتهم السوفيتية ، وتعلمهم على طريقة السوفيت رواسب من العقلية القروية التقليدية ، التى ضمت احترام السلطة الشخصية سواء صدرت عن الرئيس المباشر ، أو من رأس الحزب والدولة • وهكذا كانت الأوضاع الاجتماعية فى روسيا عند حدوث التحول الكبير (١٩٢٩ ــ ١٩٣٣) مهيأة لتقبل مبدأ تأليه الزعيم حيا أو ميتا •••

وقبل لينين التدليل العسام على مضض فى عيد ميلاده الخمسين (١٩٢٠) • وحتى آنئذ فانه نفر ــ بجفاف ــ من المديح الذى غمره به رفاقه • وهكذا يكون تأليه ستالين قد انحرف عن التقليد البلشفى المأثور ، باعتباره مثل استملاكا عاما لزعيم حى ، فكيف اذن بزغ تأليه ستالين ومتى؟

● السياسة الواقعية بعد اختلاطها بالاحتياجات السيكلوجية ●

كان تأليه ستالين ، الى جانب تأليه لينين ــ بعد احداث تكامل بينهما ــ يرمى الى زيادة اخصاب مكانة ستالين على نحو يفوق ما كان عليه الحال فى بداية الثلاثينيات ، فعلى الرغم من أنه حظى بعون لا بأس به ، وربما بالشعبية داخل دوائر الحزب أثناء السنوات الأولى التى أعقبت موت لينين ، الا أن ستالين لم يتمتع البتة بأية حظوة يمكن أن تقارن ولو من بعيد بالحظوة التى نالها لينين ، وفضلا عن ذلك ، فان شعبيته قد تعرضت للتعويق فى بواكير الثلاثينيات من تأثير النزوع بالاكراه الى الجماعية ، وما صحب ذلك من مجاعة (١٩٣٢ و ١٩٣٣) • ولا وجود لأى دليل يوحى بانه كان معرضا آنئذ لقلبه • ومع هذا فلم يكن ستالين قد اكتسب حتى ذلك العهد السلطة المطلقة • اذ ظلت التقاليد الجدلية الانتقادية باقية (على أقل تقدير فى الدوائر العليا للحزب) • ولم يتوافر له أى ضمان ضد ظهور معارضة جديدة ردا على ما وقع حديثا من بلايا ، ومن ثم فقد اهتم ستالين ــ بلا ريب ــ بصد المتاعب التى قد تطرأ مستقبلا بجعل سيادته السياسية محصنة ضد أى اعتداء عليها ، وتمتع بقدر كاف من حدة البصيرة جعله يدرك أن ارتقاءه الى مركز مرموق مشابه لمركز لينين فى اعلام النظام السوفيتى قد يكون ذا فائدة لتحقيق هذا الغرض • ورغم أهمية هذا التفسير ، الا أن الدافع السياسى وحده لا يمكن أن يفى لايضاح ما فعله ، فلم يقتصر الأمر على استمرار التأليه فى التفاقم ، بعد أن تزايدت سلطته اتصافا بالطابع المطلق فيما بعد فى الثلاثينيات ، الا أن هناك دلائل مباشرة وغير مباشرة تبين أن هذا الادعاء كان سندا لنفسيته ولسلطته أيضا ، فلما كان ستالين طموحا بلا حدود ، ولكنه لا يشعر بالأمان بينه وبين نفسه ، فانه أحس بحاجة تدفعه الى السعى نحو تأليهه تأليها بطوليا ، وهو اتجاه نفر منه لينين •

والظن بأن اسم « ستالين » قد رمز الى شخص ما بعد تصويره فى صورة مثالية أضفت على صاحبها المثل لصفات أهل الأرض مثل هذه الصورة أمر لم يكن معروفا على نطاق واسع فى روسيا • وتعكس هذه الحالة ـ من ناحية ـ محاولة ستالين المدروسة لتقليد المثل الذى ضربه لينين ـ فى العلن ـ للتخلق فى صورة بعيدة عن التكلف للتواضع • وفضلا عن ذلك ، فقد كان ستالين بينه وبين نفسه يزدرى تكرار التخلق والتزلف فرأيناه مثلا يختتم رسالة بعث بها الى أحد البلاشفة القدامى (شاتونفسكى) فى أغسطس ١٩٣٠ بالقول : « انك تتحدث عن ولائك لى • ولعل هذه العبارة قد انزلقت عفوا • فاذا كانت هذه العبارة مجرد قول عابر فاننى أنصحك بالابتعاد عن مبدأ الولاء للأشخاص ، فهذه ليست من شيم البلاشفة • عليك أن تكرس ولاءك الأول للطبقة العاملة ، وحزبها ودولتها • فهذا هو المطلوب • وهو أمر حسن • واياك أن تخلط بين هذا النوع من الولاء والولاء للأشخاص الذى يعد ولاء أجوف ، ولا حاجة له ، لأنه من ألاعيب أهل الفكر » •

غير أن الرجل رغم القناع الذى يرتديه من التواضع كان متعطشا للولاء الذى زعم ازدراءه ، وكشف عن ذلك بأفعاله ، وأفعال عملائه الممثلين له ، وبقبوله التزلف الرسمي الذى ظهر في صورة مكثفة خلال الثلاثينيات • والحق أن ستالين في الشهر نفسه الذى بعث فيه بهذه الرسالة الى شاتونفسكى كذب فى تصرفاته الخاصة هذه النصيحة بالذات • ففى يونيو ويوليو ١٩٣٠ ، شهد مؤتمر الحزب السادس عشر أتاوة المدائح العامة التى تهاطلت عليه ، وقد ختم لويس فيشر الذى غطى ذلك الحدث (*) رسالته التى كتبها بعد انتهاء المؤتمر بالقول :

قد ينصح أى صديق طيب أيضا ستالين بايقاف عربدة تمجيد ستالين التى سمح باكتساحها للبلاد ، فيوميا تتدفق عليه مئات البرقيات التى تطفح بالمجاملات ـ على الطريقة الشرقية ـ المغالى فيها : انت أعظم زعيم ! وأعظم من لينين وما أشبه • وأطلق اسمه على ثلاث مدن ، وما لا يعد ولا يحصى من القرى والمدارس الجماعية والمصانع والمعاهد • وبدأ أحدهم الآن حركة تدعو الى تغيير اسم سكة حديد تركيا سيبريا (**) لكى تصبح « خط ستالين الحديدى » ، ولقد تصفحت الجرائد التى صدرت فى الفترة ما بين ١٩١٩ و ١٩٢٢ ، ورأيت أن لينين لم يسمح قط بمثل هذه الأساليب المجوجة ، وتمتع بشعبية تفوق الشعبية التى

(*) فى مجلة The Nation.

(**) Svoloch'l

يتمتع بها ستالين ، والتي نأمل أن يبلغها • ان هـذه المظاهر تكشف عن نقـاط ضعف في خلق ستالين ، ومن المؤكد أن أعـداءه ـ وهم كثار ـ سيستغلونهـا ، لأنها تتعارض وروح البلشفية ، كما أنهـا بعيدة عن الحكمة • ولو صح القول ان ستالين غير مسئول عنها ، الا أنه لا يضيق بها على أية حال ! • وبوسعه أن يوقف كل هذا بضغطة واحدة على أحد الأزرار » •

وفيما بعد أسر أحد العاملين بالمكتب الصحفي في القوسيرية الخارجية ـ وكان من بين واجباته اخطار ستالين بما تقوله الصحف الأجنبية عن الشئون السوفيتية ـ أسر الى فيشر بأنه عندما ترجم الفقرة التي سبق الاستشهاد بها ، عقب ستالين عليها بقوله : « ابن الكلب ! » (*) • ولا يخفى أنه شعر بوخزة صدق الملحوظة التي بدرت من فيشر ، وأحس بمسئوليته عن ظهور نزعة تأليه ستالين •

ولا يعرف على وجه الدقة متى شاعت عبارة التأليه هذه ودوافعها ، ولن يسهل تحديد ذلك • واذا اتخذنا الاحتفال الرسمي بميلاد ستالين الخمسيني (١٩٢٩) كبـداية لهذه الظاهرة ، فاننا لن نصـادف حادثة أخرى يمكن الارتكان اليها في تحديد هذه البداية ، أو أية سابقة أخرى في تاريخ الثورة البلشفية تدل على سبق ترحيب الآخرين بها • فلقد نظـر الى بلوغ لينين سن الخمسـين على أنها مناسبة لن تتكرر ثانية • ولعل كثيرين من شاغلي المناصب العليا قد رأوا أنه من المناسب بالمثل الاحتفاء ببلوغ ستالين سن الخمسين • وبعد ذلك بستة شهور جاء التهليل لهذه الفكرة في المؤتمر السادس عشر ، غير أن موجة الحماسة هدأت مرة أخرى • وعلى الرغم من أن اسمه كثيرا ما ظهر في الصحافة السوفيتية ، فان الدعوة المستمرة لتأليه ستالين في وسائل النشر السوفيتية لم تظهر ١٩٣٠ ومعظم ١٩٣١ • بيد أنه بعد ذلك بفترة وجيزة بدأ استفحال الدعوة لتأليه ستالين ، الذي خطا بنفسه بعض خطوات للمساعدة على تحقيق ذلك •

وجاءت احدى هذه الخطوات في الفلسفة ، وهي ميدان من الميادين العديدة التي تسابقت فيها مختلف مذاهب الفكر لاحتلال الصدارة في جو تعددي نسبي في حقبة السياسة الاقتصادية الجديدة (**) • وفي منتصف العشرينيات ، فقد أنصار ما يدعى بالنزعة الآلية المادية مكانتهم المؤثرة السابقة ، واحتلت الصـدارة مدرسـة من الموالين للجدل الهيجلي

(*) Turk-ib

(**) N.E.P.

بزعامة دبورين وجاء موقفهم ردا على دعوة لينين للفلاسفة الروس ١٩٢٢ لتكوين جمعية « الأنصار الماديون للجدل الهيجلى » ٠

وعلى الرغم من وجود بعض كتابات فلسفية لصالح لينين ، الا أنه لم يكن مستغربا أن يوضع اسمه بعد اسم جيورجى بليخانوف كفيلسوف ماركسى ، وفضلا عن ذلك ، فقد جنح أنصار دبورين للنظر اليه على أنه انجلز عصره فى ميدان الفلسفة (١) ٠ أما ستالين فقد نظر اليه على عكس ذلك فى دوائر الحزب الشيوعى أى على أنه من العمليين (*) باستثناء ما كتبه نظريا عن مشكلة القوميات ، وتقنينه للمذهب اللينينى فى كتاب « أسس اللينينية ، وهكذا كان دوره فى الفلسفة الماركسية صفرا ٠ وتوجد أدلة مثيرة للاهتمام لتأييد هذا الرأى فى شكل قائمة نشرت ١٩٢٩ للكتابات التى يفترض الالمام الملتحقين للعمل بالمعهد الفلسفى للأكاديمية الشيوعية بها مسبقا ٠ ولقد أدرج ٣٣ عملا تحت بند المادية التاريخية والجدلية ، يعنى الفلسفة ٠ واستهلت القائمة بستة مؤلفات لماركس وانجلز ، متبوعة بستة أعمال أخرى للينين ، ثم أربعة لبليخانوف ، ثم سبعة لدبورين ٠ ويجىء بعد ذلك تحت الرقم ٢٣ كتاب ستالين « مشكلات اللينينية » ، ورغم مثل هذا الترتيب المتدنى ، الا أنه لا يستبعد أن يكون اسم الكتاب قد أدرج من باب اللياقة فحسب ٠ واختتمت القائمة بديكارت وهوبز وهيوم وبركلى ، ولعل الفلاسفة الغربيين سيدهشون لذلك ٠

ولم يكن بمقدور ستالين أن يقنع بذلك لأسباب سياسية وشخصية معا ٠ وبوصفه زعيم الحزب (*) ، وخليفة لينين ، رأى أن واجبه يفرض عليه تبعا للتقاليد البلشفية أن يكون صاحب عقلية نظرية ماركسية خلاقة من الدرجة الأولى ، بالمعنى السياسى ، ان لم يكن أيضا بالمعنى الفلسفى التقنى ، بيد أنه لم يتوقف عند هذه التطلعات السياسية التى يفرضها دوره كزعيم ٠ اذ كان يتطلع تطلعا شخصيا للشهرة كأحد المنظرين الماركسيين ٠ وأدرك نيقولاى بوفارين ــ وكان يعرفه معرفة جيدة ــ وأكد ذلك فى حديثه السرى مع ليف كانييف ١٩٢٨ ٠ واستمر ستالين لسنوات يردد زعمه معرفة الفلسفة الماركسية ، وطرح ما تخيل أنه أصول المادية الجدلية فى مبحثه (١٩٠٦ ــ ١٩٠٧) : [الفوضى أم الشيوعية] ، وفى رسائله (١٩٠٨) التى ضايقت لينين ، وصف ستالين المجادلات الفلسفية

---

(١) Soviet Marxism and Natural Science-David Joravsky. ١٩١٧ ــ ١٩٣٢ ــ ص ٧٠ ٠

(*) Praktik.

للينين مع جماعة بوجدانوف حول مذهب الماخية (*) بأنها « زوبعة فى فنجان » ، وامتدح بوجدانوف لاشارته « الى بعض أخطاء فردية عند اليتش (لينين) » .

وواصل ستالين فى خضم أنشطته السياسية فى السنوات الأخيرة محاولة تعظيم احاطته بالماركسية كفلسفة . واستدعى جان ستن ـ وكان من رواد الفلسفة فى مذهب دبورين لارشاده عند دراسته للجدل الهيجلى . وتضمن المنهج التعليمى لستن ـ والذى استعين به فيما بعد فى معهد الأساتذة الحمر ـ دراسة متوازية لكتاب رأس المال لماركس وفنومنولوجية الروح لهيجل . وواظب ستالين على الالتقاء بستن مرتين اسبوعيا (من ١٩٢٥ الى وقت ما ١٩٢٨) ، ثم طالب ستالين بعد ذلك باجراء وقفة ، وشعر ستن بالاحباط من جراء الصعوبات التى واجهها ستالين عندما أراد الالمام بجدل هيجل (٢) .

وعبر ستالين عن الاتجاه المميز لمذهبه مستقبلا عندما أخبر مؤتمر الزراعيين الماركسيين فى ٢٧ ديسمبر ١٩٢٩ بحاجة النظرية الماركسية الى مسايرة الممارسة الجارية خطوة بخطوة . ولم يمض وقت طويل ـ كما رأينا ـ حتى رأينا اثنين من شباب البلاشفة من أهل الفطنة والميول الانتهازية فى معهد الأساتذة الحمر : مافيل . ف ايودين ومارك . ب . ماتين يؤيدان نفس الفكرة . واشتركا هما وأستاذ ثالث (ف . رالتفتش فى نشر مقال طويل فى جريدة البرافدا ٧ يونيو ١٩٣٠) لمناصرة فكرة اتباع الفلسفة طريقا آخر فى تصور المشكلات النظرية عند بناء الاشتراكية ، وممارستها . وأطروا على ستالين لأنه ضرب المثل فى تعميق مفهوم الجدل الماركسى اللينينى ، فصاغ نظرية الكفاح فى جبهتين : يعنى ضد انحراف اليسار واليمين معا ، ومطالبته بفلسفة مناظرة تدعو الى الكفاح فى جبهتين ، وعلى الرغم من عدم مهاجمة كتابى دبورين صراحة الا أن المقال ألمح الى تمثيل مذهبه للعدو فى الجبهة الفلسفية الثانية.والواقع أن المؤلفين الثلاثة قد اضطلعوا بدور الريادة كنواة لمذهب ستاليني جديد فى الفلسفة السوفيتية . وانعكس رضاء ستالين ـ ان لم نقل والهاماته أيضا ـ فى الملاحظة الفذة التى نشرت مرفقة بالمقال ، والتى زعمت « ان المحررين قد ربطوا أنفسهم بالقضية الأساسية للمقال الحالى » .

(★) نسبة الى الفيلسوف النمسوى أرنست ماخ (١٨٣٨ ـ ١٩١٦) ولعله نقض مذهبه المادى الحسى الذى يرى قصر الفكر على ما يستطاع تجربته .

ولعله نقض مذهبة المادى الحسى الذى يرى قصر الفكر على ما يستطاع تجربته .

(٢) Roy A Medvedev. : دعوا التاريخ يحكم : أصل الستالينية وعواقبها . تعرف روى ميدفديف على ما دار من حوار بين ستالين وستن ، من صديق ستن : E. P. Frolov.

وما لبث ستالين أن تدخل بشخصه فى الجبهة الفلسفية ، ففى ٩ ديسمبر ١٩٣٠ ، تحدث عن النواحى الفلسفية أثناء مقابلة جرت بينه وبين جماعة من الفلاسفة من معهد الأساتذة الحمر • واستشهد مينين فيما بعد بما قاله عن وجوب « التجويف والحفر فى الأرض المعدة للفلاحة ، بعد أن تراكمت فيها مسائل الفلسفة والعلم الطبيعى » ولابد بوجه خاص : « من تجويف كل ما كتبته جماعة دبورين ، وكل ما اشتمل على أغلاط فى مجال الفلسفة » : وكانت مدرسة دبورين صورة فلسفية لمذهب التصحيح الذى انضوى تحت جناحه أصحاب المواهب المتميزة فى صوغ النيولجيزمات (أى المصطلحات العشوائية) الحريفة ! ولا بأس من تسمية هذا المذهب « بالمذهب المثالى المنشفى المنزع » ـ طبقا لما رآه ستالين • وأردف قائلا : « من الضرورى الكشف عن عدد من المواقف الخاطئة التى اتبعها بليخانوف ، والذى كان دائم الازدراء للينين • واستمر ستالين يؤكد فى المقابلة دور لينين فى التحليق بنظرية المادية الجدلية فى آفاق جديدة ، وذكر أن « المذهب المادى قبل لينين كان يعالج المسائل بعد تفتيتها الى فتات ، واتبع لينين الخطوات النقدية العلمية الحديثة فاهتدى الى تحليل ماركسى للنظرية الالكترونيــة للمادة ، ولكن ورغم ما ابتكره لينين من مستحدثات وفيرة فى جميع فروع الماركسية ، الا أنه كان شديد التواضع عزوفا عن التحدث عن اسهاماته ، وبات لزاما على أتباعه توضيح المظاهر التى استحدثها » •

ومثل ستالين دور الفيلسوف الأول للماركسية الذى ما زال ينعم بالحياة ، وعلى الرغم مما بدا فى كلامه من فظاظة ، فانه كان يتحدث وكأنه الفيلسوف الأوحد والمصدر الموثوق الأوحد ، الذى يجب أن يرجع اليه باقى الفلاسفة ، وسعيا وراء افساح الطريق لأنصاره ـ كى ترتفع قامته وترسخ مكانته ـ شجع من توسم فيهم القدرة على الهدم من أبناء مذهبه الفلسفى على التهجم على دبورين وبليخانوف اللذين كانا يحتلان مكانة مرموقة فى عقول فلاسفة السوفيت الماركسيين ، حتى يخلو له عرش الفلسفة • وأصبحت كلمات وعبارات مثل « الدبرونية » ، « والمثالية ذات المنزع المنشفى » كلمات تلوكها الألسنة كناية عن الضلال الفلسفى فى المجلات الفلسفية كمجلة « تحت راية الماركسية » مثلا وغيرها من المنشورات ، ولم تعد القوائم التى ظهرت بعد ذلك متضمنة أسماء الكتب المقترحة للاستزادة لطلبة الفلسفة تضع اسم ستالين فى المرتبة الثالثة والعشرين ، واختفت من القوائم أبحاث دبورين العلمية تماما •

ولم يشر ستالين فى المقابلة أية اشارة مباشرة لمؤهلاته الفلسفية ، وان كان قد ذكرها ضمنا فى تصريحاته ، غير أنه اتبع استراتيجية غير

مباشرة فى توطيد تأليه شخصيته ، تمثلت فى الأسلوب الذى تحدث به عن لينين • ولما كان لا يشعر بالكثير من الاعجاب والحماسة لمزايا لينين الفلسفية، فلماذا اذن أثنى ـ متفيقها ـ على لينين الفيلسوف ، وحذر المستمعين من الشعور بالاحباط من جراء تواضع لينين ، واحجامه عن التحدث عن اسهاماته فى هذا الميدان ؟ فأولا ـ كانت هناك الرسالة الأريبة ـ التى تذكرنا بايزوب ـ والتى لا أظنها فاتت على فطنة بعض المتبصرين (*) ـ ، بأن المقصود هو أن عليهم أن لا يشعروا بخيبة الأمل اذا اكتشفوا تواضع ستالين ، الذى يرجع لنفس السبب ، ولكن الأهم هو أن ستالين كان ينفخ فى صورة لينين ومكانته الفلسفية كوسيلة لدعم زعمه بأنه يحتل الأولوية فى هذا المجال ، وصور لينين الذى شغل رئاسة الحزب يوما ما فى ناحيتى السياسة والايديولوجيا على أنه الفيلسوف الأول للحزب أيضا ، وبذلك احتل مكانه بليخانوف الذى كان ينظر اليه كرائد الماركسية الروسية قبل تحوله الى أحد المنشفيين • وبذلك يكون ستالين عندما نسب الى لينين دور الزعيم والمرجع الأول للفلسفة الماركسية ، قد ساعد الفلاسفة على ادراك صلاحية هذا المعنى الرحيب للتطبيق على خليفة لينين •

وسرعان ما فعلوا ذلك ! ، ففى ١٩٣١ انتقد الناطق باسم اللجنة المركزية للحزب البلشـفى نقدا مريرا « المثالية المنشفية المنزع » ، كما وردت فى الموسوعة السوفيتية الكبرى • وكان أول ما تعرض للهجـوم النبذة التى كتبها دبورين فى الموسوعة عن هيجل • فبعد أن فند الكاتب البلشفى آراء دبورين وآخرين من نفس مذهبه باعتبارهم أنصارا للمثالية المنشفية النزعة قال : « نعم لابد أن تشرح الجدلية المادية ، ولكن هذا الشرح يجب أن يستند الى أعمال ماركس وانجلز ولينين وستالين ••• » • هنا ظهر الرباعى المقدس (ماركس وانجلز ولينين وستالين) الذين يرمزون مجتمعين الى الفكر الستالينى والثقافة الستالينية التى تزايد انتفاخها بعد تعليق الصور الأربع الضخمة بالحجم الطبيعى على واجهة مسرح بولشوى بموسكو عند الاحتفال بيوم مايو فى ١٧ نوفمبر وفى مناسبات أخرى •

وهكذا نشـأ مبدأ تأليه ستالين كأول فيلسوف شـيوعى يجىء فى أعقاب ماركس وانجلز ولينين ، غير أن هذا الاجراء لم يبد كافيا • فلقد تضمن هذا التطور غرس بذرة التصلب والتحجر التى غدت الطابع المميز للثقافة الفـكرية الستالينية فى جميع المجـالات ، والتى تميزت به على البلشفية السابقة لستالين ، فلم يكن تناول كتابات لينين الفلسفية ـ وأقل من ذلك كتابات ستالين ـ كأنها عقائد مقدسة من النواحى التى

(*) من أمثال Mitin, Iudin

يكلف أشخاص بمتابعتها على الاطلاق ، ولم يعد ستالين مجرد الفيلسوف الأول ، ولكنه أصبح أيضا بمثابة الحجة الموثوقة فى بعض مجالات أخرى ، ويكلف بدلاء له ــ من أمثال أندريا فيشنسكى فى المسائل التشريعية ــ لاعتلاء عرش الحجة الموثوق بها • وكان من بين الأدوار التى ينهض بها أمثال هؤلاء النواب أو البدلاء لستالين تمجيد دوره فى معرض هداية الضالين ، أو توكيد صدق ما قاله ستالين • وتبعا لذلك كان بدلاء ستالين يختارون من بين العلماء الذين يجمعون بين الفراهة الفكرية ــ فى معظم الأحوال ــ والعبودية المطلقة ، التى يستطاع الوثوق فيها ، أما الشخص الذى يتمتع بأى قدر من الاستقلال الفكرى ــ وبغض النظر عن مدى تحمسه لخدمة الشيوعية ــ فمرفوض رفضا باتا •

واذا كانت الماركسية الفلسفية هى أول ميدان اختاره ستالين لانشاء صرح تأليهه ، فان تاريخ الحزب يعد الساحة التالية • وهنا كان يتحرك فى ساحة تتسم بشدة الحساسية السياسية • اذ كانت حوليات الماضى البلشفى من المقدسات الدفينة للحركة • غير أن ستالين أقحم اهتماماته الشخصية فى هذا المجال أيضا ، يعنى سيرته الثورية الخاصة ، ولم يكن هناك ما هو أهم من هذه الناحية فى نظر شخص انساق وراء الشعور بأنه لينين الثانى فى الحركة البلشفية فى الماضى وأيضا فى الحاضر • واتبعت خطواته الطريقة المعهودة التى اتبعها كثيرون فى سعيهم لتغيير سجل الأحداث ، فكتب رسالة الى رؤساء التحرير •

وفى بداية الثلاثينيات ، كانت أبحاث تاريخ الحركة الماركسية ما زالت تجرى بحرية أكيدة ، وتناقش القضايا التى تحتمل الخلاف بجدية ، واستمرت المؤلفات الدالة على البحث المخلص الجاد تصدر فى روسيا السوفيتية ، ونظر الى مجموعة من المسائل كتلك المتعلقة بالحزب الديمقراطى الاجتماعى الألمانى والدولية الثانية قبل ١٩١٤ بقدر كاف من الاهتمام الى حد قيام أكاديمية التاريخ الشيوعى بتكليف مجموعة خاصة بدراستها • وكان سكرتير المجموعة الأكاديمية هو سلوتسكى • ونشرت مقالات مختلفة كتبها أعضاء الجماعة ، وظهرت واحدة منها فى جريدة الثورة البروليتارية ١٩٣٠ • وتركز الموضوع الأساسى لسلوتسكى على موقف لينين من الانقسامات الداخلية داخل الحزب الديموقراطى الاجتماعى الألمانى قبل ١٩١٤ • وكان ادوارد برنشتين يتزعم جناح التصحيح فى هذا الحزب ، ويعارضه جناح الوسط الذى كان كارل كاوتسكى وأوجست بيبل يتزعمانه ، ورأى كثيرون ــ ومن بينهم لينين ــ ان منظورهما يمثل الماركسية الثورية أصدق تمثيل • ويمثل أقصى اليسار جناح من المتطرفين بزعامة روزا لوكسمبرج • وزعم سلوتسكى أنها منذ وقت باكر ، يرجع

الى ١٩١١ قد أدركت وأعلنت صراحة الطابع الانتهازى الأساسى لجناح الوسط الخاضع لكاوتسكى · أما لينين فبرغم التزامه الحذر من زعامة كاوتسكى — بيبل وانتقاده حتى منذ ١٩٠٧ ، الا أنه استمر يعلق آماله عليهما ، واعترف لينين نفسه فى رسالة ترجع الى أكتوبر ١٩١٤ : « بصواب موقف روزا لوكسمبرج » ، ولم يكتشف زيف الطابع الثورى لكاوتسكى فى وقت مبكر مثلما فعل اليساريون المتطرفون الألمان ، واستخلص سلوتسكى من ذلك ان لينين « قد كشف عن جانب من اساءة التقدير لخط الوسط فى الحزب الألمانى قبل الحرب » ·

ويثبت نشر هذا المقال أنه بالرغم من وجود تأليه للينين فى بواكير ١٩٣٠ ، الا أنه كان ما زال من الميسور نشر مقال لا يعامل لينين كأنه أيقونة مقدسة ، أو على أنه اله معصوم من الخطأ ، ويتمتع برؤى خارقة تتجاوز حدود البشر ، نعم لقد أحس — كما يبدو — محررو مجلة « الثورة البروليتارية » من البلاشفة (*) بالخطر المحتمل ، لأنهم أضافوا الى متن كتابتهم هامشا ينفون فيه اتفاقهم مع تفسير سلوتسكى لما قاله لينين وأنهم أجازوا طبع مقاله لغرض النقاش والبحث وحسب » · غير أنهم لم يكونوا على استعداد لمواجهة الصاعقة التى أثارها ظهور المقال عند أعلى مقام · فلقد أثارت سخط ستالين ، وكتب رسالة بطول المقال عنوانها : « فيما يتعلق ببعض مسائل فى تاريخ البلشفية » فى نهاية أكتوبر ١٩٣١ ·

وعمد ستالين أولا الى سحق موقف سلوتسكى الى حد تجاوز كل عقل ، وذكر أن اتهام لينين بالاستهانة بخطر « الانتهازية المستترة » ، يعنى اتهامه بأنه لم يكن بلشفيا صميما قبل ١٩١٤ ، « لأن البلشفى الحق لا يمكن أن يستهين بخطر الانتهازية المستترة · فمن البديهيات فحسب أن البلشفية ظهرت وترعرعت ونمت قوتها فى كفاحها الشرس ضد الوسط بجميع درجاته ، ومن ثم فما كان ينبغى على رؤساء التحرير قبول الهراء والهذيان والتوافه الملتوية » حتى اذا ذكرت لمجرد النقاش · فمسألة صحة ايمان لينين بالبلشفية ليست من المسائل التى تنتظر النقاش · ثانيا — احتج ستالين على نظرة سلوتسكى المشايعة لروزا لوكسمبرج واليسار المتطرف والحزب الديموقراطى الاجتماعى الألمانى قبل ١٩١٤ ، وشعر بشدة التقزز من مجرد تصور احتمال علم لينين أى شىء عن هؤلاء الأشخاص ·

(*) هؤلاء المحررون هم : M. Saveliev و V.V. Adoratskii و M. S. Ol'minskii و D. Baevskii و P. Gorin

وتكشف الطابع الروسى القومى المتشدد لبلشفية ستالين أيضا فى رسالته . فلقد عرض نظرة تاريخية تمحورت حول دور روسيا فى تاريخ الماركسية الأوروبية : « البلاشفة الروس محقون اذا اعتبروا موقفهم محك اختبار لصحة الماركسية الثورية عند الاشتراكيين الديموقراطيين فى الخارج . لقد تأكد تكهن لينين (الذى ورد فى كتابه : ما الذى يجب أن يجرى ؟ ـ ١٩٠٢ ـ) باحتمال أن تغدو البروليتاريا الروسية طليعة البروليتاريا الثورية الدولية فى صورة متألقة بفضل الأحداث اللاحقة ... « ولكن ألا يتبع ذلك أن الثورة كانت (وما زالت) هى مفتاح الثورة العالمية ، وأن المسائل الأساسية فى الثورة الروسية كانت فى ذات الوقت (كما هى الآن) المسائل الأساسية فى الثورة العالمية ؟ ألا يبدو واضحا أنه لن يستطاع تقدير مدى ثورية الديمقراطيين الاشتراكيين فى الغرب الا اعتمادا على هذه الأسئلة فحسب ؟ » . من هذا يتضح أنه لا يحق للماركسيين الغربيين ، لا قبل الحرب ولا بعدها ، اعطاء دروس لاخوانهم الروس . أما العكس فصحيح ! » » .

أما أى قول خلاف ذلك ـ أو يجيء فى صورة ضمنية أو مضمرة ، كما فعل سلوتسكى « فمن المحظورات التروتسكية » . وكى يعطى ستالين وزنا لهذا الاتهام القبيح ، أعلن أن ما ذكره سلوتسكى عن لينين قبل ١٩١٤ ، وبخسه لدور الوسط ، فلا يتجاوز كونه حيلة للايحاء « للقارىء الساذج » بأن لينين لم يصبح ثوريا صميما الا بعد أن بدأت الحرب ، وبعد « أن أعاد تسليح نفسه بنظرية تروتسكى التى ورد فيها أن الثورات البورجوازية الديموقراطية قد نمت وتحولت الى ثورات اشتراكية (يعنى نظرية الثورة الدائمة) » . ويذكر ستالين أن لينين نفسه قد كتب ١٩٠٥ « أننا نناصر الثورة التى لا تتوقف ، وأننا لن نتوقف فى نصف الطريق » . ولكن « المحظورين » من أمثال سلوتسكى لم تهمهم مثل هذه الحقائق ، والتى تثبتها كتابات لينين . ولاحظ ستالين فى موضع آخر من الرسالة أن سلوتسكى قد تحدث فى مقاله عن عدم جدوى بعض وثائق لينين المتعلقة بالفترة محل البحث : « ولكن من يتوقع امكان اعتماد البيروقراط الميئوس منهم على الوثائق الورقية وحدها ؟ وهل هناك أحد خلاف « جرذان » الأرشيف يشك فى وجوب الحكم على الأحزاب والأفراد اعتمادا على أفعالهم أساسا ، وعدم الاكتفاء بتصريحاتهم ؟ .

وعندما اقتربت الرسالة من نهايتها ، تحولت لهجة ستالين من الوقاحة الى الغدر . فعندما أعطى رؤساء التحرير منبرا لسلوتسكى يدافع فيه عن « المحظورين » ، فانهم أذنبوا وارتكبوا جريمة «الليبرالية العفنة» فى نظراتهم إلى الاتجاهات التروتسكية التى كانت شائعة من زمرة من

البلاشفة الذين فشلوا فى ادراك أن التروتسكية لم تعد منذ أمد طويل تتبع الشيوعية ، ولكنها تحولت الى طليعة للبورجوازية المعادية للثورة ، والتى أعلنت الحرب على الشيوعية والنظام السوفيتى وبناء الاشتراكية فى الاتحاد السوفيتى · ان هذا هو على سبيل المثال ما ترمى اليه المعتقدات التروتسكية عن استحالة اقامة الاشتراكية فى روسيا « ولابدية » انهيار البلشفية ·

هنا كرر ستالين علنا الحجة التى كان قد أوردها فى مذكرة كتبها ١٩٢٩ ، وقصد بها تحويل الميل الى التروتسكية أو التعاطف عليها من « فئة » الخطأ السياسى الى فئة الجريمة المقترفة ضد الدولة السوفيتية ، ومن ثم يتسنى له تبرير أعمال القمع التى أقدم عليها ضد المتهمين بالانتماء الى التروتسكية · والآن وبعد أن لفظ ستالين خلاصة حججه ، فانه انتهى الى ما يأتى : « ان الليبرالية التى تجنح نحو التروتسكية ، بالرغم من هزيمتها واحتجابها ، الا أنها تعد شكلا من أشكال التفريط التى تقترب من حافة الجريمة وخيانة الطبقة العاملة » · ويردف ستالين قائلا : « ومن هنا تكون مهمة رؤساء التحرير (وهنا حدث خلط فى لغته المجازية) » وضع دراسة تاريخ الحزب فى اطار الدراسة العلمية البلشفية ، وحذر من أنصار تروتسكى وجميع المزيفين لتاريخ حزبنا الذين يكشفون حقيقتهم بانتظام · وازدادت ضرورة هذه المهمة بعد أن وقع مؤرخو الحزب من البلاشفة الذين عرفوا بصدقهم الأكيد فى أخطاء أيدت الهراء الذى تنتجه سخائم نفس سلوتسكى وينهى ستالين : « لسوء الحظ ان هذا الشخص كان الرفيق اميليان اياروسلافسكى (عميد مؤرخى حزب البلاشفة وأيضا سكرتير البعثة المراقبة المركزية للحزب) الذى احتوت كتاباته عن تاريخ الحزب ، رغم مميزاتها ، على عدد من الأخطاء الأساسية ، وعلى عدم ادراك لروح التاريخ » ·

واذا تمعنا ما قاله ستالين قبل ذلك عن « جناح الوسط » فسيسهل علينا ادراك لماذا أغضبته حجة سلوتسكى التى انتقصت من لينين ، عندما ذكرت أنه استهان بجناح الوسط وخطورته فى حزب ألمانيا الديموقراطى الاجتماعى · فلقد رأى ستالين ١٩٢٨ أن القتال ضد خطر انحرافات اليسار واليمين ، لا يجعل من الشخص واحدا من الوسط ، فثلما لا تدل محاربة لينين للمنشفية فى جناح اليمين وللمنشفيين (*) فى جناح اليسار من الشيوعية على أن لينين كان من جناح الوسط · « فالوسطية » تعنى المسايرة والمماشاة ، وطبقا لهذا المعنى ، « فانها تكون بعيدة عن اللينينية

(*) Sectarianism

وتتنافر معها » فكيف اذن ، وبغض النظر عن الوثائق والمستندات التى قد تقع فى يد فئران الأرشيف يستطيع أى ثورى حق (يعنى بلشفى) الاستهانة ولو لفترة قصيرة بخطورة جناح الوسط ؟ • وفيما يتعلق بالعقليات التى تفكر على هذا النحو ، يتعين معاملة أمثال سلوتسكى معاملة قاسية ، بل وينبغى عدم اعفائهم من العقوبة الصارمة • وقبض على سلوتسكى فى الحركة الارهابية التى شنها ستالين ، وأمضى بضع سنوات فى معسكر للاعتقال (٣) •

بيد أن رسالة ستالين بالاضافة الى تعبيرها عن غضبه ، فانها اتبعت هدفا ثلاثيا فى تعزيز مبدأ تأليه شخصيته ، فعلى الرغم من أن اسمه لم يرد فى سياق الرسالة (وهل كان بوسعها أن تفعل ذلك ؟) فانها أكدت مبدأ تأليه ستالين فى تاريخ الحزب ، بحكم كتابته لهذه الرسالة ، وبحكم لهجتها ومضمونها ، فأولا ــ فانه عندما كتبها ــ أو تصور أنها كتبت (وفقا للمعانى التى حددها وصدرت باسمه) فانه نسب لنفسه مكانة المؤرخ الأول للحزب ، والفيصل فى المشكلات التى تنجم عن الخصومة فى هذا المجال الحساس ، لذا لم يكن هناك ما يدعو لذكر اسم ستالين ، واكتفى بجعلها وثيقة تحمل الطابع الدوجماطيقى ، من كل ناحية ، بحيث لا يخطىء أحد فى استنتاج نسبتها اليه ، اذ كان مجرد نشر الرسالة يعنى توكيد تصور ستالين لنفسه كأسمى مصدر موثوق فى الموضوع ذاته الذى يمثل مبدأ تأليه الشخصية ، مثلما نما على طريقة الفطر فى الثلاثينيات ، من خلال ماضى البلشفية ودوره ودور الآخرين فيها •

ثانيا ــ اتبع ستالين فى الرسالة مثلما حدث أثناء لقائه بفريق الفلاسفة استراتيجية غرس مبدأ التأليه عن طريق ادعاء معصومية لينين ، فعندما أضفى ستالين على الزعيم السابق القداسة التى تتجاوز كل حد ، وتعلو على أى نقد فكأنه بذلك لمح فى رسالته ــ بطريقة ضمنية مضمرة ــ الى وجوب معاملة خليفته (خليفة لينين) معاملة مماثلة ، ولما كان ستالين هو بالذات الشخص الذى حياه الحزب ١٩٢٩ باعتباره رئيسه المعترف به وخليفة للينين ، فان ما عناه ذلك هو الزام مؤرخى الحزب بمراعاة الحرص والكف عن البحث عن هنات أو مواضع زلل فى ماضيه السياسى ، أى معاملة ماضيه نفس معاملة ماضى لينين • فلقد كان المتخصصون فى فك طلاسم الشعارات الدلفيه مثل مفكرى الحزب الشيوعى ملزمين باستخلاص مثل هذا الاستدلال فى خواطرهم أو فى الأحاديث التى تدور

---

(٣) لابد ان اشيد بفضل Stephen F. Cohen, Roy A. Medvev للبيانات التى نقلتها عما حدث بعد ذلك من القاء القبض على سلوتسكى وسجنه •

بينهم ، بل لقد لمح ستالين الى هذا المعنى تلميحا مسهبا عندما أشار فى عبارة رددها أكثر من مرة فى رسالته : « كان يقول لينين عندما يقصد بذلك البلاشفة » • و « لينين » بأمر ستالين ، تدل على الثوريين البلاشفة الصميمين باعتبارهم متمايزين عن أى طائفة أخرى ، أو عن جميع الطوائف الأخرى من يمينية أو يسارية أو وسطية ، والكلمات التى وضعها ستالين بين قوسين قد عددت صفاته الثورية ، دون ذكر أسماء ، غير أن أى شخص على قدر لا بأس به من الذكاء يؤهله للعمل مؤرخا للحزب ، كان بمقدوره أن يخمن أى الأسماء يتوجب أن يأتى ذكر اسمها فى قائمة البلاشفة ، بنفس المعنى للفظة الذى مر بخاطر ستالين •

ثالثا ــ طالبت الرسالة صراحة تقييم ماضى الثوريين فى الحزب على أساس أفعالهم وليس بالاعتماد على الوثائق التى باستطاعة فئران الأرشيف الحصول عليها أو الاخفاق فى الكشف عن سرها ، وبالطبع لابد من توثيق مثل هذه الأفعال بأسرع ما يستطاع ، حتى يصبح ستالين أعظم فأر فى الاتحاد السوفيتى ، أو اذا توخينا الدقة أن يكون زعيما لزمرة كاملة من هذه الفئران ، بالرغم من أنه كثيرا ما كان يتعطش لاتلاف الوثائق ، أو اخفائها حتى لا ينكشف أمرها ، أو تنشر ، ولمن استطاعوا ادراك ما جاء ضمنا فى الرسالة ، أظنهم قد فهموا منهـا أن مؤرخ الحزب يجب أن لا يسترشد بما يستطيع الحصول عليه من وثائق (كما فعل سلوتسكى) ، وانما بما يعرف مسبقا وجوب اتصافه بالصحة ، يعنى فى حالة لينين أنه بوصفه « بلشفيا ضميما » فانه لم يكن بمقدوره الاستهانة بالوسطية ؛ وفى حالة ستالين ، فبوصفه أيضا بلشفيا ، فانه ما كان بوسعه أن يتخذ موقفا غير بلشفى فى أى موقف • أما دور المادة الوثائقية ، أو اخفائها فهو المساعدة فى توطيد مثل هذه الحقائق العليا • واذا استعملت على نحو آخر كان الغرض من ذلك هو التشهير أو تزييف الحقائق ، بناء عليه ، تكون رسالة ستالين الهجائية ضد المزيفين هى دعوته الباحثين للتأهب للتزييف (بالمعنى المألوف للكلمة) كلما سمحت احدى حقائق التاريخ المسبقة ــ كما كشفت عنها كلمات ستالين أو أحد الناطقين باسمه ــ وبما يتعين أن تمليه •

وبالاستطاعة بيان مداول ستالين فيما يتعلق بمبدأ تأليه الشخصية بالرجوع الى انتقاده لأحد المؤلفات يعنى كتاب اياروسلافسكى ، ولم يحدد ستالين صراحة طبيعة الأخطاء التى يشير اليها ، ولعل اياروسلافسكى نفسه قد شعر بالحيرة نوعا • فلقد كتب الى ستالين جملة رسائل طالبا الايضاح • ولكنه لم يتلق أى رد • ففى عدة مناقشات دارت داخل الحزب قبل ظهور رسالة ستالين ، دافع اياروسلافسكى عن جميع حقوق اللينيين

فى الافصاح عن نظرة لينين « فى أية مسألة خلافية » دون خشية أى اعتراض. ووصم ستالين هذا النفر بأنهم من أنصار جبهة التصحيح (٤) . « ويعد هذا الموقف ــ يقينا ــ نزعة ليبرالية عفنة » . وأما فيما يتعلق بالأخطاء التاريخية ، فان أية نظرة سريعة الى الجزء الرابع من تاريخ الحزب ، الذى يتناول الحقبة بين ١٩١٧ و ١٩٢١ ، ونشر تحت اشراف اياروسلافسكى ، فانها قد بينت له (لاياروسلافسكى) جانبا واحدا على الأقل من الصعوبات ، فبينما اتصف هذا التاريخ بعدائه المسموم لتروتسكى ، كما يبين مثلا من كلامه عن موقف تروتسكى فى الخلاف حول اتحاد العمال السوفيت ١٩٢٠ ، الا أن الكتاب تناول التروتسكية باعتبارها ممثلة للشق العنيد الأحمق من الشيوعية ، التى وصفها ستالين بأنها قد توقفت عن الوجود «منذ أمد بعيد» ، ولم يحرص الكتاب على بيان كيف كانت التروتسكية ــ حتى فى البداية ــ الطليعة الرائدة للنزعة البورجوازية المنشقة التي قال ستالين انها قد أصبحت تنسب اليه . وحتي الصور الفوتوغرافية المطبوعة ، فالظاهر أنها قد أسىء اختيارها فى بعض حالات . ففي احداها مثلا ، يظهر المجلس الأصلى للينين المؤلف من ١٥ عضوا من قوميسيارات الشعب ، ويظهر تروتسكى يسار لينين والكسى ريكوف في الجانب الأيمن من لينين ، بينما يرى ستالين في الصف السفلى ، ووراءه جدار الكرملين . وفي صورة أخرى قديمة للمبعوثين السوفيت الى مجادثات برست ، وكان تروتسكى يرأسهم ، نراه فى الصف العلوى ، ويبدو وسيما في مظهره وله شخصية خلابة ، أما ما فات اياروسلافسكى ولم يدركه ، أو لعله أدركه بعد لأي ، فهو احتياج توكيد شخصية ستالين الى اعادة النظر في الصورة وانكار وجود كثيرين ممن أدوا دورا أبرز في الثورة من الدور الذي أداه ستالين .

وفضلا عن ذلك ، فان هذا المجلد عن تاريخ الحزب قد أشار باقتضاب الى جريدة « الثورة البروليتارية » .

وبمجرد وصول رسالة ستالين فتحت بوابات جهنم على مصراعيها أمام تاريخ الحزب « والجبهات النظرية » ، وأسرعت أكاديمية الشيوعية بالمبادرة للدعوة للاجتماع لمناقشة ما تضمنته الرسالة أو الوثيقة بالنسبة لعملهم . ورفت كثير من المحررين والباحثين من وظائفهم ، وأبعدوا من الحزب . وبعد أن طرحت صحيفة الثورة البروليتارية المشكلة التى احتوتها الرسالة ، توقفت عن الصدور ١٩٣٢ . وعندما عاودت الظهور فى

---

(٤) M. N. Pokrovskii and the Impact of the First : Paul H. Aron Essays in Russian and Soviet History in ضمن كتاب Five Year Plan, Honour of Geroid Tanquary Robinson (١٩٦٢ ــ ص ٣٠٩)

بواكير ١٩٣٣ م أشرفت على تحريرها ادارة جديدة كان من بين أعضائها ايفان توفستوخا ، الذى سبق له شغل منصب السكرتير الشخصى لستالين لبعض الوقت .

ويبين من مصادر الأرشيف السوفيتى أن جميع المجلات التاريخية السوفيتية قد تلقت تعليمات بطبع النص الكامل لرسالة ستالين ، ونشر المقالات المناسبة لتفسيرها من مختلف نظرات تخصصاتهم . وفى رسالة سرية (فى ٢٦ نوفمبر ١٩٣١) الى رئاسة تحرير احدى المجلات (الكفاح الطبقى) قال مخليس (*) — وكان يشغل فى سالف العصر والأوان وظيفة مستشــار شخصى لستالين ، وشغل بعــد ذلك منصب سكرتير تحرير البرافدا : ان المادة المعدة للنشر يجب أن تكتب وفقــا لمنظور توجيهات ستالين ، واجتمعت رئاسة الأكاديمية الشيوعية فى ٣٠ نوفمبر لاستعراض كيفية الاستجابة لرسالة ستالين ، وتأييدهــــا . وذكر ك . ج . لور السكرتير الأكاديمى لجمعية المؤرخين الماركسيين أنه قد صدرت التعليمات لجميع أعضاء الجمعية باستعراض كل ما كتب عن تاريخ الحزب ، بطريقة نقــدية ، على ضــوء « مقــال » ستالين . وتمثل الحظر المفروض على التروتسكية فى جملة أعمال.فمثلا لقد أخفق كثيرون فى ايضاح الدور الرائد الأبكر للبلاشفة الروس فى حلبة الماركسية الدولية . وجمع لور ونقد ثلاثة من الشخصيات المعروفة فى الحزب (اياروسلافسكى وكارل راديك ومينتس) (**) .

ويتضح من النشرات والتقارير الواردة من جماعات أكاديمية أخرى أن المؤرخين لم يقتصروا فى مؤلفاتهم التاريخية على تفسير رسالة ستالين تفسيرا معتمدا من الناحية الرسمية . فقد اشترك فى هذه الناحية جميع أعضاء جبهة المسئولين عن النواحى النظرية وقطاعاتها ، وشجب أحد ممثلى النقد الأدبى النظرية المتشفية التروتسكية لكتابات مكسيم جوركى دون أن يبين ماهية هذه النظرات (موضع الشجب) وقال ان رسالة ستالين قد استوجبت نقد السياسة الأدبية— التى لم تتحدد أيضــا —للدولية الثانية ، وأعلن كاتب يدعى بوتايف أن معهد الاقتصاد قد عين فريقــا خاصا لاعادة النظر فى النظرية الاقتصادية على ضوء رسالة ستالين ، « والقاء الضوء على حظر ذكر اسم تروتسكى فى المؤلفات الاقتصادية » . ومن أمثلة هذه المحظورات ، النظرات المثلة « للبورجوازية الصغيرة » ، والتى كانت مازالت سائدة والمعتقدات التروتسكية التى عرفت الاشتراكية

(*) Mekhlis.

(**) I. I. Mints.

بالمذهب الذى يدعو الى المساواة فى الثواب والعقاب ، والنظرة التى ترددت فى الكتاب الذى صدر ١٩٣١ وذكر فيه ان مصانع فورد (الأمريكية) وخطوط التجميع من النماذج التى يتوجب الاقتداء بها فى عملية الترشيد السوفيتى عند جدولة برامج العمل • وعندما تحدث باشو كانيس عالم نظريات التشريع أمام معهد الانشاء والقانون السوفيتى ، انتقد كتابا ألفه اثنان من المفكرين (أحدهما بوتايف) لأنه لم يحتو على أية اشارة الى ما قـاله سـتالين ١٩٢٧ عن الدولة البروليتـارية ، واعترض أوستروفيتيانوف ــ من رجال الاقتصاد ــ على الفكرة التى كانت مقبولة حينذاك ، عن انتماء كتابات لينين وستالين الى السياسة باعتبارها تمثل موضوعا آخر غير الاقتصاد • بينما فى الحق فان هذه الكتابات تمثل القوانين الأساسية لبناء الاشتراكية ، والحياة الاقتصادية السوفيتية • فلا غرو اذا اضطلع أوستروفيتيانوف فى السنوات التالية بدور لسان حال ستالين فى المسائل الاقتصادية •

وهاجم متحدث باسم معهد التكنولوجيا « النزعة التقنية المحصورة الأفق » ، التى وصفها بأنها من سمات التروتسكية ، وأدان السياسـة التكنولوجيـة « للفاشية الاشتراكية » ، كما أشار الى الحاجة الى مؤلفات فى مختلف فروع التكنولوجيا • ولاحظ ممثل لمعهد الفلسفة بالاضافة الى حديثه عن مهامه الجديدة « وجوب اصدار كتاب يعرض فى أقرب فرصة بطريقة نسقية الأفكار الأسـاسية لماركس وانجلز ولينين وسـتالين عن التكنولوجيا » وتعجب ممثل رابطة العلوم الطبيعية من أسباب عدم الأخذ بالمسلمات المنهجية الأسـاسية للفزياء التى طرحهـا لينين فى كتابه : « المادية والنقد التجريبى » ، والاسترشاد به فى محاولة لخلق تصـور للفزياء يساعد على استحداث تصورنا الماركسى اللينينى لتكوين المادة » • وتذكر ناديجدا ماندلستام ــ وكانت تعمل آنئذ فى مكتب تحرير مجلة التربية الشيوعية ــ « كيف كانت جميع المخطوطات يعاد فحصها ، بعد شعور بالذعر ، وكيف قمنا بحذف الكثير منها بلا شفقة ولا رحمة ، وسمى هذا الاجراء : « اعادة التنظيم على ضوء ملاحظات الرفيق ستالين » (٥) •

ان هذا الاندفاع الشـذر مـذر للتنقيب عن المخطوطات التروتسكية «والليبرالية العفنة» ، قد بدا بلا شك أمرا مجهدا للغاية لكثيرين من شاغلى الوظائف المسئولة ، بتأثير ما تعرضوا له من ضغوط وبلبلة فى

---

(٥) ناديجدا ماندلستام : الأمل ضد الأمل (ذكريات) (١٩٧٠) ص ٢٥٩ •

وعلى الرغم من وصفها هذا المقال بأنه رسالة (فى مجلة البلشفى) ، الا انه لا يخفى من السياق أن ناديجدا كانت تشير الى الرسالة التى كتبها ستالين ١٩٣١ الى مجلة الثورة البروليتارية ، والتى نشرت أيضا فى مجلة « البلشفى » •

بعض الحالات ، بالرغم من أن ستالين لم يكن قد تحول بعد الى ديكتاتور مطلق • وأخفق بعض من يشغلون المناصب فى ادراك هذه الحالة ، وفى فهم بواعثها • وسعى عدة بلاشفة من القدامى المرموقين (*) لكبح جماح هؤلاء المجدين (كما سماهم اياروسلافسكى فى ملحوظة كتبها بخط يده عثر عليها فيما بعد فى أرشيف الحزب) ممن تصوروا رسالة ستالين كأنها التنزيل الجديد ، ويشير كنورين الى اجتماع عقدته هيئة الحزب فى جمعية المؤرخين الماركسيين فى ١١ نوفمبر ١٩٣١ ، وقررت الاكتفاء بالنظر الى الرسالة على أنها أعادت طرح بعض الاتجاهات الليننية الأساسية ، ومن ناحية أخرى ، ذكر « لور » أن تاريخ الحزب قد افتقر الى طابع منهجى قبل ظهور رسالة ستالين ، وأن المؤرخين لم يدركوا الصلة بين النظرية والممارسة العملية • وكتب مينتس ـ وكان بين الحضور ـ رسالة الى اياروسلافسكى الذى كان خارج المدينة قال فيها ان « لور » فى حديثه الحقير والخبيث قد عرض المسائل بطريقة خالية من الود • « فقبل رسالة ستالين ، لم يوجد أى شىء ، ولم تدرك الصلة بين الناحية النظرية والناحية العملية الا الآن » • غير أنه بعد أسابيع ثلاثة ، أبلغ « لور » رئاسة الأكاديمية الشيوعية عن الموقف فى جمعية المؤرخين الماركسيين • وفى ذات الوقت تقريبا ، حذر اياروسلافسكى « من بعض الأشخاص المعوجين الذين يبغون التربح من وراء هذه المسألة » ، التى وردت فى رسالة ستالين • غير أن هذا البيان بالاضافة الى ملحوظته المكتوبة بخط يده ، والتى تذكر كيف « استطاع المجدون ابعادى ١٩٣١ » لم يقدر لها النشر الا ١٩٦٦ •

وبعد مرور شهر من نشر رسالة ستالين ، عكف مركز قيادته على اتخاذ الاجراءات ضد من طالبوا بوضع القيود ••• وألقى لازار كاجانوفتش خطابا طويلا فى معهد الأساتذة الحمر فى ديسمبر ١٩٣١ بمناسبة مرور عشر سنوات على انشاء المعهد • وعندما ظهر الحديث فى جريدة البرافدا ، بعد ذلك ببعضة أيام ، اتضح أن الخطاب كان موجها لجميع المثقفين السوفيت ، غير أن كلمة « خطاب » لم تكن الكلمة الصحيحة • وأفضل وصف له هو أنه مجموعة من الكلمات التى يزيد عددها عن بضعة آلاف والأوامر القاطعة ، أصدرها الشاويش « التعليمجى » كاجانوفتش لجيش المثقفين يطلب منهم فيها الايضاح والاذعان والانحناء ••• لما جاء فى رسالة « الجنرال » ستالين •

(*) من امثال Ol'min kii و Iaroslavskii و V. Knorin و N. Lukin.

ومهد كاجانوفتش لحديثه عن الرسالة بتوكيد الأهمية البالغة لتلقين التعاليم الماركسية اللينينية فى وقت لم يزد فيه من انخرطوا فى سلك الحزب ابان ثلاث أو خمس سنوات عن عدد يتراوح بين نصف المليون والمليونين مما مجموعه مليونان ونصف المليون من أعضاء الحزب بينما كان الكومزومول يضم خمسة ملايين ونصف من شباب الشيوعيين ، ولم يكن هناك بين أعضاء الحزب من ينازع فى صحة هذه الأرقام ، ودلالتها العامة • غير أن كاجانوفيتش سرعان ما أوضح أن المسألة موضع الخلاف هى مضمون المادة الملقنة للحزب • فيجب أن يعرف ملايين الأعضاء الجدد أنه اذا صح أن البلد الذى وصف يوما ما بأنه أكثر البلاد تخلفا فى العالم قد أصبح الآن بلدا اشتراكيا ، فاننا ندين بالفضل بذلك للكفاح الغيرى الذى شنه أفضل الناس ، وعلى رأسهم لينين ضد من يدعون أنهم الماركسيون الشرعيون والمنشفيين والتروتسكيين اليمنيين ، ثم تحدث كاجانوفتش عقب ذلك عن تجريم من جنحوا الى التزييف والتشهير أمثال المؤرخ سلوتسكى ، وأردف كاجانوفتش قائلا : « لقد اعترف رادك بأخطائه لبعض أعضاء الحزب فى جمعية المؤرخين الماركسيين • واعترف فوق ذلك بان روزا لوكسمبرج لم تتبع دوما الموقف الفلسفى الصحيح » ولكن « روزا » كانت مجرد قنطرة لادعاء الانتماء للبلشفية عبر فوقها أفضل العمال الاشتراكيين الديموقراطيين • والواقع أن رادك نفسه كان قنطرة أو همزة وصل بين روزا لوكسمبرج وتروتسكى ، كما جاء فى اتهام كاجانوفتش ، الذى أرجع أهمية رسالة ستالين الى مهاجمتها لسلوتسكى (المنشفى السابق) والتافه ، الذى سحقه ستالين « على الماشى » • والى أنها كشفت النقاب عن « الليبرالية العفنة » التى كشف عنها محررو صحيفة الثورة البروليتارية عندما تحدثوا عن انحرافات البلشفية ، وشوهوا تاريخ الحزب • ولم تكن هذه الصحيفة هى نقطة الضعف الوحيدة • فهناك ما هو أضعف من ذلك ، يعنى التاريخ الذى كتبه ياروسلافسكى ونشره فى أربعة أجزاء ، واحتوى على نقد للأخطاء « التى لا يستبعد أن تتزايد الى ما هو أكثر » ونوه كاجانوفتش الى أن من بين الأخطاء التاريخية الفاحشة التى وقع فيها ، تقديراته الخاطئة والضارة لدور البلاشفة فى الحقبة الأولى التى بدأت ١٩١٧ ، وتشهيره المقذع بالبلاشفة » ، ووجه كاجانوفتش هذا اللوم المستتر الى ياروسلافسكى لأنه أشار الى موقف ستالين الخاطىء فى مارس ١٩١٧ ، ثم جاءت بعد ذلك اشارة تخص المنهج التاريخى فالعلامة المشرقة فى أى تاريخ شامل للحزب يجب أن تتركز على ما تحلت به تكتيكات لينين من مرونة ، وليس على الفقرات التى رددها لينين جملة مرات « كوصفه لكاوتسكى بالوغد » • قصارى القول ، ان ما قاله أى بلشفى صميم أو فشل فى قوله فى وقت

بالذات ، أو وقت ما ، ليس هو محك الحقيقة التاريخية للحزب • فلابد من تفسير الوثائق تبعا لقاعدة مؤداها عدم احتمال وقوع الثورى البلشفى الحق المنتمى الى الحزب فى أى خطأ •

واختتم كاجانوفتش كلامه بنداء مستتر يدعو الى تشديد حملة مطاردة المضللين • فهناك مصاعب جمة ، والقتال لم يتوقف والصراع الطبقى ما زال مستعرا : « والانتهازية تحاول الآن التغلغل فى صفوفنا والتستر فى مظهر جذاب ، والتسلل محاولة اختراق الشقوق • وتحاول — بوجه خاص — التسلل من خلال بوابات التاريخ الخاص بحزبنا » • وفى حديث قريب العهد ، أخطأ راتك فى تشبيه الكومنترن بقناة تتفرع منها روافد عديدة مختلفة ، وبجديولات تصب فى الحزب البلشفى • ولكن الحزب ليس ملتقى الروافد والجديولات ، ولكنه مجرى يتسم بالوحدة المتينة والقدرة على سحق جميع العراقيل التى تعترض طريقه • والمعنى واضح ، رغم ما فى اللغة المجازية من تشوش • فبعبارة أخرى ، عليك أن لا تخرج عن الصف ، حتى لا تصبح التهلكة من نصيبك ! •

وبادر المطالبون بفرض القيود وآخرون بالانضمام الى صفوف المتقدين ، ففى غضون الأيام الاثنتى عشرة التى أعقبت حديث كاجانوفتش فى أول ديسمبر ، حملت جريدة البرافدا بعض رسائل الاستنكار من راديك وياروسلافسكى ومؤرخ الحزب قسطنطين بوبوف ، واعترف راديك بالذنب عن جميع الاتهامات التى أوردها كاجانوفتش ، وانضم الى حملة الهجوم على أنصار روزا لوكسمبرج ، واعترف ياروسلافسكى بمجموعة كبيرة من الأخطاء الجسيمة فى مؤلفه التاريخى المؤلف من أربعة أجزاء ، والذى اشتمل على نظرة موضوعية لموقف البلاشفة فى فترة فبراير ومارس من ثورة ۱۹۱۷ — وكانت هذه النظرة مناصرة لتروتسكى بالضرورة • (ويفترض أن التروتسكية قد جاء ذكرها ، لأن تروتسكى كان واحدا ممن لفتوا الانتباه الى الحقائق المعروفة تماما عن موقف ستالين آنئذ) • وتنصل ياروسلافسكى من النظرة التى عبر عنها منتس فى حديث قريب العهد قال فيه ان مؤلف كتاب التاريخ المكون من أربعة أجزاء قد أخطأ بنسبة الموضوعية الى كتابه ، وأن ما يطالب به الآن مؤرخو الحزب ليس الموضوعية بقدر سعيهم للنفع السياسى » • كلا ! لقد كذب ياروسلافسكى • فلم يطالب الحزب بتخلى المؤرخين عن الموضوعية ، وليس بمقدورهم أن يفعلوا ذلك • اذ كانت المشكلة هى اساءة مؤلف الأجزاء الأربعة الى الموضوعية ، واستسلم ياروسلافسكى للأمر الواقع واتجه لتأليف كتاب عن سيرة ستالين ، مجده فيها ، ونشرت ۱۹۳۹ •

وبصراحة ، لقد رئى ان الاعتراف بالتضليل ليس كافيا ، فيجب أن يزج بالمضللين الى محاكم التفتيش ، لأنه من غير المتوقع أن تؤخذ عملية التراجع بمأخذ الجد ، الا اذا وضع المضللون فى قفص الاتهام • اذ يعد نبذ التروتسكية المحظورة من قبل الآخرين اثباتا بصحة انتماء الشخص الى البلشفية الحقة ، يعنى الستالينية • وتحولت عملية الانكار المتبوعة بالنبذ من طقوس التقاليد السوفيتية السياسية • ولا يزيد انكار اياروسلافسكى العلنى لصديقه منتس عن مثل من الأمثلة العديدة الدالة على ذلك •

ومع هذا فحتى الآن لم يكن ستالين قد مارس السلطة المطلقة • ولربما أشار بعض من كانوا يحتلون مكانة أعلى من مكانة اياروسلافسكى فى مراتب السلطة الى الحاجة لوضع كوابح ، وكان من بينهم « ك • ب • بوستيشوف » الذى كان يشغل آنئذ منصب عضو كامل فى اللجنة المركزية للحزب ، وعضوا فى الأورجبيرو (*) ، وأحد السكرتيرين الأربعة الذين يعلمون تحت امرة السكرتير العام ستالين ، وبوصفه سكرتيرا ، كان بوستيشوف مسئولا عن قسم التنظيم فى اللجنة التنظيمية ، وعن لجنة توجيه الرأى العام والدعاية • ومن بين اختصاصاتها الاشراف على الصحافة • وأكد فى أحد أحاديثه فى مؤتمر حزبى فى احدى دوائر موسكو ، الأهمية العظمى لرسالته ثم وجه اللوم لبعض خلايا الحزب لاخفاقها فى التفرقة بين الأخطاء الفردية الجزئية « والنظرات النسقية » فبطبيعة الحال هناك أنصار متخفون لتروتسكى بين صفوف الحزب يتعين كشف أمرهم وابعادهم • ولكن هناك أيضا رفاقا ارتكبوا خطأ ما فحسب ، وبدلا من نبذهم باعتبارهم منحرفين وطردهم من الحزب ـ مثلما فعل بعض من الغافلين النائمين على أرواحهم ـ فانهم طالبوا الآن باتاحة فرصة ثانية لهم للظهور ، ولا بأس بعد ذلك من عودتهم للنوم ثانية ، واعتقد أن الواجب يقتضي انتقاد الرفاق اللاهين بطريقة أخوية • وكان مصير بوستيشوف بعد محاولته كبح جماح تجاوزات المضللين من الدروس المستفادة ، فلقد قبض عليه ١٩٣٨ ، وأعدم ١٩٤٠ فى أحد معسكرات الاعتقال التى أنشأها ستالين •

وكان الجهبذ الذى وضع فكرة تأليه ستالين هو الشخص موضع التأليه بلحمه ودمه • غير أن هناك كثيرين تقدموا بالمساعدة لتحقيق ذلك ابتداء من بعض أفراد حاشية ستالين أو بطانته من أمثال جانه فتش ومخليس الى بعض من يعملون من وراء الستار فى ميدان الأيديولوجيا

(*) Orgburo.

مثل « لور » ٠وربما تساءلنا عن هوية المجدين ؟ ولا ريب أن بعضهم كانوا من الأشخاص المتعلقين بستالين ، أو بالرجل الذين توهموا اتصافه بالمثالية ٠ وكان بعض آخر مجرد موظفين ممن افتقروا ـ فى أغلب الظن ـ الى ما يؤهلهم للاشتغال بالمسائل الفكرية ، ولكنهم اتصفوا بالفطنة أو « الفهلوة » ، أو لعلهم وهبوا قدرا لا بأس به من السفالة يعينهم على انتهاز فرص التسلق الكامنة في النظام الستالينى القائم على التمجيد الشخصى ، ومن المتسلقين الذين شقوا طريقهم الى القمة باتباع هذه الوسيلة من أمثال رئيس الشرطة السرية فى جورجيا : لافرنتى بريا ، الذى ارتقى الى وظيفة رئيس لجنة الحزب فيما وراء القوقاز ١٩٣٢ بمساندة ستالين ٠ والصفة العامة الوحيدة التى لا غنى عنها التى يشترك فيها جميع الممجدين لستالين هى القدرة على تحريف الحقيقة وتزييف الوقائع التاريخية ٠ وكما عبر عن ذلك ياروسلافسكى ذاته : ينبغى أن يكون «المجدون» مجردين من المبادىء » ، ولديهم قدر كاف من الطواعية ينسيهم ضمائرهم بالقدر الذى تتطلبه عملية ترسيخ فكرة تأليه ستالين ٠

. . . .

وكانت الرسالة التى أرسلها ستالين الى صحيفة «الثورة البروليتارية» نقطة تحول فى تطور فكرة التأليه ، فابتداء من وقت ظهورها ، أصبحت عملية تأليه ستالين من الحرف النامية فى روسيا ، فلا وجود لميدان فى الثقافة السوفيتية كان قادرا على الافلات من البحث عن وسيلة مستلهمة من رسالة ستالين٠ وعلى سبيل المثال ، خصصت مجلة الموسيقى البروليتارية مقالها الافتتاحى فى يناير ١٩٣٢ للتحدث عن الحقيقة المعروفة على خير وجه ، التى اعترف بها ستالين بالذات فى حديث ١٩٢٤ م بأنه فى مارس ١٩١٧ وقبل عودة لينين لروسيا وتوكيد رسالته فى ابريل ، كان ستالين يشترك هو وكامنييف ومورانوف فى خطأ تصور أحد المواقف السياسية للحكومة المؤقتة (فلقد دافعوا عن موقف الحزب ، وقالوا انه يمارس الضغط على الحكومة حتى تنسحب من الحرب) ٠ لقد كانت هذه الحقيقة التى تيسر توثيقها عن تاريخ الحزب ـ كما كتبت ١٩٢٩ ـ من بين أخطاء ياروسلافسكى التى أشارت اليها رسالة ستالين ، وتحولت الى « لا واقعة » فى تاريخ الحزب ، كما أعاد كتابته ياروسلافسكى وآخرون فى الثلاثينيات ٠ وامتدت عمليات التزييف الى فرض رقابة استذكارية قام بها ستالين ـ أو أجريت ارضاء له ـ لكتاباته الأبكر ، كما حدث مثلا عندما حذفت اشارات ستالين ١٩٢٤ للموقف الذى اتخذه فى مارس ١٩١٧ من الطبعات المتأخرة من كتابه « مشكلات اللينينية » وزيف كتاب « السلطة » (*) التاريخ الفعلى للحزب ، حتى يتوافق هو والصورة

(*) Subservient Writers.

المصطبغة بالصبغة المثالية « للبلشفي الصميم » الذى يعد انحرافه عن الطريق القويم للثورة مستحيلا • وهى صورة تمثل تصور ستالين لنفسه، وقد طرح ستالين الأساس المنطقى لهذا المنهج التزييفى فى رسالة « واجبنا فى الجبهة الموسيقية » على ضوء الرسالة ، وحمل المقال الافتتاحى المناظر فى فبراير ١٩٣٢ عنوان « التيقظ البلشفى » فى نظرية مسك الدفاتر فى الجبهة » فى عدد خاص عن « الحسابات الاشتراكية » • غير أن التاريخ الثورى ودور ستالين فيه ظلا موضوع الاهتمام الرئيسى • ومن الأمثلة البسيطة لذلك ، وان كان يمثل أمثلة عديدة ، مقال نشر فى جريدة البرافدا بعد ظهور رسالة ستالين بفترة وجيزة • وشجب هذا المقال كتابا عن تاريخ الكومنترن لعدم ورود اسم ستالين فيه أكثر من مرتين ، وقال : « ما لم يبرز دور الرفيق ستالين الرائد فى تاريخ الكومنترن ، فى أى تاريخ يكتب عن الكومنترن فانه لن يصح الاعتراف بأى مرجع من هذا القبيل ضمن مراجع تاريخ الكومنترن » •

وبعد أن وصف نفسه بمؤرخ الحزب الأول ، ألقى ستالين محاضرة أخرى للرد على عضوين من أعضاء الحزب (*) ، كانا قد ألفا كتابين أجابا فيهما على رسالته • ونشر الرد عليهما فى ١٥ يناير و ٢٥ يناير ١٩٣٢ فى صحيفة البلشفى (ثم فى صحف أخرى) فى أغسطس التالى ، والظاهر أن ليخنوفتش قد حاول أن يثبت أنه ستالينى أكثر من ستالين نفسه ، فأشار الى أن « التروتسكية لم تكن يوما ما جزءا من الشيوعية » ولكنها كانت فى جميع الأوقات جزءا من المنشفية » ، بالرغم من أن الحزب الشيوعى قد اعتبر تروتسكى والتروتسكية فى وقت ما ـ من باب الخطأ ـ من صميم البلشفية • وبعد أن وجه ستالين ضربة قاضية لهذا التلفيق ، كشف عن الانفصام الكامن فى شخصيته ، فقال انه لا ينكر أن التروتسكية كانت تنتمى فى يوم من الأيام الى الشيوعية ، ولكنها كانت تتذبذب من حين لآخر بين البلشفية والمنشقية ، وحتى عندما كان التروتسكيون ينتمون الى الحزب البلشفى ، فانهم لم يتصفوا بالبلشفية الحقة ، ومن ثم يصح القول بأن التروتسكية كانت جزءا من المنشفية قبل أن ينضم التروتسكيون الى حزبنا ، فانطووا مؤقتا تحت لواء الشيوعية ثم عادوا أدراجهم مرة أخرى الى أحضان المنشفية ، بعد اقصاء التروتسكيين من حزبنا « وهكذا يكون الكلب قد عاد الى قيئه » •

وأكدت هذه التصريحات مرة أخرى لأهل حرفة المتملقين بأن واجبهم يدعوهم الى النظر الى كتابات ستالين نظرة تقديس ، وكأنها كتاب منزل ،

(*) Aristov, Olekhnovish.

ولعل منشورات الحزب ١٩٣٢ قد سعت للاستجابة لمطلبهم ٠ فأعيد طبع الستالينيات الباكرة مثل رسالة ستالين غير المعروفة بالفعل (١٩١٠) الى لينين من معتقله (*) ، ورسائله الأقل شهرة « رسائل من القوقاز » التى كتبها فى السنة نفسها ، وفى ذات الوقت ، شرع الممجدون فى اعادة كتابة التاريخ وفقا لقواعد ستالين وعلى نحو محسوب ، لابراز دوره وفضائله فى الماضى الثورى للحزب ، مع الحرص على الانتقاص من تاريخ أعدائه وخصومه ، وبدأت فى الظهور الرواية الستالينية المحرفة لسيرة البلشفية، ولكن كانت هناك عمليات تزييف أدهى وأبشع فى طريقها الى الظهور ٠

ولم يؤد ظهور فكرة تأليه ستالين الى حجب فكرة تأليه لينين ٠ وكل ما هناك هو أنها أحدثت تعديلا فيها يرمى الى هدف أبعد ٠ فبدلا من وجود تأليهين يتعايشان جنبا الى جنب بزغ بدلهما تأليه واحد تقاسم فيه المعبودان لينين وستالين التأليه ٠ وفى بعض جوانب ارتفعت قامة لينين مما جعله يبدو وكأنه البلشفى الصميم الحق ، الذى لا يمكن وقوعه فى أى خطأ ، ولكن لما كان لينين ملتصقا بخليفته وتوأمه السياسى فقد نال هذا التوأم نصيبه من كل ثناء وتأليه ينسب للينين ، ولم يكن هناك مندوحة من حدوث ذلك ، فكل وقائع حياته وأعماله ، التى يستطاع ربطها بستالين كان من الميسور اضفاء صفة المثالية كاملة عليها ٠ أما الحالات التى يتعذر فيها الربط بين لينين وستالين ، فانها كانت تحتم استبقاء لينين فى الخلفية ، والواقع أن بعض جوانب من حياة لينين كان لابد التخلى عن توكيدها ، ويعاد توضيب بعض الجوانب الأخرى أو تحريفها ، أو اضافة بعض لمسات عليها حتى يتسنى اضفاء المثالية على ستالين ٠

وهكذا صور ستالين الآن كمشارك فى مآثر لينين ، وذكر أنه منذ عهد بعيد قام بدور الساعد الأيمن للرجل ، والذى كان يرجع اليه طالبا المشورة والعون فى النقاط الرئيسية للاطمئنان على مسيرة الثورة ومستقبلها ٠ وبوسعنا الاستشهاد بمثال يصور ذلك ٠ انه اختيار ٥ مايو ١٩٣٢ كالعيد العشرينى لمولد جريدة البرافدا ، ففى البداية ، ذكر المحرر فى مقاله لاحياء هذه الذكرى : « لقد كان لينين يكتب مقالا للصحيفة يوميا على وجه التقريب ، ويشترك معه فى هذا الشأن الرفيق ستالين ، الذى كان يأتنس برأيه ، وبخاصة عندما كان مختبئا أثناء انشغاله بالمقاومة السرية ٠ وهكذا بزغت فى هذا التأليه المزدوج الشخصية الأصغر (ستالين) كأنها « أنا » لينينية بديلة ، وكان هذا الادعاء يتعرض للفضح بطبيعة الحال ، عندما يبتعد لينين ذاته عن المسرح المباشر للأحداث ٠

(*) معتقل Solvychegodsk.

ومن الأحداث ذات الدلالة ، ارفاق صورة كبيرة لستالين بدلا من لينين بالمقال الذى تضمن استشهادات مطولة من ذكريات ستالين عن ١٩٢٢ (فى بداية ظهور الصحيفة) ٠

غير أن هـذه الأحـداث لم تتمخض عن خروج اياروسلافسكى عن الصف فحسب ، ولكنها أدت الى انضمامه الى طليعه المجدين ٠ فعندما طلب منه مقال لتخليد ذكرى العيد العشرينى لمؤتمر براج فى ينـاير ١٩١٢ ، استطاع اكتشاف وسيلة أريبة لاجلاس ستالين فورا على العرش المؤسس للحزب البلشفى ٠ فكما شهد لينين ، لقد ظهرت البلشفية كتيار سياسى ابتداء من ١٩٠٣ ، عندما حدث تصدع فى المؤتمر الثانى للحزب الماركسى الروسى ، وانقسم الى طائفتين : البلشفية والمنشفية ٠ غير أن الوجود الشكلى للحزب البلشفى لم يبدأ تاريخيا الا بعد مؤتمر براج ١٩١٢ بجميع البلاشفة ، ففيه حول لينين ما كان مجرد طائفة الى حزب قائم بذاته ، لم يعد مرتبطا تنظيميا بالمنشفيين ، وبعد مؤتمر براج ، ارتقى ستالين (عن طريق الاشتراك فى الاختيار وليس عن طريق الانتخاب) للمرة الأولى الى عضوية اللجنة المركزية للحزب ٠ وقام اياروسلافسكى بتقييم الحقيقة المثيرة للبلبلة أو المحيرة باختيار ستالين عن طريق التصـويت بالقول : فى المؤتمر انتخبت لجنة بلشفية مركزية ضمت بعض الأسماء (*) (واختير بعض هؤلاء الأشخاص بالاتفاق) ٠ ثم أكد ايارو سلافسكى بشدة **● بان مؤتمر براج كان بمثابة نقطة تحول فى تاريخ الحزب البلشفى ●** وبذلك تعمد تصوير ستالين بطريقة غير مباشرة على أنه كان حاضرا عملية تأسيس الحزب ٠

ولعل أفطن المنظرين من أعضـاء الحزب كانوا فى بعض الحالات أبطياء فى ادراك ما حدث من تحول فى تأليه الشخصية ، وتطبيق طقوسها الخاصة ٠ وكان س ٠ أ ٠ سيف (**) ـ وهو من المجدين الغيورين ، وكان يعمل سكرتيرا اداريا لصحيفة « المؤرخ الماركسى » ـ من بين من صوروا ما حدث من اضطراب فى هذه الأيام الباكرة ٠ ووضع عنوانا مرتجلا للمقال الافتتاحى الذى هدف الى تخليد الذكرى الخمسين لوفاة ماركس (فى مارس ١٩٣٣) ، وصحح فى هذا المقال اغفال ذكر اسم لينين قبل صدور العدد ٠ وأخفق سيف فى ادراك عدم نسيان شخصية لينين ، وأنه أصبح يذكر كشريك فى الزعامة لستالين ويحظى بنفس

(★) Belostotskii, Ordzhonikidze, Zinoviev, Stalin, Lenin, La M. Sverdbov, Spandarian, Goloschekin, Shvarsman.

(★★) S. E. Sef. صفحتى ١٤٠ ـ ١٤١ ٠

مراسم التأليه • ومع هذا ومع هذا التأليه المزدوج ، فقد طغت شخصية الخلف ستالين على شخصية السلف (لينين) ، فمثلا قام أحد المراسلين الأجانب بحصر عدد الأيقونات السياسية (من صور وتماثيل نصفية للزعيمين) المعروضة في الفترينات في بعض محلات بشارع مكسيم جوركي بموسكو في ٧ نوفمبر ١٩٣٣ ، واتضح ان نسبة عدد ايقونات ستالين الى عدد أيقونات لينين هي ١٠٣ : ٥٨ (٦) •

وأصبح اسم ستالين يتردد في شعر الأغاني ، وبخاصة عند الشعراء الوافدين من الشرق العريق في المنظومات التي تحتوي ملقا للحكام • فلقد نظم أ • أ • لاخوتي قصيدة طويلة يتغنى فيها بمآثر ستالين ، وسماها « الزعيم » وهي مترجمة من الفارسية الى الروسية ، ومن بين أبياتها الدالة على روح القصيدة :

يا معلم يا حكيم ، يا جنايني الماركسية :

انت حارس أعتاب الشيوعية •

فانت تفلح أرضها لكي تنهض بها الى الكمال

وانت بعد لينين زعيم اللينينيين

وفي ذات الوقت ، انضم الباحثون في الدراسات الشرقية الى هذا « الهلما » (كما يقال عندنا في مصر في الأوساط الشعبية هذه الأيام) • واستشهدوا بما حققه ستالين وبلينين أيضا في حل مشكلات الثورة القومية الاستعمارية في الشرق • وهوجمت احدى النشرات التي تحدثت عن تاريخ الحزب الشيوعي في الخارج ، لأنها انحرفت في نظرتها الى تاريخ الحقبة الواقعة بين ١٩١٧ و ١٩٢٧ (يعني نظرت اليها بروح جورجيانية متعصبة) بعكس اتجاه ستالين ، وكان من بين من وشى بهم الداهية بريا ، الذي أدان النشرة العدوانية التي ظهرت في مدينة تفليس • وبدأت بواكير مشاركة ستالين في الثورة في القوقاز تجتذب الانتباه وتحظى بالتقدير ، فظهرت نشرة في جورجيا تصور ستالين الشاب كزعيم بطولي يقود أنشطة المقاومة الثورية الشعبية في باطوم (١٩٠١ ـ ١٩٠٢)•

وظلت عملية التأليه تتصاعد في المنشورات الرسمية خلال ١٩٣٣ واحتفت صحيفة البرافدا بمرور خمسين سنة على موت ماركس في ١٤ مارس ، بامتداح المقالات التي نشرها ستالين عن نظرية الجدلية المادية ، واختتمت كلامها بالقول « بأن اسم ستالين يتساوى في المكانة هو

---

(٦) Moscow Carrousel (١٩٣٥) •
Eugen Lyons ص ١٤٠ وص ١٤١ •

والأسماء العظيمة لأصـــحاب النظريات وزعماء البروليتاريا فى العـــالم (ماركس وانجلز ولينين) وأصبحت عبارة « الأعمال الكلاسيكية لماركس وانجلز ولينين » من العبارات الشائعة على كل لسان • وانتقدت دار نشر الحزب نقدا مريرا ، لأنها لم تحرص على استبعاد الأخطاء المطبعية فى آخر كتاب كلاسيكى حقق أسرع المبيعات يعنى كتاب : « مشكلات اللينينية » لستالين ، وكأن « هنات » الأخطاء المطبعية يمكن السماح بها فى كتاب من تأليف الرفيق ستالين ؟ هكذا قال الناقد متعجبا • وبينت الأرقام الكلية لمبيعات الكلاسيكيات التى نشرت ١٩٣٢ ـ ١٩٣٣ أن ترتيب الاقبال عليها كان على الوجه الآتى : ٧ ملايين نسخة لأعمال ماركس وانجلز • ١٤ مليون نسخة لأعمال لينين ، ١٦٫٥ مليون نسخة لأعمال ستالين ، من بينها مليونان من نسخ كتاب مشكلات اللينينية ، وهكذا اقتربت مجموعة مقالات ستالين وأحاديثه على هذا العهد من أن تكون أفضل مبيعات الكتب فى الربع الثانى من القرن العشرين •

ومن الآن فصاعدا ، وحتى نهاية حياة ستالين ، استمرت بلا توقف عملية تضخم تأليه شخصيته •

المـراجـع

K. E. Bailes, Technology and Society Under Lenin and Stalin : Origins of the Soviet Technical Intelligentesia 1917-1941, (1978).

J. Barbar' Soviet Historians in Crisis 1928-1932 (1981).

S. F. Copen, Bukharin and the Bolshevik Revolution : A Political Biography 1888-1938.

R.V. Daniels ed. The Stalin Revolution : Fulfillment or Betrayal of Communism (1965).

I. Deutscher, The Prophet Armed (1954).

I. Deutscher, The Prophet Unarmed (1959).

I. Deutscher, The prophet Outcast (1963).

G. M. Enteen, The Societ Scholar-Bureaucrat : N.N. Pikrowskii and the Society of Marxist Historians (1978).

L. R. Graham, The Soviet Academy of Sciences and the Communist Party 1927-1932 (1967).

D. Joravsky, Soviet Marxism and Natural Science (1917-1932), 1961.

R. Medvedev, Let History Judge : The Origins and Consequences of Stalinism (1971).

R. C. Tucker, Stalin as Revolutionary 1879-1929 : A Study in History of Personality (1973).

R. C. Tucker, Stalinism Essays in Historical Inferpration 1977.

N. Tumarkin, Lenin Lives ! The Lenin Cult in Soviet Russia (1983).

8. B. Ulam, The Bolsheviks : The Intellectual and Political History ot the Triumph of Communism in Russia, 1965.

ديناميات النازية ـ السياسية
الخارجية الألمانية ـ سياسة التهدئة

رونالد ٠ م ٠ سملسر

ستظل اتفاقية ميونخ ١٩٣٨ أكثر الاتفاقيات اثارة للجدل ٠ ويرى كثيرون أنها أفصح الاتفاقيات الدولية فى التاريخ الأوربى الحديث ٠وتبحث المختارات التالية ميثاق ميونخ من منظورين اعتيد بوجه عام تجاهلهما : منظور أحداث السياسة الألمانية ، ومنظور الموقف العسكرى حينذاك ٠

واستندت سياسة التهدئة الانجليزية على الاعتقاد بأن تسوية باريس قد عادت بأوضاع مجحفة وغير مقبولة لألمانيا ، وأن هناك بعض تعديلات فى حدود ما بعد الحرب بدت معقولة ، بل ومقبولة أخلاقيا ، وأنه اذا جرت مثل هذه التعديلات المحددة ستثنى وقف الميول العدوانية لهتلر ٠ وافترضت هذه التصورات أنه بالمقدور اقامة نظام دولى يعتمد على السلام ، اذا نوقشت المسائل التى أثارت الضيق لاحدى القوى الأوربية بطريقة موضوعية ، واذا اتضح أن أسباب الضيق كان لها ما يبررها ٠

والسؤال الذى ثار هو هل نظر الألمان النازيون المسئولون عن السياسة الخارجية الى هذه المسألة على نحو مماثل ؟ ٠ ويبدو انه كان هناك القليل من الخلاف حول الرد بالسلب على هذا السؤال ١٩٣٨ ٠ اذ كان هناك تنافس واضطراب داخل النظام النازى حول وضع السياسة الخارجية، وفى أواخر الثلاثينات ، هيمن على فريق اعداد القرار أشخاص ذوو أهداف سياسية متطرفة ، لم تكن بين أهدافهم اعادة تعديل حدود ما بعد الحرب ٠ والارجح هو أنهم كانوا من أصحاب الرؤى الذين يسعون لاعادة تشكيل القوى العالمية ، ومن المؤيدين للتغلغل الألمانى على نطاق واسع فى أوربا الشرقية ٠ وكان من صاغوا هذه السياسة فى الأغلب من أبناء الطبقة

نقلا عن Fascist Challange and the Policy of Appeasement. تأليف W. J. Mommsen and L. Kettenacher (eds). (١٩٨٣) ٠

المتوسطة ، أو ما دون المتوسطة من الألمان الذين عجزوا عن بلوغ المكانة الاجتماعية والرضاء الذى كانوا يتطلعون اليه داخل المجتمع الألمانى ، رغم نجاح الاشتراكية الوطنية داخل حدود ألمانيا • واعتقدوا أن انشاء امبراطورية فى شرق أوربا سيمنحهم ساحة يحققون فيها أهدافهم القومية الامبريالية ، وطموحاتهم الاجتماعية الشخصية • نعم لقد حل أشخاص يعتنقون هذه النظرة المتسلطة فى دوائر السياسة الخارجية فى ذات الوقت الذى قرر فيه هتلر بالذات عدم احتمال اتخاذ بريطانيا حليفة له ، وأنها ستكون فى جميع الاحتمالات عدوة له •

وتبعا لذلك،فعندما قررت بريطانيا سياسة التهدئة الفعالة،المستندة على اجراء بعض تعديلات معقولة تساعد على القضاء على بواعث السخط ، واجه الدبلوماسيون الانجليز نظراء من الألمان يسعون لخلق امبراطورية غير محدودة فى أوربا الشرقية ، ومن هنا تفاقمت الشكوك فى احتمال تحقيق السلام مستقبلا مع البريطانيين •

من بين الأسئلة الدقيقة عند تقييم سياسة التهدئة ابان أواخر الثلاثينات ، التساؤل حول هل حققت هذه السياسة أية فرصة للنجاح فى ظل الأحوال السائدة ؟ • ويتطلب توجيه هذا السؤال أكبر قدر مستطاع من الفهم لطبيعة التهديد الذى تعرض له النظام الدولى حينذاك ، ويشتمل هذا الفهم بصفة أساسية على ادراك السياسة الخارجية الألمانية خلال هذه السنوات • فبالرغم من أن ألمانيا لم تكن المتحدى الوحيد للأوضاع الدولية الجارية ، الا أنها كانت أخطر المتحدين •

هنا تظهر منذ البداية كوكبة كاملة من المشكلات ، ساعدت على تعقيد المشكلة : الى أى حد مثلت سياسة هتلر مظاهر التواصل ومظاهر دالة على عدم التواصل ؟ وما هى العلاقات ــ ان وجدت ــ بين السياسة الخارجية والسياسة الداخلية فى ألمانيا النازية ؟ وكيف اتصف دور هتلر بأثره الحاسم عندما ربط مخططاته وعملية صياغة قراراته بعوامل أخرى عند مواجهته لبعض المواقف فى السياسة الخارجية ؟ هذه الأسئلة ، وغيرها من الأسئلة ، يجب أن توجه • وما من شك أنها قد أثيرت فى عدد من الكتابات الحديثة العهد عن السياسة الخارجية الألمانية • غير أن ما جرى فى هذا الشأن حتى الآن كان بالضرورة محاولات اجتهادية واستكشافية • فمازالت هناك أسئلة عديدة فى انتظار الرد عليها • فهناك رتل من الأحداث تفسر اطارها • ويساعد النظر فى مشكلة « التهدئة » على مواصلة توجيه السؤال المعقد حول ما خلفته ألمانيا النازية من تهديدات •

وفي هذا البحث سأؤكد وجود ارتباط وثيق بين السياسة الداخلية والسياسة الخارجية • وأعتقد أن النظام النازى ، الذى ظهر فى مجتمع فى حالة تفكك قد أحدث تمشيا مع طبيعته - بغض النظر عن وجود أية أهداف شخصية فى عقل الديكتاتور - تهديدا ثوريا لاستقرار النظام الدولى ابان الثلاثينات • وفضلا عن ذلك ، فلربما أشرت الى أن هذا التهديد لم يمثل تحديا لهتلر بوصفه المخطط الرئيسى للسياسة الخارجية ، ولكنه تواءم مواءمة وثيقة هو والأهداف السياسية البعيدة المدى لهتلر ، وأتاح باعثا لتطلعه تعديل وجه أوربا تعديلا جذريا • وفي الحق فانه قد خلق زخما على جميع الجبهات ، لم يتمكن أسلوبه القائم على حل كل مشكلة فى حينها عن الوفاء بمتطلباته • وأخيرا أود أن أشير الى أن ما تصاعد آنئذ الى حد التهديد المزدوج - يعنى تهديد هتلر نفسه ، وتهديدا قائما بذاته الى حد ما للنظام الذى يترأسه - قد ساد على نحو اقترب من تصعيب فرصة انجاح سياسة التهدئة ، وبخاصة ما يتعلق بتوقيتها وتنفيذها •

ولقد ثبت الآن ثبوتا قاطعا ، وأصبح مقبولا بوجه عام عند معظم الباحثين ما يقال عن أنه من الصعب وصف النظام النازى بالنظام المتماسك فى كتلة واحدة « مما ساعده على كفاية الانجاز » ، كما يحاول الدعاة وصفه ، والأصح هو تشبيهه بغابة ، تسودها البيروقراطية والتناحر ، وتتصف بالتشريعات المتشابكة المتضاربة ، وبتركيز السلطة فى الأشخاص وازدواج الأدوار والفوضى الادارية • واستدار هذا الوضع البيروقراطى الأشبه بالحالات الفطرية التى تدور فيها الحرب بين جميع الأطراف لصالح هتلر عندما ساعد على تضخيم قوته وسلطاته ، بأن وضعه فى مكانة الفيصل الذى يصدر القرارات النهائية فى جميع الأمور • ولعله لهذا السبب بالذات قد شجع المنافسات ، وأوغر الصدور ، بما أصدره من قرارات مضطربة ، أو لعجزه عن اصدار القرار الصحيح • غير أن دولة الفوهرر الفوضوية كانت شيئا أكبر بكثير من مجرد تجسيم لتقنيات الزعامة الشاردة لهتلر • انها بالأحرى انعكاس لما حدث للمجتمع الألمانى فى السنوات التى سبقت استيلاء النازى على السلطة (*) ورد على ذلك • ومثلت ظاهرة لم يقتصر أثرها على ما وقع من أحداث ثورية فى المجتمع الألمانى ، ولكنها جرت فى ذيلها عواقب منذرة للوضع الدولى الراهن (**) ، لأنها أمدته بالدينامية التى دفعت الثورة النازية الى ما هو أبعد من جدود الرايخ الألمانى •

ودينامية النظام الألمانى المعروفة ، والتى كثيرا ما تستر عى الانتباه ، مستمدة بقدر كبير من التفكك العام للمجتمع الألمانى الذى حدث خلال

(*) Machtergreifung.
(**) Status quo.

العشرينات والثلاثينات فى اعقاب الهزيمة الوطنية والكارثة الاقتصادية • وقد أدى هذا التفكك المجتمعى الى حدوث انفصام جذرى بين المتغيرات الطبقية والمراتب الاجتماعية ودرجات الثراء ، وقضى على أى اجماع وطنى يحتمل حدوثه • والعكس ذلك ـ سياسيا ـ فى الانهيار التام الذى حل بجمهورية فيمار والنظام البرلمانى لحكومتها •

وظهرت الاشتراكية الوطنية كرد مشخص على هذا الموقف القائم على التشتت السياسى والتفكك الاجتماعى ، وحققت الكثير من نجاحها عندما وعدت بأمرين : أولا استعادة لم شمل الأمة الألمانية • بعد أن أعادت تعريف مفهوم الأمة ، ومن ينتمون اليها ، ومن لا ينتمون • ثانيا : بأن خلقت عالما من الفرص المتساوية لجميع المشاركين فى عملية خلق المجتمع اليوتوبى المتحرر من العشائر والصراع الطبقى • ومن المفارقات ، أن يكون من بين الوسائل التى اعتمد عليها النازى فى محاولة تحقيق هذين الهدفين السديميين نوعا ما ، رغم سمو وقعهما ، بمجرد استيلائه على السلطة ، التجريد من الروح الاجتماعية (بالزعم بأن الصراع الطبقى قد انتهى) • وفى الوقت نفسه ، « تسييس » المجتمع • واتسمت هذه الخطوة الثانية ـ بوجه خاص ـ بأهميتها ، لأنها يسرت لزعماء النازى توجيه الألمان نحو ما أصبح بالفعل ابان عهد فيمار ، الطريق الأكثر انفتاحا للصعود فى المرتبة الاجتماعية ـ أى طريق السياسة بمعنى آخر •

والحق لقد لوحظ أنه لم يسبق أن حدث فى ألمانيا ما حدث بعد مجىء النازى الذين استحدثوا احساسا بالجرأة والاندفاع الحيوى على مستوى ممتد الجذور لشعب اعتاد تقليديا أن يكون « بعيدا عن السياسة » (*) • وهكذا فاعتمادا على الآليات التى ساعدت على اشراك عامة الناس فى ساحة سياسية فسيحة ، تولى الحزب أمرها ، استطاع النازى تعريفهم بمشكلتهم المزدوجة لاستعادة الاجماع القومى ، واتاحة الفرصة للجميع • والتى لن تحل الا بغرس الصلة الوثيقة بين مصير الأمة وتقدمهم فى أعمالهم فى عقول الألمان • فاذا استطاع أحدهم المساعدة فى اقامة الروح الشعورية الجماعية (**) واضطلع بانجاز دوره فى نفس الوقت كان هذا أفضل • وفى هذا المقام ، كان من المرغوب فيه بطبيعة الحال زيادة توسيع رقعة عالم السياسة بأكبر قدر مستطاع • ومن هنا ظهر ما سماه فرينكل « الدولة المزدوجة » ، يعنى الدولة التى لا يعد فيها مجال السياسة مجالا واحدا من الدولة ، منفصلا عن باقى المجالات بحكم القانون ، ولكنها مجال

(*) Apolitical..

(**) Volskemein chaft.

قادر على كل شيء ومستقل عن كل تنظيم قانونى • ان هذا الجمع بين جملة مؤثرات كالتأثير المشترك لفرص العمل ، والاحساس باعادة تعريف معنى « الامة » وتوسيع مجـال عالم السياسة هو الذى خلق السـاحة السياسية الديناميـة التى ميزت ألمانيـا النازية من البداية • ان هذه الساحة تمثل عالما لم توضع فيه أية حدود تتجاوز المعايير ـ التى طرحت بطريقـة غامضــة فى أكثر الأحيـان ـ التى عبرت عن ارادة الفوهرر • وفضـلا عن ذلك لم توضـع أية تحـديدات لمـا يمكن أن يتمتع به الفرد من قوى ، فبدت أقـرب الى كاريكاتور لليبرالية المفتـوحة فى القرن التاسع عشر • ولم توضع أيضا أية تحديدات للتشريع ، لأن الفرد لم يقتصر دوره على شغل وظيفة ما أو منصب • ولكنه كان مطالبا بخلق مجتمع جديد كلية • ومن هنا جاءت تعددية المخططات فى عقول عتاولة النازيين الحكماء ، والتى نمت عن احساسهم بتصورهم أنهم قادرون على كل شيء ، كما يبين من عالم قوات العاصفة لروهم وعالم العمال للاى (*) وعالم أصحاب الخوذات النحاسية لهيرل(**) وعالم منظمات الشباب لشيراخ وأخيرا يجيء عالم هملر الذى تمتع بأكبر قدر من النفوذ التشريعى •

وساعد العامل الاضافى « للفوضى » على ازدياد اشتعال التنافس فى عالم المبادرة السياسـية الحرة • والشيء المذهل فيما يتعلق بالتـكوين السياسى للنازى هو افتقاره الى القواعد • وبطبيعة الحال انعكس غياب « القيم » لصالح هتلر نفسه ، لأنه ساعده على أن يصبح الفيصل النهائى والأوحد ، ومن هنا رأيناه يرضى عن هذه الحالة ويشجع على استمرارها • غير أن الفوضى قد سادت لأسباب أخرى أيضا ، وعكست مرة أخرى تشتت المجتمع الألمانى • ويلاحظ فى جميع المجتمعات الحديثة وجود ميل للاستعاضة عن الروابط التقليدية العضوية (كالقرابة والانتماء لقرية أو نقابة واحدة) بروابط وظيفية (كالارتباطات التجارية والصناعية والاتحادات وهلم جرا) • ولا شك أن هذا التطور من الظواهر المصاحبة للتحـديث • وفى المجتمعات الليبرالية ، يحدث هذا الاجماع فى نطاق اطار سياسى ودستورى مقبول بصفة عامة ، يضع قواعد لا شخصية يستند اليها فى امكانية خلق هذه الارتباطات الوظيفية ، والربط بين بعضها البعض • على أنه فى حالة غياب اجماع من المجتمع على نطاق واسع ، فانه لن يوجد اطار معيارى ، مما يؤدى الى احتمال شيوع الفوضى • وهذا بالضبط ما حدث فى ألمانيا • فحتى قبل استيلاء النازى على السلطة ، كان المجتمع الألمانى يفتقر الى الاجماع الذى كان بمقدوره دعم التغير المنتظم من الروابط العضوية الى الروابط

(*) Ley.

(**) Hierl.

الوظيفية • ويرجع ذلك الى أن المجتمع الألمانى كان « لا ليبراليا » أساسا فى تطوره ، ومازال فى طريقه الى التحديث ، الذى لم يحدث الا جزئيا • وبعد أن انتقلت السلطة الى النازى ، ازدادت الحال سوءا • فلما كان النازيون قد درجوا على تلفيق اجماع المجتمع ، لذا عمدوا قاصدين الى تسريع عملية التحديث بدرجة كبيرة ، بأن قضوا على التنظيمات التقليدية الجامعه ، العضوية والمستقلة استقلالا ذاتيا ، وأحلوا محلها أنظمتهم الوظيفية ذات الغائية السياسية فى نطاق النظام النازى ، وبدا لهم هذا الاجراء كمهمة ضرورية ، ومن المقومات الأساسية للتكامل فى سياسة تحقيق التجانس (*) التى استعانوا بها لفرض سيطرتهم على الشعب الألمانى • غير أن الافتقار ذاته للاجماع الذى يكمن وراء أكذوبة الروح الشعبية الشعورية (**) الجماعية ، ونفس الافتقار للاجماع الذى كان طابع المجتمع الألمانى قبل سياسة القوة والقبضة الحديدية (***) ، قد استمر حائلا يحول دون صوغ أية مجموعة من القواعد التى تعتمد عليها الروابط الجديدة فى أداء أدوارها ، أو فى ربط كل جماعة بالجماعة الأخرى • وأدى ذلك الى ظهور روابط « وظيفية » مستحدثة ، يعنى امبراطوريات شخصية بيروقراطية لفحول النازى مثل لاى وجوبلز وهملر الذين يضطلعون بأدوارهم لا ضمن صرح خاضع للمعايير والقيم ، وانما فى غابة تسودها المنافسة •

فلا عجب اذن اذا عمدت الكيانات النازية المتنافسة من البداية الى نسف الحدود الموضوعية بطريقة مألوفة ، والتى تساعد التكوينات الوظيفية على أداء عملها • وتربط كل منها بالآخر فى المجتمع الحديث • ويصح هذا القول عن الوسائل التى استعانت بها فى أداء وظائفها ، والتى أصبحت تشتمل على توجيه الاتهام بالخيانة والتآمر ، بل والقتل ، بحكم الامتداد الواسع لأنشطتها • والتى كشفت عن الميل لاصدار التشريعات وتكديسها دون مبالاة بتوافقها أو ترابطها ، مما جعل منها عالما بيروقراطيا هلاميا • فمثلا هل هناك بلد ليبرالى يستطيع فيه أمثال هرمان جورنج شغل وظيفة قائد للطيران والمتحكم فى الصناعة وكبير المشرفين على الغابات والوسيط فى السياسة الخارجية ، وربما ما هو أكثر من ذلك ! • بيد أنه من المهم بالنسبة لبحثنا الحالى ، القول بأن الافتقار الى القواعد والولع « بالتكويش » قد يسر للتنظيمات الوظيفية النازية ازالة الحدود التى تفصل السياسات الداخلية عن السياسة الخارجية •

وتسببت هذه النزعة السائدة التى سمحت بالتحرك الدينامى من ساحة السياسة الداخلية الى ساحة السياسة الخارجية فى ايغار الصدور

(*) Gleichschaltung

(**) Volsgemeinschaft.

(***) Machtergreifung.

واثارة الضغائن ، وهى ظاهرة عرفت عن المجتمع الألمانى حينذاك ، ومن رواسب الوجود المتواصلة للطبقات الحاكمة السابقة ، وضرورة الاهتداء الى وسيلة للتعايش معها • فمن المعروف تماما أن هتلر قد أحبط آمال وأمانى ملايين من أتباعه من أبناء الطبقة المتوسطة والطبقة دون المتوسطة ، ممن كانوا يتطلعون لخلق مجتمع جديد يتجاوب مع تصورهم ، عندما اضطر هتلر الى الالتجاء الى القوى التقليدية لتقوية ألمانيا ، ولتحقيق أحلامه فى التوسع • وكانت هذه القوى هى قوى الجيش والموظفين المدنيين وكبار رجال الأعمال • فلما اضطر الحزب النازى الى المصالحة مع هذه الفئات ، فانه سعى بوعى أو بغير وعى الى انتزاع زبانها ، بعد أن أخفقت فى اعادة بناء البلاد على أكمل وجه ، عن طريق اعادة خلق المجتمع على غرار النموذج النازى الموازى له • وكانت مكونات هذا العالم النازى تستند الى الروابط الوأيفية ، والتى سبق أن أشرت اليها • والتى أتاحت فرص امكانات صعود من ينتمون اليها بسرعة أكبر ، ووفرت فرصا أفضل لتحقيق الأحلام اليوتوبية لا يستطيع اتاحتها المجتمع الفعلى • فان من الأيسر أن تصبح جنرالا فى جيش الدفاع (*) ، أكثر من احتمال وصولك الى مرتبة جنرال فى الجيش التقليدى ، وأن ترتقى الى مدير لاحدى ادارات هذا التنظيم النازى، أكثر من احتمال ارتقائك فى السلك المدنى ، بعد أن تلاشت من المجتمع الموازى المعوقات الموجودة فى المجتمع القديم ، واستعيض عن معـــايير الأصل الطيب والثروة المملوكة ، والمرتبة الاجتماعية والانتماء لشلة من الصحبة الحميمة بمعايير أسهل فى الاقتراب منها ، مثل معيار الولاء السياسى والنقاء العنصرى • وكانت المشكلة ــ كما يشهد بذلك استمرار بقاء بعض المنتمين الى الطبقة المحافظة من ذوى الألقاب الأثرياء (**) ــ أن المجتمعين (المجتمع الحق والمجتمع الموازى الذى صنعه النازى) قد استمرا فى البقاء جنبا الى جنب مما فرض على أى نازى طموح معايشة المجتمعين ، ومن ثم فلقد عاش كل سياسى طموح فيما يشبه المجال المغناطيسى للتوتر لصعوبة تحويل عملة أحد المجتمعين وما يعود به من اثابة الى عملة المجتمع الآخر • والحق أنه رغم كراهية كثيرين من الصاعدين اجتماعيا (أو لعله يقصد المتسلقين) من النازى للمجتمع الطبقى الأقدم ، ومن يحتلون قمته ، الا أنهم فى ذات الوقت كثيرا ما عجزوا عن التعلق برموزه وثوابه وعقوباته • ولعلهم قد اكتشفوا الطابع الوهمى لعالم النازى ، وحاولوا المستحيل (أى تحويل الدائرة الى مربع) للتوافق والتكييف اما بمحاولة الانتماء للعالم الآخر ، أو بترجمة نجاحات عالم النازى الى ما حققه من نتائج خيرة ، أو عندما لم تنجح هذه السبل ، فانهم لجأوا الى تجريح المجتمع القديم ، على

(*) S.S.

(**) Generaldirektoren.

نحو أدى فى نهاية المطاف الى القضاء عليه ، ولعلهم قد شعروا بالنذر المنبئة بذلك • ولدينا الكثير من الأدلة عن هذا التوتر الملموس فى كل مستوى من مستويات النظام النازى • فمثلا فى ظل « سياسة التهدئة » ، من المثير للاهتمام أن نلحظ أن المحاولة الأولى لريبنتروب لاقتحام عالم السياسة الخارجية قد تمثلت فى تقدمه بطلب للالتحاق بوظيفة سكرتير للدولة (*) ١٩٣٣ • وبينما كان يجمع أعوانه ويوزع الأدوار فى « عالم الظل » فيما يدعى بمكتب ريبنتروب ، الا أنه لم يتوقف عن محاولة ترجمة أعماله الى مصطلحات العالم التقليدى ، وتوسل مرتين أخريين بعد ذلك لهتلر ١٩٣٥ لتعيينه سكرتيرا للدولة ، وانتهى الأمر كما هو معروف باختياره وزيرا للخارجية وتخلى عن مكتبه وأعوانه فى عالم الظل •

ان هذا التوتر بالذات ، والعجز عن التغلب عليه هو الذى سيساعد على توليد دينامية الحزب النازى ، ولا يتعلق ذلك بنزوع التشكيلات النازية الى تجاوز أو تخطى التشريعات التقليدية فحسب • ولكنه أيضا ــ وهذا هو المهم ــ سييسر لهم فى جملتهم تخطى حدود المجتمع الألمانى نفسه ، والتغلغل فى مجتمعات شرق أوربا « السداح مداح » • اذ كان ما يداعب أحلام الحالمين النازيين والباحثين عن التسلط هو خلق عالم لا يتمتع فيه بالقيمة أى شىء باستثناء رموزهم ومقدساتهم وتسلطاتهم ومكانتهم•وغنى عن القول أنه قد ترتبت على ذلك جملة عواقب للسياسة الخارجية الألمانية لأنه عنى أن الآليات ذاتها التى كان المجتمع السياسى النازى يتبعها من الناحية العملية قد دفعت هذا النظام الى النزوع الى تحدى النظام الاجتماعى والسياسى الدولى،بغض النظر عن أية خطط مدروسة قد يكون هتلر وضعها وكما سنرى ان اساءة فهم هذه الحقيقة هى التى سمحت « للمهدئين » بالذهاب بعيدا ، مثلما فعلوا عندما اتبعوا سياسة ، لعلها لم تكن غير مجدية من البداية • واذا راعينا طبيعة النظام النازى ، وطبيعة الديكتاتور بالذات ، فان هذا التفسير لدينامية المجتمع النازى ، ونزوع التنظيمات التى يتألف منها النظام للاندفاع نحو سياسة خارجية قائمة على التوسع ، يوحى بعدم وجود توتر حق بين هتلر والنظام النازى • والأصح والأقرب الى الاحتمال هو حدوث توافق بين طرفين : الطرف الأول ــ هتلر والنظام النازى الذى يعمل على فرض السيادة الألمانية على أوربا ثم على العالم بعد ذلك • والطرف الآخر يتمثل فى جماعة المديرين السياسيين النازيين ، التى عرفت بديناميتها رغم شعورها بالاحباط ، وكان هتلر على دراية بالدينامية التى تسير نظامه • اذ كان منساقا وراء بعض الدوافع ذاتها التى تميز بها أتباعه ، وتركز دوره على تحديد الهدف النهائى (**) بحرص

(*) Staatsekretaer. فى Auswaertiges Amt.

(**) Endziele.

على أن يتناوب اتباع أحد اتجاهين بديلين : اما أن يكبح جماح الدينامية ، اذا رأى نفعا ما يتحقق من ذلك ، أو يساعد على انطلاقها • وازاء هذه الحقيقة ، بوسعنا أن ندرك اغفال النظرات الى السياسة الخارجية الألمانية التى ضخمت دور هتلر ، أحد المصادر الهامة للضغوط الكامنة وراء سياسة توسع ألمانيا النازية •

ومن الضرورى فى هذه النقطة أن نبين أن الدولة المسايرة للطبيعة (التى حدثنا عنها الفيلسوف الانجليزى هوبز) والتى تميز بها النظام النازى فى سياسته الداخلية ، قد اتبعت نفس المبدأ فى مجال السياسة الخارجية ، وان حدث ذلك فى نطاق محدود • ولقد لاحظ المراقبون السياسيون بالتأكيد هذه الحقيقة • فقد شكا موسولينى بالفعل فى يوليو ١٩٣٣ :

« الظاهر أن الحكومة الألمانية قد ضمت ستة أشخاص ـ أو لعلهم سبعة ـ كانوا يتناوبون العمل كوزير للخارجية • انهم هتلر ونويرات وجورنج وبابن وجوبلز وروزنبرج ، ولا داعى لذكر اسم بلومبرج ، الذى كان يزج به فى كل مناقشة تدور حول الشئون الخارجية ، وأدى ذلك الى تصعيب التفاهم بيننا وبين الحكومة الألمانية » •

وبعد ذلك بأربع سنوات كان الايطاليون مازالوا يرددون نفس الشكاية • اذ قال الكونت تشيانو وزير خارجية ايطاليا (وزوج ابنة موسولينى) بمناسبة زيارة اللورد هاليفاكس لبرلين فى نوفمبر ١٩٣٧ :

« هناك العديد من الديوك فى سلطانية الحساء • ولا تقل السياسات الخارجية عن أربع بأى حال : سياسة هتلر وسياسة جورنج وسياسة نويرات وفون ريبنتروب • ولا داعى لذكر من هم أصغر من ذلك • ومن الصعب فى مثل هذه الحالة عمل أى شىء يمنع مجرى الأحداث من التوقف » (*) •

ولا يقتصر الأمر على ملاحظة أصدقاء ألمانيا لهذا الوضع • اذ لاحظ ذلك أيضا أعداؤها المتوقعون ، فيما يتعلق بالسياسة الخارجية :

« ليس هناك وزير خارجية واحد • كما لا توجد وزارة خارجية واحدة • فثمة ست وزارات • فاذا تعلق الأمر بالنمسا يسمع صوت

(*) "Zuviet Haehne im Huehnerstall. Es gibt minrestens vier Aussenpolitiken : die von Hitler, die von Goering die von Neurath, die von Ribbentrop. Von den Kleineren ganz adgesehen. Es ist schwierig, Volkmmen auf dem Laufenden zu bleiben."

هابيخت(*) • وعندما تبحث وسائل رومانيا أو المجر فاننا نلمح استمرار تمتع روزنبرج ومكتبه ببعض النفوذ • وعندما تقتضى الضرورة بحث مشكلة السار أو الفاتيكان أو فرنسا ، فاننا نرى جورنج يقفز لركوب طائرة • وحتى تأثير الدكتور هانفشتينجل (**) الغريب الأطوار ، فانه لا يغيب عن ناظرنا عندما يتعلق الأمر بأمريكا » •

وحتى الرجل الذى يظهر أنه كان المسئول عن تنفيذ السياسة الخارجية : نويرات ، فقد رأيناه يخبر أحد زواره فى صيف ١٩٣٧ : « لا تنظر الى ما يقوله جورنج بمنظار الجد فالجميع فى ألمانيا مهمومون بالسياسة الخارجية • ولقد ثبت ما لاحظه المراقبون السياسيون الى حد كبير من الدراسات التى جرت فى العقد الماضى ، أو قبل ذلك • ولا أنوى فى هذا المقام بحث تفاصيل أعمال مختلف الجهات التى صاغت السياسة الخارجية الألمانية • ولكن سأكتفى بذكر جملة تعميمات حولها تناسب قضية سياسة التهدئة •

أولا ـ لقد اقتحم النازيون المتنافسون ميدان السياسة الخارجية لأسباب شتى يرجع معظمها الى نفس الخليط من العوامل التى جمعت بين الرؤية اليوتوبية والانتهازية الوظيفية والاندفاع الغافل المترتب على دينامية النظام نفسها ، وكما ذكرنا ، كان أرنست بوله (***) مؤسس المنظمة الخارجية فى الحزب يحلم بتسخير الجنس الألمانى فى سائر أنحاء العالم لخدمة الاشتراكية الوطنية • اذ كان طموحه ينصب على رفع ألمانيا الى مركز الصدارة بين قوى العالم : « لقد انبهرت انبهارا مطلقا بفكرة الرايخ الألمانى ، وهيمنت على خاطرى هذه الفكرة • فعلى الرغم مما بين ألمانيا وانجلترا من اختلاف تام فى التكوين ، الا أنها تتمتع بالمساواة الكاملة هى وانجلترا فى ساحة القوى العالمية » • وكان هتلر يحلم بامبراطورية عنصرية كبرى فى الشرق حيث يتسنى له تحقيق احلامه فى اعادة الاستيطان • وتعلق روزنبرج برؤى حدوث تصدع فى الدولة البروسية ، وما يصحب ذلك من تجديد نوردى ألمانى • ولم تتصف أية رؤية من هذه الرؤى ببساطتها • وعلى العكس فان رؤى جميع من ذكرنا ترجع الى ألف سنة تقريبا ، وتعكس فى أغلب الظن الجمع بين الاحباط والتطلع •

ومن حين لآخر ، ربما عزيت الشطحات فى السياسة الخارجية الى ما حدث من امتداد بسيط فى نشاط السلطة الداخلية ، مثلما حدث عندما

(*) Habicht.

(**) Dr Hanfstaengel.

(***) Auslands organisation مؤسس Ernst Bohle.

حاول وزير الدعاية جوبلز السيطرة على الدعاية النازية فى الخارج ، أو عندما امتدت أنشطة مخابرات جيش الدفاع الى خارج دولة ألمانيا بحثا عن الشتات فى الخارج وأعداء الايديولوجيا • وأحيانا ربما رجع اقحام بعض الأشخاص أنفسهم فى السياسة الخارجية الى معرفة المسائل على طريقة الهواة ، والافتتان بربوع جغرافية بالذات • ولعلنا نذكر انبهار جورنج بالعلاقات الايطالية أو البولاندية ، واهتمامات روزنبرج بالمجر ورومانيا ، والعلاقة الزئبقية لريبنتروب بالانجليز ، مع الاكتفاء بذكر أهم الأمثلة • ولكن كان الأغلب من وجود هذا الانبهار أو عدم وجوده فى أى مثل معروف هو اجتماع جملة بواعث • وأفضل مثل لذلك هو S. S. التى تدرجت فى التدخل فى السياسة • وتوائم هذا التدخل هو وأنشطة المخابرات والأحلام الأيديولوجية والمصالح الراسخة والأعمال البوليسية ، وما صادفته من متاعب عند تحديد رسالة لها •

وفى جميع الحالات ، كانت النتيجة الوحيدة لهذه الأنشطة ترمى على نحو أو آخر لتغيير الأوضاع الراهنة فى أوربا والعالم • وما ساعد على ظهور هذه الأحلام والطموحات هو شدة التمزق فى النظام الدولى الذى تمتد جذوره الى ألف سنة أو يزيد •

ثانيا ــ وظهرت فى مجال السياسة الخارجية أيضا نفس التوترات والصراعات التى نجمت عن وجود مجتمعين متوازيين فى الميدان الداخلى • والحق أن هذه الظاهرة كانت أوضح تحديدا ، لأن المعلقين المحافظين اللذين يقومان بدور حيوى فى العلاقات الخارجية الألمانية ــ يعنى الجيش ووزارة الخارجية ــ قد اشتركا فى تعزيزه • وهنا كان على الحكام النازيين الاقدام على أبعد الخطوات تأثيرا فيما يتعلق بالأفراد • وهنا كان المحافظون يبدون وكأنهم محتفظون بقوتهم ، وبما يعود منها من كسب • فلا عجب اذن اذا أصبح ميدان السياسة الخارجية أحد الميادين الرئيسية للصراع بين النازيين المتطرفين وبين المحافظين التقليديين •

وقد أصبحنا نعرف الآن أن القوى المحافظة لم تكن على النحو الذى بدت فيه للكافة حينذاك • غير أننا اذا أمعنا النظر فسندرك أنها لابد أن تكون قد بدت كذلك • فيجب أن لا ننسى تكيف سياسات هتلر القصيرة الأجل على خير وجه هى والأهداف البعيدة للمحافظين ، حتى بدا كأن هناك توافقا فى المصالح ، وان كان هذا التوافق لم يوجد بالفعل • وفضلا عن ذلك ، فلقد اكتشف هتلر أنه من الضرورى بين الفينة والأخرى أن يمسك الزمام ويحجم التطلعات الخارجية الشديدة الطموح ، مما جعله يبدو ــ فى أغلب الظن ــ أكثر اعتدالا مما بدا لنا • وأخيرا وحتى فيما يتعلق بالأفراد فقد يغتفر للنازيين الطامحين اعتقادهم بأن المجتمع الألمانى لم يتغير كثيرا

بعد قدوم النظام النازى ، كما كانوا يأملون • فحيثما نظروا كانوا يشاهدون — على ما يبدو — الأساطين القدامى مازالوا أحياء • اذ كان السلك الدبلوماسى يضم نسبة عالية من الأرستقراط من حملة الألقاب أكثر مما كان الحال فى عهد فيمار ، بل لقد كان هناك حتى فى ال S S ذاته أعداد غير متناسبة من النبلاء يحتلون المناصب العليا • نعم لقد كانت جميع هذه الأسباب وراء اشتعال نيران الصراع حول التشريعات والذى اتصف بشدة شراسته •

ثالثا — لم يمثل هذا التنافس فى حلبة السياسة الخارجية حالة مستقرة ، يعنى موقفا ساكنا ، يتمسك فيه كل شخص بموضعه • فالأرجح هو أنه كان صراعا حركيا (ديناميا) استطاع فيه المتطرفون شيئا فشيئا خلال الفترة الواقعة بين ١٩٣٣ و ١٩٣٧ احراز قصب السبق • فعلى الرغم من تمتع نويرات والعاملين بوزارة الخارجية — مبدئيا — بقوة أعظم ، ونفوذ أكبر مما كان يظن — كما توحى السيرة الجديدة التى كتبها هاينمان عن حياة نويرات — الا أنه من الحقيقى رغم ذلك أن المحافظين سنة ١٩٣٦ كانوا يستندون الى دعامة قوية فى مواجهة عمليات السحق والتنافس الشرس من قبل مختلف النازيين • وتزايد اعتماد هتلر فى المسائل الخارجية على مبعوثين آخرين غير من يتبعون الجهاز التقليدى • وعلى نهاية ١٩٣٧ ، كانت المعركة قد كسبت ، وترتب عليها نتائج خطيرة بالنسبة لسياسة التهدئة •

رابعا — كانت نقلة ميدان التنافس فى الدولة النازية الى ساحة السياسة الخارجية لصالح هتلر — ربما بصفة تامة ، عندما شرع فى تحقيق رؤياه البعيدة المدى • وساعده ذلك على اكتشاف أبواب للاختيار بين السبل المتاحة ، وسبر غور نقاط الضعف دون تحمل أى تبعة أو وزر بوصفه رئيسا للدولة • وتكشفت هذه الحالة فى أجلى مظاهرها فى حالة النمسا فى يوليو ١٩٣٤ • فلقد زودته بأفكار وأدوات ساعدته على ترجيح كفته ، وعوضته عن الافتقار الى أية تجربة سابقة فى الشئون الخارجية • • فلقد خلقت مواقف بالمقدور استغلالها اذا اعتقد أن الموقف أصبح موائما • ولقد حققت هذه الظاهرة ميزة حقيقية للدكتاتور الذى كان يزداد مقتا للحكم يوما بعد يوم ، ويفضل ترك المواقف تشطح الى أن تبلغ حالتها الحرجة • ولم يتمتع حكام آخرون بهذه الميزة • وأخيرا وبطبيعة الحال ، فقد تصاعد التنافس من دينامية كان هتلر يعرفها تمام المعرفة ، بغض النظر عن نوع الأحلام والتطلعات ، ورأى أنها قد تتطابق ورغبته فى اعادة بناء أوربا فى صورة متطرفة • وبهذا المعنى ، كان بوسعه الاطمئنان الى أن التطور البعيد المدى للمجتمع النازى سيتطابق هو وأهدافه البعيدة المدى •

وبعد ما ذكرنا ، لابد أن يلاحظ أنه رغم جسامة قوة الطرد المركزى التى ولدها النظام النازى الدينامى ، الا أن سياسته الخارجية التى كانت تعد يوما بيوم قد التزمت حدودا معينة ، حتى بالرغم مما بدا فى آماله البعيدة من توعد باحداث هزة دولية ، ومن ثم رأيناه يفرض من قبل الحرص على عدم احداث اضطراب فى النظام الدولى قبل ان يكتمل اعداد القوة الألمانية وتصبح مكافئة للمهمـة التى ستضطلع بهـا ، ورأيناه يفرض قيودا على التنافس فى التدخل فى السياسة الخارجية أشد من القيود التى فرضها على السياسة الداخلية • هنا يلزم عند تقييم السياسة الخارجية الألمانية ، عقد موازنة صحيحة بين مبادرة هتلر وسـيطرته والأنشـطة التلقائية لأتباعه •

خامسا – وأخيرا ومن المهم للغاية فيما يخص غايتنا أن نلاحظ ما حدث من توافق شبه تام بين تصاعد الصراع حول السياسة الخارجية بين المتطرفين والتقليديين الذى انتهى بانتصار المتطرفين،وبين ازدياد قوة ألمانيا الاقتصادية والعسكرية الى الحد الذى دفع هتلر الى تصور أنه غدا قادرا على التقدم الى ما هو أبعد من أهدافه القريبة المدى (والأهداف البعيدة المدى للمحافظين) الى أهدافه البعيدة (التى توافقت هى وأهداف كثير من المتطرفين) ومن المآسى أن يتصادف توافق تلاحم هذين النوعين من التقدم بدوره مع تقدم آخر هو تحول السياسة البريطانية من سياسة التهدئة السالبة الى التهدئة الموجبة أو الفعالة ، وعلينا أن ننتقل الآن الى الكلام عن هذه المشكلة وعلاقتها بتكوين السياسة الخارجية الألمانية ، وتشكيلها •

فمن بين أحداث التلاحمات الأكثر مأسوية آنئذ أن تحدث النقلة من سياسة التهدئة السالبة الى سياسة التهدئة الموجبة متآنية هى وتطورين أنذرا باخفاق نجاح هذه الاستراتيجية ، يعنى ادراك هتلر تدريجيا عدم احتمال تحول بريطانيا الى حليفة لألمانيا ، وأن الأرجح هو ان تكون عدوة لها ، والتطور الثانى هو انتصار المتطرفين فى ألمانيا على التقليديين •

واذا استطعنا الربط بين استهلال التهدئة الموجبة أو الفعالة وزيارة اللورد هاليفكس لبرلين فى ١٨ نوفمبر ١٩٣٧ ، سيزداد وضوح سر هذا التلاحم • فلقد أثار هاليفكس فى مباحثاته هو وهتلر وجورنج وغيرهما من زعماء ألمانيا مسألة التنازلات لألمانيا فى وسط أوربا ، وبعبارة أخرى وضع جدول أعمال تناقش بموجبه مشكلتى النمسا وتشيكوسلوفاكيا على مستوى دولى • وفى الظروف العادية التقليدية ، كان سينظر الى هذه الخطوة على انها خطوة معقولة تماما ، يعنى مناقشة المشكلات المتعلقة بالقوى حتى يتسنى حسمها سلميا قبل أن تتفاقم وتتأزم ، ويؤدى عدم الحسم الى تهديد السلام • غير أن هاليفاكس وغيره من رجال الدولة البريطانيين كانوا

لا يعملون فى ظروف تقليدية • ففى ألمانيا كانوا يتعاملون هم وزعيم له أهداف متطرفة تجاوزت بكثير الأهداف التى يمكن تحملها ضمن أى اطار باستطاعة الانجليز تخيله ، ويتعاملون أيضا مع نظام سياسى قد اتخذ شكل الديناميات التى تحمل تهديدا للوضع الراهن (*) • ويصور تعاقب الأحداث قبل زيارة هاليفكس مباشرةوبعدها ، تصويرا دراميا هذه النقطة• ففى ٥ نوفمبر ، أى قبل وصول هاليفكس بأسبوعين ، كان هتلر فى حديثه السرى ونويرات وقادة الجيش قد وضع النمسا وتشيكوسلوفاكيا فى جدول الأعمال الخاصة بالغزو العسكرى ، وليس ضمن الموضوعات محل البحث • وفضلا عن ذلك ، فلقد برز هذا المعنى أيضا فى الحديث الذى حدث فيه توقع أن تصبح بريطانيا عدوا محتملا ، وأنها لم تعد ينظر اليها كحليف •

وحدث أيضا ابان هذه الشهور الأخيرة من ١٩٣٧ ، اقتراب نهاية الصراعات الداخلية العديدة داخل ألمانيا بين النازيين المتطرفين والنازيين المحافظين • وتمثل استقالة شاخت (الاقتصادى الكبير) فى ٢٦ نوفمبر قبل زيارة هاليفكس لبرلين بأسبوع واحد حدثا يتجاوز مجرد تخلى أحد المحافظين البارزين عن منصبه ، لأنه يعكس ما حدث من تصدع للجبهة السياسية المتحدة المؤيدة من كبار رجال الأعمال • وكما أشار أحد الباحثين فانها تمثل مرحلة أبعد فى التفكك العام للمجتمع الألمانى • وأسفر ذلك عن تزود التشكيلات النازية المتنافسة بباعث أكبر وفرصة أوفر ومجال أوسع للمناورة (**) •وتمثل الفضائح التالية التى أحاطت باسم وزير الحربية فون بلومبرج وقائد القوات المسلحة فون فريتش ، والتى تمخضت عن تولى هتلر قيادة الجيش بنفسه ، تمثل تداعى موقف المحافظين فى جبهتين سبق تعرضهما للتهديد : الجيش والخارجية • وعاصرت هاتين النهايتين ــ دون أن يلحظ أحد حينذاك ــ وان كان هذا الحادث الآخر لم يكن أقل تنبيها الى ما سيجره من عواقب مشئومة ــ انتصارات جيش الدفاع فى تعبئة الألمان العائشين فى البلدان المجاورة ، بعد وقف هانس شتايناخر وانشاء ادارة جديدة(***) تتولى الاشراف على شئون الجاليات الألمانية المقيمة بالخارج • ولعل استسلام كونراد هنلاوين زعيم الألمان فى السوديت لارادة هتلر فى اليوم نفسه الذى وصل فيه هاليفكس كان اشارة تدل على أنه حتى بعد أن التمس البريطانيون عذرا شرعيا يبيح للدكتاتور اثارة مسألة مستقبل تشيكوسلوفاكيا على المنبر الدولى ، فان الأقلية الألمانية فى هذا البلد زودته بالوسيلة التى تساعده على التعامل فى مسألة تشيكوسلوفاكيا

(*) Status quo.

(**) Spielraum.

(***) اسمها Volkdeutsche Mittelstelle.

على نحو لم يخطر ببــال المستشارين البريطانيين • نعم لقـد عرف البريطانيون أكثر هذه التطورات ــ أو ما حدث من تبديل للأشخاص فى أقل تقدير ــ ولكنهم اما أساءوا تقدير آثارها ، أو أساءوا فهمها تماما • وكتب هندرسون (السفير البريطانى فى برلين) الى الملك جورج الخامس بأن هذه التغييرات « قد جعلت الجيش الألمانى الآمر الناهى فى الشئون الخارجية ، ودعمت حزب السلام فى ألمانيا » •

وهكذا ابتدأ تنفيذ سياسة التهدئة الموجبة ، واتخاذ المبادرة فى اثارة القضايا المرتبطة بسلام أوربا بدلا من الانتظار السلبى لتحركات الديكتاتور • وهى سياسة كان بالاستطاعة أن تؤتى ثمارها ، لو أنها بدات فى وقت أبكر من العام ، ولكنها بدأت فى ظروف مشئومة قرابة نهاية ١٩٣٧ وبداية ١٩٣٨ ، يعنى فى الوقت الذى تراءى لهتلر أن باستطاعته تنفيذ ما يحلو له دون تعرض لأى خطر ، وكانت نظراته قد اتسعت الى الحد الذى جعله يتصور بريطانيا كعدوة له ، وعندما كانت ديناميات الثورة النازية قد مهــدت الطريق بعــد أن قضــت على كل منافس يقف فى طريقها •

وفيما وراء هذه التلاحمات المؤسفة للتطورات ، ظهر عامل آخرألقى بظلاله الكثيفة على الامكانات التى ترتبت على « سياسة التهدئة » بعــد ظهورها فى أواخر ١٩٣٧ • ولو تأملنا الأهــداف التى كانت الحــكومة البريطانية تسعى لتحقيقها ، وتأملنا اللغة التى صيغت بها هذه الأحداث ، والاطار الذى نظرت من خلاله القيادة البريطانية للعلاقات الدولية ، سيتضح لنا أن تشمبرلين ومعاونيه كانوا يعملون فى مستوى مختلف عن مستوى الزعامة النازية • ولربما بدت هذه الحقيقة واضحة جلية مما يجعلها لا تحتاج الى افصاح ، غير أننى أشعر بأهمية الكشف عن أحد جوانبها فى ايجاز ، لكى نتبين النظرات الشديدة التباين للعالم التى فرقت بين الزعامة الألمانية والزعامة البريطانية ، ودلت على ما حدث من تفكك فى النظام الدولى مما جعلها توحى عند تأملها فيما بعد بالنذر القائمة لسياسة التهدئة • اذ كان الموضوع الذى اختلف بشأنه الطرفان فى أغلب الظن اختلافا بينا هو موضوع انشاء امبراطورية ألمانية •

ويرتد فى الأصل الاختلاف الجذرى فى الأهداف واللغة والروح والنظرة ، الذى فرق بين الزعامة البريطانية والزعامة الألمانية فيما يتعلق بالتوسع الامبريالى الى : أولا الى المراحل المختلفة ذاتها للتطور التى ألفى الطرفان نفسيهما فيها • ففى الثلاثينات كانت بريطانيا العظمى قد بلغت مرحلة تطور تمثلت فى قوتها الامبريالية الناضجة المكتفية بذاتها ، وأدرك زعماؤها فى الأغلب التطلعات التى عبرت عنها كل من الثورة الويلسونية

(أمريكا) والثورة اللينينية • وعلى الرغم من أن الحكومة البريطانية كانت تتحرك فى حذر نحو هذه التحولات ، الا أنها كانت قد تجاوزت فى تقدمها القرن التاسع عشر وميوله الامبريالية وانشاء الامبراطورية • ان هـذا لا يعنى انكار وجود عدد كبير من الانجليز اسـتمرت تراودهم الأحـلام الكبلنجية (نسبة الى الأديب الاستعمارى رديارد كبلنج) عن الامبراطورية • غير أن النقطة التى تحتاج الى تأكيد هى كون الرأى العام ومعظم المسئولين البريطانيين قد تجاوزوا هذه المرحلة • ويصور هذه الحالة كتاب نشر ١٩٤٢ (*) • ويعد هذا الكتاب تبريرا عاطفيا لحق انجلترا فى حكم الهند ، واتبع فى حججه وتبريراته الأسلوب التقليدى ، ولكن على الرغم من أن الكاتب قد اعتقد ان المهراجا الهندى بامكانه الاستمرار فى السيطرة على الهند اعتمادا على المذابح اذا تطلبت ادارته ذلك ، الا أنه أدرك أيضا واعترف بأن محاولة الاقدام على ذلك ضرب من الأوهام اليوتوبية ، لأن المشاعر العامة التى تأثرت بأنصار الجناح اليسارى وبالانسانيين الذين يبغضهم المؤلف لن تسمح بحدوث ذلك •

وعلى نقيض انجلترا ، الموقف فى ألمانيا التى لم تفرغ من لم شملها فى شكل أمة واحدة الا فى وقت متأخر • ومن ثم فانها لم تجن ثمار الامبراطورية الاستعمارية الا لفترة وجيزة ، ولم تتطور فى نظرتها الى الاتجاهات الامبريالية الى القدر الذى بلغته انجلترا • فحتى زعماء ألمانيا المحترمون ، فانهم استمروا يتحدثون ابان العشرينات كثيرا عن استعادة المستعمرات المفقودة فى الخارج ، وكان المشرفون على السياسة النازية هم الذين مثلوا نوعا من المفارقات فى اتجاهاتهم الامبريالية • وثمة مبررات عديدة لذلك : أولا ــ لقد استعارت الأيديولوجيا النازية الكثير من المعتقدات العنصرية من مخلفات أواخر القرن التاسع عشر ، واتخذت الدعوة للعنصرية جوهر الامبراطورية التى تحلم بها • ثانيا ــ التوترات والالزامات المتعددة التى تكمن فى صميم المذهب السياسى النازى القائم على التنافس ، والذى خلق تطلعات وأحلاما تذكرنا بأحلام الاستعمارى الانجليزى جون سيسل رودس فى روديسيا وبتطلعاته • وازداد هذا العامل ــ بدوره ــ تضخما من تأثير الخلفية الاجتماعية لكثيرين من الحالمين النازيين • اذ ينحدر عدد لا بأس به منهم من الطبقة المتوسطة ، وأدنى من ذلك • والآن وبعد أن أقدم النازى على أتاحة فرصة المساواة الثورية ، التى كانت هى ذاتها من نتاج هزة اجتماعية ، استطاع المجتمع الانجليزى تفاديها ، فقد أصبح بامكان هؤلاء الطموحين التطلع الى الحصول على مناصب امبريالية كتلك

(*) كتاب The Lost Dominion تأليف B.C.H. Calcraft-Kennedy (١٩٤٢) وكان من كبار المواطنين الذين عملوا بالادارة الهندية تحت رئاسة Al Corthill.

التى كانت قبل جيل من الزمان أو اثنين وقفا على من هم أفضل منهم اجتماعيا • وهكذا يكونون قد مثلوا فى عالم السياسة الخارجية « البورجوازية الصغيرة فى عهد بسمارك » • غير أن تأخر اتاحة الفرصة لهم للاستمتاع بخيرات الامبراطورية لا يصح أن يحجب حقيقة أنهم قد مثلوا يمثل هذه التطلعات فى العقد الرابع من القرن العشرين مفارقة تاريخية • وكما استطاع كارل بيترز القول فى ثمانينات القرن التسع عشر : « انه قد شعر بالضيق والقرف لاحتسابه من المنبوذين ، وأصبحت اتطلع للانتماء الى عنصر يتمتع بالسيادة » • وأن لا يجتذب الانتباه بلا مبرر لوجود عدد وفير من الفرنسيين والانجليز يشاركونه نفس النظرة العنصرية الى قيمة الامبراطورية • الا أن هذا النوع من الكلمات عندما شاع بعد نصف قرن تقريبا قد أخفق فى ادراك جميع التحولات التى طرأت خلال هذه الفترة القصيرة • ومما يثير السخرية فى هذا المقام أن نلحظ احتمال فهم جوزيف تشمبرلين للنازى أفضل من فهم ابنه (نيفل) لهم • فلعل هذا الامبريالى المتحمس الطموح التافه والمقاتل وعديم الخبرة فى المسائل الخارجية ــ وان كان يتطلع الى السلطة والهيمنة ــ والذى وصف على أنحاء شتى كتشبيهه بقاطع طرق من صقلية (المافيا) ، بل وقيل عنه انه كان يمثل فى مجلس االوزراء « دور المصاب بلوثة الوطنية » لعله كان يتناغم على نحو أفضل من المنظور الفاوستى للاندفاع النازى وتصورهم لحلم الامبراطورية • أما ما كان جوزيف تشامبرلين سيعجز عن فهمه ــ وهذا عامل ثان يبين ما بين زعماء الانجليز وزعماء الألمان فى الثلاثينات من اختلاف فى العقلية ــ فهو « القفزة » التى اعتمد عليها النازى فى تحويل نظرتهم الامبريالية من الميدان المعترف به لممارسة الميول الامبريالية ــ من افريقيا وآسيا ، الى التخوم البعيدة لشرق أوربا • اذ كانت روسيا ــ وليست تنجانيقا ــ هى التى ستزود هملر بأرض التجارب التى سينشىء فيها مشروعاته الاستيطانية ، وهى التى ستمثل أرض المعركة الارتدادية التى سيطبق فيها ألفرد روزنبرج نظريته العنصرية عن تفوق الجنس الآرى(*) للخلاص من اليهود (**) • وهى التى سيضع جوبلز مخططا لها باعتبارها الركيزة الجغرافية لأحلام هتلر عن الدور القادم لألمانيا (عندما تصبح قوة عظمى) (***) •

وما من شك أن هذا التحول الذى أدى الى الاندفاع نحو الشرق لانشاء امبراطورية قد استند الى منطق مأسوى • فلقد تحققت القفزة التى أدت الى

(*) Nordische Schicksal gemeinschaft.

(**) Drahtzieher des Judentums.

(***) Weltmacht.

تغير النظر الى القارات الأجنبية كمناطق للتوسع الامبريالى الى معاملة أقاليم شرق أوربا تبعا لنفس النظرة • وتحقق ذلك بسهولة لشعب اعتاد عبر القرون تقليديا اتباع هذا الاتجاه أكثر من نزوعه الى التوسع فى بلدان ما وراء البحار • ولعل القفزة قد ازدادت تيسرا عندما تدخل مبرر التفوق العنصرى ، وأدى دوره•فلقد اتخذ النازى شعار الاندفاع نحو الشرق(*) المعروف من قبل هدفا له ، بعد أن زوده بأهداف عنصرية ورؤيوية • ولابد من الاعتراف بأن النازيين ليسوا أول ألمان ينظرون الى أوربا الشرقية على هذا النحو • ففى منعطف القرن ، رأينا بالفعل أرنست هاسة رئيس « الجامعة الجرمانية » ، يقترح معاملة بعض أجناس كالبولانديين والتشيك واليهود وآخرين « مثلما تعامل الامبريالية فيما وراء البحار الوطنيين خارج أوربا » • ولم يختلف الاتجاه الذى اتبعه الجنرالات ابان عهد الديكتاتورية العسكرية التى جاءت فى أعقاب طرد بيتمان(**) اختلافا كبيرا ، بل ورأينا أشخاصا أكثر أهلا للاحترام من هاسة أو الجنرالات يلجأون من حين لآخر الى مشروعات متعاظمة منتفخة لاعادة تشكيل أوربا الشرقية • وفضلا عن ذلك ، واذا سلمنا بأثر الموقع الجغرافى فى تقييد حركة ألمانيا بحكم وضعها فى قلب أوربا ، سيتضح لنا أن الاندفاع أو التحرك نحو الشرق كان الوسيلة الوحيدة التى بوسع ألمانيا أن تسلكها لكسب الخلفية القارية التى تنشر فيها مجالها الحيوى ، كاحدى القوى الكبرى للحاق ببريطانيا وعالمها فيما وراء البحار ، وأمريكا وركيزتها القارية • وأخيرا ولعل هذا هو الأهم، فقد أملتديناميه دولة الفوهرر الفوضوية فكرة التوسعبالاتجاه نحو الشرق• فاعتمادا على هذه الوسيلة وحدها ، تستطيع الامبريالية النازية الاهتداء الى الأرض « السداح مداح » التى تيسر لها التخلص من التوترات التى خلفها المجتمع المزدوج فى ألمانيا • واذا صح هذا التفسير ، فانه سيعنى أن المخططين النازيين قد أحسوا بنفس الوضع الذى وعاه غريزيا كثيرون من ساسة القرن التاسع عشر من تأثير مغامرات ما وراء البحار على رسوخ الدولة القومية فى بلادهم ، وأن الأثر الوحيد الذى سيترتب على حركة التوسع الجديدة هو « تغيير أو تحطيم مفهوم الكيان السياسى للدولة ــ الأمة » • ولعل فكرة التحطيم هذه قد بدت جذابة لكثيرين من أصحاب الرؤى فى الحزب الاشتراكى الوطنى ممن استهوتهم الرؤيا « الألفية » للامبراطورية العنصرية بعد شعورهم بالتقزز من خلل الحياة القومية الألمانية التقليدية •

(*) Drang nach Osten.

(**) Bethmann Hollweg, Theobald. (١٨٥٦ ــ ١٩٢١) وزير الداخلية الألمانية والمستشار (١٩٠٩ ــ ١٩١٧) والذى وصف التعهد بحياد بلجيكا بأنه مجرد قصاصة ورق •

ولكن بغض النظر عن المؤثرات المنطقية ، الاكراهية ، فانها تمثل منطق النازيين ، وليس منطق الزعماء البريطانيين • وقد استطاع هتلر الاهتداء الى ما يشتهى من أحداث موازية رائعة للدلالة على التشابه بين علاقة الامبراطورية البريطانية بالهند ، وعلاقة الامبراطورية الجرمانية « القادمة » بروسيا ، وان كان قد غاب عن فطنته عدم احتمال استعداد البريطانيين لقبول « القفزة » التى قفزها الألمان (حتى لو أدركوا الطبيعة الحقة لرؤيا هتلر) ، بل لعل العكس هو الصحيح • اذ أصر الزعماء البريطانيون ـ باستثناء قلائل ـ على ادراج تطلعات الألمان ضمن الانتقادات التى وجهت ضد توازن القوى التقليدى فى القارة الأوربية ، وضمن نظام تقرير المصير القومى لجميع الشعوب الذى خططه ويلسون ١٩١٨ (بالرغم من أن البريطانيين قد ساندوا بوجه عام فكرة تقرير المصير ، كما تشهد بذلك اتفاقية ميونخ) •

وهكذا يصح القول بوجود حالة استقرار فى المجتمع البريطانى وفى خلفية زعمائه عبر عشرات السنوات ، ساعدت على حدوث التغير عن طريق التطور ، فى النظر للعلاقات الدولية • وقد افتقر الى هذه الظاهرة بوجه عام المجتمع الألمانى الأقل تمتعا بالاستقرار ، حيث ارتفع الى القمة صفوة من أرباب الرؤى الممتلئين حيوية لتصورهم أنهم قادرون على التحرك المتطرف، والمسلحين بطائفة من المعتقدات الامبريالية الموروثة عن القرن التاسع عشر •

وترتبت على حالة تفكك المجتمع الألمانى حركة دينامية متطرفة انطلقت فى عملية التوسع خارج ألمانيا ، وهددت بقلب العلاقات الدولية الراسخة• وكان ما أغرى النازى على الاقدام على تحدى الأوضاع الراهنة (*) هو أن ما بدا فى النظام التقليدى للعلاقات الدولية بين القوى الكبرى من تفكك • وكان ما عرقل الساسة البريطانيين الذين واجهوا تحدى النازى عن التصدى له هو حقيقة أنهم كانوا يضعون احدى قدميهم فى النظام القديم (يعنى فى توازن القوى والحفاظ على الامبريالية) ويضعون القدم الأخرى فى الفكرة المستحدثة (عن حق تقرير المصير والأمان الجماعى) • وترتب على ذلك اخفاقهم فى لعبة الكراسى السياسية • فلم يجد أى أسلوب للتعامل مع النازيين ، لأن تحديهم كان بعيد التطرف مما صعب احتواءه فى حساباتهم • وعندما حاول البريطانيون التعامل باتباع أسلوب ما بعد الحرب ، وطالبوا ـ على سبيل المثال ـ بتكامل النمسا وتشيكوسلوفاكيا ، قوبلوا بالرفض من النازيين الذين كانوا يريدون ـ فى أقل تقدير ـ السيطرة الألمانية على

(*) Status quo.

وسط أوربا . وعندما حاولوا التعامل بأسلوب ما قبل الحرب ، ولجأوا الى نظام المؤتمرات ، كما فعلوا فى ميونخ ، لم يتحقق النجاح الا وقتيا ، لأن طموحات النازى كانت كبيرة لدرجة كبيرة مما جعل تصور توازن القوى غير ذى موضوع . والحق أن ما حدث فى مؤتمر ميونخ أصبح يبدو لنا الآن آخر مثال لتطبيق نظام المؤتمرات الأوربية . وقد أصبح يبدو لنا الآن فى صورة رثة واستراحة شائنة ـ لدليـل على مـدى تصورنا لكل من معتقدات ويلسون ولينين وأيضا لتحديات النازى على انها أمور عفا عليها الزمان .

المــراجــع

(انظر قائمة مراجع الفصل التالى) ..

ميونخ ١٩٣٨ : المواجهة العسكرية

وليمسون موراى

عندما عاد رئيس الوزراء البريطانى نيفل تشامبرلين من مؤتمر ميونخ ، زعم انه قد استطاع بفضل المعاهدة التى عقدها مع هتلر الحفاظ على السلام فى أوربا • وفى أقل من سنة ، بدد الغزو الألمانى لبولاندة هذا السلام ، واستهل حربا أوربية عامة ، ويثير هذا الموقف تساؤلا حول هل افادت حقبة السلام التى دامت احد عشر شهرا بعد توقيع اتفاقية ميونخ الحلفاء أم المحور ؟ وبعبارة أخرى ، ومن المنظور العسكرى ، أى الطرفين كان فى موقف افضل عندما شبت الحرب فى أكتوبر ١٩٣٨ ؟•

ومن الصعب دائما ــ وان ظن بعضهم أنه من المستحيل ــ كتابة تاريخ عن ما الذى كان يحتمل ان يحدث ؟ ، ومع هذا فبالاستطاعة اجراء تحليل للقوى العسكرية لكلا الطرفين المتقاتلين ، ولانتشار القوات وتوافر الامدادات الحيوية والموارد الطبيعية والتكتلات وردود الفعل المحتملة • فاذا راعينا هذه العوامل ، لبات من غير المستبعد استخلاص النتيجة الآتية : لو ان المانيا اقدمت على الحرب ١٩٣٨ لكان موقفها سيتسم بالضعف والتعرض للخطر اكثر مما حدث عندما بدات الحرب ١٩٣٩ • ولربما اختلفت المشكلات الناجمة عن غزو تشيكوسلوفاكيا ــ رغم أنها ليست بأى حال من المشكلات التى يتعذر التغلب عليها ــ عن تلك المشكلات التى ووجهت عند غزو بولاندة • ولعل رد الفعل الدولى ، كان يثبت أيضا أنه أكثر تحيزا لألمانيا • وبعبارة أخرى ، فان هتلر كان سيكتشف أنه اقل سيطرة على الأحداث فى أكتوبر ١٩٣٨ مما حدث فى الخريف التالى بعد غزو براج • فلقد ازداد موسولينى اقترابا من الجانب الألمانى ، وتم التوقيع على الميثاق الروسى الألمانى •

نقلا عن المجلد الثانى من مجلة Journal of Strategic Studies. (١٩٧٩) •

لقد اهتم كثير من المؤرخين ، وبخاصـة المعنيون منهم اما بشجب السياسة الخارجية لتشامبرلين أو تأييدها بالتساؤل عمـا كان سيحدث لو أن الحرب اندلعت فى سبتمبر ١٩٣٨ ، ومن أسف أن أغلب دارسى ميونخ قد نظروا الى الموقف العسكرى آنئذ كمسألة على هامش الأحداث ، فلم يقدم على دراسة الموقف الاستراتيجى دراسة موضوعية سوى قلة من المؤرخين ، وقنـع كاثرهم بالاهتمـام بالعوامل المؤيدة لوجهـة نظرهم ، بينما تجاهلوا العوامل المعارضة لموقفهم ، وترتب على ذلك أن أضـحت المجـادلات الخاصـة بالموقف العسـكرى ١٩٣٨ تدور حـول مشكلتين رئيسـيتين : فمن يدينون « ميونخ » ويصـفونها بالكارثة العسـكرية يشـيرون الى افتقار ألمانيا الى القوى البرية وضعف موقفهـا فى الغرب ، وصعوباتها الاقتصادية الجمة ، ويرون أن أية حرب كانت ستحدث ١٩٣٨ كانت ستتصف بسرعتها النسبية ، مما كان سيؤدى الى انهيـار سريع لألمانيا النازية ٠ ومن ناحية أخرى ، فان هناك من يجادلون بالقول بأن الدفاع الجوى لبريطانيا كان ضعيفا بدرجة خطيرة ، ولو أن الحرب نشبت فى تشيكوسلوفاكيا لانهارت بريطانيا أمام اللوفتفافه (السلاح الجوى الألمـانى) ، فالمشكلة اذن أشد تعقدا مما يستخلص من أية نظـرة من النظرتين ٠

وفي مقال يشغل مثل هذا الحيز الضيق ، لن نستطيع أن نبحث جميع العوامل التى اشتركت فى تحقيق توازن القوى ١٩٣٨ ٠ ومع هذا فان أى فحص عام لأهم مقومات الموقف الاستراتيجى ١٩٣٨ ، يبين أن ميزان القوى كان لا يرجح كثيرا صـالح ألمانيـا فى تلك السـنة ، أكثر مما حدث بعد ذلك فى ١٩٣٩ ٠ فأولا ــ لم يكن سـلاح الجـو الألمانى فى موقف يسمح له بشن هجمات جوية خطيرة ، وبالقاء القنابل أثناء الهجمات الاستراتيجية على الجزر البريطانية ١٩٣٨ ٠ ان من دافعوا عن سياسة تشامبرلين لأنه أنقذ بريطانيا من سلاح الجو الألمانى ١٩٣٨ قد ارتكنوا فى دفاعهم على ما اتسم به الدفاع الجوى الانجليزى من ضعف ، وعلى القدرة الألمانية المزعومة ، والتى لم يكن لها ــ بكل اخلاص ــ أى وجود ، ومن جهة أخرى ، فثمة اساءة لاتقل جسامة عن ذلك فى تخيلها للموقف ، اذا بالغنا فى تقدير عدد الفرق عنـد الطرفين المتحاربين ، وقلنا ــ مثلا ــ ان الجيش الفرنسى بما لديه من تفوق عددى كاسح فى الغرب ، كان بوسعه شق طريقه فى الجبهة الى الراين ، ثم يتقدم الى حوض الروهر فى أكتوبر ١٩٣٨ ، غير أن هذا الحل ما كان ليحدث قط ، لأنه بالرغم من التفوق الفرنسى الكاسح ، وبالرغم من أنه يصعب القول بأن أى خط من خطوط الدفاع الغربيـة كان قد اكتمل ، فانه

لم يخطر ببال الجنرال جاملان (الفرنسى) والقيادة العليا الفرنسية اطلاقا شئ ما هو أكثر من المحاولة التعسة التى شنوها فى سبتمبر ١٩٣٩ ٠

وهكذا ، فلو أردنا الاهتداء الى تقييم منصف للتساؤل حول ما الذى كان سيحدث فى أية حرب أوربية عامة تدور رحاها فى تشيكوسلوفاكيا سيتوجب علينا عدم الاكتفاء ببحث الموقف العسكرى الفعلى ، فلا مناص من ان نتمعن فى اساءات التصور التى ابتلى بها القادة العسكريون والزعماء السياسيون ، الذين كان سيعهد اليهم بمهمة تسيير الحرب ، وبالمحرمات التى رفضوا التصدى لبحثها ٠ وهذا ما سنتناوله فى هذا المقال ٠ وسأحاول القيام بذلك بالانتقال من التخصيص الى التعميم ، ومن مناقشة التطلعات المباشرة التى كان الغزو الألمانى لتشيكوسلوفاكيا لألمانيا يسعى لتحقيقها الى الموقف الاستراتيجى العام فى شرق أوربا وغربها ، وأخيرا سأبحث الموقف الألمانى الشامل ، استراتيجيا واقتصاديا ودبلوماسيا ٠

لم تسمح الظروف لألمانيا ببحث مسالة الغزو العسكرى لجمهورية تشيكوسلوفاكيا الا بعد أن اطمأنت الى خلو الساحة من أية مقاومة فعالة (*) ، ففى سبتمبر ١٩٣٨ ، كان الجيش الألمانى يتألف من ٤٨ فرقة نظامية ، من بينها ثلاث فرق مدرعة فقط ، وأربع من فرق الاستكشاف السريع ، وأربع فرق محملة على عربات ، وكانت تفتقر الى بعض العتاد كالمدفعية الثقيلة ، ولم يكن لديها أى احتياط من المحاربين القدماء المسنين ممن اشتركوا فى الحرب العالمية الأولى ٠ وفضلا عن ذلك فقد انضم الى القوات المسلحة (**) الألمانية خمس من هذه الفرق من الجيش النمسوى ، وكان مستوى العديد من الوحدات النمسوية أضعف بدرجة ملحوظة من مستوى الوحدات الألمانية ٠ والواقع أن الجنرال « ريتر فون لب » قد شبه الفارق بين القوات الألمانية والقوات النمسوية بالاختلاف بين الليل والنهار ٠

وكان تحت امرة الفرق الثلاث المدرعة دبابات خفيفة ، كانت حتى بمقاييس ذلك العهد قد عفا عليها الدهر ، بينما لم تتوافر الدبابات المتوسطة النموذجية القليلة الا للفحوصات القتالية ٠ وكانت هذه الفرق المدرعة بدون القوة الضاربة والحماية المدرعة للدبابات الثقيلة ستتعرض لصعوبات جمة ٠

(*) Scrape the bottom of the barrel.

(**) Wehrmacht.

ويتألف القسم الأكبر من الجيش الألمانى من فرق للمشاة ، روعى فى اعدادها وتجهيزها القدرة على أداء جميع الأغراض والمهام ، على نحو يتقارب كثيرا وحال الفرق الألمــانية فى نهاية الحرب العالمية الأولى ، ولم تختلف من حيث درجة الحداثة هذه الفرق السبع والثلاثون المشاة عن الفرق المشاة بالجيش الفرنسى التى كانت تعتمد على مدفعية تجرها أو تحملها الخيول والبغال ، وخلافا لما حدث ١٩١٤ ، فقد كانت هناك قوى احتياطيــة مدربة قليلة • وسيعترض هذا العــامل للتعويق حتى عمليات تعبئة وحدات الجيش النظامية ، وكان أقصى ما باستطاعة الألمان انتزاعه من القوة العاملة الموجودة ومن مستودع العتاد هو اعداد وتعبئة ثمــانى فرق احتياطية و ٢١ فرقة مشاة يقتصر تشكيلها على المحاربين القدماء (ممن اشتركوا فى الحرب الأولى) ، وتفتقر الى ما يقرب جميع المعدات والمتخصصين ، وحتى بغض النظر عن المعدات ، فان أغلب هذه التشكيلات لم يكن بمقدورها التهيؤ للنهوض بأبسط المهام الحربية ، وأخيرا لم تكن الصناعة الألمانية قد توافرت لها القدرة على تزويد القتال الفعلى والنهوض فى ذات الوقت بانتاج العتاد لتشكيلات تضم أعدادا كبيرة من الفرق الجديدة •

ومن ناحية أخرى ، فان أغلب من عارضوا بشدة سياسة التهدئة التى اتبعها تشامبرلين قد جنحوا الى اساءة تقدير قدرات الجيش التشيكى• وبينما تمكن الجيش التشيكى من تعبئة حوالى ثلاثين فرقة لمواجهـــة تهديد ٧٣ فرقة ألمانية فى سبتمبر ١٩٣٨ ، الا أنه لم يكن بينها أكثر من ١٩ فرقة نظامية ، وفرقتان تم تشكيلهما فى أواخــــر ربيع ١٩٣٨ • وكمــا كان الحال فى معظم جيــوش أوربا حينذاك ، لم تتوافر للجيش التشيكى التجهيزات الحديثة الكافية للوحدات الاحتياطية • ومع هذا فقد كانت معدات قواته النظامية متكافئة هى ومعدات الجيوش الغربيـــة (بما فى ذلك ألمانيا) ولقد اعترف الألمان بعد ميونخ بأن فرق الخط الأول التشيكية كان لديها أسلحة ممتازة ، وفوق كل ذلك ، فلقد نجح التشيك فى انشاء تحصينات لا بأس بها فى قطاعات معينة من جبهتهم ، ولكنهم لم يبدأوا فى تنسيق جهودهم الا بعد فوات الأوان • وكان التشيك قد أعدوا العدة لمواجهة الاختراق الألمانى المتجه من شيليزيا الى النمسا •

بطبيعة الحال ، كانت هناك نقــاط ضعف أساسية • فالظاهر أن القيادة التشكيلية العليا قد اختيرت على أساس سبق اشتراكها فى القوات العسكرية ١٩١٧ و ١٩١٨ وليس على أساس الكفاية القتالية • وامتدح الألمــان قيـــادات اللواءات والسرايا ، أما ضباط الصف فلم يرتقوا الى مستوى نظرائهم من الألمان ، وبوجه عام ، فلقد اعترفت التقارير الألمانية

عن حالة العسكرية التشيكية بأن التشيك كان بوسعهم القيام بحركة مقاومة بارعة وراء التحصينات ، ولكنهم ارتابوا فى مقدرة القوات التشيكية على مضاهاة الجنود الألمان فى الحرب المفتوحة .

ولقد مرت خطط الألمان للهجوم المتوقع في عدة أطوار متمايزة ، وكانت الخطة الاستهلالية التى وضعها فرانس هالدر وأعوانه قد ركزت على الجوانب العسكرية لمشكلة غزو تشيكوسلوفاكيا ، ولكنها تجاهلت المشكلات الديلوماسية والسياسية التى قد يثيرها مثل هذا الهجوم ، وتطلبت خطتهم شن هجومين : فرنى أن يشن الجيش المتركز فى شيليزيا الهجوم فى اتجاه الجنوب ، على أن يلتقى بجيش آخر متمركز فى النمسا يهاجم فى اتجاه الشمال ، ويساعد هذا الاجراء على شطر تشيكوسلوفاكيا فى أضيق أجزائها الى شطرين ، وحصار باقى الجيوش التشيكية فى بوهيميا ومورافيا . غير أن هذه الخطة الأولى أخفقت فى مراعاة الضرورة السياسية لاحراز نصر سريع يؤجل تدخل القوى الأوربية الأساسية . وسرعان ما اكتشف هتلر ذلك فى مؤتمر عاصف عقده فى ٣ سبتمبر ١٩٣٨ ، وطالب بتعديل الخطط تعديلا جوهريا بحيث تتضمن ضربة مكثفة على براج موجهة من بافاريا ، ويشترك فى هذا الهجوم جميع القوات الرئيسية المدرعة والمحملة بالسيارات . وشعر هتلر أن الاستيلاء على براج سيساعد على الحيلولة دون تصاعد الهجوم الألمانى على تشيكوسلوفاكيا واشتعال حرب أوربية كبرى ، ثم غادر هتلر القيادة متجها لمشاهدة استعراض فى نورنبرج ، ومما يثير الاهتمام أن سيطرة هتلر على قادته كانت مازالت أقل من السيطرة الكاملة . فالظاهر أن هالدر وبراوختش لم يجريا أى تعديل مهم فى الخطط . وفى ٩ سبتمبر ، التقى القادة العسكريون بهتلر مرة أخرى ، ووصف مساعدو هتلر العسكريين الضربة التى ترتبت على ذلك بأنها كارثة ، وأعاد هتلر التشديد على أهمية الاندفاع نحو براج ، ولكنه فى هذا الاجتماع رضى بحل وسط ، وأيد تقديم العون للقوات القادمة من شيلزيا والنمسا لشطر تشيكوسلوفاكيا الى شطرين .

وكما هو الحال فى معظم الحلول الوسط ، فقد كانت الخطة الألمانية أضعف من كلا التصورين المبدئيين . اذ كانت خطة هتلر أفضل من الناحيتين السياسية والسيكلوجية ، ومن المؤكد أنها كانت أجرأ ، لأنها استندت الى شق القوات المحملة الألمانية طريقها من خلال أرض وعرة ، ولكنها كانت ستحقق مفاجأة غير متوقعة مثلما حدث بعد ذلك فى اقتحام الألمان للأردين ١٩٤٠ . وبالاضافة الى ذلك ، فانها كانت ستساعد على تركيز قوة المدرعات الألمانية وقواتها المحملة . أما الخطة النهائية فقد

فرقت الفرق المدرعة الثلاث والفرق الثلاث المشاة بين ثلاثة جيوش مختلفة • وكان بالاستطاعة اقدام القوة المندفعة نحو براج على شق طريقها الى داخل المدينة ، وان كان هذا لن يتحقق الا بعد قتال ممتد حامى الوطيس ، فلم يتوافر لهذه القوة القدرة على الكسب بالاعتماد على ضربة ساحقة تفرض الأمر الواقع ، وتيسر لهتلر النصر الذى يحتاج اليه لدفع القوى الأخرى لتأجيل التدخل •

ويبدو أن استعداد التشيك لمواجهة التهديد الألمانى كان أكثر اتباعا للعقل من استعداد البولانديين بعد ذلك بسنة • فبينما قام التشيك بتجزئة الكثير من قوتهم للدفاع عن الأقاليم الحدودية عديمة الأهمية ، فانهم حشدوا جموعا لها وزنها من الاحتياط كان باستطاعتها مساعدتهم لايقاف التغلغل الألمانى الكبير ، وكان مقر تجمع خط الاحتياط الأول بالقرب من براج ، ويتألف من فرقتين خفيفتى الحركة وفرقة واحدة من المشاة وأربع فرق مشاة احتياط ، بينما كان مقر التجمع الثانى بالقرب من الحدود الواقعة بين سلوفاكيا ومورافيا ، ويتألف من فرقتين خفيفتى الحركة وفرقة محملة وخمس فرق احتياط • وكانت كل قوة من هاتين القوتين قادرة على مواجهة الاختراقات الألمانية والحيلولة دون نجاح الألمان فى التغلغل وشق طريقهم بسرعة ، واستثماره بشراسة فى الفترة الواقعة بين ١٩٣٩ و ١٩٤١ •

وثمة عامل رئيسى آخر يجب الالتفات اليه عند تقييم مسار الصراع الألمانى التشيكى فى الأسابيع الأولى من أكتوبر ١٩٣٨ • انه الجو ، الذى كان فى صالح التشيك فى معظم الأحوال بفضل شدة قسوته ، واذا راعينا عدم قدرة الطيران الألمانى (*) على التحليق فى الجو فى جميع الأجواء ، والمشكلات العامة المتعلقة بصيانة الطائرات التى واجهها الطيران الألمانى ١٩٣٨ ، لذا كانت المعونة الجوية مشوشة وغير منتظمة فى أفضل الأحوال ، اذ كانت صعوبات الاضطلاع بمهمة المعاونة الجوية الغربية فى الجو الردىء تكبد الألمان خسائر جسيمة ، وربما أثرت على مقدرتهم على تقديم العون للعمليات الحربية بعد غزو تشيكوسلوفاكيا •

وبعد الفحص والتمحيص ، يبين أن المقاومة التشيكية المعتمدة على التدخل النشط للقوى الأخرى ، كان بمقدورها أن تستمر بنفس القدر الذى حدث للمقاومة البولاندية ١٩٣٩ • ومع هذا فلابد من الاعتراف بأن بعض العوامل مثل طبيعة الأرض التشيكية ، وتفوق العتاد الحربى

(*) Luftwaffe.

التشيكى والضعف العام للجيش الألمانى ١٩٣٨ (وبخاصة بعد تكبده خسائر فادحة فى الدبابات) كانت ستساعد على الحاق خسائر جسيمة للألمان فى الرجال والعتاد . وأغلب الظن أنه لو وقفت مثل هذه المعركة لما كان من المستبعد أن يحجم الألمان عن التباهى بانتصار قواتهم المسلحة على بولاندة ١٩٣٩ ، وفضلا عن ذلك ، فمن المستبعد أيضا أن تتمكن القوات الألمانية من غزو قواتها الاستراتيجية ضد التشيك مثلما ستفعل بعد ذلك فى المعركة البولاندية اعتمادا على تفوق قوتها المدرعة . وربما ساعد الاخفاق فى تحقيق نجاح مذهل اعتمادا على القوات المدرعة على تزويد المحافظين داخل الجيش الألمانى بالحجج التى يستطاع الاستعانة بها لمواجهة المجددين من أمثال جودريان ، وأخيرا فان أية معركة ضد تشيكوسلوفاكيا كانت ستساعد على تدمير معظم التجهيزات الحربية التشيكية ، ولعلها كانت ستلحق أكبر قدر من الدمار أيضا بالمصانع الحربية التشيكية . وقد أثبتت مستودعات الأسلحة التشيكية نفعها الكبير لآلة الحرب الألمانية عندما استولى الألمان عليها بغير أن يلحق بها أى أذى فى مارس ١٩٣٩ .

ولكن المشكلة الاستراتيجية الأساسية لألمانيا قد تمثلت فى عدم امكان حصر الهجوم على تشيكوسلوفاكيا فى كونه نزاعا تشيكيا ألمانيا فحسب . اذ كان هناك احتمال فى امتداده بحيث يشمل القوى الكبرى والعديد من القوى الصغرى . فحتى فى أوروبا الشرقية ، فقد واجه الألمان موقفا خطرا ، فقد كان البولانديون ، فى موقف يساعدهم على التدخل ، واحداث تأثير حاسم فى أغلب الظن ، اذ كان بوسع أى اختراق بولاندى للجزء الشمالى من شيليزيا فى اتجاه برسلاو محاصرة جيش شيليزيا كله بقيادة روندشتت ، غير أن البولانديين آثروا القيام بلعبة الانتظار ، ولقد صنف سياسى تشيكى السياسة البولاندية تصنيفا صحيحا خلال الأزمة ، عندما قال انها كانت تخطط للتحرك فى اتجاه تشيكوسلوفاكيا لو استمرت فرنسا وانجلترا ملتزمتين بالحياد ، للحفاظ على حيدتها ، وانتظار ما ستسفر عنه الأحداث اذا اقتصر الأمر على تدخل فرنسا . ولكنها كانت تنوى الانضمام فى الحرب ضد ألمانيا لو أقدمت بريطانيا على ذلك ، والواقع أن البولانديين قد أوضحوا للحكومة البريطانية فى منتصف سبتمبر أن تصرفهم فى الأزمة سيعتمد على مسلك بريطانيا العظمى .

وازداد اتجاه بولانده فيما بعد تعقدا من جراء تصلب عدائها للاتحاد السوفيتى . وعندما يتعلق الأمر بروسيا فاننا سنكون حيال سحب كثيفة من الضباب لعدم توافر ما هو أكثر من القليل من الأدلة الموثقة عن سياسة هذا النظام ، بيد أن ما يمكن أن يتضح هو أن الدور العسكرى

الذى كان يمكن أن تؤديه روسيا قد بولغ فى تقديره ۰ فأولا ــ لم يكن للاتحاد السوفيتى أى حدود مشتركة بينها وبين ألمانيا أو تشيكوسلوفاكيا، ونظرا لوجود عداء بين رومانيا وبولاندة تجاه روسيا فمن الصعب أن نتصور كيف كان الروس سيهاجمون الأراضي الألمانية ، أو يبعثون قوات عسكرية كبيرة لمساعدة التشيك ، وفضلا عن ذلك ، وهذه نقطة حاسمة ، فقد كان ستالين منشغلا فى القضاء على الجيش الأحمر عن طريق حركات التطهير بالجملة ، وأثبتت العروض الهزيلة التي قدمتها الجيوش الروسية لدي احتلالها شرق بولاندة أثناء الحرب ضد فنلندة وفي الشهور الأولي من عملية بارباروسا أنه من الصعب اعتبار الاتحاد السوفيتى عاملا خطرا فعالا فى الموقف العسكرى ۱۹۳۸ ، وهنـاك دلائل على أن ستالين كان يخطط لاستغلال المواجهة العسكرية الكبري بين القوى الغربية وألمانيا النازية كذريعة لتصفية الحسابات مع البولانديين ، ويدلنا تبادل الاتهامات المريرة بين البولانديين والروس في سبتمبر ۱۹۳۸ على أن اهتمام القوتين بتجديد حربيهما ۱۹۲۰ قد فاق اهتمامهما بالتهديد الذى طرحته ألمانيا ۰

وبالرغم من كل هكذا ، فان موقف الصراع الشـامل فى أوربـا الشرقيـة وفي البلقان كان أقل ملاءمة للألمـــان ۱۹۳۸ منـه فى سنتى ۱۹۳۹ و ۱۹٤۰ ۰ فأولا ــ وبغض النظـر عن ماهيـة قدرات السـوفيت المحتملة لخوض العمليات العسكرية ، فانه لم يكن من الميســور تحالفها هي وألمانيا النازية ، كما أنها لم تكن في موقف يتيح لها تقديم العون لاقتصاديات الحرب الألمانية ، بالتزويد بمقادير كبيرة من المواد الخام ، كما حدث فيما بعد عندما وقعت معاهدة عدم الاعتداء فى أغسطس ۱۹۳۹۰ بالاضافة الى أن ألمانيا لم تكن قد نجحت بعد فى ارعاب البلدان الصغيرة في أوربا الشرقية ، ولقد أوضحت يوجوسلافيــا ورومانيا تأييدهمـ الضمني ــ على أقل تقدير ــ لتشيكوسلوفاكيا ۰ وذهب الرومانيون الي ما هو أبعد فحذروا الألمان من احتمال توقفهـــم عن امدادهم بالبترول الروماني بعد ۳ أكتوبر ۱۹۳۹ ۰ وحتى المجريون ، والذين كانت لديهم جميع المبررات للشهور بمقت التشيك ، فانهم رفضوا الالتزام بالاقدام على أي عمل عسـكري ضـد تشيكوسلوفاكيا على الرغم من الضغوط الألمانية الشديدة ۰

ولكن الذى أفزع العسكريين الألمــان لم يكن الموقف فى أوربا الشرقية ، وانما كان الموقف الاستراتيجى في الغرب ۰ اد كان ما يدعى « الجدار الغربى » (*) من المخزيات حقا ۰ فلم تبدأ الانشاءات الرئيسية فى هذا الحائط أو الجدار الا في بواكير صيف ۱۹۳۸ ، وعلى الرغم من الجهود

(*) West wall.

الجغرافية ، والالتزامات الهائلة من الموارد ، فان ما اكتمل من هذا الجدار لم يزد عن ٥١٧ نقطة من النقاط المنيعة • وكان من المتوقع أن يرتفع هذا الرقم ١٩٣٩ الى ما يتجاوز حوالى ١٠٠٠٠ «دشمة» تم اكتمالها • وحتى هذه الدشم المكتملة ، فقد كان الكثير منها بلا قيمة عسكرية ، لأن الخرسانة لم يكن قد تم صبها •

وعلى الرغم من هذا ، فان ما لحق هذه التحصينات من عدم اكتمال ، لم يكن أخطر مشكلة واجهت الألمان فى الدفاع عن حدودهم الغربية • فلما كانت التحصينات لم تكتمل ، لذا لزمت الحاجة الى أعداد كبيرة من القوات الأرضية أو البرية للدفاع عن الغرب ضد أى هجوم فرنسى رئيسي • ولم تكن هذه القوات ميسورة ، فلم يتوافر للجنرال آدم القائد العام للجبهة الغربية أكثر من خمس فرق نظامية للدفاع عن الجبهة برمتها المواجهة لفرنسا وبلجيكا • وفي مؤتمر عقد في شهر اغسطس ، وعد هتلر آدم بارسال عشرين فرقة احتياط عند اندلاع الحرب ، غير أنه قوبل على الفور بمعارضة من براوخيتش الذى حذر هتلر وأخبره ان ما سيكون جاهزا من هذه الفرق العشرين خلال ثلاثة أسابيع من اعلان التعبئة لن يتجاوز ثمانى فرق ، وسنرى كيف أصبح هذا الخلط بين الفكر والأمانى من المستلزمات التى ستلتصق بتصرفات هتلر فى السنوات الأخيرة من الحرب عندما سنراه يشير بأصبعه الى الخرائط المبين عليها المواقع ، ويأمر بانشاء تحصينات حيث لايوجد بشر أو عتاد أو دشم أو خنادق أو ملاجيء محصنة • وبالمثل كان هتلر يلوح بيده رافضا الاعتراف في سبتمبر ١٩٣٩ بتفوق قوة الجيش الفرنسى ، أو عدم اكتمال التحصينات الغربية أو النقص فى الاحتياط •

ومع هذا فقد ضرب هتلر رأسه في الحائط عندما أدرك عدم استعداد الفرنسيين للسعي نحو مواجهة عسكرية في الغرب ، ولعله اهتدى الى هذه النتيجة عن طريق الروس ، واذا سلمنا بصحة التفاوت بين القوة الفرنسية والقوة الألمانية الا أنه لو توافر للفرنسيين حتى قيادة هجومية على قدر الحال لما كان من المستبعد أن يكونوا في موقف يسمح لهم بشن حربهم فى أرض الراين ، وكما حدث ١٩٣٩ ، لم يكن لهذه القيادة العسكرية أي وجود • وفي ذروة أزمة ميونخ ، عقب دى جول ساخرا على ما قاله « بلوم » عما ينتظر أن يفعله الجيش لو نشبت الحرب : « الأمر بسيط للغاية : ومراعاة للظروف الفعلية فاننا سنستدعى القوات الجاهزة ، أو نعلن تعبئة الاحتياط ، ثم نحدق ببصرنا من خلال مزاغل تحصيناتنا مكتفين بالفرجة دون أن نفعل شيئا يوقف عملية استعباد أوربا » ، نعم

لقد أصاب ديجول . فلم تتوافر للجنرال جاملان والقيادة الفرنسية العليا أية نية لشن أيه عملية عسكرية فعالة ضد ألمانيا ، ولقد بين جاملان ذلك أثناء زيارته للجبهة وأثناء مؤتمر عقد مع العسكريين البريطانيين والزعماء السياسيين فى نهاية سبتمبر ١٩٣٨ . وبدأ مناقشاته بسرد قائمة من مفاخر القوة الفرنسية ، يعنى ما لدى فرنسا من قدرة على تعبئة خمسة ملايين وخمسمائة ألف جندى ومائة فرقة وخط ماجينو . أما الألمان فليس لديهم أكثر من ثمانى فرق فى الغرب . ولكن عندما حان وقت الحديث عما ستفعله فرنسا لو شبت الحرب تلعثم جاملان وعقب على ذلك بالقول: بالرغم من أن العمل العسكرى المباشر قد يكون لصالح فرنسا ، الا أن الأفضل فيما يحتمل هو الانتظار الى أن يتم اخلاء باريس من سكانها ونفائسها ، يضاف الى ذلك ما أضافه جاملان عن احتمال تراجع الجيش الفرنسى والتركيز على خط ماجينو بعد اتمام غزو تشيكوسلوفاكيا ونقل هتلر قواته للغرب ، فالجيش الفرنسى « قد ينسحب من الأراضي الألمانية على نحو ما فعل هندنبورج ١٩١٧ الى تحصيناته فى خط ماجينو ويدمر أرض العدو أثناء تراجعه » . ويتضح من هذا البيان أن جاملان رغم اعترافه بتفوق الفرنسيين على الألمان بنسبة ٧ : ١ (يعنى ٥٦ فرقة فرنسية مقابل ما يقدر بثمانى فرق ألمانية فى الغرب) لم يشعر باحتمال احراز الجيش الفرنسى لأى نصر عسكرى ذى بال كالاستيلاء على الضفة الغربية لنهر الراين . وفى نهاية الاجتماع ، عاد جاملان مرة أخرى لهذه النقطة ، وتوقع بعد الهجوم الفرنسى المبدئى ، أن يتراجع جيشه الى خط ماجينو خلال أشهر الشتاء ، وهناك ينتظر وصول الجيش البريطانى الرئيسى .

ولعل بعض الضباط الآخرين كانوا أقل تفاؤلا فيما يتعلق بتطلعات الفرنسيين فى الحرب الأوربية ، فلقد حذر الجنرال دنتس (بكسر الدال) فى حديثه هو والملحق الحربى البريطانى فى نهاية سبتمبر ١٩٣٨ من أنه اذا وقعت الحرب ، فان سلاح الطيران الألمانى قد يدمر مدن فرنسا غير الحصينة ، وترك عند الملحق العسكرى انطباعا بأن الفرنسيين يعتبرون ضم الألمان لتشيكوسلوفاكيا أمرا مفروغا منه . وفى ذات اليوم ، علق الجنرال جوش رئيس المخابرات الحربية الفرنسية : « بعدم احتمال حدوث الحرب لأننا لاننوى أن نحارب » .

ولم يفعل العسكريون البريطانيون أى شىء لتشجيع الفرنسيين على التصميم على الصمود ، فمنذ وقت مبكر يرجع الى ١٢ سبتمبر ، حذر قائد القوات الجوية من احتمال هجوم الفرنسيين على التحصينات الألمانية المنيعة فى الغرب ، وأشار الى الترخيص لرؤساء الأركان باجراء محادثات بين المختصين عن العمليات لاقناع الفرنسيين بحماقة هذا

الاجراء . وهكذا فلا عجب اذا رأينا رؤساء الأركان يحذرون اجتماعا للوزراء البريطانيين فى نهاية سبتمبر من حشيتهم شروع فرنسا الاقدام على عملية هجومية ضد ألمانيا لا يحتمل أن تحقق أى أثر فعال ، والى جانب ذلك ، فقد رفض كل من اللورد جوت رئيس الأركان بالامبراطورية والسير سيريل نيوول قائد القوات الجوية بعد التقائهما بالجنرال جاملان وشعورهما بالقلق تحديد المساعدة العسكرية التى تنوى بريطانيا تقديمها أو يحتمل أن تقدمها لو شبت الحرب فى المستقبل المباشر .

فلو صح أن الفرنسيين كانوا عازفين عن اجراء أية عملية حربية جادة ضد غرب ألمانيا ـ كما يبين من الدلائل ـ سيتخذ السؤال الجوهرى بعد تحليل الموقف الحربى فى خريف ١٩٣٨ شكل التساؤل حول : ما هى طرق الحل المفتوحة أمام هتلر للقيام بعمليات حربية أبعد من ذلك بعد غزو تشيكوسلوفاكيا ؟ .. وفى غضون ١٩٣٨ و ١٩٣٩ ، كانت الاختيارات المتاحة للألمان فى الغرب أكثر تحديدا ـ فيما يحتمل ـ مما كانت ١٩٣٩/١٩٤٠ ، ولربما حدث ذلك كنتيجة لعوامل شتى : عسكرية واقتصادية وبحرية ، وكانت العوامل الأكثر وضوحا هى العوامل العسكرية والبحرية .

فبعد العملية التى جرت مع تشيكوسلوفاكيا ، تعرض الجيش الألمانى لخسائر فادحة فاقت الخسائر التى سيتعرض لها فيما بعد فى معركته مع بولاندة ، ويحتمل أن يكون ما توافر له عددا أقل من الفرق المدرعة عما كان لديه فى مايو ١٩٤٠ . وليس من المستبعد أن تحقق هذه الفرق نجاحا أقل مما باستطاعة المدرعات الالمانية تحقيقه فى بولاندة ، ويحتمل أن يكون الجيش أضأل من حيث الحجم بدرجة كبيرة . وبالاضافة الى ذلك ، فلعله كان سيتعذر اعداد تشكيلات جديدة بسرعة تفوق سرعة السلحفاة لسببين : السبب الأول هو احتمال تدمير مستودعات الأسلحة التشيكية أثناء غزو تشيكوسلوفاكيا ، السبب الثانى : عوامل اقتصادية سأتعرض لها فيما بعد فى هذا المقال . ويصعب ادراك كيف سيتسنى للألمان شن ما هو أكثر من وخزة ميثوس منها للغرب ، أى شيئا مماثلا فى امكاناته الاستراتيجية لاختراق الأردين ١٩٤٤ . ومن المؤكد أنه لم يكن بمقدور القوات العسكرية الميسورة شن عملية اقتحامية قوية عبر بلجيكا مصحوبة باختراق المدرعات من خلال الأردين على نحو مماثل لما استطاع الألمان تحقيقه فى مايو ١٩٤٠ .

ويكاد يتساوى فى أثره المدمر على الاستراتيجية الألمانية ، اتصاف الموقف البحرى الألمانى بشدة الضعف ١٩٣٨ فى أغلب الظن ، بالمقارنة

بحالتـــه فى ١٩٣٩ ٠ فلم تكن قطعتان من القطع البحرية (*) جاهزتين للعمليات البحرية ، بينما كانت البوارج المماثله فى مميزاتها لبارجـة بســـمارك بعيدة عن الاكتمال قبل مضى سنتين أو يزيد ، وكانت أكبر السفن العاملة ، أى ما يدعى ببوارج الجيب أصلا من السفن التي تتبع غفر السواحل لمطاردة المهربين ٠ ولم تكن هنـــاك أية طرادات ثقيلة أو حاملات طائرات ٠ وكل ما هناك هو ستة طرادات خفيفة وسـبع نسافات ، وربما كان أكثر ما أثار احباط الاستراتيجيين البحريين الألمان هو عدم وجود ما يزيد عن ١٢ غواصة صالحة للخدمة فى الأطلسى فى فبراير ١٩٣٨ تحت امرة الأسطول الألمانى ، ثم توافرت ٢٤ علبة سردين أخرى (**) للاستعمال فى مياه شواطىء الجزر البريطانية ٠ وبينما استطاع الأسطول الألماني شن عمليـات ناجحة ضد النرويج والدانمرك فى ربيع ١٩٤٠ بغير أن يتوافر لها أى رصيد بحرى ، أى كانت على فيض الكريم ، وخسرت خلال العمليات جميع وحداتها البرية ، مما أحدث تأثيرا كبيرا على استعداداتها للحرب ، ولم تكن هذه القدرة بالضخامة كما اعتقد ١٩٣٨ وبدايات ١٩٣٩ ٠ وفضـــلا عن ذلك ، فقـد ارتابت قيـــادة البحـرية الألمانية(***) فى امتلاكها للقوات القادرة على حماية خطوط التجارة التى تيسر لها نقل الحديد من السويد ، أو حتى تأمين الملاحة فى بحر البلطيق ، وفى يوليو ١٩٣٨ ، أبلغت قيادة إسطول البلطيق عن ارتيابها فى امكان حماية السفن الناقلة للمعادن الخام من موانىء السويد خشـــية تدخل الروس ، وكانت الوسيلة الوحيدة المتاحـة هى اغـلاق خليج فنلندة فى بداية الحرب بعد زرع الألغام فيه ، ونشر الغواصات والوحدات البرية ، وبذلك أمكن حصر تدخل الروس ٠ غير أن مثل هذه الاستراتيجية كانت تتجاوز قدرات الألمان ، ولجأ الألمان لحماية أنفســـهم من الغواصـــات الروسية ، الى استعمال قوارب الصيد ، وصدر أمر بالاستيلاء على ما يملكه الأهالي منها فى أغسطس ١٩٣٨ ٠ وفى تقرير كتب عن سير العمليات الحربية بعـد أزمة ميونخ ، حذر قادة البحـرية الألمان فى الشرق بأنه اذا تورط الروس فى الاشتراك فى الحرب الدائرة مع تشيكوسلوفاكيا ، فإن أسطول البلطيق لن يتمكن من النهوض بمهامه ، اذا لم يتم تعزيزه تعزيزا جوهريا ، وهكذا لم يكن لدى الألمان غير احدى كاسحات الألغام ، مما دفع السلاح البحرى الألماني الى الاعتراف بأنه لم يكن بمقدوره زرع حقـول الغـــام جزئية فى المنطقـة الجنوبية من البلطيق ربما أفلحت فى التعويق نوعا ، ولكنها لن تستطيع منع العمليات البحرية السوفيتية ،

(*) مثل Gneisenau, Scharnhorst

(**) Kleine Unterseebotte

(***) O.K.M.

التى قد تتعرض لها خطوط الملاحة التجارية وجنوب السويد ، ومن ثم فقد تعذر تأمين نقل المعادن من موانىء السويد ، باستعمال الالغام ، أو بدونها • هكذا كان الموقف فيما يتعلق بالأسطول الألمانى •

وترجع مواطن الابهام فى هذه المسألة الى دلالة عدم انتظام خطوط امدادات المعادن المستوردة من البلدان الاسكندناقية على خطورة الموقف الاقتصادى الذى اكتشف الرايخ الثالث تعرضه له ابان ازمة ميونخ ، وان صح وصفه أيضا بالموقف الداعى الى الاحباط • وقد اكد نجاح الحصار البحرى البريطانى فى الحرب العالمية الأولى مدى ما يتعرض له الاقتصاد الألمانى من أى ضغط اقتصادى من هذا القبيل • وكانت المادة الطبيعية الوحيدة التى يحتاج اليها لتسيير دفة اقتصاديات الحرب والمتوافرة فى المانيا بدرجة كافية تساعدها على تنفيذ احتياجاتها هى الفحم • غير أنه حتى انتاج الفحم بألمانيا فانه قد واجه مشكلات مهمة ١٩٣٨ • اذ كانت مناجم الفحم الغربية ، وبوجه خاص الواقعة فى اقليم السار قريبة من فرنسا ، وواقعة تحت تهديد العمليات الحربية الفرنسية ، بالاضافة الى أن احتياجات الاقتصاد الألمانى للفحم كانت تترنح • اذ كانت صناعات الحديد والصلب هى اكثرها استعانة بالفحم ، وان كانت شبكة النقل وصناعات المواد الاصطناعية وصناعات القوى الكهربائية كانت شديدة الاعتماد على الفحم ، واخيرا كان الفحم من اهم مصادر التبادل التجارى ، اذ كانت صادرات الفحم الألمانى الى جنوب شرق اوربا ذات أهمية فائقة لتأمين استمرار الحصول على واردات دول البلقان فى السنة الأولى من الحرب ، كما أنه كان من المتوقع اعتماد ايطاليا على الفحم الألمانى لو قدر لها دخول الحرب ، ولما كانت الصادرات اليها لابد أن تمر عبر سويسرا ، لذا يتعين توزيد الفحم لسويسرا أيضا •

ولو تعرضت موارد الفحم الألمانى للاجهاد فى زمن الحرب ، فان الموقف فيما يتعلق بالمواد الخام الأخرى سيكون ميئوسا منه ، فالتفاوت الكبير بين احتياجات الاقتصاد والاحتياجات العسكرية ، من جهة ، وانتاج المنتجات البترولية فى الرايخ الثالث ، من جهة أخرى ، كان رهيبا ، وأدى النقص فى العملة الأجنبية ١٩٣٨ الى عدم امتلاك أية أرصدة من البترول على وجه التقريب ، وعلى الرغم من الجهود الجبارة التى بذلها الألمان فى الثلاثينيات لانشاء صناعة البترول الاصطناعى ، الا أنهم فى نهاية ١٩٣٧ استوردوا وقودا أكثر مما كانوا يستهلكون فى بداية الثلاثينات • وفى يونيو ١٩٣٨ ، لم يكن المخزون من البترول – يكفى لسد احتياجات أكثر من ٢٥٪ من احتياجات التعبئة بمتوسط أربعة أشهر من الاحتياجات

الكاملة لفترة الحرب • وخلافا للحال ١٩٣٩ ، يبدو أنه كان من المشكوك فيه آنئذ امكان حصول الألمان على واردات البترول من الاتحاد السوفيتى، بينما كانت حتى الواردات من رومانيا مثار شك •

وتماثل موقف صناعة المطاط فى ألمانيا مع موقف البترول ، ففى ١٩٣٠ ، وكما حدث فى صناعة البترول ، خصص الالمان اعتمادات ضخمة لانشاء مصانع للمطاط الاصطناعى ، غير أن الاستثمار فى هذا المجال لم يثمر الا ١٩٤١ و ١٩٤٢ • فابتداء من هذا التاريخ ، تحسن الموقف ، وأفلح الألمان فى سد احتياجاتهم العسكرية من الانتاج الداخلى ، واستطاعوا تكديس مخزونات من الغنائم التى غنموها من البلدان التى احتلوها ، وساعدت الواردات عبر خطوط حديد سيبريا فى سد الثغرة بين الاحتياجات والانتاج فى السنتين الأوليين من الحرب العالمية الثانية ، وفى منتصف ١٩٣٨ ، لم يتجاوز انتاج المطاط أقل من ٧٪ من احتياجات ألمانيا ، ويصعب القول بأن موقف الألمان فيما يتعلق بباقى المواد الخام الرئيسية كالحديد والنحاس والنيكل •• الخ • كان أفضل حالا •

اذ كانت الكفاية الانتاجية لمصانع الذخيرة الألمانية لا تبشر بالخير لضآلة انتاجها ، وكانت القدرة الانتاجية لذخيرة المدافع أقل بمقدار ٤٠٪ عن الحد الأقصى للانتاج فى الحرب العالمية الأولى ، بينما تضاءلت القدرة الانتاجية فى مصانع المفرقعات بمقدار ٣٠٪ عن الحد الأقصى خلال الحرب العالمية الأولى ، ولقد انزعج الألمان من جراء ذلك ، الى حد اقدامهم على بذل جهد كبير لاصلاح هذا الوضع ابان ١٩٣٨ و ١٩٣٩ • وفى أغسطس ١٩٣٩ ، نجحوا فى زيادة انتاجية البارود بمقدار ٦٥٪ وانتاجية المفرقعات بزيادة ٨٥٪ عن انتاجية ١٩٣٨ • وبينما كانت الأرقام الممثلة للانتاج ١٩٣٩ مازالت تقل عما كان يشعر الألمان بالحاجة اليه لشن حرب أوربية عظمى ، الا أنها كانت قد ارتفعت بالقدر الكافى الذى يساعد على تلبية احتياجات العمليات الحربية فى السنة الأولى من الحرب بمعاونة المخزونات السلعة ، وكان الألمان قبل ذلك أى ١٩٣٨ سيلقون صعوبات كبيرة لو أقدموا على مثل هذه العمليات •

والى جانب مشكلات استيراد المواد الخام الكافية فى وقت الحرب ، أو انتاج ما يكفى من الموارد المحلية للاستجابة لمطالب الحرب ، فان الاقتصاد الألمانى عانى من الاجهاد الى حد التصدع ١٩٣٨ • ولم يعد لديهم جيش كبير من المتعطلين يستعينون به لتعويض العجز فى الأفراد ، بينما أضافت عملية التعبئة وامتداد جبهة ممارسة الأنشطة الألمانية والأزمة التشيكية للنقص فى العمال المهرة وغير المهرة • وبلغ الاقتصاد قدرا من

التأزم الى حد تفاقم نقص العمالة فى كل جانب من جوانبه وبخاصة فى صناعة الفحم والذخائر والطيارات • وفى ديسمبر ١٩٣٨ ، قدر وزير العمل (*) فى الرايخ مقدار النقص فى العمالة بمليون شخص ، وزاد من حدة المشكلات عمليات انشاء التحصينات الغربية (الجدار الغربى) • وكان هذا هو ما حققته لأنهـا قد استهلكت ٥٪ من الصلب و ٨٪ من الخشب و ٢٠٪ من الخرسانة التى استطاع الاقتصاد الألمانى توفيرها ١٩٣٨ ، وأدى ذلك الى حدوث تعطلات مهمة فى تنفيذ برنامج التوسع فى انتاج الفحم والمواد الاصطناعية ، كما أدت الى سحب العمال من قطاعات أخرى من الاقتصاد •

وفى واقع الأمر ، لقد بلغ الموقف الاقتصادى حالة من السوء دفعت مجلس الدفاع بالرايخ ١٩٣٨ الى اصدار تقرير جاء فيه :

« فى ٨ أكتوبر ، ونتيجة لمتطلبات قوات الدفاع الوطنى (بعد احتلال السوديت) والانشاءات المحددة لتحصينات الجبهة الغربيـة ، نشأت حالة تأزم شديد فى القطاع الاقتصادى (انعكست على الفحم والامدادات الصناعات ومحاصيل البطاطس والشلجم والامدادات الغذائية) ولو استمر هـذا التأزم حتى ١٠ أكتوبر ستترتب عليه بالقطع عواقب وخيمة •• » •

وفى احدى الجلسـات التى عقـدها مجلس الدفاع بالرايخ فى نوفمبر ١٩٣٨ ، اعترف جورنج ببلوغ التأزم الاقتصادى حدا كبيرا ، فلم يعد متوافرا المزيد من العمال ، ولم تعد المصانع قادرة على الاشتغال بكامل طاقتها ، واستنفد النقد الأجنبى كلية • وأصبح الموقف الاقتصـادى لألمانيا يدعو الى اليأس • ولو استمرت المصاعب الاقتصادية فى يناير ١٩٣٩ ، سيضطر الألمان الى تخفيض حصص القوات المسلحة من الصلب بمقدار ٣٠٪ وحصص النحاس بمقدار ٢٠٪ والألومنيوم بمقدار ٤٧٪ والمطاط ٤٠٪ والأسمنت ٤٥٪ •

وكانت المشكلات التى واجهت شبكة النقل انعكاسا أبعد للمتاعب التى تعرض لها الاقتصاد الألمانى ١٩٣٨ ، ففى منتصف أكتـوبر ، حذر وزير الدولة كلاين مان من وجود صعوبات فى السكك الحديدية تحول دون نقل ما هو أكثر من النزر اليسير من الخضروات ، وتعرضـت امدادات الفحم المخصص للمدنيين للخطر ، ولم تعد البواخر المخصصة للصادرات

(*) Reichsarbeitsminister.

وشباك الصيد قادرة على مبارحة المياه لنقص الفحم ، ولم يتيسر أكثر من عشرين ألف من عربات السكك الحديدية لنقل الفحم بالرغم من الاحتياج الى ثلاثة وأربعين ألف عربة لتلبية جميع الطلبات ٠

وبالنظر الى أن الموقف الاقتصادى قد بلغ الحالة التى تحدثنا عنها آنفا ، فلا غرو اذا بدأ الشك فى امكان توافر القوة الكافية للاقتصاد الألمانى ١٩٣٨ لدعم أى انتفاع من الاقتصاديات الأساسية المفيدة لألمانيا ٠ فلم يقتصر الأمر على ما حدث من انخفاض فادح فى انتاج المواد الصناعية والذخائر أكثر مما حدث ١٩٣٩ ، ولكن الأدهى من ذلك هو عدم توقع أى عون حينذاك من روسيا ، وتوقع القليل من دول البلقان ٠ والحق أن مشكلة العمالة لم تبلغ حدا كبيرا من السوء ، لأن أعدادا غفيرة من العمال الألمان كانوا يعملون ، واستمروا يعملون حتى ١٩٤٢ فى مهام كانت هامشية بالنسبة لاقتصاديات الحرب عند الألمان ٠ والأرجح هو أن الاقتصاديات الألمانية ١٩٣٨ لم يتوافر لها وسائل الحصول على امدادات المواد الخام التى كانت تحتاج اليها لزيادة انتاج الأسلحة بدرجة كبيرة ٠ وفى ١٩٤٢ ، توافرت لألمانيا موارد معظم بلدان القارة الأوربية ، وأصبحت تحت تصرفها ٠ أما قبل ذلك (١٩٣٨) فلم يكن لديها الا قدر ضئيل من التطلعات التى يمكن تحقيقها والحصول عليها من الأرض الألمانية ، بالاضافة الى القليل من المناطق التى كان الجيش الألمانى قادرا على غزوها واستخراج ما يؤديه من موارد منها ٠

والأقرب الى الاحتمال هو أن الجيش الألمانى ما كان ليتعرض لانهيار اجتياحى لو أن الحرب شبت فى خريف ١٩٣٨ ٠ وبدلا من ذلك ، فان الموقف كان سيتشابه هو وما حدث من تفكك حثيث مطرد شبيه بما تعرض له الاقتصاد الايطالى فى السنوات الواقعة بين ١٩٤٠ و ١٩٤٢ ٠ ولعل الألمان كانوا سيلجأون حينـذاك الى مجموعة من الوسائل المناسبة على حساب احتياجات المستقبل ٠ ولما تناقص الانتاج ، وتزايد شح الامداد بالمواد الخام ، لذا كان من المتوقع أن تعانى قدرات القوة المقاتلة من حدوث تدهور مناظر ٠ وبمجرد بدء الحلقة المفرغة ، سيتحتم تعرض ألمانيا ١٩٣٨ للعاقبة المحتومة ، يعنى الهزيمة العسكرية ٠

وآخر العوامل المهمة لتقدير الموقف الاستراتيجى ١٩٣٨ هو العون الحربى والدبلوماسى الذى كان يتوقع أن تتلقاه ــ أو لا تتلقاه ــ ألمانيا لو شبت الحرب ٠ وكما أوضحت من قبل ، فلم يكن من المحتمل حصول الألمان على أية مساعدة اقتصادية قريبة بالاستطاعة انتزاعها من منطقة البلقان ، أو من الاتحاد السوفيتى ــ فيما يتعلق بهذه الناحية ــ خلال الشهور الستة الأولى من الحرب العالمية الأولى ٠ وتمادت الحكومة الرومانية

فهي تمنعها الى حد تحذيرها الألمان من عدم انتظار أية شحنات من منتجات البترول ابتداء من أول أكتوبر • ومن جهة أخرى ، فلا يستبعد أن يأتي رد فعل الحكومة الايطالية ازاء الأزمة التشيكية بعيد الاختلاف عما جرى بعد ذلك في سبتمبر ١٩٣٩ • فلقد أوضح الكونت تشيانو وزير الخارجية الايطالية في عدد من المناسبات في سبتمبر « أنه في حالة تدخل بريطانيا العظمى ، ستكون ايطاليا مضطرة الى المعاملة بالمثل » • وفي ٨ سبتمبر ذهب الى ما هو أبعد ، مما حدا به الى التصريح للسفير البريطاني : « بأن مصالح ايطاليا ، وشرفها ، وما وعدت به ، يتطلب منها الوقوف في صف ألمانيا ، ومعاونتها على نحو فعال كامل » • وبينما كان بمقدور الايطاليين تجاهل مثل هذه البيانات الدبلوماسية ، التي أعلنت بكل ثقة ، اذا نشبت الحرب ، الا أن موسوليني قد أحرج حكومته في الأيام الأخيرة من سبتمبر عندما أكد في أحاديثه العامة ما كان يقوله « تشيانو » في أحاديثه الخاصة • ففي سلسلة من الأحاديث بدأت في مدينة تريستا في ١٨ سبتمبر ، واستمرت حتى يوم ٢٨ ، أعلن موسوليني التزام حكومته ــ بلا رجعة ــ بالوقوف في صف ألمانيا ، في حالة حدوث صراع حربي •

وكان من المنتظر أن يحقق دخول ايطاليا الحرب للقوى الغربية عدة مميزات ، يأتي في صدارتها : أولا ــ ان اشتراك ايطاليا ضد الغرب كان سيساعد على احكام الحصار المفروض على ألمانيا ، بينما ستؤدي أعباء تزويد الحرب الايطالية بالمواد الخام الى اضافة أعباء جديدة الى المصاعب الاقتصادية الجسيمة التي يعاني منها الرايخ الثالث بالفعل ، وسيحدث صراع بين الاقتصاد الايطالي والاقتصاد الألماني على موارد البلقان النادرة • واذا راعينا تفوق الأسطول الانجليزي الفرنسي في البحر المتوسط ، فاننا سندرك قدرة القوى الغربية على قطع خطوط الامدادات الى ليبيا ، وشن عمليات قذف بالقنابل على نطاق واســع على المناطق الســاحلية الايطالية •

ولم تكن العسكرية الايطالية متحمسة لاحتمال اراقة المزيد من الدماء ، لو أنها شاركت في حرب أوروبية عامة في صف ألمانيا • ولقد حذر أحد العسكريين من أصحاب الرتب العليا القادة الألمان في روما من توقع احراز نصر سريع ضد التشيك • ورأى أنه من غير المستبعد أن يترتب على ذلك اشتعال حرب عالمية ، ليس المحور على استعداد لتحمل مغبتها سياسيا أو عسكريا • فجميع الأشياء ستكون في غير صالح المحور ، اذا تمخضت الأزمة التشيكية عن نشوب الحرب • وهكذا لم يمثل الايطاليون أي تهديد خطير لبريطانيا ١٩٣٨ أكثر مما فعلوا ١٩٣٦ أو ١٩٤٠ ، وكان من المتوقع أن يستنزفوا القوة الحربية لألمانيا ، وأيضا الموارد الاقتصادية • وعلى

العموم ، فقد أثبتوا ، كما سيحدث ١٩٤٠ ، عندما كانت ألمانيا فى ذروة قوتها ، مسئوليتهم عن أوخم العواقب البعيدة الأثر ٠

أما اتجاه اليابان خلال الأزمة الأوربية المتصاعدة ١٩٣٦ ، فبدا أكثر غموضا واثارة للحيرة ٠ وبينما لم يأسف اليابانيون لما شاهدوا من متاعب فى أوربا قد تلهى القوى الكبرى وتشغلها عن الاهتمام بالشرق الأقصى الا أنهم كانوا قد عانوا الأمرين من حربهم مع الصين ٠ فلقد تورطوا فى محاولة ضخمة للاستيلاء على هانكاو ، ولم يكونوا فى موقف يسمح لهم بزيادة أعداء جدد الى قائمة أعدائهم ٠ ويبين من تقارير السفارة البريطانية فى طوكيو أن اليابان لم يكن لديها أية رغبة فى التورط فى أى صراع كبير آخر ، وزيادة التزاماتها٠٠وفى أغسطس لاحظ السفير اليابانى فى باريس أن توقيع الهدنة مع روسيا فى النزاع على الحدود مع منشوريا قد جاء من أثر رغبة الحكومة اليابانية فى تجنب التسبب فى اشتعال حرب عالمية ثانية ٠ اذ كان لديها بالفعل ما يكفيها من المشكلات التى أوقعتها الصين فيها ٠ وأيد السفير الأمريكى فى طوكيو شكوك البريطانيين فى امكان سماح اليابان لنفسها بالتورط فى أى صراع أوربى ٠ وفى ٦ أكتوبر ، أرسل تقريرا ورد فيه ما يأتى : « كما أنه ليس هناك اى ضمان لافتراض وجود أية نية للجيش للتعرض لازعاج المتاعب الجارية فى أوربا ، ما لم تحدث مبررات اضطرارية للغاية تدفعه الى الاقدام على ذلك » ٠ ولم تكن مثل هذه المبررات قائمة سنة ١٩٣٨ ٠

خلاصـــة

أهم الملامح المميزة للموقف العسكرى ١٩٣٨ هو عدم الاستعداد النسبى « لجميع » البلدان الأوربية لخوض قتال ، ولو محدود ، ناهيك بالتورط فى حرب كبرى ٠ فلقد كانوا جميعا يعون بشدة مدى ضعفهم ٠ وكانت المشكلة عند الألمان معقدة لا لكونها غير مستعدة عسكريا فحسب ، وانما أيضا لخطورة موقفها الاقتصادى ، وهكذا استندت استراتيجيتهم ، كما حدث ١٩٣٩ ، على كسب الحرب بسرعة ٠ أو على أية حال ، اذا تعذر ذلك ، فلا أقل من أن تستولى على قاعدة اقتصادية واستراتيجية ترتكز عليها لشن حرب طويلة ٠ ولم يكن السؤال الجوهرى عند الألمان يستند الى احتمال غزوها لتشيكوسلوفاكيا ٠ اذ كانت هذه المشكلة فوق أى شك ٠ وعند تذاكر ما حدث يبين أن تحقيق ذلك لم يكن يستغرق من الألمان أكثر من شهر واحد من الزمان ٠ على أن مثل هذه العملية كانت ستتكبد خسائر تفوق خسائرها ضد بولاندة التى وقعت بعد ذلك سنة ١٩٣٩ بسبب

طبيعة الأرض وتجهيزات الجيش التشيكى وتحصيناته ، والحالة العامة لعدم استعداد القوة المدرعة الألمانية • أضف الى ذلك ، ما سيترتب على مثل هذه الحملة من تدمير لمعظم مخزون الأسلحة التشيكية التى كان الألمان سيستفيدون به فى الربيع التالى ، وربما أدت هذه الحملة أيضا الى تدمير مصانع الأسلحة التشيكية أيضا •

بيد أن الاستيلاء على تشيكوسلوفاكيا ما كان ليترك أكثر من أثر واه على الموقف الاستراتيجى لألمانيا المتورطة فى حرب عالمية • ولم يكن بمقدور ضم تشيكوسلوفاكيا الى المسار الاقتصادى الألمانى أن يحقق الا القليل لتخفيف وطأة النقص فى موارد الحرب البالغة الأهمية • وكان من المتوقع أن تتخذ المشكلة المحورية للنظام النازى بعد تشيكوسلوفاكيا صيغة « وماذا بعد » ؟ فلم يبد مستبعدا أن تقدم ألمانيا على خوض حرب عالمية اعتمادا على قوى عسكرية غير مهيئة لذلك ، وعلى موقف اقتصادى يكاد يدعو الى الاحباط • ولعله كان من الخير لها أن تتخذ الايطاليين حلفاء، وان كان هذا سيضاعف أعباءها الاقتصادية والعسكرية دون أن يعود بأى نفع مقابل ذلك • ولعل النطاق الاقتصادى للمحور كان سيقتصر على ألمانيا وايطاليا والمجر وتشيكوسلوفاكيا بعد تحطمها ، وعلى تجارة المعادن مع السويد والمعرضة للخطر • ولعل العمليات الحربية ضد رومانيا للاستيلاء على آبار البترول الحيوية كانت ستواجه برد فعل سوفيتى محتمل ، ولم يكن من المستبعد أن تؤدى الى تدمير الآبار ومعامل التكرير مثلما حدث فى الحرب العالمية الأولى •

ولقد أشرت من قبل الى أن فرنسا كانت تملك تفوقا كاسحا فى الحدود الغربية لألمانيا ، الا أن الفرنسيين قد ظهروا بمظهر العازفين والعاجزين عن استغلال الموقف لو نشبت الحرب • ومع هذا فاذا صح أن الفرنسيين كانوا عازفين عن الهجوم على الحدود الغربية لألمانيا ، الا أن الألمان لم يكونوا فى موقف يساعدهم على تحقيق أى كسب استراتيجى فى الغرب • ان هذا لا يعنى عدم احتمال اقدامهم على هذه المحاولة ، بعد غزو تشيكوسلوفاكيا • فكما حدث سنة ١٩٤٠ ، لن يكون أمام الألمان أى خيار آخر غير الهجوم واختراق بلجيكا وهولاندة للاستيلاء على الموارد اللازمة لمتابعة أهدافهم فى الحرب • غير أنه من الصعب أن نتصور كيف كان الألمان سيحققون الانتصارات الاستراتيجية الصاعقة التى حدثت سنة ١٩٤٠ • فلقد كان لديهم النزر اليسير من القوات المحمولة جوا ، التى يستطاع تكليف بعض وحداتها بالاستيلاء على القلاع والكبارى البلجيكية • فلم تكن القوات المدرعة آنئذ (١٩٣٨) ــ يقينا ــ قادرة على النهوض بعملية هجومية مماثلة للحملة التى شنتها بنجاح فى الأردين ١٩٤٠ ،

ومساعدتها على التغلغل فيه • وفضلا عن ذلك ، فنظرا للنقص فى الوقود والذخيرة والضعف الداخلى ، فانه لم يكن بمقدور سلاح الجو الألمانى أن يتدخل تدخلا حاسما فى المعركة البرية ، كما حدث بعد ذلك ١٩٤٠ • ولعل الألمان كانوا سيحققون انتصارات هامشية مثل الاستيلاء على الدانمرك للتغلب على التداعى الاقتصادى • غير أن أية عملية عسكرية كان الألمان سيشنونها فى هذه الحقبة كانت ستحقق نتيجة عكسية كاستنفاد مواردها الشحيحة دون الحصول على ما يعوضها من موارد للصرف على اقتصاديات الحرب على المدى البعيد •

قصارى القول فان نتيجة الحرب كانت ستعتمد مثلما حدث فى الحرب العالمية الأولى ومثلما أثبتت بعد ذلك الحرب العالمية الثانية على القوة الاقتصادية والقدرة على الصمود عند الطرفين المتقاتلين • واذا قارنا بين عدد الفرق والموارد الاقتصادية والكفاية الصناعية والقوى البحرية ، فأننا لابد أن نتوقع مواجهة الألمان لتفوق الحلفاء الساحق ١٩٣٨ ، سواء واجهوا انجلترا وفرنسا فى البداية ، أو واجهوا تكتلا ضخما يضم روسيا وبولاندة • ومع هذا فانه لم يكن من المنتظر أن تكون الحرب ضد ألمانيا مسألة هينة الشأن ، أو يتحقق فيها النصر بسرعة • بيد أن النتائج لابد أن تكون محتومة ، وأن تنتهى بانهيار النظام النازى ، بتكاليف أقل فداحة من تكاليف الحرب التى ستشن بعد ذلك فى سبتمبر •

المراجـــع

A. Adamthwaite, France and the Coming of the Second World War (1936-1939) 1977.

U. Bialer, The Shadow of the Bomber : The Fear of Air Attack and British Politics (1932-1939) 1980.

B. Bond, British Military Policy Between Two World Wars (1972).

M. Gilbert and R. Gott, The Appeasers 1963.

H. Gatzke (ed.) European Diplomacy between Two Wars (1919-1939) 1972.

M. Knox, Mussolini Unleashed 1939-1941 : Politics and Strategy in Fascist Italy's Last War 1982.

W. N. Medlicott, British Foreign Policy Since Versailles 1968.

W. Murray, The Change in the European Balance of Power 1938-1939 : The Path to Ruin (1984).

G. C. Peden, British Rearmement and the Treasury 1932-1939, 1977.

R. J. Sontag, A Broken World 1919-1939 (1971).

A. J. P. Taylor, The Origins of the Second World War 1966.

T. Taylor, Munich : The Price of Peace 1980.

N. Tompson, The Anti Appeasers 1971.

C. Thorne, The Approach of War 1938-1939 (1967).

A. Ulam, Expansion and Coexistence : The History of Soviet Foreign Policy 1917-1967 (1971).

G. Weinberg, The Foreign Policy of Hitler's Germany 1933-1936, (1970).

G. Weinbert, The Foreign Policy of Hitler's Germany, Starting World War II 1937-1939, (1980).

R. J. Young, In Command of France : French Foreign Policy and Military Planning 1933-1940 (1978).

الناتو : التحالف النـووى

ميكائيـل ماندلباوم

انتهت الحرب العالمية الثانية فى ابريل ١٩٤٥ • ومات فيها عشرات الآلاف من الجنود والمدنيين • ولم تبق سوى أطلال بعد تدمير الكثير من المدن والطرق والكبارى والمزارع فى القارة الأوربية • كما تحطمت أيضا قدرة الدول الأوربية الكبرى على التحكم فى مستقبلها السياسى • ويكمن مصير أوربا الآن الى حد كبير معلقا بين أفعال القوتين العظميين وقراراتهما: الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى ، وبذلك دخلت اوربا عهدا سياسيا جديدا •

واثبتت اول قنبلة نووية اطلقتها الولايات المتحدة على هيروشيما فى أغسطس ١٩٤٥ دخول العالم برمته عصرا عسكريا جديدا • فمن الآن فصاعدا ، اتضح أن الصراع العسكرى ـ مستقبلا ـ سيجر فى أذياله مستوى من الدمار لم يتخيله أحد من قبل •

وجاء تشكيل منظمة اتفاقية شمال الأطلسى ١٤٩٩ بعد أربع سنوات من الضغوط السوفيتية على أوربا التى تصاعدت عندما حوصرت برلين ١٩٤٨ • ومثل الحلفاء اعترفت بلدان غرب أوربا بضعفها وحاجتها الى معاونة الولايات المتحدة ، وبدا التحالف فى نظر الولايات المتحدة ممثلا لضمان عدم عودتها مرة أخرى الى سياسة العزلة عن أوربا •

وخلال الفترة التى مضت من حياة التحالف ، استمر التفاعل بين الخوف المتبادل بين العدوان السوفيتى والتوتر بين الحلفاء ، وشاركت المشكلات المتعلقة بالأسلحة النووية بدور رئيسى فى الموقفين •

نقلا عن كتاب International Politics. The Nuclear Revolution before and after Hiroshima.

تاليف Michael Mandelbaum (١٩٨١) •

وفى صميم العوامل التى أشعرت الحلفاء فى السنوات الباكرة بالأمان امتلاك الولايات المتحدة للأسلحة النووية • وعلى نهاية الخمسينات ، اهتدى الاتحاد السوفيتي الى الأسلحة النووية والصواريخ العابرة للقارات القادرة على قذفها • وأثار هذا الموقف الشكوك فى نفوس الاوربيين حول هل أصبح بامكان الولايات المتحدة حمايتهم وتحمل مخاطر هجوم السوفيت عليهم • وكانت النتيجة الأساسية لهذا الشك هى قرار فرنسا بانشاء ترسانة نووية مستقلة عن ترسانة حلفائها،وحاولت الولايات المتحدة تهدئة هذه الشكوك باتباع وسائل شتى ، كان من بينها مرابطة عدد كبير من القوات الأمريكية فى أوربا •

وفى وقت أقرب عهدا ، أدى تسليح بلدان الناتو الأوربية بالقذوفات قصيرة المدى الى اثارة تساؤلات جديدة ومحاولات كثيرة • غير أنه خلال سنوات التوتر والشك ، ظلت هناك حاجة أساسية دفعت أوربا الغربية الى المطالبة بالحماية الأمريكية • وساعدت هذه الحاجة وهذا الضعف الأساسى الأوربى الموروث على جعل التحالف دائما ولكنه مثير للخلاف أيضا •

تحالف الأطلسى

الفوضى تولد الذعر ، الذى ينمى النزوع لحماية الذات • هذا هو التسلسل المنطقى الذى يربط بين تكوين النظام الدولى ومسلك الدول من قديم الأزل حتى الآن • وبمقدور المنتمين الى أى منظومة أن يعتمدوا على مواردهم سعيا وراء الحماية • وعندما تؤمن الدول المتنافسة نفسها باتباع نهج تنافسى سافر ، فان عاقبة هذا المسلك هي التسابق على التسلح • وتسعى كل دولة لخطب ود الدول الأخرى أيضا عندما تتعرض للتهديد سعيا وراء تدعيم ذاتها عن طريق التحالفات ، التى تعد شيئا مألوفا فى السياسة الدولية كسباق التسلح سواء بسواء •

وفى احدى مسرحيات توسيديدس عن الحرب البلوبونيزية ، اتبعت أثينا واسبرطة نفس السبيل • فعندما شرعتا فى الاستعداد للحرب ، فانهما الى جانب تسليحهما لنفسيهما عمدا الى « التخطيط لايفاد مبعوثين الى ملك الفرس وغيره من الحكام أملا فى الحصول على دعمهم ، وحاولا التحالف هما ودولا هلينية أخرى لم تكن قد انحازت بعد الى أى جانب من الجانبين • وتمثل مسألة « من » سيتحالف مع « من » القسم الأكبر من الجزء الأول من المسرحية ؟ فليست التحالفات أمرا شائعا وحسب ، ولكنها ــ عادة وغالبا ــ تشبه الزيجات الموفقة ؟ ففى سباقات التسلح ربما

اثرت مصالح جماعات وطوائف بالذات على نوعيات الأسلحة التى تتسلح بها الدول وعلى عدد هذه الأسلحة • بيد أن الشرط الضرورى لأى سباق تسلح هو التنافس المترتب على طريقة تكوين النظام الدولى • وبالمثل ، فإن التحالفات قد توجد بين دول متقاربة سياسيا أو ثقافيا ، وبمقدورها أن تعزز التزاماتهما المتبادلة • غير أن أساس هذه الالتزامات هو الحاجة للحماية التى تنبعث من الطابع الفوضوى للسياسة الدولية • فبغير وجود صداقة بين الحليفين سيكون التحالف أكثر هشاشة من حالته عندما يكون قائما على التقارب بينهما ، وعندما لا يوجد عدو مشترك ، يصبح التحالف غير ذى موضوع • ان الائتلافيين اللذين تصارعا من أجل السيطرة على صقلية «قد التئم شملهما ليس بحكم أى مبدأ أخلاقى ، أو صلة عنصرية» ، ولكن هذا الموقف يرجع بالأحرى الى أسباب شتى تعزى الى المصلحة « أو الاضطرار » هكذا كتب المؤرخ اليونانى توسيديدس •

• •

فما هو دور الأسلحة النووية فى التحالفات ؟ لأول وهلة يبدو أن مرحلة التاريخ الدولى التى بدأت بنهاية الحرب العالمية الثانية تمثل عصرا عظيما قائما على التحالف • فهناك عدد كبير من الدول صاحبة السيادة مثلما كان الحال فى أى وقت مضى تكاد تشارك جميعا فى نطاق رحيب من الأنشطة الدبلوماسية ـ كتبادل الزيارات الودية بين رؤساء الدول والتصريحات الودودة المعبرة عن الصداقة والوثائق الرسمية التى تحمل تعهدا من الموقعين عليها بتقديم شتى صنوف التعاون • وبطبيعة الحال لم يزد عدد الدول ذات السيادة المائة والاثنتين والخمسين التى تملك أسلحة نووية من بينها عن دولتين اثنتين (الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى) • ولكن هاتين الدولتين تمسكان بزمام « فرملة » شبكة من الروابط التى تربطهما بالبلدان الأخرى ، وأكثر هذه الارتباطات التزامات أمنية • ومع هذا فمن بين هذه الارتباطات العديدة ، لا يصح أن يوصف بالتحالف النووى بمعناه الصحيح غير تحالفين : التحالف الأول ويمثله الارتباط بين أمريكا واليابان ، والذى نصت عليه معاهدة الأمن ١٩٩٠ والتحالف الثانى هو معاهدة منظمة شمال الأطلسى ، التى تربط بين الولايات المتحدة ودول غرب أوربا وجنوبها •

واثبتت الارتباطات الأمريكية الدولية الأخرى أنها أوهن من هذين التحالفين • فابان خمسينات هذا القرن ، وقعت الولايات المتحدة معاهدات صداقة بينها وبين بلدان فى جنوب آسيا وجنوبها الشرقى ، وفى الشرق الأوسط أيضا•ولم تلزم معاهدة «دول جنوب شرق آسيا» (*) أو معاهدة

(*) SEATO.

« منظمة القوى الوسطى » (*) الولايات المتحدة بالدفاع عن الموقعين على المعاهدة بصفة أكيدة ، مثلما حدث فى حالة الناتو ومعاهدة الأمن اليابانية . ولعل هذه المعاهدات الأقل التزاما لم تكن الى حد بعيد تعهدات بالمشاركة جنبا الى جنب فى الحرب بقدر كونها محاولات قامت بها الولايات المتحدة لكسب النفوذ ثمنا للمساعدة التى غالبا ما تكون مساعدة عسكرية شبيهة نوعا بما كانت تفعله بريطانيا عندما كانت ترسل عونا ماليا وليس جنودا للقوى الأوربية المتقاتلة فى القرن الثامن عشر . ولم تخدم المساعدة العسكرية الأمريكية دائما غايتها ومقاصدها . فلقد أرسلت أمريكا دبابات وطائرات للباكستان باعتبارها عضوا فى « سياتو » لموازنة القوى بينها وبين القوة العسكرية لجمهورية الصين الشعبية . ولكن باكستان استعملت هذه المساعدات ضد الهند التى كانت الولايات المتحدة تحرص — فى ذات الوقت — على ودها ، وتزودها أيضا بمعونة سخية من الأسلحة الأمريكية .

وفيما يتعلق بحلف وارسو ، فان منظمة العمل العسكرى المشترك ، التى تضم الاتحاد السوفيتى وحكومات الدول الشيوعية فى أوربا الشرقية لا يصح أن توصف بأنها تحالف بالمعنى الصحيح ، بمعنى أنه ارتباط طوعى ، لأن عضويته ليست اختيارية . فالقوات السوفيتية ترابط فى أوربا الشرقية ليس فقط لحماية هذه البلدان من الغرب فى أغلب الظن ، أو حتى أساسا ، وانما للاطمئنان الى بقاء الأحزاب الشيوعية الحاكمة فى السلطة . فالعلاقة بين الاتحاد السوفيتى والموقعين الآخرين على حلف وارسو أقل تشابها مع أى تحالف كتلك التحالفات التى كونتها « المدن — الدول » اليونانية قبيل الحرب البلوبونيزية ، ولعلها أقرب الى نظام حكم غير مباشر من قبيل النظام الذى اتبعته بريطانيا فى السيطرة على أجزاء من آسيا وأفريقيا فى أواخر القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين . ووقع الحكام الوطنيون فى فخ الاعتراف بسيادتهم وبعض الامتيازات الفعلية المتصلة بهذه السيادة ، وان كانت السلطة فى نهاية الأمر قد ظلت فى يد البريطانيين الذين كان بمقدورهم دوما ارغام الحاكم المحلى على الاستجابة لرغباتهم .

فبأى معنى اذن تعد « الناتو » تحالفا نوويا ؟ ، وكيف ساعدت الأسلحة النووية على صبغه بصبغة مختلفة عن أحلاف ما قبل ١٩٤٥ ؟ . انها تحالف دفاعى سلمى استمر زهاء ثلاثين سنة ، أى مدة من الزمن أطول من معظم أحلاف الماضى ؟ ففى القرن الثامن عشر مثلا ، كانت الدول تتحالف من أجل القتال ، وليس لمنع الحروب . وكانت الأحلاف مسائل

(*) Ceato.

عابرة تعقد معاهداتها عند أعتاب الحرب ، وتنتهى ـ عادة ـ بمجرد انتهاء الاقتتال ، وكثيرا ما كانت تعقد سرا ٠

ويرجع السبب الأساسى للاختلافات بين أحلاف ما قبل الثورة الفرنسية وأحلاف ما بعد هيروشيما الى تغير طبيعة الحرب ، فمنذ مائتى سنة ، كانت الحرب أمرا عاديا مألوفا فى السياسة الدولية ، ومواصلة للسياسة باتباع وسيلة مختلفة ـ وان لم تكن مختلفة دراميا ـ ومنذ ١٩٤٥ ، تغيرت النظرة للحرب ، وأصبح ينظر اليها على أنها شيء شاذ فظيع ، بل ويجب أن لا يخطر ببال أحد ٠

ان هذا التبدل الذى حدث فى صورة أقرب الى الطفرة ، فى طابع الحرب ، انحدر ـ بطبيعة الحال ـ من التزايد الدرامى للقوة العسكرية المتاحة للدول منذ القرن الثامن عشر ٠ فبعد أن غدا القتال أكثر اهلاكا ، ازداد اهتمام الدول بمنع الحروب ، وقل اهتمامها بالاقتتال فيها ، وتجاوب هدف تجنب الحرب على الفور هو والأحلاف السلمية الصورية ، أكثر من تجاوبه هو والترتيبات السرية الأقرب الى العفوية فى القرن الثامن عشر ٠ ففى نظر الدولة التى تحرص على الدفاع عن نفسها فحسب ، ولا تفكر فى مهاجمة الآخرين ، أو لا ترغب فى دخول حرب على الاطلاق ، من المفيد لها أن تظهر بمظهر الدولة القوية قبل نشوب الحرب ، مثلما يفيدها أن تكون قوية بعدها ٠

ولقد تزايدت القوى المظهرية لخدمة الأغراض العسكرية لمدة قرنين أو يزيد ، ويعد كبح جماح استخدام الطاقة النووية لأغراض الحرب علامة طريق فى منعطف التوسع الحاد البعيد المدى ، مما يجيز تسميته بالثورة ، ولكنها كانت الثورة الثالثة وليست الثورة الأولى بين الثورات العسكرية فى العصور الحديثة ، ومن الناحية المنطقية ، كان المفروض أن تساعد غايات التحالف فى الثورتين الأوليين : الثورة النابليونية والثورة الميكانيكية ، على ابعاد التحالفات من الغايات القتالية ، الى غايات ردع الحرب ، وهذا الرأى صحيح تاريخيا ٠

وكانت الأحلاف بين القوى الكبرى فى أوربا فى القرن التاسع عشر تدوم زمنا أطول ، وأكثر جنوحا الى الاستقرار من الحال قبل ١٧٨٩ ٠ وبطبيعة الحال ، كانت اتفاقية الحلف الأوربى (*) تسعى لتنظيم المسائل الدولية عن طريق سلسلة من الالتزامات الثنائية لتحقيق الأمن ٠ ولم يكن الغرض منها الحيلولة دون وقوع الحرب ، وانما فرض الاستقرار الداخلى

(*) Concert of Europe.

في القارة الأوربية • وكانت اتفاقية التفاهم الثلاثي (*) والتحالف الثلاثي والأحلاف العسكرية بين الدول المشتركة ى الحرب ١٩١٤ ، مرتبطة بعضها ببعض أكثر من الأحلاف السالفة ، وان كنا لا نصادف بينها أية اتفاقية اتصفت بتكاملها الوثيق ، أو بطابعها الدفاعي ، على نحو ما ظهر في اتفاقية الناتو • وبعد ١٩١٨ ، انضم الانجليز للفرنسيين صراحة في محاولة لفرض التسوية • وكان الغرض الذى تسعى لتحقيقه مماثلا للغرض من الناتو ، يعنى ردع ألمانيا أكثر من النزوع لردع الاتحاد السوفيتى ، وساعدت الأسلحة النووية على طبع « الناتو » بطابع الحلف الدفاعي السلمى • وعندما أقدموا على هذه الخطوة ، فانهم ساعدوا على مواصلة اتجاه كان يتهيأ للظهور منذ عهد الثورة الفرنسية ، وشاركت في تحقيقه أيضا الخطوات الثورية التقدمية في النواحى العسكرية •

ومن الصفات التى عرفت عن الناتو أنه حلف المخاصمات • فكثيرا ما تستنفد جلساته في اثارة الأزمات والمشاورات والمساومات خلف الجدران • والخلاف بين الحلفاء من ملامح جميع الأحلاف • ويرجع ذلك إلى أن الأحلاف علاقات محدودة ، ويتفق الشركاء عادة على أمر مهم أوحد ، يعني تحديد من هم ألد أعدائهم وأخطرهم ، ولكنهم لا يتفقون على كل المسائل ، ومن هنا يحدث شد وجذب ، أو يتبادل الحلفاء التهديدات والمهاترات ــ بلغة السياسة ــ وكأنهم أعداء ، مثلما يحدث في حالة الحكومة الائتلافية التى تضم أكثر من حزب سياسى في الأنظمة السياسية النيابية • ولقد اختلفت درجة تماسك الحلفاء تبعا لمدى خطورة التهديد الموجه ، والتماثل بين الحلفاء ، ومدى ما يربط بينهم من مصالح مشتركة • على أنه لا وجود لحلف استطاع استبعاد الخلافات تماما • « فكل حلف يساعد على التدرب على تبادل الاتهامات » على حد قول ونستون تشرشل •

وربما صح القول بأن الحلفاء على استعداد للتشاجر على أى شيء • بيد أن أخطر مصادر الاحتكاك وأكثرها جوهرية وشيوعا تتركز على مايعتبر صميم أى حلف ، يعنى التزام الدولة بالقتال من أجل حليفتها • اذ يترتب على هذا الالتزام خطران : فلكل شريك في الحلف مبرران محتملان للخوف ــ المبرر الأول ــ عدم فاعلية الحلف ، واحتمال التخلى عنه ساعة الحاجة • والمبرر الآخر ــ احتمال أن يؤدى الحلف دوره على خير وجه ، وينتهى الأمر بالوقوع في أحبولة حرب من غير المرغوب الخوض فيها •

(*) The Triple Entente.

ولقد كان توسيدسيس سباقاً فى تحدثه عن هذين الخوفين . فعندما سعت كوركيرا (*) للتحالف هى وأثينا ، حذر الاثينيين من الكورينثيين أعداء كوركيرا من مغبة قبول الكوركيريين كحلفاء ، لأن هذا الحلف سيؤدى الى الوقوع فى فخ : « انكم سترغموننا على الاشتراك معكم فى المسئولية ، رغم انكم لم تشاركوا بأى دور فى اساءاتهم » . وكان هذا ما حدث بالضبط ! اذ حاول الاثينيون تقييد التزامهم نحو كوركيرا ، ولكنهم ألفوا أنفسهم قد دفعوا للقتال مع كورينثيا ، وفيما بعد ، عندما ثار الجدل حول الحكمة من غزو صقلية اعترض القائد الأثينى نيسياس على نفس هذا الخطر : « عليكم أن تعرفوا أهل ايجه ــ بوجه خاص بمجرد شروعهم فى الحرب ضد السلينوتيين (**) دون استشارة أثينا ، أنهم سيكونون مسئولين بعد ذلك عن الاتفاق على السلام » ، وأردف قائلا : « وفى المستقبل ، فاننا لن نعقد أى محالفات ــ مثلما فعلنا فى الماضى ــ مع هذه النوعية من البشر الذين ينتظرون مساعدتنا عندما تحل بهم أية مصيبة ، ولكنهم لا يفعلون شيئاً عندما نحتاج الى مساعدتهم » . ويعرض نشوب الحرب العالمية الأولى مثلا أحدث لخطر الوقوع فى أحبولة التحالف ، عندما زج ببريطانيا والمانيا وروسيا وفرنسا للحرب من أثر مشاجرات بدأها حلفاؤهم الأقل وزنا .

واذا كان الوقوع فى الفخ درسا من الدروس الأليمة للحرب العالمية الأولى فى القرن العشرين ، فان التخلى عن الحلفاء يمثل جانبا من تاريخ بداية الحرب العالمية الثانية . فلقد خذلت بريطانيا وفرنسا حليفتهما الأولى تشيكوسلوفاكيا ، وتركتاها تتعرض للتقسيم والتهام ألمانيا لجميع أراضيها . وبالمثل فى القرن الخامس ق . م فى اليونان ، يروى لنا توسيديسس ان الكورنثيين التمسوا من الاسبرطيين الوفاء بالتزاماتهم والوقوف الى جانبهم ضد أثينا : « لقد أضرت سلبيتكم بنا ضررا بالغا ، وعليكم أن تقدموا لحلفائكم ــ وبخاصة بوتيديا ــ المساعدة التى وعدتم بها ، واعملوا على غزو أتيقا على الفور ، ولا تتركوا أصدقاءكم وأقاربكم يتساقطون فى أيدى الأعداء اللدودين » .

وتكمن المخاوف الدائمة من تخلى الحلفاء ، واحتمالات التعرض للوقوع فى الشراك ، فى صميم سياسة الناتو ، وبخاصة خلال الستينيات . وساعدت حقيقة اشتراك دول تملك القوة النووية ضمن الناتو ، وتجمع

(*) Corcyra (جزيرة كورفو حاليا) من اهم الجزر الأيونية فى عهد الاغريق .

(**) Selinuntines نسبة الى مدينة Selinu فى الشاطىء الجنوبى الغربى لجزيرة صقلية اشتهرت بجمالها الطبيعى .

بين القدرة على نشر الأسلحة النووية والتعرض لخطرها على صبغ المخاوف بصبغة المشكلة الملحة • فالحرب النووية مكلفة للغاية ، مما جعل التخلي عن الحلفاء شديد الاغراء ، لو عنى ذلك تجنب التعرض لهذه الحرب ، والوقوع فى فخها خطر فظيع ، وبخاصة اذا انحرف وتحول الى صراع نووى • والى جانب التهويل من أخطارها ، فقد أثرت المخاوف الدائمة للطابع النووى لهذا التحالف على نحوين آخرين : الأول ـ انها قد خضعت لقيود المجادلات حول مبدأ استعمال الأسلحة النووية ونشرها والسيطرة عليها ، والثانى ـ انبعث من توزيع قوة النيران النووية داخل التحالف • فمن الناحية النظرية ، يتوجب على كل حليف أن يخشى التخلي عن استعمال السلاح النووى ، والتورط فى استعماله معا • فلما كانت الترسانة النووية للناتو برمتها تقريبا تحت سيطرة الأمريكان ، لذا لوحظت بعض علامات الخوف فى جانب من الأطلسى ، ولم تلحظ فى الجانب الآخر • وكان الخـوف من التخلي من نصيب الأوربيين الذين تركز قلقهم على احتمال حدوثه ، أما التورط فيمثل سر اهتمام الأمريكان الى حد كبير •

من هذا يتضح وجود مؤثر آخر من مؤثرات الأسلحة النووية يمكن ملاحظته فى سياســـة التحالف الغربى فى الستينيات • ولقد نجمت المشاحنات حول الاستراتيجية النووية من مخاوف الأوربيين من احتمال عدم فاعلية الترتيبات العسكرية السياسية التى يعتمدون عليها لسلامتهم عندما يحين وقت الجد ، ونجمت أيضا من قلق الأمريكان من احتمال تصرف الحلفاء على خير وجه ، وانما بغير حكمة •

التحالف الهش

استهلت الناتو عملها ١٩٤٩ كميثاق للأمن ، وقدمت الولايات المتحدة ضمانات لأوربا الغربية تشتمل على التعهد بالدفاع عن هــذه البلدان لو اقتضت الضرورة ، وكان هذا اجراء طبيعيا • فأمريكا تتمتع بالقوة ، وأوربا كانت تمر بمرحلة نقــاهة بعد تعرضها للهلاك ابان فترة الحرب ومعاناتها من الوهن•وظهر الاتحاد السوفيتى بمظهر القوة المهددة للسلام، وبخاصة فى أعقاب حصار برلين ١٩٤٨ • وكانت الولايات المتحدة قد أقدمت على نجدة بريطانيا وفرنسا مرتين ابان القرن العشرين • فعلنا نذكر أن الحربين العالميتين قد بدأتا أثناء التزام أمريكا بسياسة العزلة ، واحتيج الى ثلاث سنوات فى الحرب العالمية الأولى ، والى سنتين فى الحرب العالمية الثانية لوصول المساعدة الأمريكية • ولو شبت حرب عالمية ثالثة فإن الأوربيين لن ينعموا بترف القدرة على الانتظار لردع السوفيت ، وســاعد على الاطمئنان الى مصــداقية وعد الأمريكان امتلاكهم للترسانة

النووية • فلو اعتدى الاتحاد السوفيتي على أوربا الغربية ، سترد الولايات المتحدة بالمثل ، بتدميرها بالأسلحة النووية • وساد الاعتقاد باتصاف المشروع بقدر كبير من العنف والجهامة ، واحتمال أن يوقف السوفيت عند حدهم •

واستمر الأوربيون يشعرون بالقلق وعدم الاطمئنان الى امكان الاعتماد على الاتحاد السوفيتي فى حمايتهم ، وخشوا أن لا تحول جميع الوعود الوقورة الصادرة من الجانب الآخر من الأطلسى دون تخلى الأمريكان عنهم ساعة الحاجة ، التى يحتمل أن تكون قد بلغت ذروتها خلال الحرب الكورية ، عندما خشى البريطانيون ـ بوجه خاص ـ من تحول الصراع الى صراع نووى • غير أن هذا الاحتمال لم يحدث • وعندما أرسلت الولايات المتحدة بضع مئات الآلاف للقتال فى الحرب الأهلية الدائرة فى الهند الصينية ، اعتقد قلائل من الأوربيين فى احتمال اقحامهم فيها • وبدا أن الحرب النووية العامة ـ التى تعذر على الأوربيين تصور امكان تجنب عواقبها ـ من المحتمل أن تبدأ لا من كوريا أو فيتنام ، وانما من أوربا تأثرا بمشكلة مثل مشكلة برلين • وانتاب الأوربيون القلق بعد ذلك لا من احتمال تورطهم فى آسيا ، وانما من الأحداث الجارية فى أوربا ، وقد صعد (بتضعيف العين) جورج واشنطون فى خطبة وداعه هذه الفكرة التى غدت تقليدا سياسيا أمريكيا ، وتحولت الى مبدأ من المبادىء الأساسية للدولة الأمريكية • نعم لقد أصبح المحيط الأطلسى حاجزا مريعا بين الحامى والمحمى حتى فى عصر النفاثات •

ومن ثم فبوسعنا القول بأن تاريخ الناتو منذ بدايته كان تاريخ المحاولات الأمريكية لاعادة طمأنة الأوربيين ، وتهدئة مخاوفهم من احتمال التخلى عنهم • وكانت احدى وسائل طمأنتهم هى تصريح الولايات علنا استعدادها لتقديم هذه الحماية ، وهذا ما فعله كبار المسئولين فى الحكومة الأمريكية مرارا وتكرارا ، فقد صرح جون كيندى ١٩٦٠ : « أنا من أهل برلين (*) » • ولعل هذا القول هو أشهر التصريحات الأمريكية المهداة الى التحالف ، وان جاز القول انه لم يكن التصريح الوحيد • وكانت العلامة الأخرى لاعادة الطمأنة هى مرابطة حامية من القوات الأمريكية فى أوربا • وأعتقد أن قيمتها لا ترجع الى كفاءتها القتالية فحسب ، وانما الى تعبيرها الرمزى عن النوايا الأمريكية التى تمثلها ، وكأنها مثلت دور « الرهينة » لاثبات استعداد الأمريكان للوفاء بالتزاماتهم ، فلو اعتدى السوفيت على أوربا ، ستبادر الولايات المتحدة بكل ما تملك من مال وعتاد وقوة لنجدة

(*) "Ich bin ein Berliner"

جنودها ، ونجدة الأوربيين بالتبعية ، أو على أقل تقدير . ومن المنظور الأوربي ، فان وجود القوات الأمريكية ستتيح الفرصة التى تمكن الولايات المتحدة من الأقدام على صد الاعتداء السوفيتى . ومن ثم بدت القوات الأمريكية ــ والناتو فى جملته ــ بحق فى نظر الأوربيين كأنها قد وضعت فى المكان كسقاطة الأمان (*) بالنسبة للقوة الحربية المؤثرة الحقة للحلفاء يعنى الترسانة النووية .

غير أن جميع هذه التعابير عن حسن النوايا لم تكف لتهدئة المخاوف بعد التطورات التى حدثت فى العقد الثانى من العصر النووى (بعد ١٩٤٥) . واشتملت هذه التطورات على اهتداء الاتحاد السوفيتى الى وسيلة لشن الهجوم النووى على القوات الأوربية الأمريكية .

واستندت مصداقية ترتيبات الردع العسكرية للناتو فى العقد الأول من وجود التحالف على عدم تطابق وضعى الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى . فالولايات المتحدة قادرة على شن هجمات نووية ضد المدن السوفيتية والمنشآت العسكرية من قواعد أوربا الغربية . وليس لدى الاتحاد السوفيتى وسيلة لبلوغ الولايات المتحدة ، وتبدل هذا الوضع بحلول نهاية القرن ، وأدى هذا التغير الى الارتياب فى أمكان الاعتماد على الالتزام الأمريكى بحماية أوربا . فبالرغم من أن الولايات المتحدة فى مأمن من ثأر السوفيت ، الا أن مقدار تعرض الولايات المتحدة للخطر سيكون ضئيلا نسبيا اذا هددت الاتحاد السوفيتى حتى باستعمال الأسلحة النووية . على أنه عندما أصبح السوفيت قادرين على التهديد باستعمال القنبلة ضد المدن الأمريكية بدا وكأن التهديد الأمريكى لم يعد يزيد عن كلام أجوف ، ففى حالة حدوث أى هجوم سوفيتى على أوربا الغربية هل سيرخص الزعماء الأمريكان حقا باستعمال القوة النووية ضد الاتحاد السوفيتى ، مع علمهم ما ستتعرض له الولايات المتحدة من دمار لو حدث ذلك ؟ وهل يرضى الأمريكان حقا بتعريض مدنهم للخطر فى سبيل حماية أوربا ؟ لم يكن من اليسير تصديق ذلك . وشعر الأمريكان والأوربيون بالدهشة من احتمال تصديق السوفيت ذلك .

وساعد نجاح السوفيت فى ابتكار قوة ضاربة عابرة للقارات على خلق حاجز ، رغم كونه سيكلوجيا فى طابعه ، الا أنه كان أكثر قهرا من المحيط الأطلسى الذى يفصل أمريكا الشمالية عن أوربا الغربية . وبدا كأنه استطاع القضاء على احتمال أنقاذ أمريكا لأوربا المحاصرة ، مثلما حدث بصفة مؤكدة عندما أدت اعادة الاحتلال العسكرى الألمانى للراين ١٩٣٦

(*) trip Wire.

الى سد الطريق بين فرنسا وحلفائها فى أوربا الشرقية (أعضاء دول التحالف الصغير) واعتقد على نطاق واسع أن القوات غير الثورية للاتحاد السوفيتى والدول الشيوعية الأخرى لأوربا الشرقية أعظم تفوقا من قوات الناتو . وهكذا سيؤدى اقتحام السوفيت للجبهة الوسطى من أوربا الى مواجهة قوات الناتو ـ وبخاصة الولايات المتحدة ـ بالخيار بين الاذلال أو التعرض للهلاك . فاما أن تقبل الهزيمة دون استعمال قوة نووية ، أو تضطر الى استعمال الأسلحة النووية ، وتتعرض لخطر الدمار المهلك عند الرد عليها .

وتوافق تطوير القوة الضاربة النووية العابرة للقارات هو وازالة الجانب الأكبر من الترسانة الأمريكية النووية من أوربا ، وما ترتب على ذلك من ضعف ثقة الأوربيين فى شدة الردع وجدواه ، وفى الخمسينيات ، لم يكن بامكان غير الطائرات والمقذوفات متوسطة المدى الأمريكية المثبتة فى مواقع داخل حدود البلدان الأوربية المشتركة فى الناتو الوصول الى المدن السوفيتية . غير أن الستينيات شهدت ظهور سلاحين بالاستطاعة وضعها خارج القارة ، فقد أصبح بمقدور المقذوف منوتمان (*) الوصول الى أهداف تقع بين مدينتى مينسك (فى روسيا البيضاء) وفلاديفوستك شرقى سيبريا فى بحر دقائق من قذفها من وسـط الولايات المتحدة . وترابط القوات حاملة السلاح النووى بولاريس فى البحر فى معظم الوقت ، ولا تحتاج الى أى أرض للرسو عليها . ووعد الأمريكان بامكان الاستعانة عند الحاجة بهذه الأسلحة فى حالة وقوع أى اعتداء على أوربا . غير أن المنوتمان والبولاريس قد تكونان بعيدتين عن أوربا عندما يحدث الاعتداء السوفيتى . وعزز هذا الابتعاد عن ميدان المعركة شكوك الأوربيين فى امكان الاطمئنان الى وصولهما .

وأصبح من الميسور التنبؤ على خير وجه بقدرة السوفيت على الحاق دمار نووى بالولايات المتحدة قبل وقوعه . فعلى نهاية ١٩٥٧ ، بدا وكأن هـذه القدرة قد غدت قائمة ، بعد أن أجرى الاتحاد السوفيتى اختبار المقذوف « باليستى » عابر القارات (**) فى أغسطس من تلك السنة ، ثم أطلق أول قمر اصطناعى للدوران حول الأرض (سبوتنيك فى أكتوبر) . وعلى حين غرة ، ظهر الاتحاد السوفيتى بمظهر المسيطر على الفضاء ، مما سيساعده على قذف الولايات المتحدة ، بيد أنه كانت هناك فسحة من الزمان بين اللحظة التى بدا فيها واضحا أن الولايات المتحدة قد أصبحت

(*) Minuteman.

(**) I. C. B. M.

معرضة للخطر السوفيتي ، وبين المحاولات الجادة التي بذلت لاحكام التدابير العسكرية للناتو للتغلب على خطر هذا التعرض ، ووقعت هذه المهمة على عاتق ادارة كيندي التي تولت السلطة ١٩٦١ ، وعكفت على حماية الناتو من عواقب امتداد خطر القوة الضاربة السوفيتية •

وكان الحل الذي ارتأته ادارة كيندي لهذه المشكلة هو تحويل الناتو من مجرد سقاطة أمان الى قوة ضاربة مؤثرة ، بتزويد القوات غير النووية بمعدات تساعدها على صد الهجوم السوفيتي ، وبذلك سيتمكن التحالف من تجنب الاختيار بين الاذلال والهلاك في أي قتال غير نووي ، ولم تكن الفكرة جديدة ١٩٦١ • وكل ما هناك هو أنها أعادت للذاكرة التوقع الذي ما زال لم يواجه ، والذي تصوره بعض الأمريكيين عن مهمة الناتو غداة انشائه ، وكان الاخفاق في الحصول على قوى قويه غير نووية يكلف القليل في بدايات الخمسينيات لوجود بديل للقوى غير النووية مكافيء للقوى الخاصة بالاتحاد السوفيتي ، يعني الترسانة النووية الأمريكية ، ولكن حدث سنة ١٩٦١ ، أن استطاعت كل من القوى الضـــاربة للاتحاد السوفيتي والأمريكية الغاء كل منهما للأخرى ، وأصبحت الميزة الحاسمة ميسورة ـ كما يبدو للطرف الأفضل تجهيزا لأي حرب غير نووية • وأطلق على فكرة الاعداد لحدوث تشابك بين الاتحاد السوفيتي وحلف وارسو في مســـتوى من العنف أدنى من مســـتوى الحافة النووية اســم سياسة « الرد المرن » (*) •

وعارض هذه السياسة الأوربيون ، وانبعثت اعتراضاتهم ـ جزئيا ـ من اعتبارات سياسية داخلية • اذ كانوا لا يرغبون فرض أية ضرائب جـديدة ، أو زيادة المجندين في القوات المسلحة • غـير أن اعتراضهم الأساسي انصب على منطق السياسة ذاته ، « فالرد المرن » يجر في ذيله ـ ضمنا ـ الاســتعداد للقتال في حرب غير نووية في أوربا ، ولكن الأوربيين لا يرغبون الاشتراك في القتال في أي حرب أيا كان نوعها ، بعد أن قاسوا الأمرين من ويلات الحرب العالمية الثانيـة ما يكفيهم • بالاضافة الى ذلك ، فبعد ١٩٤٥ ، استمرت سرعة تزايد القوة غير النووية ، وجنحت الثورة النووية الى حجبها • ولكن الثورة الميكانيكية في العمليات الحربية بعد الحرب العالمية الثانية وضعت تحت امرة الحكومات مزيدا من القوة العسكرية ، تجاوزت بكثير ما كان لديها من قبل ، بصرف النظر عما حدث من تطور في المقذوفات في طريقة الاشعال والانشطار • وكان هتـــلر عنـدما غزا بجيوشـه الاتحاد السوفيتي قد اعتمد اعتمادا كبيرا

(*) Flexible response.

على نفس وسائل النقل التى استعملها نابليون عند زحفه الى موسكو ، يعنى استعان بالخيول والبغال • واليوم لم يعد هناك خيول أو بغال فى الجبهة الوسطى من أوربا • فاذا قلنا ان انتشار الثورة النووية فى الحرب وتعرف السوفيت على أسرارها قد جعل سياسة « الرد المرن » تبدو ضرورية للولايات المتحدة ، فان امتداد الثورة الميكانيكية أو ثورة النقل الميكانيكى ووصولها الى القارة الأوربية قد جعلها تبدو خطرة فى نظر الأوربيين •

وليس من شـك فى احتمال تسـلح الأوربيين بأسلحة أقدر على الحسم ، اذا لم يتيسر وجود أى شكل آخر من أشكال الحماية • غير أن هناك بديلا للاستعداد للقتـال فى الحرب غـير النووية كوسيلة لحماية أوربا • انها التهديد بشن حرب نووية • وخشى الأوربيون أن يؤدى اتباع سياسة « الرد المرن » الى قطع الطريق أمام هذا التهديد ، فلقد رسمت سياسة « الرد المرن » لتزويد الناتو بوسيلة لشن حرب فى أوربا لا يحتمل أن تتحول بصفة مباشرة الى حرب نووية • وسعى الأوربيون لتهذيب الانطباع بأن التصاعد السريع نحو المستوى النووى قد يتبع أى اعتداء سـوفيتى ، بعد أن اعتقدوا أن هذا الانطبـاع هو الذى ردع الاتحاد السوفيتى ، وخشى الأوربيون أن يؤدى اتباع « الرد المرن » الى تعريض مصـيرهم لأسوأ جميع الاحتمالات الممكنة • فبغير ضـمان نووى أمريكى راسخ ، سيصاب الردع بالوهن الى حد اغراء السوفيت بالهجوم • ومن المتوقع أن تتصف بالدمار والوحشية مثل هذه الحرب ، حتى اذا خلت من أى تبادل للقذف النووى ، وحتى اذا ساندت الولايات المتحدة الأوربيين مساندة كاملة •

نعم ان ما كان الأوربيون يخشونه فى بواكير الستينيات لم يكن على وجه الدقة « تخلى الولايات المتحدة » ، بعد أن أعربت عن استعدادها الاسهام فى النهوض بقوى الناتو غير النووية • والأرجح هو أنهم خشوا من عدم استعداد قدرة الترسانة النووية الأمريكية على المساعدة النووية للدفاع عن أوربا الغربية ، وابتكر مصطلح عسكرى (*) للدلالة على هذه المخاوف • ويدل هذا المصطلح على الانفصال بين الأسلحة النووية والأسلحة التقليدية ، سعيا وراء تقسيم مسرح الحرب والفصل بين أمريكا الشمالية وأوربا • وهذا ما كان موضع ارتياب الأوربيين ومخاوفهم من وقوعه •

واذا كان الأوربيون قد خشـوا من مغبة اتباع « الرد المرن » ، واحتمال الحاقه الضـعف بعملية الردع ، فان الأمريكيين اعتقدوا أن

(★) "decoupiing" لم أوفق فى اكتشاف مرادف عربى له فاكتفيت بشرحه فى السياق •

« الرد المرن » وحده كفيل بتوكيد الوثوق فى الردع ، ورأوا أن الاستعداد للقتال فى حرب من نوع محدد ، يمكن التعرف اليه ، سيساعد الناتو على ردعه • فاذا اقتنع السوفيت بعـدم مقدرتهم على كسب أى حرب غير نووية ، فانه من غير المحتمل أن يشنوها • أما اذا وثقوا فى احتمال نجاحهم فى المستوى غير النووى ، فلا يستبعد حينذاك أن يقامروا على عدم تجرؤ الناتو على انقاذ موقفه بالالتجاء الى الوسائل النووية •

ولا يعنى عدم استساغة الأوربيين « للرد المرن » أنهم كانوا يؤثرون تخفيض قوى الناتو غير النووية التى كانت تحتل مواقعها بالفعل ١٩٦١ ، واستند تقديرهم الى أن يكون هذا الاجراء بمثابة اشارة أو تلميح بنية الأمريكان تخفيف التزامهم بوعودهم نحو أوربا ، ومن ثم آثروا الاكتفاء بنشر القوات ، أى ما كان جاريا بالفعل فى الناتو •

وتسبب الاختلاف حول « الرد المرن » فى خلق طريق مسدود • اذ بدا أن تزايد القوة النووية لدى السوفيت مؤشر باحتمال تحطيم ترتيبات حماية أوربا عن طريق ردع الاعتداء السوفيتى ، وكانت هذه الترتيبات قد اتخذت فى بواكير الخمسينيات • ولم يبد ما قدمه الأمريكان كدفوع لتأييد فكرة الردع المرن مقبولا للأوربيين ، بيد أن أحد الأوربيين قـدم حلا مختلفا للمشكلة •

التحالف المتشابك

والأوربى المقصود بالاشارة هو شارل ديجول • اذ جاء رده على تزايد القوة النووية الضاربة السوفيتية بعيدة المدى ، والأثر الذى اعتقد على نطاق واسع أنه سيترتب على ذلك على فاعلية سياسـة الردع للناتو فى الستينيات ، جاء رده بدعوة أعضاء التحالف الأوربى الى انشاء ترسانة نووية خاصة بهم •

ويتصور الأمريكيون ديجول كأنه يمثل فى دراما سياسة الناتو دور الشرير أو « الفيلان » • وجنحوا الى تصوره شخصية متعجرفة مضللة (بفتح اللام الأولى) يسعى للتضحية بوحدة التحالف فى سبيل حلمه بالعظمـة الفرنسية متأثرا من تعرض فرنسـا للاذلال فى الحرب العـالمية الثانية • وهذا أمر مفهوم • ونسى ديجول أن هذه الحرب ، وما جرته فى ذيلهـا قد جعل تحقيق هذه العظمة فى غير متناول فرنسـا الى أبد الآبدين • ويكن ديجول شعورا عميقـا بعـدم الثقة بالأنجلو سكسون ــ يقصد الأمريكان والبريطانيين ــ غير أن متاعبه هو والولايات المتحدة

لا يبدو أنها قد انبعثت من الشعور بالتنافر بينه وبين عدد من المواجهين له على الجانب المقابل من الأطلسي • كما أنها لم تنبعث من اساءة فهم لتطلعات البلدين أو لاسلوب العمل فى النظامين السياسيين ، وان كانت اساءات الفهم كانت قائمة يقينا ، وعلى العكس ، فقد كان سر وخز ديجول للحكومة الأمريكية هو اشتراكه معها فى الرأى فى اهتزاز الردع فى أوربا مما دفعه الى استخلاص نتائج مغايرة • فلقد كان ديجول ، كما يجب أن لا ننسى ، هو الذى أوضح منطق الاعتماد على الأسلحة النووية للأعضاء الأوربيين فى الناتو • وهذا ما سبب عدم الارتياح عند الأمريكان ، مثلما حدث للأوربيين فى رد فعلهم تجاه مبدأ « الرد المرن » ••

وقبل ديجول المبررات التى استند اليها مبدأ الرد المرن ، وأقر ما يقال عن أن مصداقية التهديد التى يعتمد عليها أمن أوربا فى حاجة الى تعزيز • وذهب فى شكوكه الى ما هو أبعد ، فارتاب فى قيمـة جميع الأحلاف الشكلية • ورأى أن « التخلى » أمر طبيعى ، لأن الأحلاف أشبه بالزيجات التقليدية ، كما اعتقد • فاذا فقدت قيمتها التقليدية ، فلن يستطاع الاعتماد على أى حليف للوفاء بالتزاماتها ، بصرف النظر عما يظهر عليها من مهابة عند النهوض بها • فالدول فى نظر ديجول لا تعترف بغير مصلحتها ، ومصلحتها فقط لا غير • فاذا ناسب صالح الدولة « أ » تقديم العون للدولة « ب » فان « أ » ستتقدم للمساعدة سواء قدمت وعدا شكليا أم لم تقدم • واذا لم يناسبها ذلك ، فان دفعة الارتباطات لن تتسم بالقوة الكافية للتغلب على دفعة الصالح الذاتى فى الاتجاه الآخر •

ويصح هــذا الرأى يقينا عن حكم ديجول على الناتو • ففى أعقاب تعرض أمريكا الشمالية لاعتداء نووى من السوفيت ، سيثار السؤال حول هل يرضى زعماء أمريكا تعريض نيويورك للخطر فى سبيل حماية باريس • ولم يساور ديجول أى شـك بأنهم لن يفعلوا ذلك • كمـا أنه فى غير الاستطاعة الوثوق فى الاعتماد على رد الاتحاد السوفيتى على هذا السؤال بالايجاب • غير أنه اذا لم تسـتعمل الولايات المتحدة الأسلحة النووية للدفاع عن أوربا ، فان الأوربيين سيستعملونها يقينا ، وسيعتقد السوفيت بالتأكيد أن الأوربيين سيستعملونها ، ومن ثم يكون التسلح النووى — على المستوى القومى — بترسانة هذه الأسلحة من مستلزمات الردع •

وبينما أرادت الولايات المتحدة الاكتفاء بمركز واحد للتحكم لتحديد الحالات التى تستوجب الخيار النووى ، اقترح ديجول مضاعفة هــذه المراكز ، على أن يكون لكل منها نفس الخيار • وتبعا لذلك ترأس ديجول أول مؤسسة للترسانة النووية فى فرنسا ، ويرجع أصل انشائها الى ١٩٦٠ ، أى السنة التى جرى فيها الاختبار النووى الفرنسى الأول •

وحتى اذا اعترفنا بقصور الأسلحة النووية عن تحقيق الحماية في لحظة الخطر الداهم ، فان فوائدها لا تنكر • ولقد قدر ديجول ذلك ورأى أنها تضفي الهيبة على من يملكهـا ، أي « توفر مقعدا على رأس المـائدة الدبلوماسية » ، على حد تعبير الانجليزي ، وهو ما كان يشتهيه ديجول لفرنسا • اذ بدت الترسانة النووية المستقلة ـ حتى في حالتها المتواضعة ، رمزا ووسيلة تجر في ذيلها طائفة كبيرة من الامتيازات • فلا ننسى أن أهم امتياز أسـاسي للدولة هو تسيدها على مصـيرها ، وفيما يتعلق بالأوربيين في العصر النووي ، كما اعتقد ديجول ، فليس هناك من وسيلة غير حيازة الأسلحة النووية لتأمين هذا الامتياز •

وكان ديجول أشـد أنصـار منطق القوة النووية القومية المستقلة تصلبا ، وأكثرهم جهرا بهذا الرأي ، غير أن هذا الرأي كان أبعد ما يكون عن الفكرة المستحوذة عليه ، اذ شارك فرنسيون آخرون في ذلك ، فلقد سبق برنامج التسليح النووي الفرنسي ديجول في الظهور ، واستمر باقيا بعد انتهاء رئاسته • وبانقضاء السنين انضم لتأييد مبدأ القوة الضاربة (*) المستقلة آخرون من مختلف الأحزاب السياسية في فرنسا •

ولم يكن البريطانيون بعيدين عن التعاطف على نظرة ديجول ، وكانوا يتهامسون بالارتياب حول امكان الاعتماد على أمريكا عندما كان الرئيس الفرنسي ينادي برأيه ، وكانوا يفضلون استرضاء الأمريكان في ذات الوقت الذي حبذ فيه ديجول الشجار معهم • وعلى الرغم من وجود اختلاف بينهما في الاسلوب ، الا أن البريطانيين توافرت لهم قوة ضاربة نووية صغيرة ملكا لهم ، ولم تختلف دوافعهم في الحرص عليها عن دافع ديجول •

وثمة أسباب تبين لماذا كان من المحتمل أن تؤيد الحكومة الأمريكية ما رآه ديجول ، وسياسته النووية • فلقد ساعد حصول الأوربيين على قوى نووية مستقلة على توفير جملة مزايا • اذ كانت تبشر بزيادة القوة العسكرية للناتو ، يعني الغاية الأساسية التي تعلو على كل غاية عند أي حلف • ولعلهـا كانت ستخفف من عبء حماية أوربا سيكلوجيـا وعسكريا • ولم يكف الأمريكان عن استحثاث الأوربيين على زيادة الاسهام في دفاعات التحالف • وتعد من المقومات التي تسهم في تحقيق الوحدة الأوربية ، التي كانت هدفا مؤكدا لأمريكا منذ قديم الأزل ، اذ كان من المتـوقع أن يكون تكديس الأوربيين لعتادهم النووي خطـوة في سبيل تحقيق أشكال أخرى من التكامل السياسي •

(*) Force de Frappe

ومع هذا فان ما حدث كان العكس · اذ كانت الحكومة الأمريكية تعارض « من تحت لتحت » انماء قوى نووية أوربية مستقلة ، والحق لقد كانت الكلمة التى استعملها الأمريكان لوصف انتشار الأسلحة النووية من الكلمات التي تستعمل عادة عند الحديث عن انتشـــار الأمراض أو الأوبئة وهى كلمة « تفشى » التى صورت تشخيص الولايات المتحدة لهذه الظاهرة · ولقد كبت الأمريكان معارضـــتهم رغم المزايا المحتملة لتوافر الترسانات النووية على المستوى القومى ، حتى عندما بدا واضحا أن اتباع هذه السياسة سيساعد على اتساع تصدع التحالف ، وأدى الاستنكار الأمريكى « للتفشى » الى استفحال الخلاف مع فرنسا ، ورفض الولايات المتحدة تقديم المساعدة النووية حتى عندما أوضح ديجول أنه سيواصل السير فى برنامجه لصنع الأسلحة النووية بغير انتظار للمساعدة · وأدى الموقف الأمريكى الى افساد العلاقة مع البريطانيين أيضا ، وبلغت أدنى مستوياتها عندما قررت ادارة كنيدى بغتة الغاء انتاج صاروخ « سكاى بولت » الذى كان البريطانيون يأملون أن يســـاعد على اطالة ديمومة استعمال قاذفات قنابلهم المسلحة بالقنبلة ، وكان العذر المعلن لالغاء هذا الانتاج اقتصاديا ، ولكن حقيقة اسهام الصاروخ فى الحفاظ على الترسانة النووية لبلد آخر بررت الاعتذار بتفضيل الاعتبارات الاقتصادية على عامل التضامن بين الدولتين المتحالفتين ·

واعترضت الحكومة الأمريكية على وجود قوى نووية أوربية مستقلة ، ورأت عدم ضرورتها اكتفاء بالقوة الضاربة الأمريكية القادرة على تحقيق أهداف الناتو ، بالاضافة الى مهاجمتها الفكرة متذرعة بعدم كفاءة هذه القوى ، اذا وجدت منفصلة كل منها عن الأخرى ، لأنها لن تكون قادرة فى هذه الحالة على احداث تدمير أكيد ، وهذا شرط أســـاسى فى نظر الأمريكان حتى تتحقق لها الفائدة الاستراتيجية ، أما ما يشبه القوة المؤلفة من مئات الصواريخ عابرة القارات « المقساة » المنتشرة فى شتى الأنحاء ، وعشرات الصواريخ المجهزة بالطاقة النووية كالتى تملكها الولايات المتحدة فعبء لن يتسنى لأى بلد أوربى تحمل نفقاته ومستلزماته ·

ورأى الأمريكان أن الأمر لا يقتصر على عدم ضرورة الترسانة الأوربية النووية وعدم كفايتها ، فلعل وجودها يحدث أثرا استفزازيا خطيرا · اذ سيصبح مالكها معرضا لأخطار الاتحاد السوفيتى الى حد ما ، لأن تدمير القوة النووية الصغرى سيتخذ الصدارة فى أولويات أهداف السوفيت ·

وكان باستطاعة الأوربيين الرد على هذا الاعتراض (وقد رد الفرنسيون بالفعل) بالقول بأن القوى النووية المستقلة ليست كما دلت الشواهد عديمة الفائدة ، أو الاختيار الأسوأ ، كما تزعم الاعتراضات الأمريكية ·

أجل ليس من السهل الاهتداء الى الكفاية الاستراتيجية ، طبقا للتعريف الاستراتيجي التقني لها ، يعني القدرة على التدمير المؤكد ـ وبخاصة لبلد لا تملك موارد مماثلة للولايات المتحدة أو الاتحاد السوفيتي ـ كما أن القوة الضاربة « القادرة على البقاء » لا تتجاوز تجاوزا كاملا ما يستطيع الأوربيون تحقيقه • فبمرور الزمان ، سيكون بوسعهم أن يأملوا فى صنع عدد كاف من الصواريخ ، ولعلها تتصف بخفة حركتها أو سهولة اخفائها ، أو تركيبها على الغواصات لتفادى مباغتتها بضربة بحكم اقترابهـــا من السوفييت ، وبذلك سيتسنى الوثوق من الرد بنفس السلاح على ما سيوجه لها من اعتداء نووى •

وكان بميسور الأوربيين الرد على مزاعم الأمريكان بالقول بأننا اذا افترضنا أن الترسانة النووية الصغيرة لا توفر الأمان بصفة مطلقة والاطمئنان الى عـــدم تدميرها بعـــد تعرضها لضربة قاضـــية ، الا أنهـــا قادرة على تجنيب مالكها الهجوم الوقتى عليه فى حالة الحرب • فلو لم يكن البلد الأوربى متأكدا من قدرته على ضرب موسكو بعد أى اعتداء سوفيتى ، فان الروس بالمثل لن يكونوا موقنين باحتمال حدوث ذلك أو عدم حدوثه • نعم أن باستطاعة حفنة صغيرة من القنابل الايدروجينية ـ وربما واحدة فقط ـ أن تلحق دمارا بعاصمة السوفييت يفوق الدمار الذى حاول نابليون أو هتلر الحاقه بها • وفضلا عن ذلك ، فلما كان الأثر الرادع يتوقف ـ من جانب ـ على اصرار مالك القنبلة على استعمالها ، فان القوى النووية القومية عندما تتوافر على المستوى القومي ستكون أفدح تأثيرا ، لأن فرنسا ستكون بلا جدال أكثر استعدادا للرد باستعمال السلاح النووى على أى هجوم على فرنسا من استعداد الولايات المتحدة لذلك •

وبغض النظر عن أوجه نقص الترسانة النووية القومية ، فانها تبدو ـ يقينا ـ أفضل من لا شيء بالنسبة لأى بلد أوربى من بلدان الناتو • ولقد زعم ديجول على أية حال بأنه لا بديل للقوة الضاربة المستقلة مهما كانت درجة تعرضها للخطر • واذا نظرنا لمدى ما تحققه أية ترسانة نووية مملوكة لاحدى بلدان غرب أوربا من حماية بالمقارنة بمخزون الصواريخ الذي تملكه أمريكا فانه سيبدو أشبه باحدى أوراق شجرة التين بالمقارنة بدرع من الصلب • غير أنه عندما تحدث المعركة فقد لا يكون درع الصلب ميسورا ـ فى نظر ديجول ـ وقد لا يتيسر فى حالة البلدان الأوربية الأخرى • آنئذ ألا يصبح القول بأن ورقة التين ستكون أفضل من العرى الكامل •

ويقبع « الخوف من التورط » في صميم معارضة الأمريكان للتغطية النووية فى نطاق الناتو • ولم يفصح الأمريكان عن هذا الخوف فى كلمات

كثيرة ، لأن الافصاح عنه قد يتعارض هو والدبلوماسية ، ولا يخلو من خطورة • فربما أوحى باحتمال نزوع حلفاء الناتو الى اتخاذ مسلك متهور • وهناك احتمال بتفسيره على أنه يتضمن أخطر ما يخشاه الأوربيون : يعنى وجود حروب يرغبون فى خوضها ، وتحبذ الولايات المتحدة تفادى الخوض فيها ، ومن ثم فقد أشار الأمريكان الى أخطار تفشى الأسلحة النووية تلميحا فقالوا انها تؤدى « الى تزعزع الاستقرار » ، أو قد تعقد السياسة الدولية باقحام اجراء غير مرغوب لأن « نتيجته غير ميقون منها » فى الحسابات القومية •

وكانت هناك أسباب عامة تفسر لماذا يتراءى من وراء « تفشى الأسلحة النووية » شبح تورط الولايات المتحدة • فلعل الترسانات النووية القومية الصغيرة أهداف مغرية للهجمات السوفيتية بحكم اقترابها من أهدافها • واذا حدثت احدى الأزمات ، فقد يهاجم الاتحاد السوفيتى الترسانات الأوربية النووية اعتمادا على وثوقه من امكان القضاء عليها • وعلى نقيض ذلك ، لو تعلق الأمر بأية قوة أمريكية أكبر وأقل عرضة للخطر ، فربما التزم السوفيت الحذر فى مسلكهم نحوها • فلم يكن حدثا أو مجموعة من الأحداث بالذات هى التى أقلقت الحكومة الأمريكية فى بدايات الستينيات بقدر الاقلاق من احتمال قصور استعمال الأسلحة النووية الشديدة الفاعلية سواء استعملت على المستوى الدولى أو المستوى القومى • وبدا لها التنازل لاحدى الدول الكبرى الأخرى المالكة للسلاح النووى مسألة مثيرة للقلق ، لأن أى تغير فى الموقف النووى الراهن ، لن تكون له نتائج مأمونة العواقب • وما جعل تفشى الأسلحة النووية يبدو أمرا عظيم الخطر ، هو تعذر التنبؤ الفورى بعواقبه ، ومن المحتمل أن تكون تكاليف الحرب النووية باهظة ، بحيث تدفع بلدا ما الى المخاطرة بأى اجراء يحول دون اقترابها ، وفى البيئة النووية ، يبدو التحكم عظيم الأهمية ويساعد انتشار القدرة النووية فى البلدان الأخرى على العمل المستقل ، وبذلك تضعف السيطرة الأمريكية • والظاهر أن كراهية تفشى الأسلحة النووية تذكرنا بحكاية الرهان التى رواها الفيلسوف الفرنسى بسكال عندما قال : « انه لن يخسر شيئاً وسيكسب كل شىء اذا اعتقد فى وجود الله ، ولعله لن ينجم أى ضرر عن حدوث ازدياد فى عدد الدول التى تملك الأسلحة النووية ، غير أن الضرر اذا حدث ، فانه لا يستبعد أن يمتد على نطاق واسع بحيث تعد أى محاولات مجهدة لتجميد عدد من يملكونها عملا له ما يبرره •

ولقد وصفت الولايات المتحدة التهديد بتفشى الأسلحة النووية بالمشكلة غير المحدودة العواقب للبلاد (*) ، أى التى لا يمكن التنبؤ بأبعادها وعواقبها • ويوحى المصطلح بامكان الاستناد الى عدد من يملكونها عند تحديد درجة التعرض للخطر استنادا الى ما يملكه أى بلد من أسلحة نووية ، والأدهى من ذلك هو ما يحدث اذا امتلكت دولة نووية جديدة هذه الأسلحة بغض النظر عن مقومات هذه الدولة ، على أن هناك دولة بالذات تقلق الأمريكان بصفة خاصة • انها جمهورية ألمانيا الاتحادية (ألمانيا الكبرى الآن بعد اختفاء ألمانيا الشرقية ١٩٩٠) • فبوصفها أكبر عنصر لا نووى فى الناتو وأكثر البلدان تعرضا مباشرا لخطر الاتحاد السوفيتى ، فقد كان المفروض أن تكون المرشح المنطقى للحذو حذو بريطانيا وفرنسا فى اقتناء الأسلحة النووية • غير أن تسلح ألمانيا بالسلاح النووى لن يكون من التوقعات الموفقة ، فما زالت ذكريات الرايخ الثالث عالقة فى الأذهان ، ولم يتوطد اسم الجمهورية الألمانية الاتحادية حتى الآن كدولة مسالمة مسئولة وديموقراطية فى الأسرة الدولية (!) •

ان ألمانيا اذا تسلحت بالسلاح النووى ـ خصوصا اذا استقلت عن عصبة الناتو ـ ستكون مصدر اقلاق لا حد له ، اذا تمعنا فى نتائجها • وليس أقل هذه الجوانب اقلاقا الأثر المحتمل لهذه الخطوة على الاتحاد السوفيتى • فمنذ حدث تقسيم ألمانيا ، وتقسيم أوربا ـ تبعا لذلك ـ أصبحت هذه القسمة من حقائق الحياة الدولية ، مما دفع الاتحاد السوفيتى الى اعتبار مسألة حرمان ألمانيا الغربية من التسلح النووى مبدأ أساسيا فى السياسة الخارجية ، فلقد أدى اعتداء الألمان فظيعان فى القرن العشرين (الحرب العالمية الأولى والحرب العالمية الثانية) الى زيادة حساسية الاتحاد السوفيتى الى حد الرعب من القوة العسكرية لألمانيا • ورفضت الولايات المتحدة تأييد البرنامج الفرنسى للتسلح النووى فى جوانب ليست بالقليلة خشية أن يطالب الألمان بالمعاملة بالمثل • ان مطلب الألمان التزود بترسانة نووية ، وما سيترتب عليه من تفشى نووى فى أوربا من الأمور غير المقبولة عند الولايات المتحدة كوسائل لتعزيز الردع مثلما يعد « الرد المرن » غير مقبول لدى الأوربيين ، ومن ثم فعلى الرغم من اتفاق الطرفين حول هذه المشكلة الا أن كلا منهما لم يصدق على الحل المفضل عند الطرف الآخر •

(*) the nth cov-try problem.

ما أشبه السياسة النووية للناتو فى الستينات ، اذا تأملتـاها من منظورنا الآن بتمثيلية بغير فصل ثالث · ولقد نشبت احدى الأزمات من أثر المخاوف التى انتابت الولايات المتحدة بعد تزايد القدرة النووية للاتحاد السوفيتى على ضربها من مبدأ « التخلى » مما أثار التساؤل حول مصداقية سياسة الردع فى أوربا · واتخذت الصدارة جملة حلول ، ولم يوضع أى حل منها موضع التجربة الكاملة · ولم يلق الحل الذى يرى اتباع مبدأ « الرد المرن » ولا الحل الذى يسمح بتفشى الأسلحة النووية قبولا كاملا عند المسئولين على جانبى الأطلسى ، واعتبر الأوربيـــون « الرد المرن » دعوة للتخلى من نوع خاص اختاروا له مصطلحا ما (*) ؛ وشعر الأمريكان بالقلق لاحتمال أن يؤدى الحل الآخر الى تورطهم فى مثل هذه الحرب ·

وغنى عن القول أن الأوربيين قبلوا مبدأ الرد المرن ١٩٦٧ ، ولكن على نحو أشعر الأمريكان بأن هذا الحل قد ســـد الطريق أمام الهدف الأمريكى الذى كان وراء الاقتراح فى المقـام الأول ، واتفق الطرفان من حيث المبدأ على اتباع « الحلف » للسياسة ، ولكنهما اختلفا حول كفاية القوى غير النووية الموجودة فى أوربا للنهوض بتنفيذه · وبدلا من تزويد الميدان بقوات ودبابات وطائرات اضافية ، فانهم قنعوا بتغيير اسم المهمة الموكلة لمن كانوا هناك بالفعل ·

وثمة تاريخ معقد وراء الحل الأوربى للمشـكلة التى خلقتها القوة الاستراتيجية الســوفيتية للناتو (القوى النووية القوميـة) ، وان كان هذا الحل لم يطبق بالمثل تطبيقا كاملا · فلقد اقترحت الولايات المتحدة مشروعا يعرف باسم القوة المتعددة المهام (**) للاشتراك فى السيطرة على بعض الأسلحة النـــووية · ولقيت هذه الفكرة انتباها جديا ابتداء من ١٩٦٣ · وتتضمن الفكرة تزويد الغواصات البولاريس بأطقم بحارة متعددة الجنسيات ، وتصور الأمريكان هذا الحل كثانى الحلول المفضلة الحاسمة لمشكلات الناتو ، ولم يكن الأمريكيون ميالين للتنـــازل عن أى قدر من السيطرة على أى سلاح من الأسلحة النــووية · اذ خشوا أن تترتب هزة سياسية فى التحالف على رفضهم القيام بذلك ، فربمـــا أدى ذلك الى ظهور ترسانة نووية ألمانية · وكان واضعو المشروع المشـــار اليه من الأمريكان غامضين فيما يتعلق بالتساؤل الحساس عن هوية من يبـــدأ

(*) decoupling.

(**) M.L.F.

باشعال فتيل القوة الذرية للغواصات ، وأخيرا وفى أواخر ١٩٦٤ ، رفض الرئيس جونسون المشروع بالفعل .

ولم يقتصر الأمر على عدم حل المشكلات التى خلقتها القوة النووية السوفيتية حلا واضحا فى الستينات ، فلقد عاودت هذه المشكلات الظهور في مظهر آخر في السبعينات ، وثار الاهتمام داخل الحلف حول المزية التى اكتشفها السوفيت فى القوة الاستعراضية طويلة المدى ، والتى تتألف من أسلحة نووية تحتل قواعد فى أوربا الغربية قادرة على اصابة أهداف داخل الاتحاد السوفيتى وضد الأسلحة السوفيتية الموجهة ضد أوربا الغربية ، والتى أطلق على قدراتها النسبية اسم « التوازن الأوربى الاستراتيجى » (*) وردد الخلاف الأوربى حول هذه المشكلة ، أصداء الخلاف حول سياسة « الرد المرن » فى سنوات حكم كيندى ، وعلى الرغم من الفروق بين القوتين موضع البحث ، الا أن المشكلة الأساسية كانت واحدة ، وهى احتياجات الردع . فلقد راودت الولايات المتحدة المخاوف عينها من احتمال أن يؤدى الخلل الملحوظ فى توازن القوى غير النووية ، والذى احتدم فى عشر السنوات الماضية – يعني احتمال تحقيق الاتحاد السوفيتى الكسب بأن تتشابك هي وأعداؤها فى هذا المستوى ، وبذلك ترغم الناتو على قبول أحد شرين : فاما قبول الهزيمة ، أو يصعد الصراع الى مستوى الحرب النووية عبر القارات ، وما يترتب عليه من تعريض الولايات المتحدة للقذف النووى . وآثر الرد الامريكى نشر قوات استعراضية بعيدة المدى يمكن أن تقارن بقوات الاتحاد السوفيتي . وفى ديسمبر ١٩٧٩ ، اقترع الناتو على قبول هذا الرأى .

وكما حدث في حالة « الرد المرن » فلقد أثار هذا المشروع الجديد (**) مخاوف الأوربيين ، ولا ترجع المخاوف هذه المرة الى الفصل بين الأسلحة النووية وغير النووية ، ولكن الخوف تركز على الأسلحة الاستراتيجية الإستعراضية طويلة المدى . فكما حدث فى الحالة الأولى ، أوحي المشروع الأخير بتقسيم مسرح الحرب الى قسمين : أحدهما للولايات المتحدة ، والآخر لأوربا . وخشى الأوربيون أن يؤدى ذلك الى اضعاف الردع بالتشكك في استعداد الولايات المتحدة لتركيز كل قواها للدفاع عن أوربا ، وعبر عن ذلك وزير الخارجية الفرنسى صراحة بقوله : « ان الاتجاه المعتمد على تصور التوازن الاستراتيجي الأوربي يجر فى ذيله مقولة : « أن ما يترتب على الاتجاه المعتمد على شعور التوازن

(*) Eurosiragic balance.

(*) decoupling.

الاستراتيجي الأوربي – ضمنا – هو وجـــود توازن مستقل للقـدرات النووية يخص المسرح الأوربي منفصلا عن عناصر الردع الأخرى ، ويؤدي ذلك الى حدوث حالة(*) نحاول على وجه الدقة تفاديها • وبعبارة أخرى ، ان هذا الاجراء يتساوى هو والاعتراف بأن القوة الاستراتيجية المركزة للولايات المتحدة لاتغطى أوربا الغربية » •

ويمكن أن توصف السنوات التي أعقبت استبعاد مبدأ (**) ١٩٦٤ بأنها تعارضت وأهداف الناتو ، فاذا تركنا جانبا التساؤل عن طريقة الرد على التهديد النووى السوفيتي للولايات المتحـــدة ، سنرى النزوغ المفاجىء للخلاف حول سلسلة كبيرة من المشكلات • فلقد احتلت المسائل الاقتصادية مكانا بجوار مســـائل الأمن ، وتشاجر الشركاء في حلف الأطلسى حـــول سياسات التجـارة والنقـد وتوازن المدفوعات ، ولمحت الولايات المتحدة في بعض المواضع الى اعتماد اســتمرار التأمين النووى الأمريكى لأوربا على التنازلات الاقتصادية من قبل الأوربيين ، وتسببت الخلافات السياسية أيضا في تصـــديع العلاقات • فلم تثر الحـــرب الأمريكية في فيتنـــام الا القليل من الحماســـة ، وفرضت حرب الشرق الأوسط ربما خلافا أخطر ، اذ اكتشف شركاء الحلف أنهـــم يمثلون معسكرين متعارضين • فلقد دفع تخوف الأوربيين من انقطاع ما يحصلون عليه من بترول من الدول الغربية في الخليج الفارسى الى اصدار بيانات متعاطفة مع العرب ، ورفضوا الى حد كبير مساعدة الولايات المتحدة على معاودة تأييد اسرائيل ، وتزويدها بما تحتاج اليه ، بينما القتال محتدم الأوار •

وفى ١٩٨٠ ، اكتشفت الحلف مرة أخرى حدوث انقســـام فى صفوفه ، تركز هذه المرة على طريقـــة الرد على احتجـــاز الشخصـيات الدبلوماسية الأمريكية كرهائن بايران ، وأيضا حـــول الغزو السوفيتي لأفغانستان • وآثرت الولايات المتحدة أن يتسم الرد فى الحالتين بالشدة • وأعرب الأوربيون عن قلقهـــم من التباعد عن حكومة طهـــران وحكومة موسكو • ويرجع الخلاف – من ناحية – الى تضـــارب المصـــالح الذى ابتلى به جميع أعضاء الحلف • اذ كانت المخاطرة الاقتصادية والمنافع الاقتصادية التى يجنيها الأوربيون من رفع التوتر مع الاتحاد السوفيتى أعظم مما يعود على الأمريكان ، ومن ثم فانهم سيكونون الأكثر خسارة من

(*) decoupling

(**) M.L.F.

تدهور العلاقات من هاتين البلدين ٠٠ وجاء أخطر تدهور داخل صفوف الحلف فى السنوات التى أعقبت انتهـاء الصراع على « م٠ل٠ف » و « الرد المرن » ، ليس بين الولايات المتحدة والأوربيين ، وانمـا بين دولتين من الدول الأوربية الأعضاء فى الناتو : اليونان وتركيا حول نظام الحكم فى جزيرة قبرص مما عجل بانسحاب اليونان من الاشتراك الفعال فى الناتو ٠

غير أنه رغم عدم حل المشكلات القديمه حلا قاطعا ، وظهور مشكلات جـديدة ، الا أن النـاتو ظل محتفظـا خـلال السبعينات نوعا بمظهره الأصلى ٠ وبدا هذا الأمر غير متوقع تمـاما فى بداية « الستينات » ، ثم اتضح أن الأوضاع الراهنة داخل الحلف المستندة على الضمان الأمريكى النووى لم تعد محتملة ، وأن التغيير قد أصبح ضرورة لا مناص من اجرائها ، ولما كان العدوان السوفيتى قد بدا لهم البديل الأكيد ، لذا نظر الى « الرد المرن » والترسانات النووية القوية كضرورة للأمريكان فى المقام الأول وللفرنسيين فى المقام الثانى ، ثم ثبت أن هذين الاجراءين لاضرورة لهما ٠ فلماذا حدث هذا ؟ ٠

لقد ثار الجدل حول هل تعد الحلول المقترحة لمشكلة قدرة السوفيت الهجومية التى طرحتها الولايات المتحدة أمام الناتو ولم توضع موضـع التجربة ـ على أكمل وجه فى أغلب الظن ـ كما كان أنصارها يأملون ، ولكنهـا جربت بالقـدر الذى دفع الاتحـاد السوفيتى للتحفز ٠ إذ كان الاتفاق الأوربى على سياسة الرد المرن ـ من حيث المبدأ ـ مثار جدل ، أكثر من كونه مناورة للتلاعب بالمعانى والكلمات ، ورئى أن القوى غير النووية للناتو وحلف وارسو كانت أكثر توازنا ١٩٦٧ مما كانت عليه سنة ١٩٦١ ، ولا يرجع ذلك الى الحشـود التى حشـدها الأمريكان والأوربيون الغربيون من القوات الأكثر عددا ، وانما يرجع الى تزايد دقة تقديرهم لأعداد القوات المعادية لهم ٠ فكلما ازدادت الدقة إزداد تضاؤل الأعداد المقدرة ٠ وظهر فيما بعد عند مراجعة ما حدث ان الغرب ابـان الخمسينات كان يتعمد المبـالغة فى تقـدير عدد قواته ٠ وفى ١٩٦٧ ، اهتدى الأوربيون الى الاعتقاد بأن ممارسة الناتو لسياسة الرد المرن طيلة هذه المدة لم تكن لصالحهم تماما ، وعلى أية حال ، لقد اتسم هذا القول بالدقة نوعا ٠

أما فيما يتعلق بالحل الأوربى المفضل ، يعنى انشاء قوات نووية قومية فقد كان باستطاعة الفرنسيين الزعم بأنهم استطاعوا وضع هذا الحل موضع التجربة عندما شرعوا فى الترود بقوة نووية ضاربة ٠ وفى

١٩٧٩ ، توافرت لهم أربع غواصات تحمل كل منها ستة عشر صاروخا ، وثمانية عشر صاروخا متوسط المدى٠وبالمقاييس الأمريكية والسوفيتية ، تعد هذه القوة هينة الشأن ، وان كان بمقدور الفرنسيين المحاجاة والزعم بأنها تبعا لمعاييرهم الردعيه تعد كافية ، والقوة الفرنسية رغم ما تحققة لها هذه الغواصات من حماية قد لا تكون متيقنة بصفة مطلقة من قدرتها على قدر من الدمار للاتحاد السوفيتي اذا شن هجوما من النوع الذي عرفه الأمريكان بأنه ضروري الحدوث كشرط للردع ٠ غير أنه لا يستبعد أن يحدث تدميرا كبيرا في حالة الالتجاء اليه ، فاذا لم يتسن لك الاجهاز عليه ، فلا أقل « من أن تمزق أحد ذراعي الدب » كرد على الهجـوم السوفيتي ، ويرى الفرنسيون أن هذا القدر من التهديد مستصوب ٠

وليس عند الألمان أسلحة نووية ، ولا حتى أية سيطرة على جزء من الترسانة النووية التي خطرت ببال « م٠ل٠ف» ، ووضعت تحت تصرف الرئيس الأمريكي ، ولعلهم لا يرغبون أن تمس أصابعهم فتيل تشغيل أية معدة نووية ، وربمـا كان أقصى ما يتمنونه هو التيقن من عدم الاكتفاء باقصائهم الى دور المتفرجين في الحلف ، بلا رأى فيما يتقرر من سياسات، وقد لاحظ أحد دارسي سياسة الناتو أن كلمة « كونترول » في الانجليزية تعني الاستحواذ المادي ، أما الكلمة الفرنسية المرادفة فتدل على التخطيط والسيطرة السياسية ، ولربما كان ما يريده الألمان هو المفهوم الثاني ، وليس الأول ، ولقد اعتمده مجلسا التخطيط النووي للحلف ، والذي ظهر للوجود اثر مبـادرة من الولايات المتحدة بعـد التخلي عن فكرة المشاركة ٠

بيد أنه ليس من بين هذه التفسيرات المتعلقة باستمرار بقاء الناتو في شكله الأصلي ، أي تفسير مقبول ، اذا راعينا ما ساد من فزع في بداية الستينات٠فلو بدت قوات الناتو صفقة أفضل عند الاتحاد السوفيتي أو أوربا الشرقية بعد انتهاء الستينات ، فان الحكومة الأمريكية لم تشعر البتة بأي ميل حتى لوصفها بالصفقة ، أو ما هو أكثر من ذلك ، ولم يكن لدى الألمان أيضا أي شعور بالثقة في امكان نهوض الترسـانة النووية الفرنسية ـ مهما كانت قوتها ـ بحمايتهم ٠ فاذا سلمنا بعدم احتمال أن تخاطر نيويورك في سبيل انقاذ باريس ، فهل هناك ما يدفع الفرنسيين لتعريض باريس للخطر لانقاذ هامبورج ؟ ، وأدى منطق النظرة الفرنسية في الردع الى ظهور ترسانة نووية ألمانية قوية ؟

ويتقابل زعماء الحكومتين الأمريكيـة والسوفيتية بين الفينـة والأخرى ، وتوصلت الدولتان الى اتفاقات لا بأس بها تحد من التسلح

النووى . كمعاهدة الحد من اجراء التجارب ١٩٦٣ ومعاهدة الحد من تفشى الأسلحة النووية ١٩٦٨ ، ومعاهدة التبادل الاستراتيجى للأسلحة ١٩٧٢ و ١٩٧٩ . وتدفق سيل من المبادلات العلمية والثقافية . وفى أوربا ، توطدت مكانة ألمانيا بعد توقيع سلسلة من الاتفاقيات ١٩٦٩ ، وعندما عقد بهلنسكى مؤتمر الأمن أو التعاون فى أوربا ١٩٧٥ ، انتهى الأمر بعقد معاهدة للسلام فى أوربا تأخرت عن موعدها ثلاثين سنة . اذ كان المفروض أن توقع فور انتهاء الحرب العالمية الثانية .

ويتوقف أمن الدولة على أركان ثلاثة : أولا ــ قدراتهــا ونيــات الآخرين ، ثانيا ــ قوتها العســكرية ، ثالثا ــ منجزاتها الدبلوماسية ، ويصح القول بأن الناتو ركزت على الركن الثانى أكثر من تركيزها على الركن الأول . غير أن هذا التفسير لايعد كافيا تماما ، لأنه عكس الترتيب الصحيح للحقائق . اذ يعتبر « الانفراج السياسى » (*) وتحسن العلاقات السياسية بين الناتو وحلف وارسو ثمرة لاستقرار الأوضاع العالمية ، أكثر من كونه سببا من أسبابه ، فبعد أن شــعر الألمان والأوربيــون والأمريكان بالأمان ، لم يعد هناك حائل يحول دون سعيهم للتوافق مع البلدان الشيوعية .

ولعل الســلام قد ساد أوربا لأنه لم يجر فى خلد السوفيت قط الاعتــداء عليه ، وان كان من غــير المقدور معرفة نوايا السوفيت خــلال الحرب الباردة ما لم يوجد دليل دامغ على ذلك ، ومن الصحيح يقينا أن حكومة الســوفيت قد انشغلت فى الســنوات التالية مبــاشرة للحرب بعمليات تعمير بلادها ، واحكام قبضتها على أوربا الشرقية ، ومن الصحيح أيضا أنه لو قدر حدوث غزو لأوربا الغربية ، فان الكتلة السوفيتية كانت ستكتشف صعوبة ابتلاعها وهضمها .. كمــا أنه بغير بعض الكوابح العسكرية ، سيصعب تخيل كيف كان السوفيت سيهتدون الى طريقة ما لفرض نفوذهم ، بل وسيطرتهم على دول الناتو . ان هذه الناحية ــ بوجه خاص ــ من الملامح المألوفة فى السياسة الدولية ، وتمثل الأسلوب الذى اعتادت القوى العظمى اتباعه .. ولعل من بين قواعد العلاقات الدولية كراهية البلدان الكبرى وجود أى فراغ فى القوة ، ولا أعنى بذلك القول انه لم توجد ميول جدية عند السوفيت للغزو أو حتى للاستعباد الســياسى لأوربا الغربية ، أو معاملتها نفس المعــاملة التى عوملت بهــا فنلندة ، وبعبــارة أخــرى ، فانه فى حالة غيــاب أى شــكل من أشكال الردع ، لن يستبعد ظهور مثل هذا الميل .

(*) Detente.

ومن المبررات الفائقة الدلالة التى تفسر لماذا حافظ حلف الأطلنطى على سلامته رغم الاقتناع بعدم امكان حدوث ذلك ، ان بدائله بدت بعيدة تماما عن استهواء الأعضاء ، فلقد أيد الأوربيون سياسة تزويد قوى الحلف غير النووية ببعض اللوازم الجوهرية ، وان كانوا قد رفضوا تأييد سياسة « الرد المرن » ، واعترض الأمريكان على وجود قوى نووية قومية ، كما أن الابتعاد الأشد صرامة عن الاشتراك في ترتيبات الحلف قد اتضح أنها أقل جدوى • فلم يظهر عند الأوربيين أى ميـــل للتحول من الكتلة الأمريكية الى الكتلة السوفيتية ، ولم يكن بمقدورهم توقع اتخاذ موقف مائع بين الكتلتين ، وتجنب الوقوع فى براثن النفوذ السوفيتى ، ودون أن تتوافر لهم قوى عسكرية لها وزنها ، كان باستطاعتهم انشاؤها • فبوسع أية قوة عسكرية أوربية متعددة الجنسيات الحصول على ما يلزمها من مال وعتاد بمعدل أكبر ومن تكنولوجية أعظم مما لدى الولايات المتحدة أو الاتحاد السوفيتى • غير أن مثل هذه القوة ، وبخاصة اذا راعينا أنها ستكون نووية ربما أثارت ذات المشكلة التى أثارها م٠ا٠م يعنى مشكلة من يشعل الفتيل • فقد يؤدى استبعاد الولايات المتحدة الى تصعيب حل هذه المشكلة • ولابد من وجود دعامة ترتكز عليها هذه القوة الأوربيـــة الكبرى ، ومن ثم سيتوجب أن يكون انشاؤها مسبوقا ببعض اجراءات الوحدة السياسية ، ولعلنا نذكر أنه منذ ١٩٤٥ كانت الوحدة الأوربية حلما وأملا يعاود الظهور من حين لآخر ، ولكنها لم تكن حقيقة واقعة ، فلقد « تشبث » الأوربيون بالولايات المتحدة ، استنادا الى « مبررات سليمة وأيضـــا الى مبررات غير سليمة ، وفى أوقات الشـــدة وأوقات الانفراج » • وربما رجع ذلك الى عدم وجود بديل آخر يجتذبهم •

وهناك موقف مماثل لذلك فى نظام تبادل العملة • فلقد احتـــل الدولار الصدارة ، مما دفع الولايات المتحدة لعقــد مؤتمر بريتون وودز ١٩٤٤ ، عندما كانت تتأهب لانتشاء قوتها النووية التى جاء التأثير فى أعقابها • وأدى نمو اقتصاديات البلدان الأخرى والضيق الاقتصادى الذى حل بامريكا الى تزعزع قيمة الدولار بالنسبة للعملات الأخرى مما دعا الى التفكير فى اســـتحداث بديل للنظـــام النقدى • وأثبتت جميع الحلول البديلة الممكنة كصندوق النقد والعملة الأوربية الموحدة وجـــود عيوب يصعب حلها ، ومن ثم ظل الدولار فى صورته المتواضعة محورا للنظـــام النقدى باعتباره الدعامة الأساسية للاحتياطى الدولى ، وأكثر سبل التعامل شعبية فى السوق الدولية •

ولابد من التأكيد مرة أخرى أن عدم وجـــود بديل جذاب للتناتو لا يعد تفسيرا مقبولا لاستمرار بقائه ، فلم تنجح الحرب العالمية الثانية فى

إطفاء جذوة الرغبة في الاستقلال القومي في أوربا الغربية . ولو اقتنعت هذه الدول بأن سلامتها وتكاملها السياسي سيعتمدان على حلف الناتو لما كان من المستبعد أن يضحوا في سبيل ذلك بانشاء ترسانة نووية تضم جميع الدول الأوربية ، أو انشاء عدة ترسانات نووية منفصلة ، أو انشاء قوة غير نووية للحلف ، ولكنهم لم يرتضوا ذلك . فلماذا لم يتغير الوضع الراهن (*) في أوربا ؟ لايخفى أنه لا يوجد رد واحد لهذا السؤال ، وان كان هناك سبب أوحد ، وهو استمرار بقاء ترتيبات الردع المبدئية للناتو ضد السوفيت التي اتبعت خلال الستينات والسبعينات .

ولقد تحملت أزمتا برلين وكوبا على التوالي وزر تصلب الناتو ، فعندما حدثت هاتان الأزمتان ، تصاعد احساس أوربا الغربية بالخطر ، ولم يحل وجود القوة النووية الأمريكية دون تحدى السوفيت للحلف في عقر داره ، أى في قلب أوروبا ، أو تحديهم لأمريكا عندما كانوا مرابطين على بعد مائة كيلو متر من سواحل الولايات المتحدة ، على أن تحدى السوفيت رد على أعقابه في الحالتين ، فظلت برلين مدينة حرة وسط مجال النفوذ السوفيتي ، وأزيلت الصواريخ متوسطة المدى المقامة في كوبا ، والتي كانت قادرة على حمل رؤوس نووية لضرب أهداف في الولايات المتحدة . وفي كلا الحالين ، هددت الولايات المتحدة صراحة بالالتجاء الى القوة النووية،غير أن الأزمتين تم حلهما لصالح الوضع الراهن، الذى كانت الولايات المتحدة تسعى للحفاظ عليه . ولم يعقب هذين الحادثين أزمات مماثلة في خطورتيهما .

وتزودنا حتى سياسة ديجول الخارجية بما يؤيد الظن بأن قدرة الناتو على الردع قد ظلت قوية ، وان كانت ــ في الحق ــ ناحية الردع النووى قد بدت ثانوية الاهمية في سياسته الخارجية ، التي جعلت الأولوية لتأكيد استقلال فرنسا ، وتعظيم نفوذها في العالم . وكان باستطاعة ديجول اعتبار السياسة النووية مسألة نووية لأنه كان واثقا من قدرة الترتيبات النووية للحلف على ردع الاتحاد السوفيتي ، بالرغم من نزوعه للارتياب في هذه الترتيبات كمبرر لانشاء برنامج فرنسى للتسلح النووى ، ولعل ما دفعه للانسحاب ــ شكليا ــ من الحلف هو ادراكه أنه سيظل ينعم بحماية هذه الترتيبات .

وبمقدار تصدى الناتو لقدرة الاتحاد السوفيتي على شن هجمات نووية على الولايات المتحدة ، أثبت الأوربيون والأمريكان أنهم أصابوا

(*) Status quo.

ـ جزئيا ـ كما أخطأوا جزئيا ، فقد أصابت الولايات المتحدة عندما ظنت أن الأسلحة النووية الخاضعة للأمريكان وحدهم تكفى ، ولكنها أخطأت عندما أصرت على الاعتقاد بضرورة القوات الدفاعية الأكثر تنوعا • ولقد أصاب الأوربيون عندما اعتقدوا أن الأسلحة النووية وحدها سترد السوفيت ، ولكنهم أخطأوا عندما رأوا وضعها تحت وصاية الأوربيين وتحت امرة الأمريكان أيضا •

وقد أثبتت الأيام صحة هذا الاعتقاد ، وان كانت هذه المسألة تحتمل المجادلة ، لأن القدرة النووية غير العادية قد أجهضت أى اغراء بالهجوم الذى ربما شجع عليه عدم التيقن من رد الأمريكان عليه بالمثل ، فلم يكن الأوربيون واثقين من احتمال تعريض نيويورك للخطر فى سبيل حماية باريس ، وان كان السوفيت لم يتمكنوا من التأكد من أنهم لن يفعلوا ذلك • لقد أدت الثورة النووية الى جعل «اللايقين» حجة للاحجام ، على حد قول المفكر الفرنسى ريمون آرون : عندما يعجز أى شخص عن قياس المعدل الدقيق للقوة مسبقا من الناحية الزمنية سيحدث اغراء بالمخاطرة ، التى تتمتع بميزة عدم امكان التكهن بوقوعها • والآن وبعد أن أصبح عدم الامكان التكهن يجر فى ذيله المصير المهلك لعشرات الملايين ، لذا اضطر أكثر الزعماء ولعا بالمقامرة الى التريث ومراعاة الحذر قبل الاقدام على خطوة من هذا القبيل ، وكما بين أحد الباحثين فى السياسة الأوربية فى أعقاب الحرب : « ان ما ترتب على ذلك هو أنه ربما افتقرت المذاهب المتعاقبة للدقة الذهنية ، التى رآها الخبراء ضرورية ، كما أن مستويات القوة والقدرة على استخدامها قد هبطت عادة عن المستوى الذى يخطر لأى تصور ، غير أن الروس قد أثبتوا أنهم أكثر تبصرا وتدبرا فى كشفهم لكوامن النقص فى المخططات الحربية للحلف ، ويعنى تصور السوفيت على هذا النحو انتصار المفهومية الدارجة (*) على المنطق ، ولقد أشار وزير الدفاع البريطانى السابق : دينيس هيلى الى أن ردع العدو يمكن أن يتحقق اذا كان احتمال النجاح ١٪ فى حالة الرد عليه باستعمال الأسلحة النووية ، وان كان هذا الرأى قد لايقنع أى صديق،وتفسر ملحوظة الوزير جانبا كبيرا من تاريخ حلف الأطلسى •

ان هذا ينقلنا الى آخر تأثير للأسلحة النووية على الأحلاف•فلما كانت الأسلحة النووية الأمريكية قد أفلحت فى ردع الاتحاد السوفيتى ، فانها يسرت للمخطط الأصلى للناتو البقاء ، وأدى ذلك الى قمع النوازع القومية المألوفة للاستقلال فى المجال النووى ، وربما لم تختلف العلاقات بين

(*) Common sense.

جانبى الأطلسى (بين دول أوربا الغربية وأمريكا) فى كل المقومات اختلافا كبيرا عن الشكل الذى كانت ستتخذه لو أنه لم توجد أسلحة نووية ولا يستبعد فى مثل هذا الاحتمال أن تظل الولايات المتحدة والسوفيت يتمتعان بتفوقهما فى القوة على أية دولة أوربيا بمفردها ، وأن يستمر السوفيت فى اعتراضها على توحيد ألمانيا ، ولعلهم لن يرضوا عن أى اتحاد ألمانى من أى لون سياسى . أما الولايات المتحدة ، فانها لن تقبل آنئذ وجود ألمانيا خاضعة للسوفيت . ويبدو لنا تجميع الصفوف من أجل الحرب الباردة ، عندما نتأمله الآن أمرا محتوما ، ولعل أوربا الغربية كانت ستبغى - يقينا - من وراء هذا الحشد الارتباط بالولايات المتحدة من أجل الأمن ، سواء تحقق ذلك عن طريق الترسانة النووية أو بدونها ، وبعبارة أخرى ، كان لا مناص من اعتماد الأوربيين على الولايات المتحدة لحمايتهم ، وبخاصة فى الحقبة الباكرة التالية للحرب ، وربما لم يتخذ اعتمادهم نفس الصورة .

ويعرض النظام النقدى الدولى أيضا مثلا شبيها ذا دلالة . ففى نهاية الحرب العالمية الثانية ، تعرضت اقتصاديات البلدان الأوربية للخراب . ولم يقتصر الأمر على تفوق الدولار . اذ كانت السياسة الاقتصادية الأمريكية تتحكم فى السياسة الاقتصادية للدول الأوربية ، ولما استرد الأوربيون عافيتهم ، وانتعش اقتصادهم ، حصلوا على قدر من الاستقلال الاقتصادى ، وليس بين هذه الدول مكافىء من الناحية الاقتصادية ، ولا وجود لبديل للدولار . واستمرت الولايات المتحدة أقوى بلد ينفرد بالرأى فى سياسة الاقتصاد الدولى . بيد أن الأوربيين واليابانيين قد أصبحوا ينعمون بقدر من النفوذ الاقتصادى ،وحدث تحول ملحوظ فى التوازن والتأثير والمبادرة فى العلاقة الاقتصادية بين أوربا وأمريكا ابان السنوات الثلاثين الماضية ، وفيما يتعلق بالأمن ، فلقد استطاعت الأسلحة النووية ترسيخ التوازن بين أوربا وأمريكا الذى كان مختلا ١٩٨٠ ، مثلما كان ١٩٤٩ .

ويتساوى القول بأنه مازال مختلا مع القول بحدوث انقلاب فى الأوضاع على نحو عجيب ، اذ كان توزيع القوى النووية داخل الناتو عند انشائه نتيجة للضعف الأوربى ، وأصبح الآن نتيجة لهذا الضعف ، ففى البداية ، لم يكن بمقدور الأوربيين انشاء ترسانة نووية اعتمادا على أنفسهم . والآن لم تعد لديهم الرغبة فى ذلك ، بعد أن تفاقمت شدة الاحتياج للردع النووى ، وفى ١٩٤٩ ، نهضت الولايات المتحدة بمهمة التامين ضد الهجمات النووية ، لأن أوربا كانت ضعيفة . أما الآن فقد أصبح الأوربيون ضعفاء لاعتمادهم على التأمين النووى لأمريكا .

المراجـــع

C. D. Black and G. Duffy eds., International Arms Control Issues and Agreements (1985).

B. Bottome, The Balance of Terror : Nuclear Weapons and the Illusion of Security (1945-1985). 1986.

G. Brewer and M. Shubik, The War Game : A Critique of Military Problem Solving 1979.

L. T. Caldwell and W. Diebold Jr. Soviet American Relation in the 1980's : Superpower Politics and East-West Trade 1980.

A. W. Deporte, Europe between the Superpowers : The Enduring Balance (1979).

D. Holloway, The Soviet Union and the Arms Race (1985).

W. W. Kulski, DeGaule and the world : The Foreign Policy of the French Republic (1968).

M. Mandelbaum, The Nuclear Future, 1983.

L. Martin ed. Strategic Thought in the Nuclear Age 1979.

S. E. Miller, Strategy and Nuclear Deferrence (1984).

اقرأ فى هذه السلسلة

الكتاب	المؤلف
احلام الاعلام وقصص أخرى	برتراند رسل
الالكترونيات والحياة الحديثة	ى • رادونسكايا
نقطة مقابل نقطة	الدس هكسلى
الجغرافيا فى مائة عام	ت • و • فريمان
الثقافة والمجتمع	رايموند وليامز
تاريخ العلم والتكنولوجيا (٢ ج)	ر • ج • فوربس
الأرض الغامضة	ليسترديل راى
الرواية الانجليزية	والتر الن
المرشد الى فن المسرح	لويس فارجاس
آلهة مصر	فرانسوا دوماس
الانسان المصرى على الشاشة	د• قدرى حفنى وآخرون
القاهرة مدينة الف ليلة وليلة	أوليج فولكف
الهوية القومية فى السينما العربية	هاشم النحاس
مجموعات النقود	ديفيد وليام ماكدوال
الموسيقى - تعبير نغمى - ومنطق	عزيز الشوان
عصر الرواية - مقال فى النوع الأدبى	د• محسن جاسم الموسوى
ديلان توماس	اشراف س• بى• كوكس
الانسان ذلك الانسان الفريد	جون لويس
الرواية الحديثة	بول ويست
المسرح المصرى المعاصر	د• عبد المعطى شعراوى
على محمود طه	أنور المعداوى
القوة النفسية للأهرام	بيل شول وادبيت
فن الترجمة	د• صفاء خلوصى
تولستوى	رالف ئى ماتلو
ستندال	فيكتور برومبير
رسائل وأحاديث من المنفى	فيكتور هوجو
الجزء والكل (محاورات فى مضمار الفيزياء الذرية)	فيرنر هيزنبرج
التراث الغامض ماركس والماركسيون	سدنى هوك
فن الأدب الروائى عند تولستوى	ف • ع • أدنيكوف
ادب الأطفال	هادى نعمان الهيتى
احمد حسن الزيات	د• نعمة رحيم العزاوى
اعلام العرب فى الكيمياء	د• فاضل أحمد الطائى

فكرة المسرح	فرنسيس فرجون
الجحيم	هنرى باربوس
صنع القرار السياسى	السيد عليوة
التطور الحضارى للانسان	جاكوب برونوفسكى
هل نستطيع تعليم الأخلاق للأطفال ؟	د٠ روجر ستروجان
تربية الدواجن	كاتى ثير
الموتى وعالمهم فى مصر القديمة	ا ٠ سبنسر
النحل والطب	د٠ ناعوم بيتروفيتش
سبع معارك فاصلة فى العصور الوسطى	جوزيف داهموس
سياسة الولايات المتحدة الأمريكية ازاء مصر ١٨٣٠ – ١٩١٤	د٠ لينوار تشامبرزرايت
كيف تعيش ٣٦٥ يوما فى السنة	د٠ جون شندلر
الصحافة	بيير آلبير
أثر الكوميديا الالهية لدانتى فى الفن التشكيلى	الدكتور غبريال وهبه
الأدب الروسى قبل الثورة البلشفية وبعدها	د٠ رمسيس عوض
حركة عدم الانحياز فى عالم متغير	د٠ محمد نعمان جلال
الفكر الأوروبى الحديث (٤ ج)	فرانكلين ل ٠ باومر
الفن التشكيلى المعاصر فى الوطن العربى ١٩٨٨٥ – ١٩٨٥	شوكت الربيعى
التنشئة الأسرية والأبناء الصغار	د٠ محيى الدين احمد حسين
نظريات الفيلم الكبرى	تاليف : ج٠ ج٠ دادلى أندرو
مختارات من الأدب القصصى	جوزيف كونراد
الحياة فى الكون كيف نشأت وأين توجد ؟	طائفة من العلماء الأمريكيين
حرب الفضاء	د٠ محمد أسعد عبد الرؤوف
ادارة الصراعات الدولية	د٠ السيد عليوة
الميكروكمبيوتر	د٠ مصطفى عنانى
مختارات من الأدب اليابانى	صبرى الفضل
تاريخ ملكية الأراضى فى مصر الحديثة	جابرييل باير
اعلام الفلسفة السياسية المعاصرة	انطونى دى كوسبنى وكينيث هينوج
كتابة السناريو للسينما	دوايت سوين
الزمن وقياسه	زافيلسكى ف٠س
أجهزة تكييف الهواء	ابراهيم القرضاوى

الخدمة الاجتماعية والانضباط الاجتماعى	بيتر رداى
سبعة مؤرخين فى العصور الوسطى	جوزيف داهموس
التجربة اليونانية	س ٠ م بورا
مراكز الصناعة فى مصر الاسلامية	د٠ عاصم محمد رزق
العلم والطلاب والمدارس	رونالد د٠ سمبسون
	و نورمان د٠ أندرسون
الشارع المصرى والفكر	د٠ أنور عبد الملك
حوار حول التنمية الاقتصادية	والت روستو
تبسيط الكيمياء	فرد ٠ س ٠ هيس
العادات والتقاليد المصرية	جون بوركهارت
التذوق السينمائى	آلان كاسبيار
التخطيط السياحى	سامى عبد المعطى
البذور الكونيـة	فريد هـويل
	شاندرا ويكراما ماسينيج
دراما الشاشة (٢ ج)	حسين حلمى المهندس
الهيروين والايدز	روى روبرتسون
صور افريقية	دوركاس ماكلينتوك
نجيب محفوظ على الشاشة	هاشـم النحـاس
الكمبيوتر فى مجالات الحياة	د٠ محمود سرى طه
المخدرات حقائق اجتماعية ونفسية	بيتـر لـورى
وظائف الأعضاء من الألف الى الياء	بوريس فيدروفيتش سيرجيف
الهندسة الوراثية	ويليـام بينـر
	ديفيـد الدرتون
كتب غيرت الفكر الانسانى	أحمد محمد الشنوانى
الفلسفة وقضايا العصر (٣ ج)	جمعها : جون ر٠ بورر
	وميلتون جولدينجر
الفكر التاريخى عند الاغريق	أرنولد توينبى
قضايا وملامح الفن التشكيلى	د٠ صالح رضـا
التغذية فى البلدان النامية	م٠هـ٠ كنج وآخرون
بداية بلا نهاية	جورج جاموف
الحرف والصناعات فى مصر الاسلامية	د٠ السيد طه أبو سديره
للكـــون	
حوار حول النظامين الرئيسيين	جاليليو جاليليه

العنوان	المؤلف
الارهـــاب	أربك موريس ، آلان هــو
اخنـــاتون	ســـيريل الدريد
القبيلة الثالثة عشرة	آرثر كيســتلر
التــوافق النفسى	توماس أ ٠ هاريس
الدليل البيليوجرافى	مجموعة من الباحثين
لغة الصـــورة	روى أرمز
الثورة الاصلاحية فى اليابان	ناجاى متشيو
العالم الثالث غدا	بول هاريسون
الانقراض الكبير	ميكائيل البى ، جيمس لفلوك
تاريخ النقــود	فيكتور مورجان
التحليل والتوزيع الأوركسترالى	اعداد محمد كمال اسماعيل
الشــاهنامة (٢ ج)	الفردوس الطوسى
الحياة الكريمة (٢ ج)	بيرتون بورتر
كتابة التاريخ فى مصر ق ١٩٠	جاك كرابس جونيور
قيام الدولة العثمانية	محمد فؤاد ، كوبريلى
العثمانيون فى أوربا	بول كونر
مختارات من الآداب الآسيوية	اختيار واعداد صبرى الفضل
التمثيل للسينما والتليفزيون	تونى بار
سقوط المطر	نادين جورديمر وآخرون
صــناع الخلود	موريس بيربراير
دليل تنظيم المتاحف	آدامز فيليب
كتب غيرت الفكر الانسانى (٣ ج)	أحمد الشــنوانى
الحملة الصليبية الأولى	جوناثان ريلى سميث
رواد الفلسفة الحديثة	ريتشارد شاخت
جماليات فن الاخراج	ريجمونت هبنر
الكنائس القبطية (٢ ج)	الفريد ٠ ج ٠ بتلر
ترانيم زرادشت	اعداد ٠ د٠ فيليب عطية
النقد السينمائى الأمريكى	ادوارد مرى
الاتصال والهيمنة الثقافية	هربرت شيلر
رحلات فارتيما	الحاج يونس المصرى
التاريخ من شتى جوانبه ٣ ج	ستيفن أوزمنت
مصر الرومانية	نفتالى لويس
السينما العربية	اعداد : مونى براح
السينما الخيالية	بيتر نيكوللز

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٨٩٦/١٩٩٤

ISBN — 977 — 01 — 3664 — [illegible]

صورة الغلاف تمثل تشامبرلين رئيس وزارة انجلترا عند استقباله لزعماء ألمانيا النازية وتصوره أنه قد نجح في تحقيق السلام وإبعاد شبح الحرب التي اشتعلت بعد شهور قليلة من تاريخ هذه الصورة.

صورة ظهر الغلاف تمثل القطار الشهير الذى وقعت فيه ألمانيا والحلفاء على معاهدة فرساى. وقد أصر هتلر عندما احتل باريس على توقيع فرنسا على استسلامها فى نفس هذا القطار.

هذا هو الجزء الثالث من كتاب التاريخ من شتى جوانبه ومن الموضوعات التى يتناولها

المواجهة السلطوية والدبلوماسية فى القرن العشرين

كيف ظهر تالية شخصية ستالين

الناتو .. التحالف.. النووى

اضطرابات عمال بتروجراد فى الحرب العالمية الأولى

٤٠٠ قرش

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب